من الأدب العبري الفلسطيني المقارن

إعداد

د/جلال السيد جلال: كلية الآداب بقنا، جامعة جنوب الوادي، قسم اللغة العبرية وآدابها، الفرقة الرابعة، الفصل الدراسي الأول، الطبعة الأولى، ٢٠٢٢م.

بيانات المقرر

الرمز الكودي : عبر ٤١٤	اسم المقرر : الأدب العبري المقارن	الفرقة: الرابعة
الفصل الدراسي:الأول	التخصص : الأدب العبري المقارن	عدد الوحدات الدراسية : ٤ نظري

أهداف المقرر

٢- أهداف المقرر	من المستهدف بانتهاء المقرر الدراسي أن يستطيع الطالب تحقيق الأهداف التالية: أ- يستوعب المعارف والمفاهيم الأساسية في مجال الأدب المقارن. يتبع مناهج التفكير والأسلوب العلمي المناسب في تحليل مضامين مقتطفات من نماذج مقارنة من الأدب العبري الفلسطيني المقارن. يدرك أهم مظاهر التأثير والتأثر بين الأدبين العبري والفلسطيني.

إرشادات عامة

عزيزي الطالب:
انتظم في مجموعتك وتأكّد من تواصلك الدائم مع أعضائها.
تنتخب كل مجموعة قائدًا لها وتحدد له مهامه.
داوم على النقاش مع أعضاء المجموعة وبقية المجموعات.
تواصل بشكل دوري مع أستاذ المقرر ومعاونه.

غير مسموح بتداول هذا الكتاب بأي شكل من الأشكال.

الفهرست

مقدمة: الأدب المقارن مدخل نظري

الفصل الأول: الروايات الأربع ومؤلفوها

الفصل الثاني: الهُوية الوطنية

الفصل الثالث: الهُوية الاجتماعية

خاتمة

قائمة المراجع والمصادر

قائمة المصادر و المراجع العبرية و العربية و المعربة و الأوربية :

أولا : المصادر :

أ – المصادر العبرية :

1 – ספר תורה נביאים וכתובים , מדויק היטב על פי המסורה , הוגה בעיון נמרץ על ידי החכם המובהק מאיר הלוי לעטערים , לונדון , על ידי חברת מפיקי כתבי הקדש בבריטניא ובשאר הארצות ,1944 .

2 - מנוחה נכונה ,הוצאת ספרים עם עובד, בע"ם תל אביב , 1983 .

3 - חסות , הוצאת עם עובד , תל אביב , הדפסה שביעית , 1985 .

ب – المصادر العربية :

١ - البحث عن وليد مسعود ، دار الآداب ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٩٩٠ م .

٢ - الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل ، دار الهلال ، العدد (٥٩٣) مايو ١٩٩٨ ، محرم ١٤١٩ هـ ، سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي .

ثانيا : المراجع العبرية :

أ - الكتب

אברהם ב . יהושע :

1 - הקיר ו ההר מציאותו הלא - ספרותית של הסופר בישראל , זמורה - ביתן מוצאים לאור , נדפס בישראל , תשמ " ט , 1989 .

אור ציון ברתנא :

2 - שמונים ספרות ישראלית בעשור האחרון , הוצאת ספרים , אגודת הסופרים העברים בישראל , נדפס בישראל , 1993 .

אלוף הראבן :

3 - ישראל לקראת המאה ה - 21 חזון ו יעדים , פרסומי מוסד ון ליר בירושלים סידרת דיונים , דפוס " דף חן " בע "ם , ירושלים 1984.

אלי רכס :

4 - המיעוט הערבי בישראל : בין קומוניזם ללאומיות ערבית 1965 – 1991 , הוצאת הקיבוץ המאוחד , ת " א , 1993 .

אסיה רמברג :

5 - עדה מושביץ – הערבים אזרחי ישראל . יחסי גומלין בישראל בין יהודים ו ערבים . פרקים באזרחות , מהדורת בינ " ם , מוסד ון ליר בירושלים , 1984 .

אפרים יער (פרופ') , זאב שביט :

6 – מגמות בחברה הישראלית , בית ההוצאה לאור של האוניברסיטה הפתוחה , מהדורת תשס " א , 2001 .

גרשון שקד :

7 - גל אחר גל בסיפורת העברית , הוצאת לאור כתר , תל - אביב , 1985 .

8 - גל חדש בסיפורת העברית , הוצאת ספרית פועלים, תל אביב , 1974 .

9 - הסיפורת העברית 1880- 1980. ד . בחבלי הזמן הריאליזם הישראלי 1938 – 1980 , הוצאת הקיבוץ המאוחד , בית הוצאת כתר .

10 - ספרות אז כאן ו עכשיו , הוצא לאור זמורה - ביתן , תל אביב , 1993 .

דניאל ברטל (ד" ר) :

11 - לחיות עם הסכסוס – ניתוח פסיכולוגי – חברתי של החברה היהודית בישראל , הוצאת כרמל , 2007 .

יוסף אורן :

12 - ההתפכחות בסיפורת הישראלית , הוצאת יחד - תל אביב .

13 - העט כשופר פוליטי. עשר מסות על הרומאן הפוליטי ו על הרומאן האידיאי בסיפורת הישראלית , הוצאת " יחד " , 1992 .

14 - זהויות בסיפורת הישראלית , הוצאת " יחד " ,1994 .
15 - שבבים , הוצאת יחדיו בשתוף אגודת הסופרים , 1987 .
מרים וינברגר :
16 -בגרות בספרות : סיפורת, מחזות ו מאמרים, תל אביב, אור – עם , 1996 .
נורית גרץ :
17 - חירבת חיזעה ו הבקורת של מחר , הוצאת הקיבוץ המאוחד , 1983
שולמית שמידט :
18 - תשע בספרות . עיונים בתשע יצירות בסיפורת העברית החדשה לבחינות הבגרות , הוצא לאור קשת , תל - אביב , 1989 .
שמואל אטינגר :
19 - תולדות ישראל בעת החדשה , הוצאת חברת דביר , תל - אביב , 1969 .
שמואל נח אייזנשטדט :
20 - תמורות בחברה הישראלית , משרד הביטחון ההוצאה לאור , הודפס בישראל , 2004 .
שמעון הרמן :
21 - זהות יהודית מבט פסיכולוגי - חברתי , הספריה הציונית על יד ההסתדרות הציונית העולמית , בשיתוף עם ספרית פועלים ירושלים , תש"ם 1979 .

ב- <u>הדוריות :</u>
1 - אלפיים :
כתב עת רב־תחומי לעיון , הגות ו ספרות , הוצאת ספרים עם עובד בע"מ ,תל אביב ,נדפס בתשנ"ח בדפוס הוברמן תל אביב , 1998 .קובץ 16 .
2 - זהות :
כתב עת ליצירה יהודית , עורך ראשי : נפתלי טוקר , הוצאת אגודת זהות , קיץ 1982
3 - **מפנה :**
כתב עת לעניני חברה , יוצא לאור ארבע פעמים בשנה , ע " י יד טבנקין ו יד יערי , מאי 2008 .

ג – <u>המעגם :</u>
אברהם אבן שושן :
1 - המלון החדש בשמונה כרכים , הוצאת קרית - ספר , בע " ם , ירושלים , כרך שני : ה – ט 1983.

2 – יהודה גור : מלון עברי , הוצאת דביר , תל אביב , הדפסה י " א : תשכ" ו .

<u>د – المواقع الإلكترونية :</u>

1 - www.hagada.org.il.
2 - http://www.idi.org.il. המכון הישראלי לדמוקרטיה
3 - http://www.haaretz.co.il
4 - http://www.hofesh.org.il.
5 - http://lib.cet.ac.il
6 - http://www.adva.org
7 - http://www.kedma.co.il
8 - http://library.osu.edu.
9 - http://almash-hadmadarcenter.org
10 – http://www.ynet.co.il
11 – http://www.kibbutz.org.il.
12 – http://he.bukisa.com.

<u>ثالثا : المصادر و المراجع العربية و المعربة :</u>

أ – الكتب :

إبراهيم إبراش (دكتور) :

١ - البعد القومي للقضية الفلسطينية. فلسطين بين القومية العربية والوطنية الفلسطينية، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة أطروحات الدكتوراة (١٠) ،الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٨٧.

إبراهيم البحراوي (دكتور) :

٢ - الأدب الصهيوني بين حربين حزيران ١٩٦٧– تشرين ١٩٧٣، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، يونيو ١٩٧٧ م .

إبراهيم السعافين :

٣ - الأقنعة والمرايا، دراسة في فن جبرا إبراهيم جبرا الروائي، الطبعة الأولى ، دار الشروق ، عمان ، الأردن ، ١٩٩٦ م .

إبراهيم عبد الكريم :

٤ - الاستشراق وأبحاث الصراع لدى إسرائيل، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية ، عمان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣ م .

أحمد الديك (دكتور) :

٥ - مجتمع الانتفاضة ، دار الآداب ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م .

أحمد سوسة :

٦ - ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق ، سلسلة دراسات فلسطينية (١٢) بغداد، ١٩٨٧م .

أحمد عطية أبو مطر :

٧ - الرواية في الأدب الفلسطيني (١٩٥٠م – ١٩٧٥م)، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، بدون طبعة ، ١٩٨٠ م .

أحمد مصطفى جابر :

٨ - اليهود الشرقيون في إسرائيل: جدل الضحية والجلاد ، مركز الإمارات للدراسات و البحوث الاستراتيجية ، العدد (٩٢) – الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤م .

أسعد عبد الرحمن (دكتور) :

٩ - أبرز معالم المقاومة الفلسطينية منذ عام ١٩٤٨، كتاب العربي، الفلسطينيون من الاقتلاع إلى المقاومة ، الكتاب التاسع عشر ، سلسلة فصلية تصدرها مجلة العربي ، ١٥ إبريل ١٩٨٨م.

أفيفا أفيف (دكتور) :

١٠ - المجتمع الإسرائيلي ، ترجمة و تعليق : د / محمد أحمد صالح ، مراجعة: د/محمد محمود أبو غدير ، سلسلة الدراسات الدينية و التاريخية ، العدد (٦) ، مركز الدراسات الشرقية ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٨ م .

ألوف هرئفين :

١١- هل يوجد حل للقضية الفلسطينية ؟ مواقف إسرائيلية ، ترجمة : غازى السعدى ، دار الجليل للنشر – عمان ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣ م .

إلياس شوفاني :

١٢ - الموجز في تاريخ فلسطين السياسي (منذ فجر التاريخ حتى سنة ١٩٤٩)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦ م .

إلياس صنبر :

١٣ - فلسطينيو ١٩٤٨ التغييب ، ترجمة : كاظم جهاد ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧ م .

أمارتيا صن :

١٤ - الهوية والعنف : وهم المصير الحتمي ، ترجمة سحر توفيق ، عالم المعرفة ، العدد ٣٥٢ ، يونيو ٢٠٠٨ م .

أمين معلوف :
١٦ - الهويات القاتلة قراءات في الانتماء و العولمة ، ترجمة: د/نبيل محسن ، ورد للطباعة و النشر و التوزيع ، سورية – دمشق ، بدون طبعة ، بدون تاريخ .
أنيتا شابيرا (دكتور) :
١٧ - الصهيونية الدينية مدخل تاريخي ، ترجمة : د / محمد محمود أبو غدير ، سلسلة الدراسات الدينية و التاريخية العدد (٣) ، مركز الدراسات الشرقية ، القاهرة ١٩٩٨ م .
إيليا زريق :
١٨ - الفلسطينيون في إسرائيل ، جمهورية مصر العربية ، الهيئة العامة للاستعلامات ، كتب مترجمة (٧٤٦) ، بدون طبعة ، بدون تاريخ .
إيمانويل هيمان :
١٩ - الأصولية اليهودية ، ترجمة : سعيد الطويل ، مراجعة د / جمال الرفاعي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٨ م .
إيهود بن عيزر :
٢٠ - صورة العربي في الأدب العبري في وطن الأشواق المتناقضة – قصص مختارة - ، ترجمة : د / أحمد حماد ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الحمراء للطباعة و النشر و التوثيق و التوزيع ، ٢٠٠١ م .
بسام قطوس (دكتور) :
٢١ - مقاربات نصية في الأدب الفلسطيني الحديث ، دار الشروق للنشر و التوزيع ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠ م .
بهاء فاروق :
٢٢ - فلسطين بالخرائط و الوثائق ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، بدون طبعة ، ٢٠٠٢ م .
بوعز عفرون :
٢٣ - الحساب القومي ، ترجمة و دراسة د / محمد محمود أبو غدير ، مطبعة جامعة القاهرة و الكتاب الجامعي ، القاهرة ، ١٩٩٥ م .
تهاني عبد الفتاح شاكر :
٢٤ - السيرة الذاتية في الأدب العربي : فدوى طوقان و جبرا إبراهيم جبرا و إحسان عباس ، نموذجا ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢ م .
تيسير جبارة (دكتور) :
٢٥ - تاريخ فلسطين ، دار الشرق للنشر و التوزيع ، عمان الأردن ، الطبعة الأولى ، سبتمبر ١٩٩٨ م .
جاد الكريم الجباعي :
٢٦ - حرية الآخر – نحو رؤية ديمقراطية للمسألة القومية ، دار حوران للدراسات و الترجمة و الطباعة و النشر و التوزيع ، سوريا – دمشق ، سلسلة دراسات معاصرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٥م .
جان فرانسوا بايار :
٢٧ - أوهام الهوية ، ترجمة : حليم طوسون ، دار العالم الثالث بالتعاون مع المركز الفرنسي للثقافة و التعاون العلمي بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٨ م .
جبرا إبراهيم جبرا :
٢٨ - البئر الأولى ، فصول من سيرة ذاتية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٣ م .

جرشون شاكيد و دافيد سجيف :
٢٩ - أنثولوجيا وجه آخر . قصص عبرية مختارة ، دار الجليل للنشر و الدراسات والأبحاث الفلسطينية ، بالتعاون مع معهد ترجمة الأدب العبري ، و معهد فان لير في القدس ، عمان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٨ م .
جمعية الخريجين :
٣٠ - القضية الفلسطينية في أربعين عاما بين ضراوة الواقع و طموحات المستقبل ، بحوث و مناقشات الندوة الفكرية التي نظمتها جمعية الخريجين في الكويت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة الأولى ، سبتمبر ، ١٩٨٩ م .
جمال عبد السميع الشاذلي و نجلاء رأفت سالم (دكتور) :
٣١ - القصة العبرية الحديثة مراحلها و قضاياها ، بدون طبعة ، القاهرة ، ٢٠٠٤ م .
جون جوزيف :
٣٢ - اللغة و الهوية . قومية – إثنية – دينية ، ترجمة : د / عبد النور خراقي ، عالم المعرفة ، ٣٤٢ ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ، ٢٠٠٧ م .
جيلا رامراز – رايوخ :
٣٣ - العربي في الأدب الإسرائيلي ، ترجمة : نادية سليمان حافظ – إيهاب صلاح محمد فايق ، مراجعة و تقديم : د / إبراهيم البحراوي ، المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٣٩ ، المشروع القومي للترجمة ، بدون طبعة ، ٢٠٠٠ م .
حاييم دارين درابكين :
٣٤ - الكيبوتس . واقعه الاجتماعي و الاقتصادي ، ترجمة : محمود عباس ، مكتبة الدراسات الآسيوية و العربية ، مطبعة دوكمة ، القدس ، ١٩٧٤ م .
حسن حنفي (دكتور) :
٣٥ - الدين و الثقافة و السياسة في الوطن العربي ، دار قباء للطباعة و النشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٨ م .
حسين كامل بهاء الدين (دكتور) :
٣٦ - الوطنية في عالم بلا هوية : تحديات العولمة ، دار المعارف ، القاهرة ، ٢٠٠٠ م
حليم بركات :
٣٧ - جبرا إبراهيم جبرا – الكاتب و الكتابة ، كتاب " القلق و تمجيد الحياة " كتاب تمجيد جبرا إبراهيم جبرا ، الطبعة الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، ١٩٩٥ م .
حمد سعيد الموعد :
٣٨ - الأبارتيد الصهيوني – دراسة ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠١ م
خليل شكري هياس :
٣٩ - سيرة جبرا الذاتية في البئر الأولى و شارع الأميرات ، دراسة ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠١ م .
ديفيد جيلمور :
٤٠ - المطرودون محنة فلسطين ، ترجمة : شاكر إبراهيم ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣ م .
دافيد داوننج :
٤١ - حرب بلا نهاية و سلام بلا أمل ، الهيئة العامة للاستعلامات ، القاهرة ، بدون طبعة ، ١٩٨٠ م .
رجاء النقاش :
٤٢ - محمود درويش شاعر الأرض المحتلة ، كتاب الهلال ، سلسلة ثقافية شهرية ، دار الهلال ، العدد (٢٢٠) ، ربيع الثاني ١٣٨٩ هـ - يوليه ١٩٦٩ م .

رشاد عبد الله الشامي (دكتور) :
٤٣ - إشكالية الهوية في إسرائيل ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب – الكويت ، ٢٤٤ ، شهرية ، ربيع الأول ١٤١٨ هـ - أغسطس ١٩٩٧ م .
٤٤ - الحروب و الدين في الواقع السياسي الإسرائيلي (١٩٦٧ – ٢٠٠٠) ، الدار الثقافية للنشر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .
٤٥ - الشخصية اليهودية الإسرائيلية و الروح العدوانية ، مكتبة سعيد رأفت ، جامعة عين شمس ، بدون طبعة ، بدون تاريخ .
٤٦ - عجز النصر ، الأدب الإسرائيلي و حرب ١٩٦٧ ، دار الفكر للدراسات و النشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٩٠ م .
رفيق حبيب مطلق :
٤٧ - إسرائيل قبيل العدوان ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت ، ١٩٦٧ م .
ريزا دومب (دكتور) :
٤٨ - صورة العربي في الأدب اليهودي ١٩١١ – ١٩٤٨ ، ترجمة : عارف توفيق عطاري ، دار الجليل للنشر ، عمان ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥ م .
زبيدة محمد عطا (دكتور) :
٤٩ - اليهود في العالم العربي - دراسة تاريخية في قضايا الهوية – الاندماج – القدس، الجزء الأول ، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣ م .
زين العابدين محمود أبو خضرة (دكتور) :
٥٠ - جيل يبحث عن هوية دراسة في قصة جبل المكبر للكاتب الإسرائيلي "عاموس عوز" ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٥ م .
٥١ - قضايا المجتمع الإسرائيلي في القصة العبرية ، بدون طبعة ، ٢٠٠٦ .
سامي حكيم :
٥٢ - أمريكا و الصهيونية ، القاهرة ، بدون طبعة ، ١٩٦٧ .
سليمان حسين :
٥٣ - مضمرات النص و الخطاب ، دراسة في عالم جبرا إبراهيم جبرا الروائي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٩٩ م .
سمير أمين :
٥٤ - الأمة العربية – القومية و صراع الطبقات ، ترجمة : كميل قيصر داغر ، دار ابن رشيد للطباعة و النشر ، بيروت ، الطبقة الثالثة ، ١٩٧٨ م .
السيد ولد أباه (دكتور) و الأستاذ / منير شفيق :
٥٥ - مستقبل إسرائيل ، دار الفكر المعاصر ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، رجب ١٤٢٢هـ - أكتوبر ٢٠٠١ م .
السيد ياسين :
٥٦ - الأسطورة الصهيونية و الانتفاضة الفلسطينية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، بدون طبعة ، القاهرة ، ٢٠٠١ م .
شفيق الغبرا (دكتور) :
٥٧ - من الاقتلاع إلى الصراع من أجل البقاء ، كتاب العربي ، الفلسطينيون من الاقتلاع إلى المقاومة ، الكتاب التاسع عشر ، سلسلة فصلية تصدرها مجلة العربي ، ١٥ إبريل ١٩٨٨ م .
صابرين الزين :
٥٨ - هوية اللاجئين في ثقافتهم و لغتهم المحكية ، بحث مقارن ما بين الجيل الثاني والثالث للنكبة، مخيم الجلزون نموذجا ، بديل المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٧ م .

صبحي نبهاني :
٥٩ - البعد الإنساني في رواية النكبة ، دار الفكر للدراسات و النشر و التوزيع ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٩٠ م .
صبري جريس :
٦٠ - العرب في إسرائيل ، الجزء الأول ، دراسات فلسطينية (١٤) ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، يونيو ١٩٦٧ م .
٦١ - العرب في إسرائيل ، الجزء الثاني ، دراسات فلسطينية (٢١) ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، نوفمبر ١٩٦٧ .
صلاح العقاد (دكتور) :
٦٢ - قضية فلسطين المرحلة الحرجة (١٩٤٥ – ١٩٥٦)، جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العبرية العالية ، بدون طبعة ، ١٩٦٨ م .
ضياء الحاجري :
٦٣ - إسرائيل من الداخل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، بدون طبعة ، ٢٠٠٢ م .
عادل محمود رياض :
٦٤ - الفكر الإسرائيلي و حدود الدولة ، معهد البحوث و الدراسات العربية ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٩ م .
عادل مناع و عزمي بشارة (دكتور) :
٦٥ - دراسات في المجتمع الإسرائيلي ، مركز دراسات المجتمع العربي في إسرائيل ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٨ م .
عباس الجراري :
٦٦ - مكونات الهوية الثقافية المغربية ، كتاب : الهوية الثقافية للمغرب ، كتاب العلم ، السلسلة الجديدة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ م .
عبد الرحمن البرقوقي :
٦٧ - شرح ديوان المتنبي ، الجزء الرابع ، المكتبة التجارية الكبرى ، الطبعة الثانية مطبعة الاستقامة – القاهرة ، ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م .
عبد الرحمن محسن :
٦٨ - برنامج روايات عربية ، دولة قطر ، وزارة الإعلام و الثقافة ، إدارة الإذاعة ، إصدار إذاعة قطر ، ١٩٩٠ م .
عبد القادر ياسين :
٦٩ - مجتمع الانتفاضة الفلسطينية ، كتاب الأهالي رقم ٤١، سلسلة كتب شهرية تصدرها جريدة الأهالي ، حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي ، مصر ، مايو ١٩٩٢ م .
عبد الوهاب المسيري (دكتور) :
٧٠ - الأيديولوجية الصهيونية ، دراسة في علم اجتماع المعرفة ، عالم المعرفة ، الكويت ، العدد (٦٠ – ٦١) يونيو ١٩٨٨ م .
على إبراهيم عبده (دكتور) وخيرية قاسمية :
٧١ - يهود البلاد العربية ، دراسات فلسطينية ٨٢ ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، يونيو ١٩٧١ م .
علي بن محمد الشريف الجرجاني :
٧٢- كتاب التعريفات ، تحقيق : د / عبد المنعم الحفني ، دار الرشاد ، القاهرة ، ١٩٩١ م
عماد جاد (دكتور) :
٧٣ - من داخل إسرائيل . الآن و منذ نصف قرن . صراعات داخلية و طموحات خارجية ، تقديم جورج حبش ، ميريت للنشر و المعلومات ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢ م.

غانم مزعل :
٧٤ - الشخصية العربية في الأدب العبري الحديث ، (١٩٤٨ – ١٩٨٥) ، دار الجليل للنشر ، عمان ، ١٩٨٦ م .
فؤاد محمد شبل :
٧٥ - مشكلة اليهودية العالمية ، دراسة تحليلية لآراء المؤرخ العالمي : آرنولد توينبي ، المكتبة الثقافية ، العدد ٢٤١ ، الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر ، ١٩٧٠ م .
فيحاء قاسم عبد الهادي :
٧٦- نماذج المرأة/البطل في الرواية الفلسطينية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م.
فيصل دراج (دكتور) :
٧٧ - رواية جبرا إبراهيم جبرا فلسطيني الأحلام ، كتاب " القلق و تمجيد الحياة " كتاب تكريم جبرا إبراهيم جبرا ، الطبعة الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر١٩٩٥ م .
قدري حفني (دكتور) :
٧٨ - دراسة في الشخصية الإسرائيلية " الأشكنازيم " ، مركز بحوث الشرق الأوسط ، جامعة عين شمس ، مطبعة جامعة عين شمس ، ١٩٧٥ م .
ماجدة حمود (دكتور) :
٧٩ - نقاد فلسطينيون في الشتات ، بدون دار نشر ، الطبعة الأولى ، دمشق ، ١٩٩٨م
مأمون كيوان :
٨٠ - اليهود في الشرق الأوسط الخروج الأخير من الجيتو الجديد ، الأهلية للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦ م .
مايكل رايس :
٨١ - الوطن المغتصب إسرائيل في فلسطين و البحث عن الحل ، ترجمة: إبراهيم سلامة إبراهيم ، المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومي للترجمة ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ٢٠٠٣ م .
مجموعة باحثين :
٨٢ - العولمة و الهوية الثقافية ، سلسلة أبحاث المؤتمرات (٧) ، المجلس الأعلى للثقافة ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، ٢٠٠٤ م .
محمد أمارة (دكتور) :
٨٣ - اللغة و الهوية في إسرائيل ، إصدار المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية ، رام الله ، الإخراج و الطباعة مؤسسة الأيام ، رام الله ، فلسطين ، تشرين الثاني ، ٢٠٠٢ م .
مجموعة من الكتاب اليهود :
٨٤ - إسرائيل الثانية المشكلة السفاردية، ترجمة فؤاد جديد ، منشورات فلسطين المحتلة ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
محسن جاسم الموسوي (دكتور) :
٨٥ - الرواية العربية النشأة و التحول، دراسات أدبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٨م.
محسن محمد صالح (دكتور) :
٨٦ - فلسطين : دراسات منهجية في القضية الفلسطينية ، سلسلة دراسات فلسطينية (١) ، مركز الإعلام العربي ، الجيزة – مصر ، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م .
محمد حسن عبد الله (دكتور) :
٨٧ - الريف في الرواية العربية ، عالم المعرفة (١٤٣) ، ١٤١٠ هـ ربيع الآخر ، نوفمبر ١٩٨٩ م .
محمد خليفة حسن (دكتور) :
٨٨ - الحركة الصهيونية طبيعتها و علاقتها بالتراث الديني اليهودي ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ، ٢٠٠٢ م .

٨٩ -الشخصية الإسرائيلية دراسة في توجهات المجتمع الإسرائيلي نحو السلام، سلسلة الدراسات الدينية و التاريخية ، العدد (٢) ، مركز الدراسات الشرقية ، جامعة القاهرة ، بدون سنة طبع .

محمد رضا شرفي :

٩٠ - الشباب و أزمة الهوية ، ترجمة زهراء يكانه ، الطبعة الأولى ، دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع ، ٢٠٠٣ م .

محمد محمود أبو غدير (دكتور) :

٩١ - جذور في الهواء ، الدار العربية للنشر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢ م .

٩٢ - الشخصية الإسرائيلية بين العالمية و الخصوصية انعكاساتها داخليا و إقليميا ، سلسلة الدراسات الدينية و التاريخية العدد (٣٧) ، مركز الدراسات الشرقية ، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .

٩٣ - الصراع الديني العلماني داخل الجيش الإسرائيلي ، سلسلة الدراسات الدينية و التاريخية ، العدد (١٤) ، مركز الدراسات الشرقية ، القاهرة ، ٢٠٠٠ م .

محمود صميدة (دكتور) :

٩٤ - استراتيجية الأدب الصهيوني لإرهاب العرب، سلسلة نحن وهم (٢)، سلسلة ثقافية تصدرها مؤسسة الاتحاد للصحافة و النشر – أبو ظبي ، الطباعة مؤسسة دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٨٨م .

محمود غنايم :

٩٥ - المدار الصعب ، منشورات الكرمل ، حيفا ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٥.

مركز الإعلام الإسرائيلي :

٩٦ - حقائق عن إسرائيل ، بدون طبعة ، ١٩٩٤ م .

مركز زايد للتنسيق والمتابعة :

٩٧ - الطوائف اليهودية في الأقطار العربية ، أبو ظبى الإمارات العربية المتحدة ، ٢٠٠١ م .

مصطفى الحسينى و إسحق دويتشر :

٩٨ - حيرة عربي وحيرة يهودي ، كتاب الهلال ، العدد ٥٥٣ ، يناير ١٩٩٧ م .

مصطفى عبد الغني (دكتور) :

٩٩ -الاتجاه القومي في الرواية العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٥م.

المكتب السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين :

١٠٠ - الدولة المستقلة و السيادة الوطنية ، شركة التقدم العربي للصحافة و الطباعة والنشر ، بيروت ، الأوائل للنشر و التوزيع ، سورية ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١ م .

١٠١ - القبضة المثقوبة . نظرة على المفاوضات و الحركة الجماهيرية من مجيء نتياهو إلى برتوكول الخليل ، شركة التقدم العربي للصحافة و الطباعة و النشر ، بيروت ، الأوائل للنشر و التوزيع و الخدمات الطباعية ، سورية ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١ م .

مكرم يونس :

١٠٢ - المشروعات الإسرائيلية لتوطين اللاجئين ، مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية ، العدد ٨٦ ، يناير ١٩٧٦ م .

مؤسسة الدراسات الفلسطينية :

١٠٣ - فلسطين تاريخها و قضاياها المرحلة الثانوية ، الطبعة الأولى ١٩٨٣ م .

ناعوم تشومسكي :

١٠٤- الثالوث الخطر والمصير المحتوم - الولايات المتحدة، إسرائيل والفلسطينيون، ترجمة: علياء رافع، دار صادق للنشر ، الإسكندرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣ م .

نبيل جامع (دكتور) :

١٠٥ - العرب و إسرائيل و القنبلة الذرية ، منشأة المعارف ، ٢٠٠١ م .

يعقوب خوري :

١٠٦ ـ اليهود في البلاد العربية ، دار النهار للنشر ، بدون طبعة ، ١٩٧٠ م .
يوسي ميلمان :
١٠٧ ـ الإسرائيليون الجدد مشهد تفصيلي لمجتمع متغير ، ترجمة : فاضل البديري ، الأهلية للنشر و التوزيع ، المملكة الأردنية الهاشمية ، بدون طبعة ، بدون تاريخ .
ب – الدوريات :
الآداب :
مجلة فصلية تصدر عن دار الآداب .
١ ـ العدد " الثالث " و " الرابع " ، آذار – نيسان ١٩٩٥ م .
إبداع :
مجلة تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .
الأعداد :
٢ ـ " الثاني " فبراير ١٩٩٥ م .
٣ ـ " الثالث " مارس ١٩٩٥ م .
٤ ـ " السادس " مارس ١٩٩٨م .
٥ ـ " السابع " يوليو ١٩٩٨ م .
أخبار الأدب :
مجلة أسبوعية ، تصدر عن مطابع أخبار اليوم .
٦ ـ العدد " ٧١٧ " ، ١٤٢٨ هـ ـ ٨ إبريل ٢٠٠٧
البحوث و الدراسات العربية :
المنظمة العربية للتربية و الثقافة والعلوم ، مجلة تصدر نصف سنوية من معهد البحوث و الدراسات العربية العددان :
٧ ـ " السابع و العشرون " يوليو ١٩٩٧ م .
٨ ـ " الأربعون " ديسمبر ٢٠٠٣ .
دراسات باحث :
مجلة فصلية تعنى بقضايا فلسطين و الأمة . الأعداد :
٩ ـ ربيع / صيف ٢٠٠٤ م – ١٤٢٥ هـ .
١٠ ـ صيف – خريف ٢٠٠٥ – ١٤٢٦ هـ .
الدراسات الفلسطينية :
مجلة فصلية ، تصدر عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الأعداد :
١١ ـ " الثالث و العشرون " ١٩٧٧ م .
١٢ ـ " الثاني " ١٩٩٢ م .
١٣ ـ " العاشر " ١٩٩٢ م .
١٤ ـ " الرابع و العشرون " ١٩٩٥ م .
١٥ ـ " الرابع و السبعون " – " الخامس و السبعون " ٢٠٠٨ م .
رسالة المشرق :
مجلة دورية محكمة تصدر عن مركز الدراسات الشرقية ، جامعة القاهرة ، الأعداد :
١٦ ـ المجلد الرابع الأعداد من الثاني إلى الرابع ، ١٩٩٥ م .
١٧ ـ المجلد الثامن الأعداد من الأول إلى الرابع ، ١٩٩٩ م .
١٨ ـ المجلد العاشر ، الأعداد من الأول إلى الرابع ، ٢٠٠٠ م .
١٩ ـ المجلد الحادي عشر ، الأعداد من الأول إلى الرابع ، ٢٠٠٢ م .
٢٠ ـ العددان الأول و الثاني ، مركز الدراسات الشرقية ، جامعة القاهرة ، ٢٠٠٦ م .
الزهراء :
٢١ ـ مجلة ربع سنوية تصدر عن كلية الدراسات الإسلامية و العربية ، جامعة الأزهر ، ١٩٨٨

شئون فلسطينية :
مجلة شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية شؤونها المختلفة ، تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية، الأعداد :
٢٢ - " الرابع " ، سبتمبر ١٩٧١ م .
٢٣ - " السابع و الثمانون " – " الثامن و الثمانون " ، فبراير مارس ١٩٧٩ م .
٢٤ - " الخامس و التسعون " ، أكتوبر ١٩٧٩ م .
٢٥ - " مائة و ثمانون و ثلاث " ، يونيو ١٩٨٨ م .
٢٦ - " مائتان و تسع " ، أغسطس ١٩٩٠ م .

شئون عربية :
مجلة فصلية فكرية تصدرها وحدة المجلات في الأمانة العامة لجامعة الدول العربية في الشهر الثالث و السادس و التاسع و الثاني عشر من كل عام .
٢٧ - " الثامن و الأربعون " ، ديسمبر ١٩٨٦ م ، ربيع الثاني ١٤٠٧ هـ .

عالم الفكر :
مجلة دورية محكمة ، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب – الكويت، الأعداد :
٢٨ - المجلد الرابع عشر ، العدد الأول ، إبريل – مايو – يونيو ، ١٩٨٣ م .
٢٩ - المجلد السادس و الثلاثون ، العدد الأول ، ٢٠٠٧ م .
٣٠ - المجلد السادس و الثلاثون ، إبريل - يونيو ، ٢٠٠٨ م .

العربي :
مجلة شهرية ثقافية ، تصدرها وزارة الإعلام بدولة الكويت .
٣١ - العدد " خمسمائة و تسعون و ست " ، رجب ١٤٢٩ – يوليو ٢٠٠٨ .

العصور الجديدة :
سلسلة تصدر عن العصور الجديدة للنشر و التوزيع
٣٢ - العدد الرابع ، ديسمبر ١٩٩٩م .

العلوم الاجتماعية :
مجلة تصدر عن جامعة الكويت ، فصلية أكاديمية مختصة بالشؤون النظرية في مختلف حقول العلوم الاجتماعية، الأعداد :
٣٣ - شتاء ١٩٨١
٣٤ - المجلد الرابع عشر ، العدد (١) ، ربيع ١٩٨٦ .

العلوم الإنسانية و الحضارية :
مجلة فكرية مستقلة تصدر شهريا عن مركز الإنماء القومي ، بيروت .
٣٥ - العدد السابع عشر ، ديسمبر ١٩٨١ م ، يناير ١٩٨٢ م .

فصول :
مجلة النقد الأدبي ، فصلية تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب .
٣٦ - العدد : " الرابع و الستون " ، صيف ٢٠٠٤ م .

الفكر العربى المعاصر :
مجلة فكرية مستقلة تصدر عن مركز الإنماء القومي ، بيروت – باريس
٣٧ - العدد " الثامن و التسعون – التاسع و التسعون " ، ١٩٩٢ م .

فكر و نقد :
مجلة ثقافية فكرية
٣٨ - العدد " الثاني عشر " ، أكتوبر ١٩٩٨ م .

قضايا عربية فى الوحدة العربية و قضايا المجتمع العربى :
مجلة شهرية فكرية مفتوحة لمختلف الاتجاهات الغربية التقدمية تعالج الجوانب الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية و التربوية و العلمية في الوطن العربي .

٣٩ ـ العدد : " الحادي عشر " ، السنة السابعة ، نوفمبر ١٩٨٠

الكرمل :

مجلة فصلية ، تصدر عن مؤسسة الكرمل الثقافية، الأعداد :

٤٠ ـ " الستون " ، صيف ١٩٩٩ م .

٤١ ـ " الثاني و الستون " ، شتاء ١٩٩٩م .

٤٢ ـ " الثالث و الستون " ، ربيع ٢٠٠٠ م .

٤٣ ـ " الرابع و الستون " ، صيف ٢٠٠٠ م .

مختارات إسرائيلية :

تصدر عن : مركز الدراسات السياسية و الاستراتيجية بالأهرام ، الأعداد :

٤٤ ـ " التاسع و الأربعون " السنة الخامسة ، يناير ١٩٩٩ م .

٤٥ ـ " الثامن و العشرون " السنة الثالثة ، إبريل ١٩٩٧ م .

نزوى :

مجلة فصلية ثقافية ، مؤسسة عمان للصحافة و النشر و الإعلان .

٤٦ ـ العدد " الستون " .

الوطن :

٤٧ ـ صحيفة يومية الأربعاء ٣٠ يوليو ٢٠٠٣ م – العدد " ١٠٣٤ " .

الوقت البحرينية :

٤٨ ـ صحيفة يومية سياسية مستقلة ، العدد " ٣٠٨ " ٥ ذو الحجة – ٢٥ ديسمبر ٢٠٠٦ م .

ج- المعاجم :

دافيد سجيف :

١ـ قاموس عبري – عربي للغة العبرية المعاصرة ، دار شوكن للنشر ، أورشليم و تل أبيب .

ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري :

٢ ـ لسان العرب ، الجزء العشرون ، الدار المصرية للتأليف و الترجمة ، ٦٣٠ هـ .

د – الرسائل العلمية

د / جمال عبد السميع الشاذلي :

القصة العبرية القصيرة في أدب عاموس عوز ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، قسم اللغات الشرقية و آدابها ، جامعة القاهرة ، ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م .

هـ ـ المواقع الإلكترونية :

1 - http://www.mokarabat.com.
2 - www.annabaa.org
3 - http://www.ajras.org
4 - www.difaf.net
5 - www.ahwazstudies.org
6 - http://www.islam0nline.net
7 - http://www.ahewar.org
8 - http://www.aljazeera.net
9 - http://thawra.alwehda.gov.sy
10 - www.Marawandwairy.com
11 - http://www.amin.org
12 - http://asharqalawsat.com
13 - www.alvefagh@al-vefagh.com
14 - Aljabha.org
15 - http://www.nabih-alkasem.com

16 - http://www.awu-dam.org
17 - http://www.falestiny.com
18 - http://www.diwanalarab.com
19 - http://www.al-ayyam
20 - http://www.bsu.edu
21 - http:\\almash-had.madarcenter.org
22 - http://www.palestine-info.com
23 - http://www.jamaliya.com
24 - http://www.group194.net
25 - www.plord.org.
26 - http://www.pulpit.alwatanvice.com
27 - http://www.bbc.co.uk.
28 - http://arabs48.com
29 - http://badil.org
30 - http://www.ltef.net
31 - http://www.alarabiya.net
32 - http:\\www.alzaitona.net
33 - http://www.aljalia.org
34 – http://muhtawa.org.
35 – http://www.marefa.org.

رابعا : المصادر و المراجع الأوربية :

أ – الكتب:

1 - **David Ben - Gurion** :
Israel . Years of challenge N . Y . , Holt Rienhart & Winston , 1963 .
2 - **Ernest Stock :**
Israel on the road to sinai , 1949 - 1956 . with a sequel on the six days war 1967 . N . Y . cornel university , 1967 .
3 - **Gershon Shaked :**
Hebrew writers , published by The Institute for the translation of Hebrew literature , Israel , April , 1993 .
4 - **H .Cohen :**
The Anti – Jewish farhud in Baghdad , Middle eastern Studies mx ,Vol.3, London , 1966 – 1967 .
5 - **J. Bronowski :**
The Identity of Man , PENGUIN Books , 1967.
6 - **Lawrence Grossberg :**
Identity and cultural studies : Is That all There is ? , in stuart hall & Paul du Gay , Questions of Cultural Identity , sage , London , 1996 .
7 - **S . Landshat :**
Jewish communities in the Muslim countries of the Middle east , London , 1950 .

ب – المعاجم :

Francis Brown, D.D, D.LITT. :

Hebrew and English Lexicon of the Old Testament with an appendix containing the biblical Aramaic , based on the lexicon of William Gesenius as translated by Edward Robinson , clarendon press , Oxford , 1951 .

الأدب المقارن مدخل تاريخي

هناك اتفاق عام على أن الأدب المقارن اكتسب اسمه من سلسلة من كتب المقتطفات الأدبية الفرنسية التي كانت تستخدم في تدريس الأدب ونشرت عام ١٨١٢م تحت عنوان مقرر في الأدب المقارن ، ولقد ذكر رينيه ويلك في مقال يناقش فيه أصل هذه التسمية أن هذا العنوان لم يتم استخدامه أو تفسيره[١]. وقد أوضح ويلك كيف تسلل استعمال هذا المصطلح إلى فرنسا في العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر، واقترح أن التسمية الألمانية لهذا المصطلح "التاريخ الأدبي المقارن" ظهرت في كتاب موريس كاريير عام ١٨٥٤م، بينما أول استخدام له في الإنجليزية يعود إلى ماثيو أرنولد الذي أشار إليه بصيغة الجمع "الآداب المقارنة" في رسالة كتبها عام ١٨٤٨م[٢].

الأدب المقارن معناه وأهدافه[٣]

يهتم الأدب المقارن بمقارنة أدب معين بأدب آخر أو بعدد من الآداب الأخرى. أيضًا فهو يهتم بمقارنة عمل أدبي في لغة ما بعمل مناظر له في لغة أو لغات أخرى.

وتحدد المدرسة الفرنسية مجموعة من الأسس يجب توافرها عند دراسة النص دراسة مقارنة:

أولاً: أن يكون هناك اختلاف في اللغات بين هذه الآداب .فليس من دراسات الأدب المقارن عندهم أية دراسة تقارن بين الأدب الإنجليزي والأدب الأمريكي ،مادامت اللغة واحدة في هذين الأدبين . وليس من الأدب المقارن دراسة الأدب الفرنسي مقارناً بما ينتجه بعض مواطني كندا من أدب باللغة الفرنسية.

ويختلف الدارسون الأمريكيون مع الفرنسيين حول هذه المسألة .وطبيعي ألا يعتبر الأمريكيون أدبهم مجرد امتداد للأدب الإنجليزي . ومن هنا كان للأمريكيين موقف من هذا الموضوع بني على أساس أن الأدب المقارن يهتم بدراسة الأدب في صلاته التى تتعدى حدوده القومية . فالقومية وليست اللغة هي التي تحدد نوع الأدب . وعلى هذا تكون دراسة الأدبين الإنجليزي والأمريكي دراسة مقارنة مما يدخل ضمن نطاق الأدب المقارن .وربما يتوقفون مترددين إزاء صلة أدبهم بالأدب الإنجليزي إبان فترة الإحتلال الإنجليزي لأمريكا ،فلا يصرون على الفصل بين الأدبين خلال هذه الحقبة .أما عصور الاستقلال فهي عندهم عصور تطور فيها الأدب الأمريكي وأصبح منفصلاً عن الأدب الإنجليزي .

ثانيا: أن يكون الأدبان اللذان نقارن بينهما قد قامت بينهما صلة تاريخية .وتهتم المدرسة الفرنسية بتحقيق الصلة التاريخية بين الأدبين قبل أن تخوض في تفصيلات الدراسة المقارنة . أما إن لم تقم الأدلة أو القرائن على اتصال الأدبين ، فليس هناك مجال للدراسة المقارنة . ومعنى ذلك أن المدرسة الفرنسية ترى أن الهدف من الدراسة المقارنة هو الكشف عن ميادين التأثير والتأثر .

هذا الاتجاه العام للأدب المقارن يتضمن أيضاً الدخول في كل التفصيلات التي تنطوي تحته . فليس المقصود دراسة الأفكار أو التأثيرات المتبادلة بين أدبين أو أكثر فحسب ، بل يدخل في ذلك دراسة الأنواع الأدبية عند الأمم التي تلاقت آدابها وثقافاتها .

فقد يحدث أن تقتبس إحدى الأمم من أمة أخرى نوعاً أدبياً أو بضعة أنواع أدبية . إن العرب في هذا القرن قد اقتبسوا من أوروبا أنواعاً أدبية متعددة نذكر منها الأدب التمثيلي منظومه ومنثوره ، والقصة والأقصوصة .

---

[1] -Rene Wellek, The Name and Nature of Comparative Literature, Discriminations, New Haven and London, Yale University Press, 1970, pp.1-36.

[2]-Matthew Arnold, Letter to his sister, May 1848, cited in Siegbert Prawer, Comparative Literary Studies: An Introduction, London, Duckworth 1973.

[٣]- ماجد السالمي، مقرر الأدب المقارن(٢-٥٠٣٣٥٢)،

https://www.uobabylon.edu.iq

ويدخل في دراسات الأدب المقارن ما قد تتبادله الآداب من قيم وتقاليد فنية .إن عملاً مثل كتاب الشعر لأرسطو، بما انطوى عليه من قيم ومفهومات كان له أعمق الأثر على نقاد الأدب من الرومان . ثم كان له بعد ذلك أثره العميق على الآداب الأوروبية في عصر النهضة . وربما امتد أثره بعد ذلك بقرون . ولا نقصر الأثر هنا على ما أحدثه هذا العمل من تأثيرات مباشرة ‘بل يدخل في ذلك أيضاً ما أحدثه من تأثيرات غير مباشرة .

كما أن من الأدب المقارن ما يتناول دراسة المذاهب الفنية التي شاعت في أكثر من أدب واحد ، فلكي نلم بالخصائص الفنية لمذهب الرومانسية الذي ازدهر في أوروبا في القرن التاسع عشر لا بد أن تدرس الآداب الرومانسية المختلفة . ففي آداب أوروبا نماذج مختلفة للرومانسية ،ولسنا نستطيع الإلمام بهذا المذهب ما لم ندرسها جميعا دراسة مقارنة . وهكذا الشأن بالنسبة للمذهب الواقعي والمذهب الطبيعي . لابد من تتبع هذين المذهبين في النماذج التي ظهرت في الآداب الأوروبيه المختلفة ، وبخاصةً في الأدبين الفرنسي والروسي . إبان القرن التاسع عشر.

ولا يقتصر مجال الأدب المقارن على هذه المذاهب الفنية العامة ، وإنما هو يتناول موضوعات محددة ،كقصة من القصص عرفت في أحد الآداب ،ثم تناولها شاعر ينتمي لأدب آخر ، وكتبها بلغة هذا الأدب . وهناك كثير من الموضوعات الكلاسيكية التي تناولها أدباء ينتمون للآداب الأوروبية الحديثة يدخل في مجال بحث الأدب المقارن .

وهناك حالات لا يتحقق فيها التأثير والتأثر في عملين فنيّين بينهما بعض الشبه ، ومع ذلك يقوم الأدب المقارن بالبحث فيهما ،ملتمساً ما عساه يهتدي إليه من تأثير وتأثر .

وقد ينتهي البحث إلى التحقق من وجود صلة بين العملين الفنيّين . كما أنه قد ينتهي إلى أنه لا توجد بينهما صلة على الإطلاق . ومن أمثلة ذلك الخلافات المتعددة التي قامت حول تعيين الأصول الفكرية للكوميديا الإلهية التي نظمها شاعر إيطاليا الشهير دانّي . لقد انفق عالم مستشرق أسباني هو آسين بلاثيوس عشرين عاماً في البحث عن الأصول الإسلامية للكوميديا الإلهية . ومع هذا فليس هناك إجماع على الآراء التي ذهب إليها . ولئن استعصى الوصول إلى رأي قاطع في مثل هذه الأبحاث فهذا لا ينفي مالها من فائدة في كشف الكثير من الحقائق المرتبطة بالأعمال الفنية المقارنة .

والخلاصة أن الأدب المقارن يمكن أن يتناول بالدرس أحد المجالات الآتية :

١ـ تحقيق التاريخ الأدبي لأمة من الأمم ،وذلك ببيان عوامل التأثير والتأثر التي قامت بين أدب تلك الأمة وغيرها من الأمم .

٢ـ دراسة أحد الشعراء أو الكُتّاب دراسة نقدية تبين نواحي التأثير والتأثر بالآداب الأجنبية عند هذا الشاعر أو الكاتب ،ذلك لأن الأدب المقارن يؤدي إلى اكتشاف المصادر التي تأثر بها أو نقل عنها ، كما أنه في الوقت نفسه يبين أثره على من قرؤوه وتأثروا بفنه.

٣ـ الإلمام إلماماً واضحاً بتطور فن مهم كالنقد الأدبي ،ذلك لأن هذا النقد ظهر أول الأمر عند اليونان القدماء ، ثم انتقل من أثينا إلى الاسكندرية ، فكانت له مذاهبه ، وعاد فانتقل إلى روما فأثرفي نقادها وشعرائها ،وظهر من جديد في عصر النهضة ، ثم في عصر الكلاسيكية الجديدة ، وبعد ذلك تأثر بالدراسات الإنسانية المختلفة التي ظهرت ،فأفاد من موضوعات جديدة كعلم الاجتماع ، وعلم النفس ، وغيرهما من العلوم الإنسانية التي تطورت في الأزمنة الحديثة ،فلكي نفهم نظرية الأدب على وجهها الأكمل علينا أن ندرسها عند الأمم المختلفة ، وهذا يدخل ضمن دراسات الأدب المقارن . فمثل هذه الدراسة توضح لنا ما كان من تبادل للأنواع الأدبية ، والمفهومات الفنية بين الآداب المختلفة التي تبادلت التأثير والتأثر .

٤ـ دراسة نوع أدبي دراسة تاريخية محققة ، تهدف إلى بيان الأصالة والتقليد ، وتكشف عن تطور النوع الأدبي في مختلف الآداب تطوراً تاريخيا يتتبع انتقال هذا النوع الأدبي من أمة إلى أخرى ،خلال العصور . فيمكن مثلاً دراسة المأساة (التراجيديا) عند اليونان . ثم تدرس المأساة

عند الرومان ، ونأتي بعد ذلك إلى الآداب الأوروبية التي اقتبست هذا الفن عن الآداب الكلاسيكية بعد عصر النهضة .
٥ـ تتبع قصة إنسانية أو أسطورة عولجت في آداب مختلفة . فمن قصص اليونان ما عولج في عدد من الآداب الأوروبية ،ومن الأساطير ما لقي اهتماماً خارج بيئته الأصلية . ومن حوادث التاريخ ما اهتم به أدباء يكتبون بلغات مختلفة ، في أزمان متباينة ' وهكذا . وقد سبق أن ذكرنا قصة ليلى والمجنون العربية ' وكيف اهتم بها شعراء الفرس فنظمها أكثر من شاعر . ومن حوادث التاريخ لقيت حياة كيلو باترا اهتماماً ،وصور كثير من الشعراء ـ في مختلف الآداب ـ قصتها كل بأسلوبه ، وطريقته في النظر إلى حياة هذه الملكة .
٦ ـ دراسة مذهب أدبي ظهر في عدد من الآداب المختلفة ، فمن الممكن دراسة المذهب الرومانسي وأثره على آداب أوروبا . وهكذا الشأن بالنسبة للمذاهب الفنية الأخرى التي ظهرت آثارها في أكثر من أدب واحد .
٧ ـ دراسة شاعر أو أديب تجاوزت آثاره حدود أدبه القومي ،وبيان ماكان لهذه الآثارمن فاعلية في آدب الأمم الأخرى . وقد ظهر في أوروبا في العصر الحديث شعراء وأدباء تجاوزت تأثيراتهم حدود آدابهم القومية . هناك شكسبير وأثره في ظهور المذهب الرومانسي . هناك جيته وأثره في آداب أوروبا الغربية . والأمثلة على ذلك لا تحصى .
٩ ـ يمكن أن تتناول الدراسات المقارنة ـ وفق المفهوم الأمريكي أية دراسة تقارن بين الأدب وغيره من الفنون أو تبحث العلاقة بين الأدب وغيره من الدراسات الإنسانية . فموضوع مثل الأدب وعلم النفس يعد ـ وفق هذه النظرة الواسعة ـ من دراسات الأدب المقارن . وعلى هذا فإن دراسات الأدب المقارن يمكن أن تتسع لأبحاث لا نستطيع لها حصراً .

عدة الباحث في الأدب المقارن.

إن الباحث في الأدب المقارن يقف عند منطقة الحدود المشتركة للآداب المختلفة، يتأمل حركتها في تبادل صلاتها بعضها مع بعض ، ويكشف التيارات العامة لتلك الصلات . وآثار ذلك في رجال الأدب ، وفي الكتب والموضوعات ، وفي نفس الإحساس والتفكير . ولهذا يجب أن يكون واسع الأفق ، قادراًعلى دراسة ما يتصدى لبحثه دراسة علمية . ومع أن لكل مسألة من مسائل الأدب المقارن ملابساتها التي تفرض توجيهات خاصة لا يمكن الإحاطة بها جميعاً ، نرى من المفيد أن نشير إلى الشروط الأساسية التى يجب توافرها فيمن يتصدى لهذه البحوث .
١ ـ لابد أن يكون الباحث في الأدب المقارن على علم بالحقائق التاريخية للعصر الذى يدرسه ، كى يستطيع إحلال الإنتاج الادبي محله من الحوادث التاريخية التي تؤثر في توجيهه ومجراه. فلدراسة نشأة الأدب الفارسي بعد الفتح العربي مثلاً ، لابد أن تدرس ألوان النزاع السياسي والجنسي بين الشعبين ، والصلات بين الدويلات في إيران وبين الخلفاء العباسيين في أواخر القرن العاشر وأوائل الحادي عشر ، وهو الوقت الذي وصل إلينا فيه أقدم ما ألف من نثر فارسي . ويجب كذلك أن يدرس ما مهد لهذا الإنتاج من حركة الشعوبية ، ومن تاريخ الحركة العقلية بين إيران وبين العرب . فمعرفة التاريخ ،إذن ، شرط جوهري للدراسات المقارنة .
٢ ـ ومن الواضح أن الدارس للأدب المقارن يجب أن يعرف معرفة دقيقة تاريخ الآداب المختلفة التي هو بسبيل البحث فيها ، إن لم يكن في كل عصورها ، فعلى الأقل في العصر الذي هو موضوع دراسته ،وما يتصل به مما يمكن أن يكون قد أثر في إنتاجه الأدبي .
٣ ـ وتستلزم دراسة الأدب المقارن أن يستطيع الدارس قراءة النصوص المختلفة بلغاتها الأصلية . أما الاعتماد على الترجمة فما هو إلا طريقة ناقصة لا يصح أن يلجأ إليها إذا أريد تقويم التأثر في الأدبيين على وجههما الصحيح . إذ أن لكل لغة خصائص وروحاً لا تفهم إلا فيها ولا تتذوق إلا بقراءة نصوصها .
٤ ـ يجب أن يكون الطالب ذا إلمام بالمراجع العامة ،عالماً بطريقة البحث في المسائل . وبمكان مواضعها من الكتب التي يدرسها .

وفي الصفحات التالية سنقدم دراسة تطبيقية في مجال الأدب المقارن، حيث سندرس إشكالية الهوية عند كل من الإسرائيليين و الفلسطينيين ، منذ إقامة إسرائيل في ١٥ من شهر مايو عام ١٩٤٨م حتى ما بعد نصر أكتوبر المجيد ١٩٧٣م ، حيث تتداخل أبعاد هذا الموضوع مع أبعاد رئيسية أخرى تأتي بالنسبة لليهود ، من جهة المسألة اليهودية والصهيونية و إقامة وطن لليهود و في الوقت نفسه عدم هجرة كل يهود العالم إلى هذا الوطن ، رغم دعمهم إياه على كافة الأصعدة ، بالإضافة إلى الصراع المستعر داخل هذا الوطن بين طائفتيه الشرقية و الغربية و بين الدينيين المتشددين والعلمانيين . و أما بالنسبة إلى الفلسطينيين ، فالمتصدي لدراسة هويتهم يواجه عدة صعوبات و من أبرز تلك الصعوبات أن هوية الشعب الفلسطيني هي هوية متداخلة مع هوية جماعات وطنية أخرى ، و ينشب بين الهوية الفلسطينية و بين هوية تلك الجماعات صراع يقوم على محاولة دمج الفلسطينيين و تحويلهم إلى جزء من هذه الجماعات ، و رفض الفلسطينيين لتلك المحاولة ، فالهوية الفلسطينية لا يمكن دراستها و الوقوف على مراحل تطورها إلا من خلال دراسة هوية تلك الجماعات ، التي غالبا ما تتجاهل الفلسطيني نفسه ، حيث تتداخل الهوية الوطنية الفلسطينية مع الهوية القومية العربية من جانب و مع الهوية الإسرائيلية من جانب آخر ، لذا كان لزاما على الدارس في هذا المجال أن يقوم قبل أن يبدأ بحثه بفصل تلك الهوية الفلسطينية عن مرادفها الإسرائيلي ، و عن الإطار الأوسع منها و هو الهوية القومية العربية .

و الواقع ، أن هذا الأمر يعد مشكلا و ملتبسا لعدم استقلال التاريخ الفلسطيني بوجه عام ، فعلى سبيل المثال فإن خصوصية النكبة الفلسطينية عام ١٩٤٨م مسألة تربط الهوية الفلسطينية – بالنسبة لفلسطيني ٤٨ – بمرادفها الإسرائيلي سواء وافق الطرفان على ذلك أم لم يوافقا . و من جانب آخر ربطت هذه النكبة بين الهوية الفلسطينية لدى الفلسطينيين المطرودين و هوية الجماعات الوطنية التي لجئوا إليها ، و قد ترتب على ذلك أن أصبحت أزمة فهم الهوية الفلسطينية تكمن في ضرورة فهم صعوبة أن يكون الفلسطينيون جزءا من أية هوية أخرى من هويات الشعوب الوطنية المجاورة . إلى غير ذلك من المشكلات و الصعوبات و التعقيدات التي تكتنف هذا الموضوع ، و هذا – تقريبا – هو معنى الإشكالية .

مصطلح الهوية :

من أهم المسائل المتعلقة بإشكالية الهوية مسألة الانتماء ، حيث يعد البحث عن انتماء الفرد من الأمور المعقدة في النفس البشرية ، خاصة أن البشر عوالم مختلفة و يترتب على ذلك أن يحملوا هويات مختلفة : فنجد من يملك هوية ما ، و لكنه ينتمي لغيرها ، و نرى من هو مجهول الهوية ، و نجد آخر لا يعرف إلى أي هوية ينتمي بسبب تعددها ليه ، كذلك هناك من يناضل لاستعادة هويته ، و آخر يحاول أن يلغي هوية الآخر المتناقضة مع هويته .

و الواقع ، أن تعدد الهويات يجعلنا ندرك أن الهوية هي بنية غير ثابتة قابلة للتحول . و هي قابلة للتحول بفعل العديد من العوامل الأساسية - الوطنية و الاجتماعية و السياسية و الثقافية و اللغوية - التي من شأنها أن تضفي جميعها صبغة مميزة على كل هوية من الهويات للمجتمعات و الشعوب و الأفراد .

و إذا نظرنا إلى عالمنا العربي في الوقت الراهن ستظهر لنا القصدية الغربية في إضعاف هويته العربية و فتح أبواب العالم العربي على مصراعيها أمام الثقافة الغربية ، بوصفها هوية بديلة لشعوب المنطقة على الأمد البعيد . حيث تعلو إلى السطح ظاهرة إهمال الاهتمام باللغة العربية على مستويات عدة ، تبدأ في الدراسة التي أصبحت الآن تشهد لونا من فرض اللغات الأجنبية ، بوصفها لغة المستقبل و لغة التعليم و الثقافة الرفيعة ، بل و لغة الحصول على فرص جيدة للعمل لمن يرغب في تأمين مستقبل أبنائه ، و لم يعد ذلك مقتصرا على المدارس الخاصة التي تهتم بتعليم اللغات ، بل امتد إلى ظاهرة

استيراد المدارس ذات الطابع الدولي ، والجامعات الأجنبية لكي تصبح مراكز تعليمية أساسية في كل أرجاء المنطقة العربية ، و أغلبها إن لم تكن كلها ، جامعات تسعى إلى ترويج الثقافة الغربية بكل أبعادها ، في المجتمعات العربية التي تعمل بها .

و من البديهي أن الباحث ليس ضد تعلم اللغات الأجنبية ، لكنه ضد انتشارها على حساب لغتنا الأم ، أو لحساب طمس هويتنا الثقافية العربية ، و فقدان لغتنا العربية التي تعد المستودع لذاكرتنا و ثقافتنا و هويتنا بكل ما تتضمنه من قيم و تراث حضاري . إن العرب لن يمكنهم أن يحققوا أي تقدم في مجال التنمية و النهوض إلا إذا انتبهت الدول العربية جميعها إلى أهمية و ضرورة بذل الجهد في سبيل استعادة الهوية العربية المستباحة .

و إذا نظرنا إلى الحالتين الإسرائيلية و الفلسطينية ، بوصفهما نموذجين لتحليل أنماط الهويات القائمة ، سنجدهما من أكثر الحالات تعقيدا ، خصوصا مع تعدد هوياتهما . فنجد الإسرائيلي مثلا ، إسرائيلي - يهودي – أشكينازي – من بولندا ، أو إسرائيلي يهودي سفاردي من اليمن ، إلى غير ذلك من التركيبات الكثيرة و المعقدة . أما الفلسطيني فنجده مثلا ، لاجئا ، أو من فلسطيني ٤٨ ، أو من عديمي الجنسية ، أو ممن يحملون جنسيات عربية أو أجنبية .

و الواقع أن هذا الاختلاف في مركبات الهوية يعني الاختلاف بين أصحابها ، فلكل هوية ثقافتها الخاصة و العوامل التي تؤثر في تكوينها . من هنا ، تتضح استحالة التطرق إلى جميع هويات الفرد الإسرائيلي ، داخل و خارج إسرائيل و الفرد الفلسطيني داخل إسرائيل وفي مناطق شتاته أو إقامته المختلفة .

مصطلح اليهود الغربيين " الأشكناز " :

ورد الاسم " أشكناز " في العهد القديم في عدة مواضع منها : " سفر التكوين " حيث نقرأ : " **וּבְנֵי גֹמֶר אַשְׁכְּנַז וְרִיפַת וְתֹגַרְמָה** " [1] : " و بنو جومر أشكناز و ريفاث و توجرمة " حيث وردت هذه الفقرة في معرض الحديث عن مواليد بني نوح " سام و حام و يافث " .فبنو " يافث " هم " جومر " و " ماجوج " و " ماداي " و " ياوان " و " توبال " و " ماشك " و " تيراس " ، فـ " الأشكناز " هم نسل " يافث " من " جومر " .

أيضا ، فقد ورد الاسم " أشكناز " في سفر " إرميا " حيث نقرأ :

" **שְׁאוּ־נֵס בָּאָרֶץ תִּקְעוּ שׁוֹפָר בַּגּוֹיִם קַדְּשׁוּ עָלֶיהָ גּוֹיִם הַשְׁמִיעוּ עָלֶיהָ מַמְלְכוֹת אֲרָרַט מִנִּי וְאַשְׁכְּנַז ...** " [2] " ارفعوا الراية على الأرض ، انفخوا في البوق للأمم ، قدسوا عليها الأمم ، نادوا عليها ممالك أرارط و ميني و أشكناز ... " و ذلك في معرض الحديث عن قدرة الرب و قوته و جبروته و كيف أنه سينزل العقاب على أرض بابل جزاء ما فعلوه في صهيون من خراب و دمار .

و الواقع أن دلالات الاسم " أشكناز " تدور حول " نسل يافث و القبائل التي سكنت الشمال في منطقة بيثينيا * " [3]

هذا و قد أطلق هذا الاسم " منذ القرن التاسع الميلادي على اليهود الألمان ، حيث سمى اليهود الألمان و ذريتهم " أشكنازيم " في مقابل مصطلح (سفارديم) الذي أطلق على اليهود الأسبان . و قد هاجر اليهود الأشكيناز بعد الحروب الصليبية إلى بلدان أوربا الشرقية ، و في مرحلة متأخرة إلى أوروبا الغربية ثم إلى أمريكا . " [4]

---

[1] ספר תורה נביאים וכתובים , מדויק היטב על פי המסורה ,הוגה בעיון נמרץ על ידי החכם המובהק מאיר הלוי לעטערים , לונדון על ידי חברת מפיקי כתבי הקדש בבריטניא ובשאר הארצות ,1944, בראשית (י – 3) .

2 שם , ירמיה (נא – 27) .

[3] Francis Brown, D.D, D.LITT. : Hebrew and English Lexicon of the Old Testament with an appendix containing the biblical Aramaic , based on the lexicon of William Gesenius as translated by Edward Robinson , clarendon press , Oxford , 1951,p 79 .

* شمال غرب تركيا الحالية .

[4] -د/محمد خليفة حسن : الشخصية الإسرائيلية دراسة في توجهات المجتمع الإسرائيلي نحو السلام ، سلسلة الدراسات الدينية و التاريخية ، العدد (٢) ، مركز الدراسات الشرقية ، جامعة القاهرة ، صـ ٩ .

و الواقع أننا لن نخوض في تأصيل مصطلح " أشكناز " و لكن تجدر الإشارة إلى أن هذا المصطلح يطلق على يهود أوربا – عدا يهود اسبانيا - و الولايات المتحدة و روسيا بشكل عام ، أيضا تجدر الإشارة إلى سيطرة اليهود الأشكيناز على الحياة السياسية و العسكرية في إسرائيل ، كذلك فهم يسيطرون على الحياة الفكرية و التعليمية وعلى الحركة الأدبية و الفنية بها.

مصطلح اليهود الشرقيين " السفارديم " :

ورد الاسم " سفارد " في العهد القديم بوصفه اسما لإقليم آسيوي يرجح أنه في شمال فلسطين ، فنقرأ في سفر " عوبديا " : " **וְגֹלַת יְרוּשָׁלַם אֲשֶׁר בִּסְפָרַד יִרְשׁוּ אֵת עָרֵי הַנֶּגֶב** " [1] " و شتات (أهل) القدس التي في سفاراد (سيكون بأن) يرثوا مدن النقب " فـ " مدن النقب " تقع في جنوب فلسطين و هي عبارة عن منطقة صحراوية ، شحيحة الموارد يصعب العيش فيها ، على عكس منطقة " سفاراد " الشمالية الغنية بموارد العيش .

و في العصور الوسطى " أطلق هذا الاسم على أسبانيا و سمى به يهود أسبانيا وذريتهم أينما أقاموا . ثم تم تخصيص هذا الاسم لليهود الذين طردوا من أسبانيا عام ١٤٩٢ م ، و استقروا في الشمال الأفريقي و بخاصة في المغرب أو الذين استقروا منهم في إيطاليا و مصر و فلسطين و سوريا و في البلقان و في الأقاليم الوسطى من بلاد الخلافة العثمانية و بخاصة في القسطنطينية . و مع مرور الزمن اندمجت فيهم جماعات يهودية أخرى إما من السكان الأصليين أو من اليهود المهاجرين من بلاد أخرى و أصبحوا جزءا من مجموعة اليهود السفارديم . " [2]

هذا و يطلق مصطلح " السفارديم " على اليهود الشرقيين بصفة عامة ، و ذلك مقابل مصطلح " الأشكناز " الذي يطلق ، كما ذكر آنفا على يهود الغرب ، و تجدر الإشارة هنا إلى أن التسمية " سفارديم " لا تنطبق في الحقيقة على اليهود الأصليين في العالم العربي و الإسلامي . فهؤلاء أصولهم عربية و ليست سفاردية أسبانية ، و لعل التسمية " الشرقيين " هي الأكثر ملاءمة لهذا القسم من اليهود .

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب بالدراسة المقارنة موضوع " إشكالية الهوية " عند كل من الإسرائيليين اليهود - الغربيين منهم والشرقيين- والفلسطينيين – فلسطيني ٤٨ - والفلسطينيين المشتتين– غير المسموح لهم بالعودة إلى ما كان يعرف بـ "فلسطين" قبل عام ١٩٤٨م – من خلال أربع روايات لأربعة أدباء منتمين للأطراف الأربعة السابقة الذكر. ومن جملة ما يهدف إليه الكتاب:

- الإسهام في سلسلة الدراسات الأدبية المقارنة بين آداب اللغات السامية؛ بالتعرف على جوانب الاتفاق والاختلاف بين كل من أطراف البحث الأربعة في موضوع " إشكالية الهوية " .

- أسباب إشكالية الهوية عند كل طرف .

- مدى معاناة كل طرف من هذه الإشكالية .

- الحل الذي وضعه كل طرف للتخلص من إشكاليته ، و لماذا اختار هذا الحل دون غيره ؟

و ثمة أسباب تدعو إلى تناول هذا الموضوع؛ فالدارسون العرب - عند بحثهم لموضوع الهوية – اعتمدوا على استطلاعات الرأي، والدراسات المجتمعية ولم يعتمدوا على نصوص

[1] ספר תורה נביאים וכתובים , שם , עובדיה (א – ٢٠) .
[2] د / محمد خليفة حسن : مرجع سابق ، صـ ١١ .

أدبية إسرائيلية وفلسطينية، كذلك اعتمدوا بصورة أساسية على ما تقدمه الدراسات الإسرائيلية عن هذا الموضوع، فعرضوا هذه الدراسات وأقاموا بحوثهم عليها ، دون وضع المعلومات التي قدمتها هذه الدراسات تحت الاختبار، أيضا فقد أجريت معظم هذه الدراسات بصورة جزئية ، إذ لم تتم بمقارنة الأطراف الأربعة المذكورة آنفا أو على الأقل مقارنة الجانب الفلسطيني بنظيره الإسرائيلي . لذا يعنى هذا البحث بالدراسة الاستقرائية التحليلية المقارنة لأربعة نصوص أدبية تنتمي إلى الفن الروائي، مع فحص المعلومات الواردة في الدراسات الإسرائيلية التي اعتمد عليها هذا الفريق من الدارسين العرب في هذا الموضوع ، لتكون الأحكام موضوعية و أقرب ما تكون إلى الصواب .

وقد اقتصر الكتاب على النصوص الأدبية التالية :

رواية "מנוחה נכונה" "راحة حقيقية" للكاتب الإسرائيلي "עמוס עוז" "عاموس عوز" وقد صدرت هذه الرواية عام ١٩٨٢م وتعد نموذجا لليهودي الغربي .

رواية "חסות" "ملاذ" للكاتب الإسرائيلي "סמי מיכאל"سامي ميخائيل" حيث صدرت هذه الرواية في عام ١٩٧٧م وتعد نموذجا لليهودي الشرقي.

رواية "الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل" للكاتب الفلسطيني "إميل حبيبي" وقد صدرت هذه الرواية عام ١٩٧٤م وتعد نموذجا لفلسطيني ٤٨ .

رواية "البحث عن وليد مسعود" للكاتب الفلسطيني "جبرا إبراهيم جبرا" والصادرة عام ١٩٧٨م، حيث تعد نموذجا لفلسطيني الشتات .

و قد روعي في اختيار هذه الروايات ما يلي :

١ – أن جميعها قد صدرت بعد حرب ١٩٧٣م، حيث تعد هذه الحرب علامة فاصلة في الأدب العبري الحديث حتى أنه ليتم الفصل بين الأدب العبري المكتوب قبل هذه الحرب و بعدها ، كذلك كان لهذه الحرب بالنسبة للعرب بصفة عامة والفلسطينيين بصفة خاصة تأثير بالغ لأنها تعد أول حرب يهزم فيها العرب إسرائيل .

٢ – يعد الأدباء الأربعة - أصحاب تلك الروايات - من أهم أدباء الساحتين الأدبيتين الإسرائيلية و الفلسطينية ، حيث نالوا العديد من الجوائز الأدبية ، كما كانوا من الرواد السياسيين ذوي الاتجاهات الفكرية العميقة ، و يمكن أن يندرجوا جميعهم تحت قائمة الفكر اليساري .

٣ – يوجد بعض التشابه في التنوع الثقافي عند كل من الأديب الإسرائيلي "عاموس عوز" والأديب الفلسطيني "جبرا إبراهيم جبرا" حيث تأثر كل منهما بالثقافة الأوربية، بالإضافة إلى الثقافة الأم لكل منهما - العبرية والعربية على الترتيب- ، كذلك يوجد نوع من التشابه الثقافي بين كل من الأديب الإسرائيلي –العراقي النشأة- "سامي ميخائيل" والأديب الفلسطيني "إميل حبيبي" حيث تعد الثقافة العربية هي الثقافة الأم بالنسبة لكليهما .

٤ - تعد رواية "מנוחה נכונה" "راحة حقيقية" ورواية "חסות" "ملاذ" روايتين متكاملتين رغم اختلاف مؤلفيهما ، فالأول يهودي غربي و الثاني يهودي شرقي ، إلا أنهما يعيشان في المجتمع نفسه و في حين لا يشعر الأول بطبيعية إسرائيل و لا مجتمعها بسبب سياساتها القمعية ضد مواطنيها الفلسطينيين بصفة خاصة و جيرانها العرب بصفة عامة ، يشعر الثاني بعدم طبيعية الدولة و مجتمعها بسبب اضطهاده لأنه ينتمي إلى العرب بسبب أصله العراقي . كما تعد رواية "الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل" ورواية "البحث عن وليد مسعود"

تجربتين فلسطينيتين مختلفتين ومتكاملتين في الوقت نفسه، الأولى نتاج أن يصبح الإنسان غريبا لا مواطنا في إسرائيل، والثانية نتاج أن يصبح الإنسان لاجئا محروما من وطنه بسبب قيام إسرائيل .

و ثمة دراسات و أبحاث تتصل بموضوع الكتاب ، منها :

١ - كتاب: "إشكالية الهوية في إسرائيل" تأليف: دكتور "رشاد عبد الله الشامي"١٩٩٧م. حيث تناول فيه موضوع إشكالية الهوية عند الإسرائيليين اليهود وفلسطيني ٤٨ وقد اعتمد ضمن ما اعتمد عليه في عرضه و تقسيمه لمفهوم "الهوية" و أنواعه على كتابي الناقد الإسرائيلي "יוסף אורן" :

- "העט כשופר פוליטי-עשר מסות על הרומאן הפוליטי ועל הרומאן האידיאי בסיפורת הישראלית, 1992" "القلم كبوق سياسي. عشر مقالات أدبية عن الرواية السياسية و الرواية الذهنية في الأدب الروائي الإسرائيلي"

- "זהויות בסיפורת הישראלית , 1994." "هويات في الأدب الروائي الإسرائيلي".

٢ - كتاب: "اللغة و الهوية في إسرائيل" تأليف: "محمد أمارة"، ٢٠٠٢م وقد تناول فيه الموضوع ذاته، ولكنه ركز على الجانب اللغوي في مسألة تشويه إسرائيل لهوية فلسطين والفلسطينيين ، حيث عرض ما تقوم به إسرائيل من تغيير لأسماء مدن و قرى و أحياء و شوارع فلسطينية و تحويلها إلى أسماء عبرية، بالإضافة إلى تفريغ التعليم العربي داخلها من أي محتوى قومي و التركيز على تعزيز العامل الديني–الثقافي والمواطنة الإسرائيلية بدلا من العامل القومي العربي .

٣ - كتاب "זהות יהודית מבט פסיכולוגי־חברתי, 1979""هوية يهودية نظرة نفسانية–اجتماعية" تأليف "שמעון הרמן" "شمعون هرمان". ويتناول الهوية اليهودية لليهود ويجعلها لا تقتصر على نطاق الدين فقط، وإنما تتعداه إلى النطاق القومي، حيث تتحول عنده الديانة اليهودية إلى فكرة قومية.

٤- كتاب "تخليق الهوية الإسرائيلية، الأساطير والأيديولوجيات في مجتمع متناحر "تأليف: "موشيه تسوكرمان"، ترجمة وتقديم : دكتور" محمد محمود أبو غدير" ٢٠٠٦م، ويعد هذا الكتاب -من وجهة نظر كثير من الدارسين الإسرائيليين- من أهم الكتب التي صدرت في السنوات الخمس الأخيرة داخل إسرائيل، حيث يقدم الدلائل على أن أخطر المشاكل التي تهدد إسرائيل هي افتقارها إلى هوية واحدة تجمع في داخلها مجموعة من التوجهات و المواقف التي قد تختلف فيما بينها على بعض الجزئيات ، و لكن تتفق في النهاية على الرؤية الشاملة الجامعة لجميع هذه التوجهات و المواقف ، و من ناحية أخرى يتابع الكتاب المحاولات والجهود لتخليق هوية إسرائيلية جديدة تكون معافاة من أمراض الشتات ليصل إلى مجموعة من الاستنتاجات و الحقائق التي تؤكد في نظر المؤلف فشل جميع هذه الجهود .

أما هذا الكتاب فيعتمد ، كما ذكر آنفا، على الدراسة الاستقرائية التحليلية للروايات الأربع في موضوع "إشكالية الهوية" ؛ موضحا مدى الاتفاق أو الاختلاف ، ومبينا ما تميزت به كل رواية عن الأخرى .

الفصل الأول
الروايات الأربع و مؤلفوها

أولا : الجانب الإسرائيلي :

أ – " עמוס עוז " "عاموس عوز" :

١- حياته :

" ولد عاموس عوز في القدس عام ١٩٣٩ م عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية ، بعد أن استقرت أسرته في القدس ، و كانت أسرته قد قدمت إلى فلسطين في بداية عام ١٩٣٠ م من روسيا و بولندا . و على الرغم من أن والديه كانا يتحادثان بالعديد من اللغات ، مثل لغة اليديش و الروسية و البولندية ، إلا أنهما علما ابنهما لغة واحدة هي اللغة العبرية رغبة منهما في صبغ ابنهما بالصبغة اليهودية الخالصة . و كان والده رجلا متدينا محافظا ، لذلك أرسل ابنه إلي مدرسة عبرية ذات صبغة دينية قوية ... فأرسله إلي مدرسة " تحكموني " ، ثم درس العبرية في مدرسة " رحافيا " و كانت هذه النشأة الدينية هي السبب الذي دفع عوز إلي أن يؤلف أشعارا دينية و هو صغير . " [١]

و جدير بالذكر أن " عاموس عوز " سليل عائلة كان لها باع طويل و مؤثر في مسيرة الثقافة العبرية ، فعم والده هو الناقد الإسرائيلي المشهور " يوسف كلاوزنر " صاحب الكتاب المعروف " ההסטוריה של הספרות העברית החדשה " " تاريخ الأدب العبري الحديث " ، و كتاب " المسيح عصره و حياته و دعوته " و هو أول مؤلف يقدمه باحث يهودي عن المسيحية ." [٢]

أما والداه ، فيمكن أن نعدهما من " المنتمين إلي الطبقة الارستقرطية المتحضرة ليهود أوربا الشرقية ، فقد كان أبوه أمين مكتبة و باحثا مجيدا لخمس عشرة لغة . " [٣] الأمر الذي " أتاح له الاطلاع على الكثير من المؤلفات في لغاتها الأصلية ، فتنوعت بذلك مصادر ثقافته ، حيث تلقى تعليمه الأساسي حتى المرحلة الجامعية في بولندا ، ثم استكمله في لندن ، حيث حصل على درجة الماجستير عام ١٩٤٢ م ، ثم الدكتوراه فيما بعد و نشرت له مؤلفات عده منها كتاب " القصة في الأدب العبري " و مجلدان عن " تاريخ الأدب " . كما كانت لجدته لأبيه " شولاميت " اهتمامات كبيرة بالقراءة و الاطلاع و تنوع المعرفة . " [٤]

أما أمه فهي " أوكرانية يعمل أبوها تاجرا للغلال ، إلا أن حياتهما معا لم تدم طويلا ، حيث أقدمت على الانتحار عام ١٩٥٢ م ، مما كان له تأثير سلبي هائل على الفتى عاموس ، فقد شعر باليتم في مرحلة مؤثرة من حياته و ضاعف من هذا التأثير السلبي زواج والده مرة أخرى و نزوحه إلي لندن تاركا ابنه في القدس يعاني ألام الوحدة و الاكتئاب و الضياع النفسي ، فنجده - بعد موت أمه و زواج أبيه – ينضم إلي كيبوتس " حولدا " و كان عمره آنذاك لا يتجاوز الرابعة عشرة ... و في الكيبوتس غير اسمه من (عاموس كلاوزنر) إلي (عاموس عوز) . " [٥]

و جدير بالذكر أن عاموس عوز قد " عُد مرشحًا قويا لنيل جائزة نوبل في الآداب . و في عام ٢٠٠٦ م نال درجة الدكتوراه الفخرية في الآداب من الجامعة العبرية في القدس و ذلك نظرا لإسهاماته في الأدب الإسرائيلي ، و تقديرا لدوره في الحوار الإسرائيلي و أيضا

---

[1]- http://www.lib.cet.ac.il.item=7144.

[٢] د / زين العابدين محمود أبو خضرة : جيل يبحث عن هوية ، مرجع سابق ، صـ ٥ .

[٣] جيلا رامراز – رايوخ : العربي في الأدب الإسرائيلي ، ترجمة : نادية سليمان حافظ – إيهاب صلاح محمد فايق ، مراجعة و تقديم د / إبراهيم البحراوي ، المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٣٩ ، المشروع القومي للترجمة ، بدون طبعة ، ٢٠٠٠ ، صـ ١٩٧ .

[٤] د / زين العابدين محمود أبو خضرة : جيل يبحث عن هوية ، مرجع سابق ، صـ ٥ ، ٦ .

[٥] المرجع السابق نفسه ، صـ ٦ .

لرفعة اسم إسرائيل عاليا على مستوى العالم . " [1] و لكن تجدر الإشارة إلى عدم حصوله على جائزة نوبل في الأدب ، حيث حصلت عليها الأديبة الأمانية " هرتا مولر" عام ٢٠٠٩ .

٢ - اتجاهه السياسي و موقفه الفكري :

" كان عاموس عوز في الماضي يمينيا متعصبا ، لكنه قد تحرر مؤخرا و صار ممن يشتركون في مظاهرات السلام الآن ، و يبدي وجهات نظر تبدو مخالفة للوجهة التي كانت غالبة في أدبه . " [2]

و الواقع أن عاموس عوز كان في مرحلة من مراحل حياته يمينيا متعصبا و هذا راجع ، في الغالب ، إلى نشأته الدينية سواء على مستوى الأسرة ، أم على مستوى التعليم الديني الذي تلقاه خلال سني حياته الأولى ، إلا أنه قد مر ببعض الأحداث التي كانت بمثابة نقطة تحول بالنسبة له و بالنسبة إلى كثير من أبناء جيله و لعل حرب ١٩٥٦ م التي شاركت فيها إسرائيل بريطانيا و فرنسا تعد أولى هذه الأحداث . و عن هذه الحرب و ما خلفته من آثار على العديد من طبقات المجتمع الإسرائيلي ، يقول عاموس عوز :

"تعد حرب ١٩٥٦م، نقطة تحوُّل بالنسبة للبعض وبالنسبة لي، حيث اتضح من خلالها أن الأدب أو مجموعة الأدباء الذين لم يخطئوا نهائيا، صاروا يخطئون بكل ما تحمله الكلمة من معان، أنهم يخطئون ويقترفون الخطايا ويفعلون الشر. إن هذه الحرب كانت صدمة"[٣].

من هنا تقريبا بدأ اصطدام عاموس عوز مع القيادة السياسية ، حيث رأى أن السلطة في إسرائيل قد حادت عن مبادئها و أهدافها و أنها ترفض السلام مع العرب لا لشيء سوى أن هذا السلام سيؤدي إلى تراجع مكانتها و ليسجل عوز اعتراضاته و سخطه على القيادة السياسية الاسرائيلية " اشترك في حركة " מן היסוד " * من عام ١٩٦٢ م إلى عام ١٩٦٣ م كما كان عضوا في حزب " מפ " ، * " الماباي " ، لكنه تركه عام ١٩٦٣ م ، ثم اشترك عام ١٩٦٧ م في حركة " שלום ובטחון " " السلام و الأمن " ، ثم اشترك ، كذلك في " וועדת השלום הישראלית הפלסטינית " " لجنة السلام الاسرائيلية الفلسطينية " عام ١٩٦٨ م ، كما اشترك في حركة " שלום עכשיו " " السلام الآن " عام ١٩٧٨ – إلى عام ١٩٨٠ م . " [4]

و غالبية هذه الحركات حركات إسرائيلية تدعو للسلام و ترى معظمها أن حكام الدولة قد أخطأوا ، حين لم يبدوا الرغبة في السلام و سياسة حسن الجوار مع الدول العربية ، من هنا ، يمكن القول إن الأديب الإسرائيلي عاموس عوز يعد من الأصوات التي تنادي بإقامة سلام مع الفلسطينيين و الدول العربية و من نافلة القول الإشارة إلى أن دافعه هذا ليس حبا فيهم أو شفقة عليهم ، و إنما لتحقيق الأمن و الأمان لإسرائيل ، فلا يمكن أن يتحقق أمن إسرائيل بالقوة وحدها و يتضح ذلك في مقال نشر في جريدة " يديعوت أحرونوت " الإسرائيلية بعنوان " الجبل و السور " :

"لقد ظللنا عشرات السنين – نحن وهم – يتحدث كل منا إلى الآخر بلغة القوة فقط وهذه اللغة وحدها لم تؤد ولن تستطيع أن تؤدي إلى حصولهم على وطن وهي، أيضًا لم تؤد ولن تستطيع أن تؤدي إلى حصولنا على الاعتراف والأمان"[٥].

---

[1] חבר ספרנים : לקסיקון הספרות העברית החדשה . http://library.osu.edu\galron.1\00397php

[2] غانم مزعل : الشخصية العربية في الأدب العبري الحديث ، (١٩٤٨ – ١٩٨٥) ، دار الجليل للنشر ، عمان ، ١٩٨٦ م ، صـ ٤٨ .

[3] נורית גרץ : חירבת חיזעה ו הבקורת של מחר ، הוצאת הקיבוץ המאוחד ، ١٩٨٣ ، עמ' ٥٧ .

* عام ١٩٦١عزل بنحاس لافون من منصبه كأمينا للهستدروت ، بعد نزاع دار بينه و بين بن جوريون على خلفية ما سمي بـ " فضيحة لافون " و في عام ١٩٦٢ انتظمت داخل حزب ماباي جماعة من مؤيديه سميت (من هيسود) طالبت بعودة لافون و حاربت بن جوريون و دعت إلى العودة إلى قيم حركة العمل .

[4] د / جمال عبد السميع الشاذلي : القصة العبرية القصيرة في أدب عاموس عوز ، رسالة ماجستير غير منشورة ،كلية الآداب قسم اللغات الشرقية و آدابها ، جامعة القاهرة ١٤١١هـ - ١٩٩١ م ، صـ ٦ ، ٧ .

* מפ " י : اختصار للمصطلح العبري מפלגת פועלי ארץ ישראל ، حزب عمال إسرائيل .

[5] إبراهام يهوشواع: الجبل والسور، يديعوت أحرونوت، ٤ / ٣ / ١٩٩٧، مختارات إسرائيلية، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية والاستراتيجية الأهرام، إبريل ١٩٩٧، السنة الثالثة، العدد ٢٨، صـ ١٢.

و بما أن عوز يعارض استخدام القوة في التعامل في الفلسطينيين ، فهو يمقت من ينادي باستخدامها و يمقت من يتعامل مع الفلسطينيين و العرب ، بصفة عامة ، بوصفهم كائنات متدنية ، لذا فهو يتخذ موقف المعارضة من القوى الدينية التي راحت تنمو و تزدهر منذ أواخر فترة الستينيات ، و راحت تسيطر على معظم مؤسسات الدولة و تبسط نفوذها على صناع القرار بداخلها .

و في مقال آخر لـ " عاموس عوز " نشر في جريدة " يديعوت أحرونوت " عنوانه " בשם החיים ו השלום " " باسم الحياة و السلام " ، يهاجم جماعة " גוש אימונים " " جوش إيمونيم ** " الدينية المتطرفة ، فيقول :

" إن الأهداف الحقيقية لهذه الجماعة هي : بسط نفوذ عنيف وقبيح و مشوه للديانة اليهودية على دولة إسرائيل ... إن الهدف الحقيقي لهذه الجماعة، يتمثل في طرد العرب من أجل اضطهاد اليهود بعد ذلك، وإخضاعنا جميعا لإدعاءات أنبيائهم الكاذبين ...إن هدفهم في نهاية الأمر ليس قطع دابر العرب، إنما هو تصفية دولة إسرائيل وإقامة مملكة يهوذا الدينية بدلا منها"[1]

فهو يخشى على إسرائيل من التيارات الدينية المتطرفة ، التي تعمل على تدمير النموذج الأوربي العلماني الديمقراطي لإسرائيل و تحويلها إلى مملكة دينية يهودية أو جيتو يهودي كبير ضاربين بمصطلح الديمقراطية عرض الحائط . فيباد العرب أولا ، ثم يستعبد اليهود فيما بعد .

و الواقع أن عاموس عوز قام " بإثارة عواصف سياسية لم تهدأ حتى الآن بسبب تصريحاته و آرائه حول أرض واحدة لشعبين ، و عن رؤيته للصراع على أنه صراع بين حق مطلق و حق آخر مطلق ، مما جعل البعض يطلقون عليه - ضمير إسرائيل - . "[2]

و خلاصة القول إن الأديب الإسرائيلي " عاموس عوز " يتبنى اتجاها سياسيا معتدلا ينادي بإقامة دولة للفلسطينيين ، لتحقيق أمن إسرائيل ، و لكن يجب على القارئ ألا يظن أن " عاموس عوز " من الذين يقفون في صف الفلسطينيين و حسب ، إنما هو يسعى في نهاية الأمر لتحقيق أمن دولته من وجهة نظره ، فلديه خطوط حمراء يتوقف دونها ، و مع ذلك ، فهو يعد من الفريق الذي يمكن التفاوض معه و استثماره و تشجيعه أملا في تحقيق مكاسب سياسية جديدة على طريق الصراع العربي الإسرائيلي .

٣ - أسلوبه الأدبي و أهم أعماله :

ينتمي "عاموس عوز" إلى جيل أدبي عُرِف بعدة تسميات "فهناك من يسميه جيل الستينيات؛ لأن هذا الجيل بدأ في نشر نتاجه الأدبي بداية من الستينيات في القرن الماضي، وهناك من يسمي هذا الجيل باسم "הגל החדש" "الموجة الجديدة" وهو المصطلح الذي انتشر، بعد كتاب "גרשון שקד" "جرشون شاكيد" "גל חדש בסיפורת העברית" "موجة جديدة في القصة العبرية" وهناك من يسميهم باسم "סופרי דור המדינה" "أدباء جيل الدولة"[3].

وينتهج "عاموس عوز" أسلوبًا خاصًا به في كتاباته الأدبية والسياسية من حيث الفترة الزمنية والمعايير الشخصية والاجتماعية لأبطاله، فمن حيث الفترة الزمنية نراه "يميل إلى النظر إلى الماضي حتى عام ١٩٤٨م وهي السنوات السابقة لحرب ١٩٦٧م وذلك من أجل سبر أغوار الوضع في إسرائيل"[4].

---

1 עמוס עוז : בשם החיים ו השלום , ידיעות אחרונות , 10 / 3 / 1998 .

** גוש אימונים : جوش إيمونيم ، حركة استيطانية من شباب المتدينين ، تكونت بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ بقيادة الحاخام " دوركمان " و يعتقد أعضاؤها أن دولة إسرائيل هي بداية الخلاص اليهودي .

[2] رفعت فودة: مقدمة رواية " حنة و ميخائيل " للكاتب الإسرائيلي " عاموس عوز " ، الدار العربية للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، صـ ٤ .

[3] د / جمال عبد السميع الشاذلي و د / نجلاء رأفت سالم : القصة العبرية الحديثة مراحلها و قضاياها ، مرجع سابق ، صـ ٥٠ .

4 גרשון שקד : גל אחר גל בסיפורת העברית , הוצאת לאור כתר - תל אביב , 1985 , עמ' 67 .

فهو دائم النظر إلى الماضي يستحضره و يراجع أحداثه و يعيد سردها و يتعرض لها بالنقد و الشرح و ، في بعض الأحيان ، بالتأويل محاولا ربط تلك الأحداث بالواقع الحالي ليستقي العبرة أو النصيحة التي يريد سوقها للقارئ .

أما بالنسبة للبطل عند "عاموس عوز" ، فالواقع أن أدباء فترة الستينيات ، بصفة عامة ، قد تأثروا بـ" كافكا " * و"عجنون" ** تأثرا كبيرا ، و نرى هذا التأثير واضحا بشكل خاص لدى "عاموس عوز" " فتأثير كافكا واضح في انتاجه الأدبي ، فرسم عوز لأبطاله يشبه رسم كافكا لأبطاله . فالبطل عندهما يعيش في عالم غريب عنه لا يفهمه . " [١]

فالبطل عند " عاموس عوز " " شخصية غالبا ما تكون ضعيفة و معدومة الإرادة و غير مؤثرة على سير الأحداث ، كذلك فهي شخصية عاجزة عن التعبير عن نفسها ." [٢]

و هذه سمات أساسية في بطل " عاموس عوز " فبطله " لا يمكنه تغيير الواقع المعاش و حتى إذا ما حاول ذلك ، فإنه يجلب على نفسه الموت و الضياع . " [٣]

كما تأثر " عوز " بنظريات عالمي النفس " سيجموند فرويد " و " كارل يونج " في عدة نقاط ، منها " ضعف الإنسانية و عدم استقرارها و التطور التدريجي في غرائزها علاوة على تفسير السلوك الإنساني تفسيرا جنسيا ، و دور الجنس في حياة الإنسان . كما نجده يجمع بين الشئ و نقيضه ففي الوقت الذي يخشى فيه البطل من شيء معين نجده ينجذب إلى هذا الشيء على الرغم من أخطاره و إحساسه بالخوف منه . " [٤]

و تجدر الإشارة هنا إلى أن " عاموس عوز " قد حافظ على ملامح أبطاله خلال معظم أعماله كما احتفظ بالفضاء القصصي نفسه الذي تدور فيه أحداث قصصه و في عمله الروائي الأخير " תמונות מחיי הכפר " – رواية ، نشرت عام ٢٠٠٩ - يتأكد ما ذكر آنفا ، حيث تظهر الرواية " شيخوخة منحلة و حياة شابة عقيمة و مع استمرار الأحداث تغلف الرواية باليأس التام ، و مع أن الرواية تبرز صور الشباب و الأمل ، إلا أنها تبرز أيضا التفكك و الرعب و التدهور و الموت . و تغرقنا تلك الصور في الخوف و القذارة و اليأس الشديد و في الصورة الأخيرة التي تحمل عنوان " في مكان آخر ، في زمان آخر " تتحول اللطمات إلى ضربة فأس ." [٥]

و بالفعل قدم " عوز " البطل الذي يعاني من إشكالية في هويته في معظم أعماله ، و البطل عنده لا يشعر بهذه الإشكالية من تلقاء نفسه ، بل هناك عوامل تدفعه ، لكي يقع فريسة لمثل هذا الشعور منها :

" - **الدين :** حيث يظهر من خلال قصص عوز أن الدين له أثر كبير على اغتراب الفرد ، إذ أنه توجد أمور دينية يظهر الإنسان عدم رضاه عنها ، إذ أنها تسبب له كثيرا من القلق و المشاكل ، لكنه في الوقت نفسه يكون مضطرا أن يسير وفق ما يقتضيه الدين .

- **المجتمع :** فالبطل لدى عوز لا يشعر بالاستقرار في المجتمع الذي يعيش فيه ، و نتيجة لهذا فإن أعمال البطل تكون احتجاجا و انتقاما من المجتمع الذي لم يؤهله لأن يحتل مكانة بارزة في المجتمع . " [٦]

هذا و يمكن أن يضاف للعاملين السابقين عامل آخر ، ألا و هو

---

* فرانز كافكا : أديب يهودي ولد في النمسا. من أهم الأدباء الذين تناولوا قضية الاغتراب .

* * שמואל יוסף עגנון :ولد عام ١٨٨٨ في جاليسيا.هاجر إلى فلسطين. حصل على جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٦٦ مناصفة مع الأديبة الألمانية " Nely Sax " نيلي ساكس .

[١] د / جمال عبد السميع الشاذلي و د / نجلاء رأفت سالم : القصة العبرية الحديثة ، مرجع سابق ، صـ ٥٢ .

[٢] יוסף אורן : שבבים , הוצאת יחדיו בשתוף אגודת הסופרים , 1987 , עמ׳54 .

[٣] גרשון שקד : גל חדש בסיפורת העברית ، הוצאת ספרית פועלים، תל אביב ، ١٩٧١ ، עם ״ ١٨٢ .

[٤] د / جمال عبد السميع الشاذلي : القصة العبرية القصيرة في أدب عاموس عوز ، مرجع سابق ، صـ ٩ ، ١٠ .

[٥] נילי כהן : הגרזן של קפקא .http://www.haaretz.co.il.06-03-2009

[٦] د / جمال عبد السميع الشاذلي : القصة العبرية القصيرة في أدب عاموس عوز ، مرجع سابق ، صـ ٦٦ ، ٦٧

- **الـوطن :** فالبطـل عنـده لا يـرتبط ، بشـكل كامـل ، مـع إسـرائيل بوصـفها وطنـا لليهود ، فغالبا ما يقارن بين هذا الوطن و وضعه داخله بصفته مواطنا إسرائيليا مرتبطا به و بين وطن آخر و كيف سيكون وضعه فيه إذا ما هاجر إليه ، أي إنه دائما ما يضع إسرائيل بوصفها وطنه في مقارنة مع أوطان أخرى و يخلص من هذه المقارنة إلى أن وضعه داخل أي وطن آخر سيكون ، بلا شك ، أفضل من وضعه داخل إسرائيل .

والواقع أنه يمكن أن نلتمس علاقة ما بين أعمال " عاموس عوز " الأدبية بعضها البعض " فهناك خيوط تربط قصصه ، تلك الخيوط التي تنسج واقعا حقيقيا – خياليا بلغة الحياة اليومية التي تخلو من الهنات ، فكل القصص مبنية على علاقات ضائعة و على عمليات بحث مستمرة و على الهروب و القيود و على الأسوار الخيالية التي يقيمها البشر بينهم و بين أنفسهم و على الرغبة في تفجير الأسوار أو إفشاء الأسرار المدفونة في باطن النفس . "[1]

و نتيجة لذلك نجد أن البطل عند " عاموس عوز " غالبا ما يعاني من إشكالية في هويته الوطنية و تتمثل في صعوبة وجود انتماء قوى بينه و بين وطنه ، كذلك يعاني بطل " عوز " من إشكالية في هويته الاجتماعية ، من خلال صراعه اليائس داخل مجتمعه و ضيق صدره من معايير هذا المجتمع ، بالإضافة إلى إشكاليته في هويته الدينية ، حيث يرى أن الديانة اليهودية غير ملائمة لكي تكون المشرع الذي يسن قوانين أي بلد ديمقراطي .

و تدلنا أعمال " عوز " الأدبية على اتجاهاته الفكرية " فيحاول في بداية مشواره الأدبي الكشف عن الوجه المكبوت لشخصياته ، أي رغبات الرجال و النساء الدفينة في روايتي " ארצות התן " بلاد بنات آوي ، و " מקום אחר " مكان آخر ، و التوق إلى تحطيم قيود الواقع البرجوازي الصغير في روايته " מיכאל שלי " " ميخائيلي " و العلاقة السادية المسيطرة على المجتمع البشري في رواية " עד מוות " حتى الموت . و في مرحلة لاحقة حاول " عوز " تأويل بعض جوانب المجتمع الإسرائيلي و ذلك في روايته " מנוחה נכונה " * راحة حقيقية و " קופסה שחורה " صندوق أسود ، ثم كتب سلسلة من القصص التي تدور حول شخصيات تحاول الفرار من التاريخ إلى واقع خاص بها يريحها من أعباء التاريخ " לדעת אישה " أن تعرف امرأة و " מצב השלישי " الحالة الثالثة . و مع أن مؤلفاته أصبحت أكثر تملكا للعاطفة ، إلا أنها ما زالت تهيمن عليها طريقة التعبير البلاغية التي تحتاج إلى الأفكار المهيمنة المتكررة للتعبير عن المشاعر المبالغ فيها . "[2]

و نلاحظ ، من خلال أعمال " عاموس عوز " الأدبية ، سيطرة الحالة النفسية للشخصية على تصرفاتها و سلوكها ، حيث " ظهر ذلك الوضع النفسي في أعمال عوز الأدبية ، فقد قام عدد غير قليل من النقاد بإثبات حقيقة وجود البعد النفسي في قصصه ... و قد حاولوا إيجاد علاقة سببية نفسية بين الأحداث التي تقدمها قصصه و رواياته و بين تصرفات شخصيات مثل : زكريا و نحميا في روايته " مكان آخر " و متتياهو دمقوف ، و جيئولا و شمشون ، و داف سيرفين و باتياهو بينسكي و ليلى دينبرج في قصته " بلاد بنات آوي " و قد أرجعوا ذلك لدوافع نفسية . "[3]

إذن يمكن القول إن أعمال " عاموس عوز " الأدبية غالبا ما تتناول الشخصية الإسرائيلية الممزقة و وضعها داخل مجتمع هو نفسه يبحث عن مخرج و خلاص روحاني له ، بعد أن تشرذم و أخذ في الانحلال ، مع بيان الأثر النفسي لذلك على

---

[1] נילי כהן : הגרזן של קפקא .http://www.haaretz.co.il.06-03-2009

[2] جرشون شاكيد و دافيد سجيف : أنثولوجيا وجه آخر . قصص عبرية مختارة ، دار الجليل للنشر و الدراسات و الأبحاث الفلسطينية ، بالتعاون مع معهد ترجمة الأدب العبري ، و معهد فان لير في القدس ، عمان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٨ م ، صـ ١٧ .

[3] גרשון שקד : גל חדש בסיפורת העברית , שם עמ' 183 .

أفراد هذا المجتمع و الفشل الذريع الذي ينتظر الأجيال القادمة ، بعدما تجد نفسها محاصرة داخل مجتمع كهذا .

٤ - الرواية موضوع البحث " מנוחה נכונה " " راحة حقيقية " :

- عرض الرواية :

تدور أحداث الرواية داخل أسوار أحد الكيبوتسات ، و تحكي عن شخصية " يوناثان " بطل الرواية و هو ابن رئيس الكيبوتس ، هذا الابن الذي مل من والديه و بيئته ، فقد قيل عنه إنه ابن عشيق أمه " تروتسقي " الذي هرب من الكيبوتس ، بعدما حاول قتل والدة الطفل و والده القانوني " يولك " الذي سجل الطفل باسمه ، و ثور في الحظيرة ، و قد فشل في الحالات الثلاث .

و قد تزوج " يوناثان " من " ريمونا " و هي فتاة بسيطة و جميلة ، إلا إنها رغم جمالها لم تعد تثيره جنسيا ، و بينما كان " يوناثان " يخطط لهجرته من الكيبوتس وصل إلى الكيبوتس مهاجر غريب الأطوار يدعى " عزريا جيطلين " و هو فنان محترف ، و متحدث لبق ، و فيلسوف حكيم ، رحال يبحث عن الحب و الأسرة و الصداقة و المأوى .

يخرج " يوناثان " و يدخل " عزريا " و قبل أن يتم التبادل ، يسكن كلاهما في منزل " يوناثان " و يتقاسمان المنزل و العمل في ورشة الكيبوتس ، و في النهاية يخرج " يوناثان " و يشغل " عزريا " مكانه حتى بالنسبة لزوجته " ريمونا " ، رغم شعور والدة " يوناثان " بالحزن و الكآبة و رفضها لما يقوم به " عزريا " . أما " يولك " الأب ، فيظن أن " يوناثان " قد هرب لأبيه الثاني " تروتسقي " الذي يعيش في الولايات المتحدة و يقوم الجميع بالبحث عن الابن المفقود ، أما يوناثان ، فيحاول أولا الذهاب إلى " بترا "[١] و لكنه يبقى في النهاية في وادي " عربة "[٢] مع " ساشا " و هو عجوز غريب الأطوار . و بعد خروج " يوناثان " يأخذ أبوه ، زعيم الكيبوتس العجوز ، في الانهيار و يسلم زعامة الكيبوتس لصديقه " شروليك " .

و كلما طال غياب " يوناثان " ازدادت جذور " عزريا " ترسخا ، حيث حملت " ريمونا " منه و وضعت طفلة . و في النهاية يعود " يوناثان " قبل حرب ١٩٦٧ م إلى بيته و تعود حياة الوفاق بين الثلاثة – زوجة لزوجين - و في هذه المرة بموافقة " حوا " الأم . و تدلنا خاتمة الرواية على أن عملية التبادل التي تمت بين " يوناثان " و " عزريا " قد جلبت الراحة و الطمأنينة للكيبوتس و أكثر من ذلك ولادة " نعمة " ، فـ " عزريا " هو والدها ، حيث لم يعد شخصا غريبا في الكيبوتس ، كما كان الحال فيما مضى و " نعمة " هي حفيدة " يولك " و " حوا " ، و بذلك صار لـ " يولك " نسل .

- الآراء النقدية حول الرواية :

يقول الناقد الإسرائيلي " جرشون شاكيد " عن هذه الرواية : " يمكنك أن تبالغ في مدح رواية عاموس عوز ، و يمكنك أن ترفضها شكلا و موضوعا ، و لكنك لا تستطيع أن تظل غير مبال تجاهها ، و ذلك بسب أن مقدرة عوز لا تفتأ تظهر ، حتى في أعماله الأقل جودة ، لا يمكنك أن تظل غير مبال لأنه في عمله يحاول ، مثلما حاله مع بطله عزريا جيطلين ، أن يذهلك بلمعان كبير ، أن يجذب قلبك بأي رسالة غير متوقعة ، و في الوقت نفسه يظل في المجال ذاته ، الذي يقربه من لبّ مشكلات الجيل . "[٣]

و يقول عنها الناقد الإسرائيلي "يوسف أورين": "عكف الأدب العبري ، منذ حرب ١٩٧٣ م بشكل كامل على موضوع واحد ألا و هو فحص كوابيس الوضع الإسرائيلي ، فقد أبرزت هذه الحرب الخطر المتربص لاستمرار الوجود القومي بالاعتماد على الدولة وحدها ، و ذلك وفقا لما أوصى به الفكر الصهيوني ، و قد أشارت الروايات التي عبرت عن تلك المخاوف إلى الحقيقة التي مفادها أن الحدود القطرية من شأنها أن تصير شركا لمن يعتمد عليها

---

١ – بترا : مدينة البتراء ، و هي مدينة أثرية في الأردن .

٢ - وادي العربة : يمتد من بحيرة طبرية و حتى جنوبي البحر الميت .

3 גרשון שקד : גל אחר גל , שם עמ׳84 .

... و في روايته هذه ينشغل عاموس عوز بهذا الجانب " الوضع الإسرائيلي " ، فيفحص صورتنا القومية من الجانب الوراثي ، حيث تقارن الرواية النتيجة الصبارية بالآباء المؤسسين و تدعى أن علم الوراثة يعمل ضد مصلحة اليهود في سنوات الدولة . " [1]

إذن فالرواية تتناول ما سمي بـ " الوضع الإسرائيلي " و هو الوضع السياسي الإسرائيلي ، بعد هزيمة ١٩٧٣ م و ما نجم عنها من آثار سلبية كثيرة على المجتمع الإسرائيلي ، و تبرز كذلك أن القوة وحدها لا تضمن الأمن و الاستقرار لإسرائيل و أن السعي وراء امتلاك القوة ، فقط سيؤدي بالدولة إلى شرك كبير ، ينتج عنه تدميرها . و يقدم عاموس عوز ، من خلال هذه الرواية ، رأيه فيما يتعلق بالخلاص اليهودي ، فيرى أن اليهود إنما جاءوا إلى إسرائيل ليكونوا أحرارا ، و لم يأتوا ليحرروا الأرض المقدسة من تدنيس الغرباء ، أيضا يمكننا أن نتبين من الرواية إحساس عاموس عوز بإفلاس الفكر الصهيوني التقليدي ، و عدم الرضا عن السياسات العامة للصفوة الحاكمة في إسرائيل و يقول لزعماء إسرائيل إن الحقائق المطلقة المتعلقة بالفكر الصهيوني قد أفلست و أن عليهم أن يكفروا بفرادة التجربة الإسرائيلية ، ذلك أن الرابطة بين اليهودي و أرض الميعاد ليست رابطة أزلية صوفية ، كما يدعى الصهاينة ، بل هي رابطة تخضع لمقاييس تاريخية إنسانية عادية . لذلك فهو غير مستعد ليكمل ما بدأوه و أن يلتزم بما يفرضونه عليه .

من جانب آخر يرى " جرشون شاكيد " أن هناك ترابطا و تشابها بين هذه الرواية و بين رواية " מקום אחר " " مكان آخر " للمؤلف نفسه ، إذ يقول " إن رواية عاموس عوز الجديدة " מנוחה נכונה " " راحة حقيقية " قريبة في الخلفية و العناصر من روايته " מקום אחר " ففي روايته " راحة حقيقية " يظهر مأزق العلاقات الشخصية ، مثلما في روايته " مكان آخر " . ففي كلتا الروايتين لا تتكون العلاقات الشخصية بدوافع ذاتية ، وإنما تأتي لتمثل شيئا ما من خارجها و من ماضيها – و يظهر ذلك في هذه الرواية أكثر من رواية " مكان آخر " - ، أيضا فإن الشخصيات لا تقع تحت سلطة ذاتها ، بل تحت سلطة دوافع " موتيفات " . " [2]

ثم يعود " شاكيد " ، مرة أخرى و يرى أن التشابه لا يقع فقط بين رواية " راحة حقيقية " و رواية " مكان آخر " ، بل إن هناك علاقة قوية تقع بين رواية " راحة حقيقية " و عدد من الروايات الأخرى للمؤلف نفسه ، إذ يقول : " من الممكن فحص تكرار المدلولات في الأعمال من خلال التأمل في دافع العودة في الروايات الثلاث الأخيرة : " راحة حقيقية " و " صندوق أسود " و " أن تعرف امرأة " و ربما ، أيضا في الرواية الأخيرة " الحالة الثالثة " ، حيث يوجد في كل هذه الروايات وضع يظهر رجلين يعيشان مع المرأة نفسها . " [3] فتكرار فكرة الرجلين اللذين يعيشان مع المرأة نفسها في هذه الروايات لهو خير دليل على دعوة " عوز " إلى إمكانية تعايش شعبين على أرض فلسطين .

أيضا ، ففي الروايات الثلاث – " راحة حقيقية " ، و " صندوق أسود " ، و " أن تعرف امرأة " - تظهر الصورة الآتية : " رجال ضعاف يلتمسون إقامة علاقة مع رجال أقوياء وجدوا ليكملوهم و ينقذونهم من عزلتهم و من تفسخهم ، و من الطريق المسدود الموجودون به . و لن يتغير الحال إذا ما كان أولئك الرجال شخصيات واقعية ، شخصيات في الوجود الحالي ، أو جانب آخر في نفسية البطل ، ذلك الجانب الذي يحاول البطل الارتباط به ليعوض أي نقص في شخصيته . " [4]

---

[1] יוסף אורן : ההתפכחות בסיפורת הישראלית , הוצאת יחד - תל אביב , עמ' 127 .

[2] גרשון שקד : גל אחר גל , שם עמ' 85 .

[3] גרשון שקד : ספרות אז כאן ו עכשיו , הוצא לאור זמורה - ביתן , תל אביב , 1993 , עמ' 124 .

[4] שם עמ' 124 .

و بالفعل هناك علاقة بين رواية " راحة حقيقية " و الروايات المذكورة آنفا وهذا أمر طبعي ، فغالبا ما يكون هناك خيط رفيع يربط معظم أعمال الأديب أو على الأقل يربط هذا الخيط كل مجموعة من أعمال الأديب بعضها البعض حسب موقفه و اتجاهه الفكري في ذلك الوقت . و بالنسبة للربط الذي قام به " جرشون شاكيد " ، ربما يمكن أن يضاف إليه أن رواية " صندوق أسود " هي أقرب الروايات لرواية " راحة حقيقية " ، حيث يظهر في الأولى شخصية " بوعز " الذي تقول عنه الناقدة الإسرائيلية شولاميت شميدط :

" إنه الصبار الثائر الذي يركل قيوده ، و يطالب بصياغة حياته وفقا لنهجه هو . وهو قريب من الأرض ، لذا راح يطالب بالعيش في الحاضر و العزوف عن الماضي . " [1]

و هذا تقريبا حال " يوناثان " في رواية " راحة حقيقية " ، فهو الصبار الإسرائيلي الثائر الذي يركل كل قيوده و الذي ضاق ذرعا بواقعه و عجز عن تحقيق ذاته في مجتمعه ، إلا أن الفرق بين شخصية " بوعز" في رواية " صندوق أسود " و شخصية " يوناثان " في رواية " راحة حقيقية " يظهر في كون " يوناثان " أكثر يأسا و تشاؤما من " بوعز " ، فالأول يعاني من إشكالية في هويته الوطنية و الاجتماعية و الدينية و يقرر الهرب و حتى هذا الهرب يعجز عن تحقيقه ، فبعد الهرب تأتي العودة و يصاحبها الاستسلام بالأمر الواقع دون تغيير ، أما " بوعز " ، فهو " يكتفي بالعمل اليومي البدني في تمهيد الأرض ... و هو لا يريد أن يتوغل في جذور الصراعات القومية ، و في جذور الإحساس بالإحباط و الفشل . و في نهاية الأمر يبدو على " بوعز " الفضول و النزعة القومية . " [2]

فشخصية " بوعز " لديها بعد إيجابي تفتقده شخصية " يوناثان " .

و ربما يمكن أن يضاف إلى ربط " جرشون شاكيد " أيضا ، أن رواية " الحالة الثالثة " هي أبعد الروايات عن روايتنا موضوع البحث ، إذ تعبرهذه الرواية عن التطورات السياسية المختلفة التي يتعرض لها المجتمع الإسرائيلي ، خلال فترات وجيزة الأمر الذي يجعله مجتمعا مفتقرا إلى الاستقرار و الطبيعة ، حيث تشير هذه الرواية إلى الصراع الدائم بين اليمين و اليسار الإسرائيلي في قيادة هذا المجتمع ، مما يخلق حالة من التناحر الدائم بين كلا المعسكرين ، و من هنا ينقطع أمل المجتمع الإسرائيلي في العيش الهادئ . و هنا يقدم " عوز " الحل من خلال ما يعرف بـــ " الحالة الثالثة " و هي حالة وسطية بين اليمين و اليسار " و قد شعر " فيما " بطل الرواية – و هو من اليسار الإسرائيلي – بالحالة الثالثة حينما جلس بجوار " ياعيل " - و هي من اليمين الصهيوني – دون حراك أو حديث ، و قتئذ شعر بالبهجة و السعادة و الاكتفاء و كأن هناك انسجاما عميقا وعظيما بينهما ، و لكن هذه المحاولة لا تلبث أن تفشل ، و ذلك بعد اتخاذ " فيما " في النهاية قراره بالابتعاد عن الساحة السياسية نهائيا . " [3]

و مع ذلك ربما يكون هناك شيء من التشابه بين الروايتين كلتيهما ، من خلال الاشتراك في غياب الوريث الصهيوني الذي يسير على الطريق الذي رسمه الآباء ، فكل جيل اسرائيلي جديد يأتي أضعف و أكثر تفسخا من سابقه .

وجدير بالذكر أنه إذا ما أردنا عقد تشابه بين روايتنا موضوع البحث و قصة أخرى ، فسنجد التشابه واضحا بينها و بين الرواية المقرائية لقصة " شاؤول " و " يوناثان " ابنه ، حيث يقص علينا سفر صموئيل الأول * كيف أن " يوناثان " بن " شاؤول " الملك يرفض أن يخلف أباه و يرى عدم رغبته في الحكم ، و يظهر في الأحداث " داود " الذي سيكون المرشح الأول إذا ما رفض " يوناثان " استلام الحكم ، بعد والده . و يحاول " شاؤول " الملك غير مرة أن يقتل " داود " و يقوم " يوناثان " بتحذير داود و يصبحان صديقين .

---

[1] שולמית שמידט : תשע בספרות . עיונים בתשע יצירות בסיפורת העברית החדשה לבחינות הבגרות , הוצא לאור קשת , תל - אביב , 1989 , עמ' 33 .

[2] שולמית שמידט : שם , עמ' 33 .

[3] יוסף אורן : העט כשופר פוליטי , שם , עמ' 36 , 37 .

فهذا المثلث المقرائي ، " شاؤول " الملك ، " يوناثان " الابن الرافض للحكم ، " داود " الملك الجديد ، يقابل المثلث الروائي في رواية " راحة حقيقية " – " يولك " زعيم الكيبوتس ، " يوناثان " الابن الرافض للحكم " عزريا " الزعيم الجديد – فـ " عزريا " هو الرجل الذي تفتقده الكيبوتس ، ذلك الرجل الذي سيبدأ الملك من البداية ، و كما بدأت سلالة جديدة من " داود " ستبدأ سلالة جديدة ، أيضا ، من " عزريا " بعد رفض ابن " يولك " أن يخلف أباه في الحكم .

وليس هذا وجه الشبه الوحيد بين القصتين ، "فكما عانت مملكة "شاؤول" الصغيرة أيضا من تهديدات العدو " البلستي " كان الحال نفسه مع دولة "يولك" ، حيث تورطت حتى النخاع في تهديدات بلا هوادة عقب المشكلة الفلسطينية ... أيضا قرية شيخ دهر الخربة ، التي تلقي برعبها على مملكة " يولك " ، فقبل سبعة عشر عاما حين خربت القرية في حرب ١٩٤٨م إفترض أن كيبوتس جيرانوت سيصير بمنأى عن رعب وكر القاتلين و لكن القرية الخربة رفضت أن تموت وحدها ، فلا زالت في بقاياها بقايا حياة . وبالنسبة لأبناء جيل "يوناثان" ، فهم يشدون إلى القرية بحبال خفية من الرعب ، ينبشون تربتها و يعلقون تذكارات ذنوبهم في حجراتهم...يجلبون من هناك الكابوس إلى وسط بيوت الكيبوتس الصغيرة . لا يستريحون و لا يتمكنون من الاطمئنان . "[1]

و لا يخفي علينا هنا ، إشارة القرية العربية المدمرة في حرب ٤٨ ١٩ م و ما تبثه من رعب في مجتمع الكيبوتس المجاور لها ، حيث يمكن أن تشير القرية العربية المدمرة إلى فلسطين التي دمرت عام ٤٨ و ما أحدثه هذا الدمار من تخريب للأرض و تشتيت للسكان ، و يشير الكيبوتس إلى دولة إسرائيل المقامة ، بعد حرب ٤٨ ، حيث كان جيل الآباء المؤسسين صاحب هذه الحرب . و تتضح وجهة نظر " عوز " من خلال ذلك ، فعنده أن جيل الآباء هو من أحدث مشكلة فلسطين قديما ، و أن جيل الأبناء هو من يدفع ثمن هذه المشكلة ، فلا يشعر بالراحة و الأمان داخل إسرائيل و هو لن يشعر أبدا بالأمن و الأمان مادامت مشكلة فلسطين قائمة .

وبالرجوع ، مرة أخرى ، للربط مابين رواية "راحة حقيقية" والقصة المقرائية الواردة في سفر صموئيل الأول : نجد أن هناك اختلافا هاما فيما بينهما ، حيث **"**لم يتصرف " يولك " مثل " شاؤول " الذي أراد أن يميت " داود " ، بل تبنى " يولك" "عزريا " ، بدلا من " يوناثان " و بدأ بتعهده بالرعاية ، بصفته وريثا لملكه . فاستعداد "يولك" لتوريث ملكه لمن ليس من صلبه من شأنه أن يضع أيدينا على خطورة وضع الدولة ، حيث تم نفي الزعم الذي مفاده أن بقوة الدولة وحدها يمكن ضمان استمرار الوجود اليهودي**"**[2] فيمكن أن نقول : إن " عاموس عوز " يدعو إلى وجوب البحث عن قيادة أفضل لإسرائيل ، قيادة تسعى للقوة من أجل حماية الدولة ، لا من أجل قمع شعب آخر ، تلك القيادة التي ستبدأ حكم إسرائيل من جديد و تجلب لها الراحة الحقيقية .

ب – " סמי מיכאל " " سامي ميخائيل " :

١ – حياته :

"ولد في بغداد عاصمة العراق في أغسطس عام ١٩٢٦م ، وكان اسمه وقتئذ صالح منشى. كان والده تاجرا ، كبر و ترعرع في حي مختلط يضم يهودا و مسلمين و نصارى وحينما بلغ الخامسة عشرة انضم للنشاط الشيوعي العراقي ، و كان ناشطا في سبيل حقوق الإنسان في العراق . و في سن السابعة عشرة بدأ في الكتابة في الصحف الشيوعية . و حين بلغ الحادية و العشرين هرب إلى إيران ، بعد صدور أمر باعتقاله . و قد استمر هناك

---

[1] יוסף אורן : ההתפכחות בסיפורת הישראלית , שם עמ׳134 .

* لمزيد من الإيضاح ، راجع سفر " صموئيل الأول " الإصحاحات من ١٨ حتى ٢١ .

[2] יוסף אורן : ההתפכחות בסיפורת הישראלית , שם , עמ׳ 138

في نشاطاته الشيوعية . و بعد أن حصل على بطاقة هوية باسم سامي ميخائيل سافر عام ١٩٤٩ م إلى إسرائيل . " [١]

و نلاحظ البعد اليساري في شخصية " سامي ميخائيل " ، فانضمامه للحزب الشيوعي اليساري و هو بعد في الخامسة عشرة قد أثر ، و لاشك ، تأثيرا كبيرا في حياته ، و خاصة في اتجاهه السياسي ، كما سيتضح فيما بعد .

و بعد أن انتقل " سامي ميخائيل " إلى إسرائيل ، إلتقى هناك بالأديب الفلسطيني " إميل حبيبي " و هو أحد أبرز قيادات الحزب الشيوعي في إسرائيل ، و حدث ذلك ، " بعد أن استقر " ميخائيل " في حيفا ، حيث أصبح أحد أعضاء هيئة التحرير في مجلة " الاتحاد " الناطقة بلسان الحزب الشيوعي الإسرائيلي – מק" י * - . و كان قد بدأ ينشر كثيرا من القصص العربية القصيرة في مجلة " الجديد " تحت اسم مستعار هو - سمير مارد - . " [٢]

هذا و قد " درس " سامي ميخائيل " علم النفس و الأدب العربي في جامعة حيفا . و في عام ١٩٧٤ م نشر روايته الأولى " שווים ו שווים יותר " " متساوون و متساوون أكثر " ، و في عام ١٩٨٢ م منح جائزة رئيس الوزراء . " [٣] أيضا ، فقد نال عدة جوائز أدبية أخرى منها جائزة " ברנר " " برنر " و جائزة " זאב " " ذيئب " .

و عن هجرته من العراق و سفره إلى إسرائيل يقول " إيهود بن عيزر " :

" و معروف أن " سامي ميخائيل " ولد في العراق و كان عضوا في الحركة الشيوعية السرية و هو في بغداد ، لكنه بعد فترة هرب إلى إيران و واصل نضاله من هناك ضد السلطة العراقية ، ثم ذهب إلى إسرائيل عام ١٩٤٩ ، بمحض الصدفة أو ربما ساقه قدره إلى ذلك ، و ليست وجهة نظر صهيونية بأي حال من الأحوال . " [٤]

فانتقاله إلى إسرائيل لم يكن يصاحبه أي اتجاه صهيوني ، و لم يقم بتحديد وجهة سفره هذه بناء على حب أو شوق أو حتى نزعة تاريخية أو دينية ، مثل أرض الآباء و الأجداد و كل تلك الدعاوي ، التي استخدمتها الحركة الصهيونية آنذاك للترويج لهجرة اليهود نحو دولة إسرائيل المقامة حديثا على أرض فلسطين .

و جدير بالذكر أن " سامي ميخائيل " قد واجه عند انتقاله إلى إسرائيل العديد من المشكلات ، و لعل أهمها مشكلة اللغة ، فلم يكن يعرف العبرية و هذه مشكلة لدى أي فرد يحاول الاستقرار في بلد جديد ، فما بالنا بكاتب و أديب تعد اللغة بالنسبة له ليست مجرد وسيلة للتخاطب و آداة للتفاهم ، و إنما هي كيان كامل لا يستطيع التخلي عنه .

و عن ذلك يقول " سامي ميخائيل " : " و الآن لدى بلوغي سن الثامنة و السبعين فإنني أستعرض شريط حياتي و أجد أن إحدى التجارب المركزية التي خضت غمارها هي ضياع اللغة الأم و اكتساب لغة جديدة . و يعد هذا لكمة قاسية بالنسبة لكاتب . " [٥]

و قد استطاع " سامي ميخائيل " أن يجيد العبرية و يستخدمها لغة لكتاباته التي لاقت شهرة و رواجا لا بأس بهما ، حيث مثلت أعماله على المسرح ، كما عرض بعضها على شاشات التلفاز و في دور السينما .

هذا و قد تقلد " سامي ميخائيل " رئاسة نقابة " حقوق المواطن الإسرائيلي " ، منذ شتاء عام ٢٠٠١ م .

---

[١] חבר ספרנים : לקסיקון , שם . http://library.osu.edu\galron.1\003355.php

* هو اختصار لـ : מפלגת קומוניסטית ישראלית . الحزب الشيوعي الإسرائيلي .

[٢] شهاب الكردي: يهود العراق وإسهامهم في الرواية الإسرائيلية، إبداع مجلة شهرية، العدد الثالث، مارس ١٩٩٥، صـ ٧٦.

[٣] חבר ספרנים : לקסיקון , שם . http://library.osu.edu\galron.1\003355.php

[٤] إيهود بن عيزر : صورة العربي في الأدب العبري في وطن الأشواق المتناقضة – قصص مختارة - ، ترجمة : د / أحمد حماد ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الحمراء للطباعة و النشر و التوثيق و التوزيع ، ٢٠٠١ ، صـ ٦٢ ، ٦٣ .

[5] http://almash-hadmadarcenter.org\id=2423\2-01-2002

٢ - اتجاهه السياسي و موقفه الفكري :

عرفنا من هذا العرض الموجز لحياة الأديب الإسرائيلي " سامي ميخائيل " أنه كان متفتحا سياسيا ، منذ صغره ، كذلك كان مناضلا نشطا في فترة شبابه ، و قد لازمه ذلك أيضا بعد سفره و استقراره في إسرائيل ، و إن كان قد اتخذ شكلا معنويا ، بعد أن كان في الماضي يظهر في شكل عملي على أرض الواقع ، ففي إسرائيل استخدم " سامي ميخائيل " القلم للتعبير عن آرائه و توجهاته و ثوراته السياسية من خلال أعماله الأدبية و مقالاته و ندواته المختلفة .

و أول ما لاحظه " سامي ميخائيل " فور وصوله إلى إسرائيل هو غبن اليهود الشرقيين و التعامل معهم بوصفهم جراثيم ، يجب أن يرشوا بمادة " الدى . دي . تي " المطهرة و قد ساءه ذلك إلى أقصى حد ، ثم بعد استقراره في إسرائيل شعر فعليا بالمعاناة التي يعانيها أبناء الطوائف الشرقية ، حيث ذاق بنفسه المهانة التي يلقاها اليهود الشرقيين . فعلى المستوى السياسي ، لم يكن لليهود الشرقيين أحزاب خاصة بهم و ذلك بسبب عدم توافر التمويل الحكومي المناسب لهذا الأمر ، أما على المستوى الاجتماعي ، فاليهودي الشرقي لا يمكنه أن يحتل مرتبة اجتماعية عالية في المجتمع الإسرائيلي ، مهما تكن درجة ثقافته أو مهارته ، فهو لمجرد كونه شرقيا لا يجب عليه أن يعلو ، بل يفرض عليه أن يظل في القاع ، من هنا أدرك " سامي ميخائيل " أن كل شيء في إسرائيل موجود ، فقط لخدمة مصالح يهود آخرين غيره هم اليهود الأشكيناز أو اليهود من ذوي الأصول الأوربية ، الذين يتحكمون في المجتمع الإسرائيلي سياسيا و اقتصاديا و ثقافيا . و عن ذلك يقول المفكر الإسرائيلي " جرشون شاكيد " :

" إن الأديبين الأكثر تشويقا و أهمية في هذه المجموعة – يقصد أدباء الطائفة الشرقية – هما " سامي ميخائيل " و " شمعون بلاص " ، فكلاهما من أصل عراقي ، وكانا هناك عضوين في الزعامة الفكرية للشباب العراقي ، هؤلاء الشباب الذين كانت غالبيتهم مقربة من الحزب الشيوعي . لم تكن هجرتهما إلى إسرائيل مرتبطة ، فقط بنقص في المساواة الطائفية ، بل أيضا بنقص المساواة الاجتماعية ، من بعد أن فقدا مكانتهما العليا . و منذ أن تعلما اللغة العبرية ، و نجحا في التعبير عن نفسيهما قاما بالتعبير عن سخطهما إزاء الجماعات المسيطرة و في مرحلة لاحقة عملت قلة معدودة من هذه المجموعة من أجل التقارب الثقافي ، و المعاناة المشتركة و الماضي الشيوعي بينهم و بين المفكرين الفلسطينيين الإسرائيليين ، الذين انتموا أيضا للشيوعيين . هذا التقارب الذي جعل " بلاص " ينقطع عن التيار المركزي في المجتمع الإسرائيلي ، و هو نفسه الذي حدا بـ " ميخائيل " أن يكافح حتى يلتمس طريقا يتيح له أن يناضل من أجل أفكاره . " [١]

و لعل في هذا اعتراف من المفكر الإسرائيلي " جرشون شاكيد " بالجور الواقع على اليهود الشرقيين في إسرائيل و انحطاط مكانتهم الاجتماعية فيها ، الأمر الذي دفعهم إلى التقرب من فلسطيني ٤٨ ، مما زاد من كره سائر المجتمع الإسرائيلي لهم ، و زادت معه معاناتهم داخله .

أما على المستوى الثقافي ، فقد " اتسم تاريخ من يدعون بـ " اليهود العرب " أو " السفارديم " برغبة مشابهة لتطهيرهم من الثقافة التي جاءوا منها ، من اللغة التي تكلموا بها ، و إلى حد كبير من الذكريات التي حملوها معهم . لذلك هناك منظومة شاذة لما يجب لمكان العودة أن يكون عليه . فذلك النموذج مستمد من حالة وجد فيها اليهود الأوربيون الذين كانوا يحاولون الاندماج في نماذج التنوير أنفسهم مهددين ، في المقام الأول ، من يهودية أخرى كانت جزءا منهم ، لكنها كانت الجزء الذي يودون التخلص منه . و على هذا الأساس ، لم يكن من الممكن الاعتراف باليهود الذين وجدوهم عند قدومهم

[1] גרשון שקד : הסיפורת העברית 1880- 1980. ד . בחבלי הזמן הריאליזם הישראלי 1938 – 1980 , הוצאת הקיבוץ המאוחד , בית הוצאת כתר , עמ'167 .

كبشر كاملين - خلافا لهم – و كي يصبحوا كاملين كان ينبغي إعادة صياغتهم ، مما يعني بالنسبة لأولئك الناس الشعور بالنفي الجذري أكثر من أن أي شئ جربوه من قبل . ثمة كتابات كثيرة ليهود عرب تؤكد أن القدوم إلى إسرائيل ، الذي المفترض به أن يكون عودة ، كان في الواقع منفى أكثر من أي شيء آخر . " [1]

و قد رفض " سامي ميخائيل " مسأله إعادة صياغة اليهود الشرقيين ليقبلوا في المجتمع الإسرائيلي ، كما رفض التخلي عن موروثاتهم الثقافية العربية ؛ لاكتساب ثقافة أخرى ، كذلك حارب الفكرة الأشكينازية السائدة القائلة : إن اليهود الشرقيين ما هم إلا الجزء القبيح في اليهودية و الجزء المشوه في دولة إسرائيل ، و هي الفكرة التي تتعامل وفقها الإدارة الإسرائيلية مع أبناء الطوائف الشرقية .

و قد ازداد غبن اليهود الشرقيين على المستوى الثقافي حتى وصل إلى عدم الاعتراف بالنتاج الأدبي للأدباء اليهود الشرقيين داخل إسرائيل ، حيث وصف بأنه أدب عربي مكتوب باللغة العبرية و قامت الحركة النقدية الإسرائيلية التي يسيطر عليها اليهود الأشكيناز بتجاهل واسع لهذا الأدب . و عن ذلك يقول د / " محمد محمود أبو غدير " في دراسة له بعنوان " الأدب العبري و الصراع الطائفي في إسرائيل " :

" من الصعب للغاية العثور بين مئات الكتب النقدية على دراسة تتناول بالنقد و التحليل أعمال الأدباء اليهود من أبناء الطوائف الشرقية ، و قد أدى ذلك إلى تكرار الصرخات من جانب اليهود الشرقيين ... مثلما قال " سامي ميخائيل " : نحن أبناء الطوائف الشرقية في انتظار ظهور أديب ينتمي إلى إسرائيل الثانية ، ليقوم بتحطيم رؤوس الجميع ، نحن في انتظار مقدم هذا الأديب إلى عالم الأدب الإسرائيلي ليخلصه من عالم الغربة التي يحيها ، و يخلصه من الأدباء الذين عاشوا في صوبات ، و تعرفوا على الواقع من خلال النظر عبر النوافذ فقط . إن أحدا لن يستطيع وقف زحف الأدباء الشرقيين حتى لو استمر النقاد يتناولون بالدراسة فقط أولئك الأدباء الذين نشأوا في المعامل المعقمة . إن هؤلاء النقاد لن يستطيعوا وقف قدراتنا الأدبية الخلاقة ، و عندئذ سيضطر الأدب العبري إلى مجابهة هذا الواقع الجديد ، و يضطر إلى إيجاد مقاييس جديدة لتقييم إنتاجنا الأدبي . " [2]

و لعل من مظاهر تجاهل الحركة النقدية في إسرائيل للأدباء الشرقيين و أعمالهم استثناء " جرشون شاكيد " أبرز مؤرخي الأدب العبري في خماسيته النقدية للأدباء الشرقيين و إفراده لهم فصلا خاصا . و عن ذلك يقول الأديب اليهودي الشرقي " شمعون بلاص " :

" لا أوافق على هذا التوجه ، فهو يغمطنا حقنا كثيرا ، و فيه استعلاء ، و استخفاف بإنتاج الأدباء أبناء الطوائف اليهودية الشرقية . و قد حدد شاكيد مكاننا في الهامش لا لأننا كنا فيه ، بل لأن المؤسسة الثقافية العبرية أرادتنا هناك . و عندما يكتب شاكيد عن كتاب عبريين آخرين ، يعود إلى عدة الأدب ، و يتحدث عن التيارات الأدبية ، و الرؤية الفنية و ما إلى ذلك . كان أدبنا مختلفا بنظره ، و هو يظل في الهامش و لا ينضوى ضمن التيار المركزي في الأدب العبري المعاصر . " [3]

و عن أسباب تجاهل الحركة النقدية الإسرائيلية للأدباء اليهود الشرقيين يقول الأديب الإسرائيلي الشرقي " אלמוג בהר " " الموج بهار " :

" إن أسباب ذلك تنبثق من حقيقة أن المركز المحايد للأدب الإسرائيلي كان في الأجيال الأخيرة أشكينازيا و أوربيا ، و ذلك في مجال الإعلام ، و البحث ، و المقررات الدراسية . و لم يزل ذلك قائما حتى اليوم . أيضا ، فإن ثقافة معظم النقاد الذين صاروا نقادا مركزيين ، لم تتح لهم طوال تلك السنوات فحصا متعمقا للأدب الشرقي ،

---

[1] جلين باومن : خيال المنفى : بناء المكان الفلسطيني من خارجه ، ترجمة : حسن خضر ، مجلة الكرمل ، العدد ٦٠ ، صيف ١٩٩٩ م ، صـ ٢٣ ، ٢٤ . بحث مقدم في مؤتمر " آفاق المشهد في فلسطين " جامعة بير زيت ، ١٩٩٩ م .

[2] د / محمد محمود أبو غدير : الأدب العبري و الصراع الطائفي في إسرائيل ، صـ ٨٣ .

[3] جلين باومن : مرجع سابق ، صـ ٢٢٩ .

فحين يكتبون عن " شمعون بلاص " أو " سامي ميخائيل " بالعبرية لا يضعون سياق كتاباتهم في مكانته التي يحتلها في العالم العربي . " [1]

فالتجاهل لأدب الطوائف اليهودية الشرقية داخل إسرائيل مرجعه إلى الحركة الأشكينازية المسيطرة على حركة النقد الأدبي ، و كذلك بسبب سيادة الثقافة الأشكينازية الأوربية و رفضها لكل ما هو مخالف لها ، و إن كان جيدا ، لذا تم التعامل مع هذا الأدب بوصفه شيئا مختلفا و مجهولا و دونيا و بهذا ، فهو لا يشكل جزءا من المجموع الثقافي العبري في إسرائيل . من هنا تم وضع الأدباء الشرقيين في ركن بعيد لأنهم حملوا خطابا مختلفا عن الخطاب الأشكينازي الصهيوني ، حتى يغيروا هذا الخطاب المرفوض الذي حملوه .

من هنا قام " سامي ميخائيل " بتبني موقف فكري رافض و ثار على ذلك الظلم و راح يطالب بنصيب اليهود الشرقيين العادل في إسرائيل .

و من ناحية أخرى ، ينظر " سامي ميخائيل " إلى مشكلة فلسطين و الصراع العربي الإسرائيلي نظرة معتدلة ، فهو العربي الأصل و صاحب الاتجاه اليساري ، يرى أن إسرائيل طالما ستعد نفسها دولة يهودية ، فلن تحل أبدا مشكلة فلسطين ، و لن يحل السلام العربي الإسرائيلي ، و ذلك لأن الديانة اليهودية ستعد كل من هو غير يهودي بمثابة الحيوان الذي يجب أن يقتل ، كذلك فإنها - الديانة اليهودية - تعد أرض فلسطين أرضا مقدسة مخصصة لشعب مقدس و مختار ، تحقيقا للوعد الإلهي بين رب إسرائيل و شعب إسرائيل ، و نتيجة لذلك سيظل العرب الفلسطينيون مقهورين على الدوام و طالما ظلوا كذلك ، فسيقومون – و لاشك - بهجمات مستمرة ضد إسرائيل ، و النتيجة غرق الجميع في بحر من الدماء ، حيث يقول " سامي ميخائيل " :

" أنا غير صهيوني ، لست معاديا للصهيونية ، أنا وطني إسرائيلي ... و أوجه ندائي لأولئك الصهيونيين الذين يعرضون أنفسهم و مستقبل أطفالهم للمخاطر و أقول لهم : عودوا إلى البيت ، و يقول أيضا : إن ندائي هذا لا يجئ شفقة على العرب ، فالعرب ليسوا بحاجة لشفقتي و حبي . " [2]

فالدين من جهة و النظرة الأوربية الاستعلائية لكل ماهو شرقي من جهة أخرى ستجعل العرب على الدوام أعداء ، و نتيجة لذلك ، فإن كل من يمت لهم بصلة سيغدو عدوا حتى إن كان يهوديا . يقول " سامي ميخائيل " :

" لقد نشأت في أرض عربية ، و كانت لغة أمي هي العربية ، و بعد طيران استمر عدة ساعات وجدت نفسي في إسرائيل و بهوية أخرى ، حتى الإسرائيليون ينظرون إلي بصفتي قادما من هناك أحمل معي إرث و لغة و عادات العدو . " [3]

و تجدر الإشارة هنا إلى أنه قد " حظى موضوع العزلة و الهوية و الانتماء تجاه فلسطين في مؤلف " بلاص " " غرفة مغلقة " ١٩٨٠ م و في مؤلفي " سامي ميخائيل " " ملاذ " ١٩٧٧ م و " حفنة ضباب " ١٩٧٩ م كليهما باهتمام . فيعود " ميخائيل " و " بلاص " إلى هذه الموضوعات ، أيضا ، في مؤلفاتهما الأكثر تأخرا في الثمانينيات . و ربما من الضروري أن نؤكد أن كلا الأديبين الواقعيين امتلكا الجرأة لإثارة المسألة اليهودية العربية بصورة شديدة للغاية ، من خلال اتخاذهما موقفا مماثلا للموقف العربي بمدى معين . " [4]

و يرى " ميخائيل " إمكانية التعايش السلمي بين الأشكيناز و السفاراديم و العرب داخل إسرائيل ، فقط إذا ما تخلت الأخيرة عن كونها دولة يهودية ، و عن النظرة

---

[1] אלמוג בהר : מסלול המלאות ו מסלול החוסר ، מניפסט ספורתי מזרחי ، ٣٠ / ٩ / ٢٠٠٨ .

[2] http://www.amin.org\02\01\2002.

[3] דליה כרפל : סופר תחת השפעה . http://www.haaretz.co.il\15\04\2005

[4] גרשון שקד : הסיפורת העברית 1880- 1980. ד . בחבלי הזמן הריאליזם הישראלי 1938 – 1980 , שם , עמ׳178.

الأوربية الاستعلائية لكل ما هو شرقي و صارت دولة لكل مواطنيها و تعاملت مع الجميع بداخلها بوصفهم مواطنين طبيعيين على قدم المساواة .

إذن يمكن أن نجمل اتجاه " سامي ميخائيل " السياسي و موقفه الفكري في شقين :

الأول : رفض النظرة الأوربية الاستعلائية السائدة في المجتمع الإسرائيلي .

الثاني : رفض قيام إسرائيل على أسس الديانة اليهودية غير الديمقراطية .

٣ - أسلوبه الأدبي و أهم أعماله :

يستمد " سامي ميخائيل " أسلوب كتاباته من " تجاربه في شبابه و من المشهد الإنساني المحيط به ... فأسلوبه واضح و مباشر و خال من الرموز ، و لكنه يمتلك مقدرة تعبيرية بارزة . " [١]

أيضا يظهر " سامي ميخائيل " " في أعماله الروائية لكل من الأطفال و الشباب بوصفه شرق أوسطي حقيقي ، حيث يغطي طبقة كبيرة من العلاقات المتشابكة بين اليهود و العرب ، و المسلمين و النصارى ، و القوميين و الشيوعيين ، والرجال و النساء ، سواء أكانوا في بغداد أم في إسرائيل . " [٢]

كذلك فـ " سامي ميخائيل " يعد " كاتبا يوجه النظر إلى شرائح اجتماعية في الفضاء القصصي ، تلك الشرائح التي ترمز إلى شرائح مشابهة في العالم الواقعي . " [٣]

و نلاحظ تأثير حياته بكل ما تحمله من اضطرا بات و كذلك تأثير اتجاهه السياسي و موقفه الفكري على أسلوب كتابته ، فنراه يعتمد على الأحداث التي خاضها بنفسه و على تجاربه الشخصية ، فقد عاش مع العرب العراقيين في بغداد ، و مع العرب الفلسطينيين في إسرائيل ، ومع اليهود و المسلمين و النصارى العراقيين ، و مع اليهود و المسلمين و النصارى في إسرائيل ، و مع الشيوعيين و القوميين في العراق و في إسرائيل . و نتيجة لذلك شكلت هذه التجارب أسلوبا أدبيا خاصا به يعتمد في جوهره على حياته و تجربته حيث " تتناول أعماله الروائية المخصصة للشباب قصة سامي ميخائيل في فترة الشباب بوصفه سياسيا ثوريا في بغداد . " [٤]

و يقول " جرشون شاكيد " عن " سامي ميخائيل " :

" و قد حدث في التسعينيات نهضة معينة للقصص الطبيعي الواقعي عند كاتب كان يؤلف القصص الطبيعي خلال السبعينيات ، و لكنه زاد طبيعته اتساعا و عمقا ... و هو " سامي ميخائيل " المولود سنة ١٩٢٦ م . " [٥]

أيضا فهو " يشبه أدباء جيل الأربعينيات ، من جهة قيمه و طرق الوصف و النظرة إلى العالم : فالبطل الذي يقتل في المعارك و عالم الوالدين اللذين يفقدان الأبناء هما قمتان دراميتان لا تزالان موجودتين في أعماله . " [٦]

ويمكن القول إن " سامي ميخائيل " دائما ما يستحضر العراق في كتاباته و يطيل وصف العادات و التقاليد العراقية ، حتى إنه ليستخدم بعض الأمثلة الشعبية الشائعة هناك و مرد ذلك ، غالبا ، إلى أنه يتعامل مع العراق بوصفه وطنا أول قضى فيه أهم و أمتع فترات حياته ، وطنا كان فيه رغم الخلافات السياسية حرا ، و هو يريد لحياته و لحياة أبناء الطوائف الشرقية أن تكون حرة في إسرائيل ، كما كانت في أوطانهم العربية الأولى .

يقول سامي ميخائيل : " تعلم المرء أن يعيش أيضا مع تمزقات متنازعة من الهويات . في العراق تربيت و كبرت بوصفي يهودي عربي عراقي ، تماما كما يربو طفل في أم الفحم

---

[1] חבר ספרנים : לקסיקון , שם . http://library.osu.edu\galron.1\003355.php

[2] Gershon Shaked : Hebrew writers , published by The Institute for the translation of Hebrew literature , Israel , April , 1993 , p. 82 .

[3] גרשון שקד : הסיפורת העברית 1880- 1980. ד . בחבלי הזמן הריאליזם הישראלי 1938 – 1980 , שם , עמ׳182 .

[4] Gershon Shaked : I . b . I . d , p . 82 .

[5] جرشون شاكيد و دافيد سجيف : مرجع سابق , صـ 11 .

[6] גרשון שקד : הסיפורת העברית 1880- 1980. ד . בחבלי הזמן הריאליזם הישראלי 1938 – 1980 , שם , עמ׳ 182 .

بوصفه مسلم عربي إسرائيلي . و في لقاء عقد بين مفكرين يهود و مفكرين فلسطينيين أعرب الفلسطينيون بكلام تقشعر له الأبدان عن اشتياقهم إلى الأرض التي هربوا أو طردوا منها . فقلت أنا أيضا ، مشتاق مثلكم ، و لكن في إسرائيل العظيمة لا يليق باليهودي أن يشتاق إلى منفاه . و من هذا المنطلق ، فإني أعيش مع هوية منقسمة : حاضري يرفض ماضيّ و ماضيّ يطالب بتصفية حاضري . "[1]

فبسبب عداء إسرائيل للعرب يعاني سامي ميخائيل – اليهودي الشرقي – من إشكالية في هويته ، فهو يحب وطنه الأول - العراق – و الثاني - إسرائيل – ، و يكره ما يقوم به الثاني من عمليات قمعية ضد الأول ، كذلك فهو يكره مطالبة الأول بتصفية الثاني . إنه يوجه رسالة إلى القيادة السياسية من خلال أسلوبه في المقابلة بين الوطن الأول و الوطن الحالي ، مفادها : نريد نحن أبناء الطوائف الشرقية أن نعيش داخل إسرائيل أحرارا ، لنا كرامتنا و تراثنا و ثقافتنا ، كما كان حالنا في أوطاننا الأولى ، فمعيشتنا الحالية أقرب للمنفى منها للوطن .

إذن ، فالأديب الإسرائيلي " سامي ميخائيل " يستخدم أسلوبا أدبيا يعتمد على تجاربه الحياتية الشخصية ، يستعرض من خلاله علاقات الأشخاص المختلفة في ديانتها و توجهاتها السياسية ، كما أنه يقوم ، دائما بعقد مقارنة بين وطنه الأول العراق و وطنه الثاني إسرائيل مؤكدا سوء حال اليهودي الشرقي في إسرائيل عن وطنه الأول و هو في ذلك يفرق بين الأدب و السياسة ، حيث يقول : " نجيب محفوظ و يوسف إدريس هما الأقرب إلي ، يوسف إدريس ضد السلام و إسرائيل و ضد التطبيع ، لكنني أميز بين السياسة و الإبداع الأدبي . فهو أحد العمالقة الذين نشأوا في ساحة الأدب العربي ، لكنه كان دبلوماسيا ، السلطة لم ترض عنه ، و أعتقد أنه سجن أيضا ، فهو لم ينل الاحترام الذي يستحقه بصفته كاتبا و أديبا . و مثلما يحتفظ رجل دين يهودي بكتاب التوراة و المسلم يحتفظ بالقرآن ، فأنا احتفظ في صالون بيتي بجزأين كبيرين من قصص يوسف إدريس باللغة العربية و أقوم باستمرار بقراءتهما و أتأثر بهما دائما . "[2]

فهو يقدر الأدب العربي و يجعله يحتل عنده محل الصدارة في تراثه الفكري و الأدبي . و يتضح لنا التأثير الكبير للأدب العربي على أسلوبه في الكتابة ، و كيف لا و هو القائل :

" و لما صرت معروفا بوصفي كاتبا راح بعض النقاد ينصحني بدراسة الأدب العبري ، لكنني لم أشعر بالحاجة لذلك . فقد كانت حقيبتي ملأى بالثقافة العربية التي جئت منها و لا أحتاج إلى أن أتعلم الكتابة من أدباء جاءوا من ألمانيا و رومانيا و بلغاريا و روسيا . "[3]

و هو اعتراف ضمني منه بعلو منزلة الثقافة العربية و أدبها و سموهما فوق نظيريهما الأوربيين السائدين في إسرائيل ، و كيف أنه في غير حاجة إلى تحصيل الأدب العبري ذي النزعة الأوربية لكونه متشبعا بالثقافة العربية الغنية .

و جدير بالذكر أن " سامي ميخائيل " هو أول من ترجم بالكامل ثلاثية نجيب محفوظ إلى العبرية ، و قد استغرقت الترجمة ثماني سنوات . و يقول عنها " سامي ميخائيل ":

" هذه القصة العربية هي الأولى التي قرأتها بشغف ، بعد ثلاثين سنة من مغادرتي مسقط رأسي العراق . كنت في خضم كتابة احدى قصصي ، عندما طلب مني البروفيسور " ساسون سوميخ " ترجمة الثلاثية . في البداية حاولت التملص و عندما ألح في الطلب اشترطت سعرا عاليا للتهرب ، فكانت المفاجأة بالموافقة على طلبي ، فلم

---

[1] סמי מיכאל : הזהות הישראלית . http://lib.cet.ac.il\item=2271\18\12\2008

[2] http://asharqalawsat.com\id=382469\2\01\2002.

[3] www.alvefagh@al-vefagh.com

يعد أمامي سوى القبول ، و قد قررت عدم قراءة الثلاثية قبل ترجمتها ، فتمتعت بكل كلمة جاءت فيها . لقد كتبت من خلال حب الاستطلاع و كأني أكتب قصة جديدة . " [1]

- الرواية موضوع البحث " חסות " " ملاذ " :

- عرض الرواية :

تبدأ أحداث الرواية عشية عيد الغفران ، حيث يقوم الزوجان "مردوخ" – يهودي شرقي من أصل عراقي ، يعمل صحفيا في احدى الصحف الفقيرة – و " شولا " – و هما زوجان لديهما طفل معاق يدعى " عيدو " و يبلغ من العمر عشر سنوات . و كلاهما عضو في منظمة يسارية ثورية - بدعوة كل من " شوشنا " و " فؤاد " – " شوشنا " يهودية شرقية و " فؤاد " عربي إسرائيلي مسيحي متزوجان و لديهما ثلاثة أولاد و تعمل " شوشنا " مربية منزل لدى " شولا " ، أما " فؤاد " ، فهو صحفي في جريدة يسارية ، كما أنه أحد الزعماء المسنين في الحزب الشيوعي – و فتحي – و هو شاعر عربي من فلسطيني ٤٨ و هو ذائع الصيت - لقضاء أمسية في بيتهما .

ثم ينتقل السرد إلى " فتحي " الذي يسافر برفقة " وصفي " - و هو أخو خطيبة " فتحي " – إلى جنين لزيارة أولاد و زوجة الأخ المتوفى لـ " وصفي " ، و ينزل " وصفي " هناك ضيفا على " حمدية " الأرملة و أولادها " نمير " و " سعيد " و " أمل " أما " فتحي " ، فينزل ضيفا على صديقه " ماجد " - طبيب أسنان - و زوجته " عليه " منتظرا " زهير " - الرجل العجوز المحنك - ليستشيره في بعض مشاكله . و يقضي كل منهما – " وصفي " و " فتحي " – ليلة ليلاء ، حيث يشهد الأول حادثة قتل وقعت في القرية أما الثاني ، فيشهد اقتحام مسلحين لبيت " ماجد " و هم يحملون مصابا ، قد مات قبل وصولهم ، و مع ذلك قاموا بإجبار " ماجد " على إسعافه .

و وقت زيارة " زهير" تندلع حرب أكتوبر ١٩٧٣ م فيعود " زهير " إلى بيته و يأتي " وصفي " ليقل " فتحي " ، الذي يزمع السفر إلى حيفا لأنه متأكد من صدور أمر باعتقاله وقت الحرب .

عند هذه النقطة يتحول السرد ، مرة أخرى ، إلى منزل " شولا " و " مردوخ " ، ففي تلك الليلة كان " مردوخ " يحكي عن معاناته في الماضي و هو في السجن العراقي . و بعد يوم من محاولة مردوخ تعليم " عيدو " لعبة ما تندلع الحرب ، فيسلم " مردوخ " ، شأنه شأن أي إسرائيلي ، نفسه للقتال في صفوف الجيش الإسرائيلي ، و يقوم " طوبيا " - جار " مردوخ " المتقاعد – بإغلاق نوافذ مسكن " مردوخ " و " شولا " و يكسوها بورق أسود استعدادا للحرب ، و يكون " فتحي " أول القادمين إلى أمسية " مردوخ " و " شولا " و من بعده جاء " فؤاد " و " شوشنا " . و يجلس الجميع في الشرفة يشربون القهوة و يتحدثون عن الحرب ، و عن " مردوخ " .

ثم تتصل " عمليا " - رفيقة بالمنظمة نفسها – و تطلب من " شولا " صرف الضيوف لأنها و " إميل " زوجها – عضو بالمنظمة نفسها أيضا – سيصلون إليها ، بعد قليل لإطلاعها على آخر تعليمات المنظمة ، ترفض " شولا " صرف الضيوف و رغم ذلك يأتي " إميل " و " عمليا " و يدور حوار حول الولاء للمنظمة ، و يتم تبادل الاتهامات بينهم حول درجة إخلاص كل منهم للمنظمة و يتصاعد التوتر في الحوار حتى يصل لدرجة الشجار فتنسحب كل من " شولا " ، حيث تتجه إلى حجرة " عيدو " و " شوشنا " التي تتجه إلى الشرفة .

بعد انصراف الضيوف ، يأتي " طوبيا " لزيارة " شولا " التي تقوم بإخفاء " فتحي " طبقا لتعليمات قيادة المنظمة و يكشف لها عن علمه بأمر فتحي . و في صباح اليوم التالي ، يأتي والدا " شولا " للزيارة و يذهلان من أمر " فتحي " و يقترحان على ابنتهما

[1] http://asharqalawsat.com.

أن ينتقل " فتحي " إلى السكن لديهما حتى نهاية الحرب ، فترفض " شولا " و يظل " فتحي " في منزلها .

ثم يأتي " طوبيا " في غياب " شولا " ليكمل تغطية النوافذ و يتحاور مع " فتحي " حول المشكلة الإسرائيلية الفلسطينية ، و في ختام الحوار يغادر " طوبيا " المنزل تاركا " فتحي " الغاضب مع أفكاره .

بعد ذلك تنتقل الأحداث إلى " شوشنا " و " فؤاد " ، حيث يصدر أمر اعتقال للثاني ، فيتجه إلى قسم الشرطة و يقابل هناك الصحفي " أحمد العريضي " ، و بعد أن يفرج عن " فؤاد " يتجه إلى بيته و هناك يجد أولاده الثلاثة " أمير " - الأكبر – و" فيكتور " و " نعيم " و قد وقع بينهم شجارا كبيرا ، حيث يعد " أمير " نفسه إسرائيليا و يتشاجر مع " فيكتور " و " نعيم " اللذين يعلنان أنهما فلسطينيان .

ثم تتلقى " شوشنا " اتصالا هاتفيا من أمها التي قاطعتها ، منذ أن تزوجت من " فؤاد " العربي ، و تعرف منها أنها ستأتي للزيارة .

و مرة أخرى ينتقل السرد إلى " شولا " التي تعيش مع ذكرياتها عن " مردوخ " ثم تعرف من أمها " طوبا " أن " رامي " - حبها الأول - قد قتل في المعارك ، فتسافر إلى قريتها للتأكد من الخبر ، و عند عودتها تجد بيتها مليئا بالضيوف ، مرة أخرى : " شوشنا " و " فؤاد " ، " فتحي " و " طوبا " . و الجميع يتحدث عن الصراع العربي الإسرائيلي ، فتهرب " شولا " من ذلك كله إلى ذكرياتها الجميلة مع " مردوخ " و من قبله " رامي " .

و في الليلة الثالثة من الحرب ينتهي الأمر ، بعد إذاعة أنباء انتصار العرب ، فتقرر " شولا " ترك المنظمة و نشاطاتها ، و يقترح " فتحي " عليها الهرب ، و لكنها ترفض و تقرر نقل " فتحي " إلى منزل " إميل " ، بعد أن ترفض عرضه بحمايتها .

- الآراء النقدية حول الرواية :

تعكس تلك الرواية " محاولة فريدة لسبر أغوار الطبيعة المعقدة للولاءات المنقسمة في مجموعة كبيرة من الشخصيات هي " فتحي " الشاعر العربي الثائر ، الذي يعيش في المدينة ، لكنه يتأثر بقوة بتعامله مع المجتمع الإسرائيلي . " فؤاد " العربي المسيحي ، و هو المفكر الشيوعي ، الذي تنقسم أسرته من جراء زواجه بامرأة يهودية ، لدرجة أن أحد أولاده يرى نفسه يهوديا ، بينما ولداه الآخران مع منظمة التحرير الفلسطينية . " وصفي " القروي العربي ، الذي استفاد ماديا من اتصاله باليهود و الذي أصبح ارتباطه بوطنه سطحيا . " حمدية " المرأة التي نشأت في ظل شكوك الحياة في معسكرات اللاجئين ، و رغم نجاحها الآن في الحياة فإنها باتت مقتنعة بشكوك الوجود نفسه . " مردوخ " اليهودي العراقي ، الذي قبض عليه بسبب نشاطه الشيوعي ، عندما كان في السابعة عشرة و قضى عشر سنوات في السجن ، ثم بعدها تم نفيه إلي إسرائيل . " [1]

كذلك ، فقد " جعل سامي ميخائيل حيفا مسرحا لأحداث روايته و هي مدينة مختلطة يسكنها يهود و عرب في فترة حرب أكتوبر ، تلك الفترة التي اتسمت بالتوتر و الخوف الوجودي على مستقبل اليهود في إسرائيل ، لذا فالسرد غني بالصراعات . و دوائر المواجهة متعددة : داخل نفس الفرد و داخل الأسرة اليهودية و المختلطة ، و بين أعضاء الحزب الشيوعي ، و بين أحزاب و آراء أخرى في إسرائيل ، و بين إسرائيل و أعدائها في حرب أكتوبر . " [2]

و يعد – أيضا - " لقاء اليهود الشيوعيين و العرب المنتمين للحزب نفسه في اليوم المصيري ، يوم اندلاع الحرب ، هو محور الرواية . فيصل العربي إلى بيت يهودية شيوعية

---

[1] جيلا رامراز رايوخ : مرجع سابق ، صـ ١٧ .

[2] מרים וינברגר : בגרות בספרות : סיפורת , מחזות ו מאמרים , תל אביב , אור – עם , 1996 , עמ' 149 .

" شولا " ، تلك التي كان زوجها " مردوخ " – و هو سجين سابق في السجن العراقي بسبب انتمائه للحزب الشيوعي – قد خرج ليشارك في الحرب . " [1]

و بالفعل فقد وضع " سامي ميخائيل " كل المبادئ و الولاءات على المحك ، و ذلك من خلال استخدام حرب ١٩٧٣ ، و ما مثلته من تهديد لإسرائيل ، خلفية لأحداث الرواية . فلم يعد الصراع يدور بين شخصيات مسلمة و مسيحية و يهودية ، إنما بين الولاءات المتصارعة و ينتهي الصراع ، بدون حل و يبقى السؤال ماذا جرى لهذه الشخصيات ؟ و أي الولاءات انتصر في هذه المعركة ؟

و قد " اتسم السرد – في الرواية- بالواقع الدرامي ، من حيث كونه يتمحور في ذروة حرب أكتوبر ، و من حيث كونه يميط اللثام عن إشكالية العلاقات اليهودية العربية وقت السلم و الحرب . " [2]

أيضا ، فالواقع المرسوم في الرواية هو " واقع إشكالي ، و تعكس مشاكله إشكالية الواقع الإسرائيلي و في مقدمتها مشكلة الوجود اليهودي العربي . " [3]

و هذا يتضح في شخصية " مردوخ " ، فهو " ثوري حقيقي لديه المزيج الصحيح من النزعة الثورية و النضال ساعة الضرورة ، و يتضح ذلك من خروجه لحرب العرب مع الجيش الإسرائيلي من تلقاء ذاته ... و توجد لدى " مردوخ " مشكلة هوية ، فهو لا يجد دائما مكانه داخل المجتمع الإسرائيلي ، و مع وصوله لاجئا كانت لديه صعوبة بالغة في الاندماج في إسرائيل ، و أن يضرب بجذوره فيها . " [4]

و بالإضافة إلى مشكلات الواقع الإسرائيلي السياسية توجد ، أيضا ، مشكلات اجتماعية سياسية ، حيث " توجد مشكلة الواقع الاجتماعي القومي ، و التي تعد أيضا جزءا من الواقع الإسرائيلي ، ففي الأرض التي يعيش عليها شعبان ، تظهر أزواج مختلطة ، ففي الرواية زوجان عضوان في المنظمة اليسارية الزوجة يهودية و الزوج عربي ، وهما " شوشنا " و " فؤاد " ، " عمليا " و " إميل " حيث يعيشون جميعهم حياة غير سهلة في المجتمع الإسرائيلي ، دون أن يفسر لهم هذا المجتمع السبب في ذلك . " [5]

و يمكن أن يكون موقف " ميخائيل " السياسي في روايته هو أن " المشكلة العربية الإسرائيلية لن تحل ، سواء بالعداء أم بالحب ، فلن يزول العداء بين العرب و اليهود ... بل يقترح " ميخائيل " أن الروح الإنسانية و التفاهم هما قوتان ضعيفتان بالفعل في الحرب الخيالية للذكريات الجماعية . و لن يتمكن أي منهما من اجتياز الخط الذي يفصلهما ليحتضن الآخر . و بالمثل لا يتم اعتبار أي أيدلوجية سياسية مصدرا ممكنا للإخاء ، بل أكثر من ذلك ، فهناك رسالة ضمنية في عدم وجود حل للرواية ، فعلى سبيل المثال لا نعرف هل عاد " مردوخ " من المعارك الشرسة في النقب ، و لا نعرف ما الذي سيحدث لـ " فتحي " هل سيذهب إلى بيروت ، مثل أخيه " فخري " ليحل مشكلة هويته ؟ " [6]

إذن ، فوضع الشخصيات في الرواية وضع مقلقل ، لا يحقق الإشباع التام لها ، و لا يوفر لها الأمان المطلوب ، لذا اتجهت كل الشخصيات للبحث عن المأوى و الملاذ الحقيقي الدائم غير المؤقت لتحقق لنفسها ما تصبو إليه .

و يمكن أن نحصي أربعة سياقات مختلفة ورد فيها عنوان الرواية " חסות " :

<u>الأول</u> : حيث ذكرت كلمة "חסות" في سياق علاقة " مردوخ " بمفهوم الـ "חסות" فنقرأ :

"מרדוך שנרדף על נפשו שנים כה רבות קידש את המושג חסות" (الرواية صـ ١٩١)

---

[1] גרשון שקד : הסיפורת העברית 1880- 1980. ד . בחבלי הזמן הריאליזם הישראלי 1938 – 1980 , שם , עמ' 184 .

[2] שולמית שמידט : שם , עמ'115 .

[3] שולמית שמידט : שם , עמ'116 .

[4] סיכומונה : אתר הסיכומים החופשי , 30 / 3 / 2009 , עמ' 2.

[5] שולמית שמידט : שם , עמ' 118 .

[6] جيلا رامراز – رايوخ : مرجع سابق ، صـ ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

" مردوخ الذي عانى بشدة لسنوات كثيرة ، قدس مصطلح ملاذ . "
الثاني : حين ذهب " فؤاد " لقسم الشرطة ، قابل هناك أحد المحتجزين و هو " مصطفى أحمد العريضي " الذي طلب " חסות " من " الله " . فنقرأ :
"אבקש חסות אללה" (الرواية صـ ٢٣٠)
" سألتمس ملاذ الله "
الثالث : في هذه المرة تظهر كلمة " חסות " بمفهوم ملاذ الدولة و هو الملاذ الذي منحته إسرائيل لـ " مردوخ " بوصفه يهوديا طرد من العراق . فنقرأ :
" הארץ העניקה לו חסות " (الرواية صـ ٢٩٣)
" منحته إسرائيل ملاذا "
الرابع : الملاذ الذي منحته " شولا " إلى " فتحي " الشاعر في منزلها وقت الحرب . فنقرأ :
" נתנה לו חסות בעצם ימי המלחמה ו דאגה לכל מחסורו ."
" منحته ملاذا وقت الحرب و اهتمت بتوفير كل ما ينقصه . "
من خلال هذا العرض يمكن أن نتبين ثلاثة أنواع من الملاذ :
الأول: الملاذ الذي يوفره الإنسان لأخيه الإنسان ، مثل الملاذ الذي قدمته " شولا " لـ " فتحي " و في هذه الحالة فإن الملاذ هو ملاذ مكاني محدود .
الثاني: ملاذ مكاني أعم وهو الذي توفره الدولة لمواطنيها ، مثلما فعلت إسرائيل مع "مردوخ".
الثالث: ملاذ معنوي و هو الملاذ الذي يهبه " الله " لعباده ، مثل دعاء " مصطفى أحمد العريضي " ، حين كان محتجزا في قسم الشرطة ، حيث طلب من " الله " الملاذ و الحماية .

و بعد فإن رواية " חסות " " ملاذ " للكاتب الإسرائيلي " سامي ميخائيل " تتناول وجوها عديدة داخل المجتمع الإسرائيلي ، تتنوع هذه الوجوه بين السياسي و الاجتماعي ، و يتضح فيها موقف الكاتب الفكري و اتجاهه السياسي . و مع ذلك ، فالرواية ليست مجرد بوق لآراء المؤلف السياسية ، و لكنها أفكار شخصيات يعبر عنها أصحابها من خلال أفعالهم و مواقفهم الحياتية .

ثانيا : الجانب الفلسطيني :

جـ - إميل حبيبى :

١ – حياته :

" ولد " إميل حبيبي " في حيفا في ٢٩ من أغسطس عام ١٩٢١ م ، حيث ترعرع و عاش حتى عام ١٩٥٦ م ، حين انتقل للسكنى في الناصرة ، حيث مكث حتى وفاته في عام ١٩٩٦ م . " [١] و قد انضم " إميل حبيبي " إلى " الحزب الشيوعي الفلسطيني عام ١٩٤٠ م ، وتولى بعد ذلك رئاسة تحرير صحيفة الحزب الأسبوعية " الاتحاد " و بعد قيام إسرائيل انضم " حبيبي " إلى الحزب الشيوعي الإسرائيلي ، ليكون ممثله في ما بعد في الكنيست طيلة التسعة عشرة سنة اللاحقة . و كان " حبيبي " ، بالإضافة إلى نشاطه السياسي ، روائيا و كاتب قصة قصيرة و كاتبا مسرحيا و صحفيا . و ظل يمارس نشاطه السياسي و الأدبي ، حتى وفاته في حيفا في عام ١٩٩٦ . " [٢]

و كان " إميل حبيبي " ينتمي إلى " طبقة فقيرة ، فقد عمل بين حيفا و عكا ، فكان عاملا في ميناء حيفا و عاملا في معامل تكرير البترول ، قبل أن يعمل عدة أعمال ذهنية ، رغم استقالته من عضوية الكنيست . " [٣]

و قد خاض " إميل حبيبي " المجال الصحافي و الأدبي و السياسي ، " ففي حقل الصحافة عمل مذيعا في إذاعة القدس (١٩٤٢ – ١٩٤٣ م) ، و محررا في أسبوعية

---

[١] في ذكرى ميلاده و رحيله : صدور الأعمال الكاملة للأديب إميل حبيبي .Aljabha.org.3\11\2006
[٢] أناهيد الحردان : " المتشائل " و " أطفال الندى " .. تجربتان مختلفتان و متكاملتان في الرواية الفلسطينية ، ترجمة : خالد الجنفاوي ، مجلة نزوى ، فصلية ثقافية ، العدد الستون ، مؤسسة عمان للصحافة و النشر و الإعلان ، صـ ٣٥ .
[٣] د / مصطفى عبد الغني : مرجع سابق ، صـ ٢٠٥ .

" مهماز " ١٩٤٦ م ، كما ترأس تحرير يومية " الاتحاد " و يومية الحزب الشيوعي الإسرائيلي باللغة العربية (١٩٧٢ – ١٩٨٩ م) . و في حقل الأدب نشر " حبيبي " عمله الأول " سداسية الأيام الستة " عام ١٩٦٨ م ، و بعده تتابعت أعماله الأدبية . و قد جعلت تلك الأعمال القليلة صاحبها أحد أهم المبدعين العرب و ذلك لأسلوبه الجديد و المتميز في الكتابة الأدبية . " [١]

و بالفعل صار الأديب الفلسطيني " إميل حبيبي " أحد أهم الرموز الأدبية الفلسطينية في فلسطين و إسرائيل و العالم العربي ، فقد " أهدته منظمة التحرير الفلسطينية وسام القدس عام ١٩٩٠ م ، و هو أرفع وسام فلسطيني ، أيضا منحته إسرائيل عام ١٩٩٢ م جائزة إسرائيل في الأدب عن روايته : سرايا بنت الغول . " [٢]

و قد أثار " إميل حبيبي " زوبعة نقدية ، عندما تسلم جائزة الإبداع الإسرائيلية ، من يد رئيس الوزراء الإسرائيلي في ذلك الوقت – " اسحق شامير " - حيث " اتهم بالخيانة و قامت الدنيا الأدبية ، العربية و لم تقعد بين قلة أيدت الكاتب الفلسطيني و اعتبرت إقدام " شامير " بالذات على تسليم " حبيبي " جائزة إسرائيل في الأدب اعترافا آخر بوجود الشعب الفلسطيني داخل اسرائيل و منافسة أدبه أدب الإسرائيليين المنحدرين من أصول أوربية ، و بين كثرة عربية و فلسطينية رأت قبول " حبيبي " تسلم الجائزة من يد قاتل شعبه باسم الدولة التي قسمت وطنه و هجرت قسما كبيرا من أهله و نكلت بالقسم الباقي و ضمت إليها أراضي عربية أخرى ضربا من الخيانة الوطنية . " [٣]

و الواقع أن هذا الاعتراض الذي وجه إلى " إميل حبيبي " ما هو إلا امتداد لنظرة الشك التي تعاملت من خلالها الدول العربية مع فلسطيني ٤٨ ، فقد " ظلت الأكثرية في العالم العربي تنظر إلى عرب إسرائيل النظرة نفسها الرافضة و المتشككة . هذه النظرة تجلت في صورة واضحة في موقف المثقفين العرب من الكاتب الفلسطيني " إميل حبيبي " ، عندما قبل جائزة الإبداع الإسرائيلي عام ١٩٩٢ م . فعلى الرغم من تبرع " حبيبي " بقيمة الجائزة لصالح الانتفاضة ، إلا أن عددا كبيرا من هؤلاء المثقفين ثاروا عليه لأنه لم يرفضها ، كما كان يجب أن يفعل أي مواطن عربي صالح ، بسبب سياسة القمع التي كانت تتبعها إسرائيل آنذاك ضد الشعب الفلسطيني في الضفة و غزة . " [٤]

و بالفعل ، فإن تسلم " إميل حبيبي " الفلسطيني جائزة ما من الحكومة الإسرائيلية لهو أمر غير مقبول ، بالنسبة لنا نحن العرب ، فكيف يسمح لهم بمكافأته ؟! و كيف يعترف بوجودهم من الأساس ؟! أيقبل الجائزة من القتلة المستعمرين ؟ ! .

نعم إن كل هذه الأسئلة و ما تثيره من علامات تعجب و استنكار تؤكد الاعتراض العربي على قبول " إميل حبيبي " تلك الجائزة الإسرائيلية ، و لكن الرجل قبلها لسبب يرجع إلى اتجاهه السياسي و نظرته إلى إسرائيل ، فبوصفه من فلسطيني ٤٨ تعد نظرته إلى إسرائيل مختلفة كثيرا عن نظرة من سواه و سيتضح ذلك في الصفحات التالية .

وفي "عام ١٩٩٥م وما حمله من قدوم السلطة الوطنية ، إلى ما أتيح لها من فلسطين ، بدأ " إميل حبيبي " يكثر من زياراته لرئيس السلطة ، المرحوم " ياسر عرفات " و استخلص منه دعما لمجلته التي سوف يصدرها بعد ذلك بعنوان – مشارف - . " [٥]

و بالفعل ، فقد " أسس " إميل حبيبي " في آخر سنى حياته مجلة " مشارف " الأدبية الفصلية و ترأس تحريرها ، و قد توقفت عن الصدور لأسباب اضطراية بعد رحيله بعام ، ثم بعد ذلك استأنفت نشاطاتها تحت رئاسة الشاعرة " سهام داود " سكرتيرة " إميل

---

[١] في ذكرى ميلاده و رحيله : صدور الأعمال الكاملة للأديب إميل حبيبي .Aljabha.org.3\11\2006

[٢] http://ipf.nethost.co.il\546-HE.htm.

[٣] أمجد ناصر : إميل حبيبي خائن أم بطل ، جريدة الوقت ، يومية يسارية مستقلة ، العدد ٣٠٨ ، الإثنين ٥ ذو الحجة ١٤٢٧ هـ ـ ٢٥ ديسمبر ٢٠٠٦ م .http://www.alwaqt.com\baid=1957

[٤] د / إيمان حمدي : مرجع سابق ، صـ ١٥٣ .

[5] http://www.al-watan.com\news=culture&tdate=03-02-2007.

حبيبي . " [1] و قد ترك " إميل حبيبي " قبل وفاته وصية يوصي فيها بأن يدفن في حيفا و يكتب على قبره " باق في حيفا " .

٢ - اتجاهه السياسي و موقفه الفكري :

"إميل حبيبي" هو أحد الأدباء الذين رفضوا مغادرة فلسطين، قبل نكبة ١٩٤٨م وبعدها ، و اتجه لممارسة العمل السياسي متشبثا بالحزب الشيوعي الفلسطيني منتميا إليه ، منذ الأربعينيات ، و بعد قيام اسرائيل احتل " إميل حبيبي " مكانة بارزة في الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، حيث " التزم " إميل حبيبي " نهج حزبه الشيوعي الإسرائيلي و آمن بمبادئه و طرحها بكل جرأة في كل محضر و مناسبة و أعلنها صريحة أن الحل السياسي الوحيد لقضية الصراع العربي الاسرائيلي هو قيام دولتين مستقلتين واحده لليهود و أخري للفلسطينيين . " [2]

و قد بدأ " إميل حبيبي " التعاطى مع القضية الفلسطينية ، انطلاقا من وجهة نظر يسارية بحتة ، فقام بالتعامل مع المعطيات الحقيقية الموجودة في حياته و أولى هذه المعطيات و أهمها أن إسرائيل موجودة ، فهي واقع لا يمكن عدم الاعتراف به ، أو التجاوز عنه و كيف له ألا يعترف بكيان يتحكم فيه ، و يجثم على صدره ، و يضيق عليه خطواته و يرافق تحركاته و سكناته . من هنا ، فقد تعامل " إميل حبيبي " مع إسرائيل بوصفها دولة حقيقية و موجودة ، سواء اعترف بها أم لا ، فقد مر وقت عدم الاعتراف و فات أوان الهجوم الكلامي ، و تبقى ، فقط ، الأمر الواقع و هو دولة إسرائيل صاحبة القوة و النفوذ ، لذا فإن " إميل حبيبي " " لم يكن يؤمن أن إسرائيل جسما غريبا ، على الأقل في الأدبيات التي أصدرها سواء في الأدب أم في السياسة و الفكر . إنه واقعي إسرائيل موجودة إذن ينبغي التعامل معها . " [3]

و ربما كان في هذا نوع من التعليل لقبوله جائزة إسرائيل الأدبية ، فهو بوصفه من فلسطيني ٤٨ يعرف يقينا أن إسرائيل موجودة لأنه يراها و يحسها في كل أوقاته ، على عكس سائر العرب ، فهم بعيدون كل البعد عن إسرائيل و أفعالها في فلسطين ، لذا يوجهون العديد و العديد من الشعارات (الفارغة) – من وجهة نظره - عن عدم الاعتراف بإسرائيل أو التعامل معها و عن تدمير (الكيان الصهيوني) و هي كلها مجرد شعارات ، فهم لم يروا قوة إسرائيل و لا سطوتها و لا ما تقوم به على أرض فلسطين . من هنا " يرى إميل حبيبي بطولته من خلال الصمود على الأرض التي ولد عليها ، فيما لم تنفع الأفكار و الدعاوى العربية الرائجة في تلك اللحظة الفلسطينيين في شيء . " [4]

فهذه الشعارات التي يطلقها معظم العرب ، إنما تطلق للأغراض الإعلامية و لهتافات الشعوب ، و لكنها تظل مجرد شعارات ، لا دور لها على أرض الواقع ، فهي لم ترفع الظلم عن الفلسطينيين ، و لم ترجع الوطن السليب ، بل على العكس ، لقد كانت تلك الشعارات تضر بالفلسطينيين أكثر مما تنفعهم ، حيث يصور لنا " إميل حبيبي " مشاعر فلسطيني ٤٨ ، بعد نكبة فلسطين إزاء الشعارات العربية الفارغة ، فيقول :

" و أشد الإحباط ، الذي عانيناه في تلك السنوات المأساوية ، و أشد المرارة كانا حصيلة تلك الطبول الفارغة التي قرعتها الرجعية الحاكمة في العديد من الأقطار العربية آنذاك عن " إلقاء اليهود في البحر " و غير ذلك من الشعارات المماثلة . كانت صرخاتنا ، صرخات المقتلعين يوميا من جذورهم الملقى بهم – فعلا و يوميا – في صحاري الغربة الموحشة بعد أن مسحت قراهم عن وجه الأرض ، تضيع في جوف تلك الطبول فلا يسمع العالم غيرها ، و لا يكون لها من نتيجة سوى أنها ساعدت حكام إسرائيل على قلب الحقيقة رأسا على عقب و على اخفاء الحقيقة الأساسية ، و القائمة

---

[1] في ذكرى ميلاده و رحيله : صدور الأعمال الكاملة للأديب إميل حبيبي .Aljabha.org.3\11\2006

[2] د / نبيه القاسم : إميل حبيبي واحد من هؤلاء . http://www.nabih-alkasem.com

[3] أمجد ناصر : مرجع سابق . .http://www.alwaqt.com\baid=1957

[4] أمجد ناصر : المرجع السابق نفسه .

بالفعل على أرض الواقع ، إنهم هم هم – و بممارساتهم اليومية – الذين كانوا يلقون بالعرب في بحار الخيام و معسكرات اللاجئين . كانوا ، هم هم و ما زالوا ، يتوهمون أنه من الممكن بناء مستقبل شعب على خرائب شعب آخر . " [1]

فقد استغلت إسرائيل هذه الشعارات خير استغلال في خطابها الإعلامي ، الذي تنشره على مستوى العالم ، و مفاده أن اليهود مضطهدون مهددون من قبل الدول العربية جميعها ، لذا فعلى إسرائيل أن تحمي نفسها بالوسائل التي تراها مجدية . لذلك يستعمل " إميل حبيبي " وصف " الرجعية العربية " ، ليصف الدول العربية و موقفها من إسرائيل فقد تكلموا و لم يفعلوا ، و ياليتهم تكلموا عن وعي و فهم ، بل عن جهل و رجعية ، فصاروا معاونين للعدو ، لا مجابهين له .

لذا ، فقد وقف " إميل حبيبي " من خلال حزبه الشيوعي موقف الرفض تجاه الأصوات العربية ، التي تنادي بتدمير إسرائيل و إلقاء اليهود في البحر ، لكون تلك الأصوات غير مجدية و قام معه قسم من اليهود الشيوعيين بمحاولة إقناع الحكومات الإسرائيلية الواحدة تلو الأخرى بخطأ سياسات القمع و الطرد التي تنتهجها ضد الشعب الفلسطيني ، و ذلك من خلال تنظيم الندوات و الاعتصامات و في بعض الأحيان الإضرابات ، لذلك فهو يرى أن الحزب الشيوعي قد لعب دورا هاما في الدفاع عن الشعب الفلسطيني ، رغم يقينه من رفض قطاعات كبيرة للشيوعيين ، فيقول :

" و أرجو ألا يساء فهمي حين أعود و أؤكد دور الشيوعيين اليهود و العرب الإيجابي . إنني عالم بحساسية العديد من المواطنيين إزاء هذه المسالة . و لكن ، هل أقيم لهم من الحجارة " أولادا لإبراهيم " ، كما جاء في الإنجيل ؟ لقد كانت المأساة أكبر من أن يتحملها أي فريق آخر . و هل يستطيع أي كاتب منصف أن يؤرخ لتاريخ العرب في إسرائيل ، بل لتاريخ الشعب العربي الفلسطيني ، في نضاله الحديث ، دون أن يذكر هذا الدور . " [2]

و أخيرا ، فإن " إميل حبيبي " قد قضى عمره مكافحا ، مناضلا بكلمته و فكره في سبيل قضية شعبه ، و ضحى بكل شيء ، فقط ليعيش و يدفن في فلسطين ، محاولا الحفاظ على هويته الوطنية الفلسطينية و متشبثا بالسياسة العادلة و العقلانية التي تؤيدها كل الشعوب و الدول المتحررة ، تلك السياسة التي لا تقوم على الطرد ، سواء الفلسطيني أم اليهودي ، بل السياسة التي تتيح التعايش السلمي لكل من على الأرض على اختلاف جنسهم و دينهم . و بهذا فقط يعيش الجميع في سلام .

٣ - أسلوبه الأدبي و أهم أعماله :

عرفنا أن " إميل حبيبي " فلسطيني لم يغادر أرضه ، و قد ترتب على ذلك أنه عايش تجربة الطوفان الإسرائيلي ، الذي التهم كل ماهو عربي في فلسطين ، منذ عام ١٩٤٨ م ، كذلك فقد عايش كيفية السيطرة الإسرائيلية التدريجية على كل قطعة أرض و قطرة ماء فلسطينية ، حتى امتدت هذه السيطرة إلى الفكرة و الكلمة و الحركة ، ثم رأى ، بعد ذلك نتيجة حرب ١٩٦٧ م و اتساع رقعة الأرض المحتلة و زيادة عدد الذين يعانون من أفراد شعبه ، و أخيرا رأى ، بعد حرب ١٩٧٣ م أن كل بلد ، مهما تعاطف مع فلسطين غير مستعد للتضحية في سبيلها ، فالكل يبحث عن المصلحة الشخصية و يحصر قضية فلسطين في المجال الاعلامي فقط .

---

[1] إميل حبيبي : المعجزة ، شؤن فلسطينية ، ٨٧ / ٨٨ ، فبراير مارس ، ١٩٧٩ ، تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية ، صـ ٨٠ .

[2] المرجع السابق نفسه ، صـ ٨٤ .

من هنا " جاءت أعماله تسجيلا متفاعلا واعيا ليس لزحف الطوفان المدمر ، و إنما للتصدي له بالحيلة و العنف و الفكر و الفن . و كتابات هذا المؤلف هي في صميمها نوع من التصدي الشجاع لكل ما يضاد عروبة فلسطين و حرية أبنائها . " [١]

و من هنا أيضا استخدم " إميل حبيبي " في لغته فن المفارقة ، ذلك الفن الحديث الذي يعتمد على بعض فنون البديع القديم ، مثل التورية و الإيماء . و لعل سبب استخدامه لفن المفارقة في أسلوبه أن هذا الفن " يعتمد – أولا - على تأكيد عالم المفارقات الذي يعيشه الإنسان و إذا حصرنا الأسباب التي جعلت فن المفارقة من أهم سمات قص الحداثة ، نجدها تتركز حول موقف الإنسان المعاصر من الحياة . حيث أصبح عاجزا كليا عن أن يجد لنفسه صيغة منطقية متكاملة تلم شتات الحياة التي يعيشها في هدف موحد . و لم يجد مفرا ، على الأقل ، على مستوى القص من أن يجد مجالا آخر في العالم اللامحدود . بعد أن عجز عن أن يجده في العالم المحدود ... و هو يحقق المفارقة بوسائل شتى ، فهو يستخدم لغة الساخر ليجمع بين المتناقضات و يؤكد ، ثم ينفي ما أكده . " [٢]

أيضا ، فـ " إميل حبيبي " يتبع أسلوبا أدبيا " يكاد يكون واحدا لا يخرج عنه في نطاق مؤلفاته و رواياته ، و يتمثل هذا الأسلوب في إدخال مواد غريبة و جديدة على السرد الروائي التقليدي . لقد سرد " إميل حبيبي " النص الروائي بشكل ممتد على ساحة الإبداع ، دون أن يكون معتمدا على نقطة واحدة أو مركز محدد . " [٣]

و هذا الأسلوب بدوره يعد متأثرا بوضعه الشاذ في إسرائيل و تجربته الحياتية ، لذلك فهو " أسلوب متميز كطريقة وحيدة ممكنة للتعبير عن تجارب محظورة ، أو محفوفة بالصعاب ، و مع هذا فإن الكاتب لم يصطنعه للنفاذ في موضوعات قد تفضل طبيعتها هذه الطريقة . إنه أسلوبه النابع من ثقافته الشاملة العميقة ، و قدرته على السخرية و التهكم ، و رؤية المفارقة المضحكة ، حتى في مواقف قاتمة . " [٤]

فهو بصفته فلسطيني و حاملا الجنسية الإسرائيلية ، و يعيش في مكانه الفلسطيني الذي صار إسرائيليا و يكتب بالعربية ، و يتحدث بالعبرية و يرى حياته و مستقبله بعين فلسطينية و أخرى إسرائيلية و يريد أن يسجل معاناته و يدافع عن قضيتة الفلسطينية و لكن في الوقت نفسه ينظر إلى الرقيب الإسرائيلي المتربص له ، إنه بصفته كل هؤلاء ليس أمامه سوى أسلوب السخرية و الإشارة ، دون أسلوب الثورة .

و هناك ، أيضا سمة أساسية هامة في أسلوب " إميل حبيبي " الأدبي ، إنها سمة الزمان و المكان " فالزمان عنده لا يحد بالمرحلة التي يتصدى لتصويرها أو التعبير عن محنتها ، إنه زمان العرب و تاريخهم الحضاري و تجاربهم المريرة في كل الحقب ، و تجاربهم الظافرة أيضا ، أما المكان فهو كل أرض فلسطين : مدنها و قراها و عيونها و طرقها و جبالها و سهولها ، و كل ما تحوى تلك الأماكن من بشر و شجر و ماء و خمائل و بيارات . " [٥]

فالأرض في أدب " إميل حبيبي " ليست سوى رمز لفلسطين ، و هو يصور لنا هذه الأرض من خلال أسلوب ينبع من المعايشة المتكررة يوميا ، لذلك أصبح هذا الأسلوب بعيدا عن التعميم و قريبا من التركيز ، فهو حين يصور فلسطين ، فإنما يصور واقعه اليومي دون زيادة أو نقصان .

و جدير بالذكر أن الإنتاج الأدبي للأديب الفلسطيني " إميل حبيبي " ، قبل نشره رواية " المتشائل " قد تراوح بين فن القصة القصيرة و الرواية ، حيث " أثارت (سداسية

---

[١] د/محمد حسن عبد الله : الريف في الرواية العربية ، عالم المعرفة (١٤٣) ، ١٤١٠ هـ ربيع الآخر ، نوفمبر ١٩٨٩ م ، صـ ٢٥٥ .
[٢] فيحاء قاسم عبد الهادي : نماذج المرأة / البطل في الرواية الفلسطينية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ ، صـ ١٤٣ .
[٣] سلمى محجوب : قراءة في رواية المتشائل للروائي الفلسطيني إميل حبيبي . http://www.awu-dam.org\isb1135-008.htm
[٤] د / محمد حسن عبد الله : مرجع سابق ، صـ ٢٥٥ .
[٥] د / محمد حسن عبد الله : المرجع السابق نفسه ، صـ ٢٥٥ .

الأيام الستة " جدلا مستفيضا حول شكلها ، إلا أن " المتشائل " قد حسمت ذلك الأمر لصالح فن الرواية ، حيث نالت إجماعا واسعا بأنها رواية فريدة شكلا و مضمونا ، و جاءت إضافة للرواية العربية الجديدة . " [1]

و نلاحظ قلة الأعمال الأدبية لـ " إميل حبيبي " و ربما يرجع الأمر في ذلك إلى انشغاله بالجانب السياسي لقضية فلسطين ، إلى جانب الظروف الاقتصادية ، و لا ننسى أن الرجل يكتب بالعربية – رغم إجادته التامة للعبرية - في دولة ناطقة بالعبرية و تعادي الدول العربية و تراثها و لغتها و أدبها . و لكن مهما يكن من أمر ، فهذه الأعمال رغم قلتها تنبض بموهبة أدبية عالية ، كذلك تحوى تصويرات كثيرة لفلسطيني ٤٨ و أوضاعهم . و لولا أهمية هذه الأعمال القليلة و جودتها لما نال صاحبها الجوائز ، و لا تم ترجمتها إلى العبرية و الإنجليزية .

٤ - الرواية موضوع البحث :

- عرض الرواية :

يمتد زمان الرواية من تاريخ النكبة الأولى ١٩٤٨ م ، إلى ما بعد حرب ١٩٦٧ م أما مكانها ، فهو الأراضي الفلسطينية بمدنها و قراها و جبالها و سهولها و وديانها ، فهي رواية تحمل نكهة الأرض الفلسطينية و تفاصيلها الجغرافية و البشرية و العمرانية .

و تقع الرواية في ثلاث لوحات ، تدور اللوحة الأولى التي حملت عنوان " يعاد " في حدود عام ١٩٤٨ م ، و تدور أحداث اللوحة الثانية ، التي أخذت عنوان " باقية " في الفترة ما بين عامي ١٩٤٨ – ١٩٦٧ م ، أما اللوحة الثالثة و التي جاءت بعنوان " يعاد الثانية " فتدور أحداثها حول حرب ١٩٦٧ م و ما تلاها .

تدور أحداث القصة حول " سعيد أبي النحس المتشائل " و هو شاب فلسطيني قروي الأصل ، عاش " سعيد " في حيفا ، و تعلم في عكا . و في القطار ما بين حيفا و عكا ولد حبه الأول " يعاد " و مع ولادته فقد بسبب النزوح الرهيب عام ١٩٤٨ م ، فقد طردت " يعاد " و ذووها إلى الغربة ، و عاد " سعيد " متسللا ليحتمي بضابط إسرائيلي يدعى " يعقوب " الذي صار مسئولا عن سعيد مسئولية مباشرة . و مع " يعقوب " يبدأ " سعيد " في العمل لصالح دولة إسرائيل أملا في مساعدة " يعقوب " له في أن يجد " يعاد " الضائعة .

و بين هذه الأحداث يتجه السرد ليصور عكا و حيفا ، و يحكي عن " أحمد الجزار " بطل عكا التاريخي ، و أهل حيفا ، الذين اقتحمت دورهم بعد نزوحهم فوجدت القهوة مصبوبة في أكوابها ، لم يجد أصحابها وقتا لشربها قبل النزوح و كلها حكايات يرويها " سعيد " نفسه دون أن يخرج بنا عن أحداث الرواية ، فيحكي لنا كيف التقى بلاجئين احتموا بفناء جامع الجزار و كيف أمطروه بالأسئلة عن قراهم التي محيت حين علموا أنه متسللا . و في هذا المشهد يقدم " إميل حبيبي " قائمة بأسماء القرى التي دمرتها إسرائيل .

و حين وصل " سعيد " إلى إسرائيل بمساعدة عشيق أخته ! لاحظ انقراض الحمير في وادي النسناس في حيفا و اكتشف أن جزاري تل أبيب أنفقوها في صنع النقانق ، فيتخذ من ذلك الحدث مناسبة لذكر القرى الفلسطينية التي انقرضت حميرها .

ثم تتوالى الأحداث و يقابل " سعيد " " يعاد " التي رجعت متسللة ، إلا أن الشرطة تقبض على الأخيرة و تلقيها في شاحنة لترميها خارج حدود الدولة و هنا أيضا يتخذ " إميل حبيبي " هذا المشهد ليقدم قائمة أخرى من قوائم القرى الفلسطينية ، فيذكر أنها لم ترسل وحدها ، بل وضعت مع متسللين آخرين من المجيدل و معلول و شفا عمرو و غيرهم .

[1] د / بسام قطوس : مقاربات نصية في الأدب الفلسطيني الحديث ، دار الشروق للنشر و التوزيع ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠ صـ ١٢٩ .

و كما يعرف " إميل حبيبي " القرى المدمرة نراه يروي لنا على لسان " سعيد " الأسماء الفلسطينية الحقيقية للأماكن الفلسطينية ، فيذكر ساحة الحناطير في حيفا ، ثم يلفت النظر إلى اسمها الجديد : باريس حاليا ، و مرج بن عامر فهو على الخرائط سهل يزرعيل وغيرهما .

و تمر الأحداث و يتزوج " سعيد " من " باقية الطنطورية " – نسبة إلى قرية طنطورة – و يكون زواجه هذا امتثالا للأوامر الإسرائيلية ، و يرزقان بمولود سمياه " فتحي " فلما لم ينل الاسم رضا السلطة الإسرائيلية قاما بتغييره إلى " ولاء " و هو الاسم الذي اختارته السلطة الإسرائيلية للطفل .

و يحدث أن تغضب السلطة الإسرائيلية على " سعيد المتشائل " ، مع أنه كان لا يدخر جهدا في العمل ، فيوضع – دون أية معارضة منه ، بل و عن طيب خاطر – في سجن شطة الرهيب ، فيلتقي " سعيد المتشائل " بـ " سعيد " آخر و هو أحد مقاتلي المقاومة الفلسطينية ، و هو أيضا ابن " يعاد " حبيتة الأولى ، فيعجب به " المتشائل " كثيرا و يتعجب من شخصيته ، لكنه لم يستطيع أن يتبع سبيله أو حتى أن يفكر في هذا .

و بعد خروج " سعيد المتشائل " من السجن يجد نفسه غير قادر على التعاون مع العدو ، فيودع في السجن مرارا و يصفع و يشتم و يهان ، و هو يحتمل كل هذا بصبر غريب و هو يتحمل هذا العذاب من أجل حصوله على حماية كاملة من إسرائيل تجعله يعيش فى وطنه و لا يطرد ، و لكن في نهاية المطاف يجد " سعيد " نفسه متورطا ، و يتضح ذلك من نهاية قصته ، فقد وجد نفسه على خازوق و لم يستطع أن ينقذ نفسه ، فجلس ينتظر معجزته الفضائية التي كان يحلم بها لتنقذه .

- الآراء النقدية حول الرواية :

نالت رواية " إميل حبيبي " : " الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل " قسطا وافرا من الدراسة من جوانبها " الأدبية و اللغوية و المعمارية و المضمونية ، فقد تناولها " إميل توما " في جريدة الاتحاد فرأى في " سعيد أبي النحس " نموذجا عرفته جماهيرنا العربية بشكل بارز بعد قيام الدولة ، يمثل الاستسلام و الهزيمة في أحسن الحالات الاتكالية و التمسك بالأخلاق الغيبية . إنه النموذج الذي ينبذه الشعب و يتركه لمصيره . و تبعه في ذلك " واصف أبو الشباب " الذي رأى في " سعيد " نموذجا سلبيا انهزاميا أظهر الولاء لدولة الاحتلال ، و عده شخصية تفتقد الاتزان الفكري و تقدم التنازلات لتحقيق التكيف مع متغيرات المحيط ، كما خلص نبيه القاسم في قراءته لـ " متشائل " " إميل حبيبي " إلى أن قصة " سعيد " هي قصة شعبنا بكل قطاعاته المتهادنة و المتحدية خلال الخمس و العشرين سنة الماضية . و ألمع إلى أسلوب السخرية الذي امتاز به " إميل حبيبي " و إبرازه الوجه القومي . " [1]

و تعد رواية " المتشائل " " إضافة نوعية للرواية العربية الجديدة ، أثبت فيها " إميل حبيبي " مقدرته الكبيرة على الاستفادة من التراث الأدبي العربي ، و البراعة في مزجه بالأساليب المعاصرة في الفن الروائي . " [2]

و عن هذه الرواية يقول د / " محمد حسن عبد الله " : " و يمكن أن نستخلص من " المتشائل " تقويما جغرافيا تاريخيا لفلسطين هو في ذاته مقاومة و رفض لمحاولات التجهيل التي تمارسها السلطة اليهودية على عرب الداخل و الخارج على السواء ، بحيث ينقطع خيط التواصل مع الجذور المستقرة . " [3]

---

[1] د / بسام قطوس : مرجع سابق ، صـ ١٢٥ .

[2] أحمد عطية أبو مطر : الرواية في الأدب الفلسطيني (١٩٥٠ م – ١٩٧٥ م) ، منشورات وزارة الثقافة و الإعلام العراقية ، ١٩٨٠ ، صـ ٣٠١ .

[3] د / محمد حسن عبد الله : مرجع سابق ، صـ ٢٥٥ .

و يضيف د / " مصطفي عبد الغني " قائلا : " و رواية " المتشائل " لا تهتم بالجغرافيا ، فقط ، و إنما أيضا بالتاريخ ، حتى أن القارئ ليشعر أن هذا العمل الفني إنما هو استعادة فنية و فكرية في تاريخ القضية الفلسطينية من أيام الاحتلال الصليبي و حتى الاستيطان الصهيوني مرورا بالاحتلال الصهيوني ، الذي أسلم البلاد لغاصبيها الجدد ، و حتى أنه ليصبح التاريخ العربي كله (على أساس أنه تاريخ صراع بين الشرق العربي و الغرب الصهيوني) في الحكى الروائي من خلال إشارات و إيحاءات تعمقها أشعار " المتنبي " و " أبو فراس " و أمثولات " الجاحظ " و " أبي العتاهية " و حكايات ألف ليلة و ليلة فضلا عن الرموز الشعبية و الصوفية . " [1]

و كشف " فخرى صالح عن أهمية النص في كونه يستدفئ بالمكان الفلسطيني و الزمان الفلسطيني بدءا من عام ١٩٤٨ م . فهي لا تتنبأ ، و لكنها تنبئ و تؤرخ فترتها التاريخية من خلال أفقها الساخر . و تحدث عما أسماه (الفكاهة السوداء) في الرواية و رأى أن شخصية " سعيد " وظفت بشكل أغنى التراث الروائي الساخر ، و جعلها توعى جيلا كاملا من أجيال الشعب الفلسطيني لخدمة الواقع الذي ظلت مرتهنة به طارحة رؤيتها لواقع جديد . و رأى " هاشم ياغي " أن " إميل حبيبي " استطاع أن يرسم في متشائله صورة شعبه في قضيته المركزية متكئا على (الرمز المضئ) ، الذي تتداخل فيه صور الشعب و الأرض و الحبيبة تداخلا حارا و جميلا ، دون أن تضيع الرؤية من بين يدي القارئ . " [2]

و عن لغة الرواية ، نقرأ : " إن لغة الرواية بسيطة و ملائمة للملهاة و لأقوال بطل القصة الساذج ، و كثيرا ما يضمن " حبيبي " كلمات و عبارات و أمثالا شعبية فلسطينية ، كما يستعين برواية الأشعار و اصطناع المفارقات في المواقف ، و التهكم و الاستهزاء و اللعب بالكلمات ليقدم لنا شكلا جديدا و هجينا يغني تجربة الشكل في الرواية العربية ، و هذا يذكرنا ببعض الاستثناءات الكبرى في الأدب العربي ، فقد استفاد من الآداب الأجنبية فاهتدى إلى المزج بين الشكل الروائي الأوربي و أساليب سردية متعددة . " [3]

و تأتي لغة الرواية في أسلوب " يجمع بين الإيجاز و البلاغة ، و كثرة الإيحاءات ، دون أن يقع في شرك البلاغة . و هو لا يلجأ إلى النبرة الحادة في التنديد بالاحتلال ، أو تمجيد المقاومة ، لكنه يتمكن أن يحقق ذلك عن طريق التهكم و السخرية المغرقة بالسذاجة ... من خلال التهكم الخفيف الظل ، و من خلال استهزائه المضحك يمكننا أن نقف على إشارات عديدة للمأساة المريرة التي تمارس يوميا على الشعب الفلسطيني . " [4]

و نقرأ ، أيضا ، عن لغة أسلوب الرواية " جاءت هذه الرواية توليفا من هجاء ساخر و قصة رمزية شفافة شبه خيالية و توريات لا تحصى ، و تلاعب بمعنى الكلمات ، و المفارقات . " [5]

و الواقع أن رواية " المتشائل " تستحق هذه الكثرة من الدراسات النقدية ، فهي تشتمل على الكثير و الكثير من الجوانب ، التي تغرى النقاد و دارسي الأدب و في هذا خير دليل على جودتها . و ربما يمكن للباحث أن يقدم بعض نقد لشخصية " سعيد المتشائل " في الرواية ، " فالمتشائل " من عنوانها تصيب القارئ بالحيرة و تستمر هذه الحيرة مع كل سطر من سطور الرواية ، و تبلغ هذه الحيرة ذروتها ، حين يكتشف القارئ أن البطل الروائي " سعيد " ما هو إلا شخصية سلبية معدومة الإرادة ، و كأنها ريشة

---

[1] د / مصطفى عبد الغني : مرجع سابق ، صـ ٢٠٦ .
[2] د / بسام قطوس : مرجع سابق ، صـ ١٢٦ .
[3] سلمى محجوب : مرجع سابق . http://www.awu-dam.org
[4] سلمى محجوب : المرجع السابق نفسه . http://www.awu-dam.org
[5] أناهيد الحردان : مرجع سابق ، صـ ٣٥ .

في مهب الريح . " بطل سلبي " كيف تحتمل الشخصية مفهومي " البطولة " و " السلبية " ؟ ! إن " سعيد المتشائل " الفلسطيني الإسرائيلي متخبط و حائر ، و لا يعرف صوابه من خطأه ، حيطته سذاجه ، و ثورته مواء هر ضعيف ، و سلاحه عصا مكنسة . و عن هذا البطل و سلوكياته يقول " إميل حبيبي " :

" كان هدفي باختصار هو تخليص المظلوم من مصيبة توهم القوة في ظالمه ، و لذلك اخترت شخصية سلبية لتكون بطل الرواية . شخصية جمعت فيها كل العيوب التي أردت محاربتها ، و لكن كان من الضروري أن أضفي الصورة الإنسانية على الشخصية حتى يصبح واضحا أنها ليست فريدة . " [1]

و يمكن أن نخرج باستنتاج عن شخصية " سعيد " و تكوينها الغريب و هو أن " إميل حبيبي " قد قدم لنا من خلال " سعيد " قطاع من قطاعات فلسطيني ٤٨ ، ذلك القطاع الذي وجد نفسه ، فجأة ، في ظروف اجتماعية و سياسية قاسية ، يفرضها محتل غاصب قوى ، الأمرالذي أفقده توازنه و جعله متخبطا . إنه يبحث عن مخرج من أزمته و يبحث عن تعريف لهويته ، لقد صارت الأمور ملتبسة ، و توقف الزمن ، و لم يعد يشعر هذا القطاع الذي يمثله " سعيد " بوجوده ، و لا ذاته . لذا جاء " سعيد " فاقدا اتزانه الفكري ، عاجزا عن اتخاذ قراره و حتى إذا ما اتخذه ، فهو عاجز عن تطبيقه .

إن كل ما فعله " إميل حبيبي " لصنع شخصية " سعيد " هو أن وضع أمام هذا القطاع من فلسطيني ٤٨ مرآه . نعم مجرد مرآه يروا من خلالها صورتهم في الواقع المعاش ليحاولوا تقييمها ، و إن لم يستطيعوا تقييم أنفسهم ، فيكفي أن يشاهدوا مستقبلهم ، إذا ما ظلوا على هذه الصورة .

في النهاية ربما يصح قول : إن رواية " المتشائل " وقت صدورها تعد نمطا جديدا في الأدب العربي ، كما أن رسالتها استطاعت أن تبرز أشكال العدوان الإسرائيلي غير العادية ، التي مارستها و لا تزال تمارسها إسرائيل على الشعب الفلسطيني حتى اليوم.

ب - جبرا إبراهيم جبرا :

١ – حياته :

" ولد " جبرا إبراهيم جبرا " في بيت لحم عام ١٩١٩ و توفى في بغداد يوم ١٢/ ١٢ / ١٩٩٤ م . منح وسام القدس للثقافة و الفنون في عام ١٩٩٠ م ، حصل على الماجستير في الأدب الإنجليزى عام ١٩٩٤ م و عين أستاذا للأدب الإنجليزي في الكلية الرشيدية في القدس . سافر إلى الولايات المتحدة و التحق بجامعة هارفارد في زمالة دراسية للنقد الأدبي . و في عام ١٩٥٤ م عاد إلى بغداد و عمل محاضرا في جامعة بغداد حتى عام ١٩٦٤ م . كما عمل خبيرا في وزارة الثقافة و الإعلام ببغداد حتى عام ١٩٨٤ م ، حيث تقاعد و تفرغ للكتابة و التأليف . " [2]

و قد عاش " جبرا " و أسرته في سني حياته الأولى في بيت لحم ، و كانت عيشته بسيطة فقيرة تعتمد على العمل و الجهد اليدوي شأن أسرته في ذلك شأن معظم أسر بيت لحم ، إذ يقول :

" غير أن الدور التي كنا نأوي إليها كانت ، دائما ، من النوع البدائي ينسكب ماء المطر من مزراب سطح الواحدة منها إلى الحوش ، و يلتقي بما ينحدر من تجمع الماء في الحوض نفسه ، و تصب المياه كلها في حفرة لا يزيد عمقها على المتر الواحد قرب البئر ، و على ارتفاع قليل من قعرها مسرب يتصل بباطن البئر . ففي هذه الحفرة تترسب الشوائب الطينية التي تحملها معها مياه المطر المنصبة فيها ... و قد صفيت قليلا .

[1] د / بسام قطوس : مرجع سابق ، صـ ١٣١ .

[2] http://www.falestiny.com\writer-cv\169.

لكن التصفية لن تتم إلا بعد أيام ... و لذلك كان لابد من تنظيف البئر ، كلما مرت عليها بضع سنوات ، من الرواسب المتراكمة . " [١]

و تتضح مشقة الحياة في ذلك الوقت و قيامها على ماء المطر و تخزينه في البئر التي كانت أول ما يبحث عنه في مواصفات الدار ، كذلك فلهذه البئر صفات أساسية لابد أن تتوافر بها ، فهي يجب أن تكون عميقة و جيدة و طيبة الماء .

أما مكان سكن " جبرا " في بيت لحم ، فيقول عنه :

" انتبهت إلى أن أهلي يسمون المكان الذي نسكنه بالخان . ثم انتبهت إلى أن من يأتي عندنا يصفنا بساكني الخان ... و هو لاريب قد كان خانا في يوم مضى : غرفة فسيحة ، عميقة ، في الطابق الأرضي من مبنى عتيق على الشارع العام ، خلف الجامع . و على مقربة منه دكاكين كثيرة من كل نوع ، من البقال إلى صانع الأحزمة و برادع الحمير . و ليس للغرفة نافذة ليس لها إلا باب حديد كبير ... و قرب الباب مرحاض صغير ، أضيف حتما بعد الفراغ من بناء الدار في يوم من أيام العهد العثماني الطويل . " [٢]

و جدير بالذكر أن هناك سمة أخرى غير بساطة الحال و البدائية و الفقر تميزت بها طفولة " جبرا " في بيت لحم ، ألا و هي الدين ، فقد تربى " جبرا " في أسرة مسيحية سريانية متدينة تهتم بالطقوس الدينية ، حيث " تلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة طائفية تدرس التعاليم الدينية ، و تطالب تلاميذها و منهم " جبرا " أن يرتلوا القداس صباح كل أحد ، و كانت تعلم الطلاب اللغة الإنكليزية و السريانية و الحساب . " [٣]

كذلك ، فقد اهتمت أسرة " جبرا " بالعمل بمختلف أنشطة الكنيسة . و عن هذا يقول " جبرا " :

" أصعدني أبي مع أخي إلى الكنيسة مبكرا ، و أوقفني في أحد صفي الصبية المرتلين ، و مع إنني لم أكن أعرف ما الذي يرتلونه بالسريانية ، فقد جعلت أتمتع بما أسمع ، و أحاول أن أرفع صوتي معهم ، كلما رفعوا أصواتهم . " [٤]

فقد راق الأمر لـ " جبرا " ابن الخمس سنوات و تمنى أن يشارك في هذه الطقوس . و مع الوقت صار " جبرا " أحد الأعضاء الفعالين في مختلف أنشطة الكنيسة سواء الدينية أم الاجتماعية ، كذلك لعب " جبرا " دورا بارزا في احتفالات الكنيسة ، حيث كان الرهبان النصارى مولعين بالأدب و الفن ، و يقيمون الحفلات و يعرضون المسرحيات .

و رغم فقر الأسرة ، إلا أن " جبرا " الصغير قد نال نصيبه من التعليم ، فقد درس في مدرسة طائفة السريان في بيت لحم ، خلال المرحلة الابتدائية ، ثم " تابع تعليمه في المدرسة الوطنية حتى الصف الخامس الابتدائي ، و حين مرض والده اضطرت الأسرة إلى الرحيل إلى القدس ، و رغم قسوة الظروف فقد أصرت والدته على استمراره في الدراسة ، فأكمل تعليمه في المدرسة الرشيدية في القدس ، مما أتاح له فرصة التتلمذ على يد نخبة من الأساتذة الممتازين الذين كان لهم أثر كبير في ثقافته و تطور وعيه و موهبته ... كما استطاع أن يطلع فيها على القرآن الكريم و التربية الإسلامية ، إذ كان نظامها يسمح للطلاب النصارى بحضور هذه الحصص إذا كانت لديهم رغبة في ذلك . " [٥]

---

[١] جبرا إبراهيم جبرا: البئر الأولى، فصول من سيرة ذاتية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٣، صـ ١٥، ١٦ .

[٢] جبرا إبراهيم جبرا : مرجع سابق ، صـ ١٩ .

[٣] د / ماجدة حمود : نقاد فلسطينيون في الشتات ، بدون دار نشر ، الطبعة الأولى ، دمشق ، ١٩٩٨ م ، صـ ٦٣

[٤] جبرا إبراهيم جبرا : مرجع سابق ، صـ ٢٥ .

[٥] د / ماجدة حمود : مرجع سابق ، صـ ٦٣ .

و في عام ١٩٣٥ م أنهى " جبرا " تعليمه في المدرسة الرشيدية ، و التحق بالكلية العربية في القدس ، و خلال هذه الفترة تمكن من إجادة اللغتين العربية و الإنجليزية بشكل ممتاز . و في القدس أضيف لحياة " جبرا " بعدا ثقافيا أقوى ، إذ يقول :

" كانت هناك مدينة القدس الجميلة اكتشفتها حيا حيا ، و حجرا حجرا القديمة منها و الجديدة تاريخها و حاضرها . و كانت هناك المجلات المصرية تأتينا كل أسبوع بالمعرفة و الفكاهة و صراعات القاهرة السياسية و معاركها الأدبية . و كانت هناك الكتب نستحصلها بالمشقة ، و الحيلة و التضحية : السير القديمة ، و القصص ، و الروايات و دواين الشعر ، و التواريخ . و كان هناك الأساتذة الجدد يعودون من جامعات العالم و يضخون فينا عشق المعرفة . " [١]

ومن القدس خرج " جبرا " لمتابعة دراساته العليا أولا في جامعة كامبريدج البريطانية ، ثم هارفارد الأمريكية ، و بعد تخرجه عام ١٩٤٨ م توجه إلى العراق ، حيث " أدى ضياع الوطن عام ١٩٤٨ م إلى ضياع الاستقرار و العمل ، مما دفعه للتفكير بالسفر إلى البلاد العربية للعمل ، و لم يجده سوى في العراق التي وصل إليها في أواخر ١٩٤٨ م ، حيث عين محاضرا في كلية الآداب في جامعة بغداد و بدأ إنتاجه الفني و النقدي يعرف في الساحة الثقافية العربية . " [٢] و قد عاش هناك طوال عمره حتى وفاته .

و في بغداد " أنشأ " جبرا " علاقات جديدة تحدث عنها في سيرته ، فبدأ بالحديث عن علاقته بـ "جواد سليم " و " بلند الحيدري " التي نتج عنها في النهاية إنشاء جمعية للفنانين عام ١٩٥٦ م . " [٣]

و قد ارتبط " جبرا " بالعراق و أحب أماكنها ، و لم تقتصر علاقاته فيها بالأشخاص فقط ، بل تعدت ذلك لتشمل الأماكن أيضا ، حيث ارتبط بشدة بشارع الأميرات في بغداد ، و اكتشف أن مشيه في هذا الشارع ، إنما هو مصدر إلهام له ، فيقول :

" إن رواية " الغرف الأخرى " و فصول من سيرة ذاتية " البئر الأولى " و رواية " البحث عن وليد مسعود " و رواية " يوميات سراب عفان " و كتبه الثلاثة " الفن و الحلم و الفعل " و " تأملات في بنيان مرمري " و " معايشة النمرة " ، كلها كانت ثمرة مشيه في شارع الأميرات . " [٤]

و الواقع أن " جبرا " قد امتلك " موهبة القص ، و عشق ماله علاقة بالفن ، عشق الرسم ، و الشعر ، و الموسيقى ، و عشق الآثار ، و الطبيعة ، و الرقص و عشق كل ما له صلة بالجمال . " [٥]

أيضا ، فلم يقتصر " جبرا " على الأدب و أشكاله ، بل خاض مجالي النقد الأدبي و الفني كليهما ، كذلك كان قادرا على رسم لوحات فنية و نقدها ، و يعترف " جبرا " بولعه بالأدب و الفن قائلا :

" أعود للنغمة الشخصية فأقول : " إنني كنت و لنصف قرن تقريبا ، مولعا لا بالأدب وحده ، و إنما بالفن و الموسيقى كذلك . " [٦]

غير أن تأليف الكتب و الروايات و الاهتمام بالموسيقى و الرسم لم تكن هي الأمور الوحيدة التي اهتم بها " جبرا " في العراق . فبعد توجهه إلى العراق لتدريس

---

[١] جبرا إبراهيم جبرا : مرجع سابق ، صـ ٢٦٨ .

[٢] د / ماجدة حمود : مرجع سابق ، صـ ٦٥ .

[٣] تهاني عبد الفتاح شاكر : السيرة الذاتية في الأدب العربي : فدوى طوقان و جبرا إبراهيم جبرا و إحسان عباس ، نموذجا ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢ ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، صـ ٢٤٧ .

[٤] تهاني عبد الفتاح شاكر : المرجع السابق نفسه ، صـ ٢٤٥ .

[٥] إبراهيم السعافين: الأقنعة والمرايا، دراسة في فن جبرا إبراهيم جبرا الروائي، الطبعة الأولى، دار الشروق، عمان، الأردن، ١٩٩٦، ص١٠.

[٦] جبرا إبراهيم جبرا : لماذا أكتب بالإنجليزية ، ترجمة : سلمان داود الواسطي ، مجلة الآداب ، العدد الثالث و الرابع ، آذار – نيسان ١٩٩٥ م ، صـ ١٠٢ .

الأدب الإنجليزي " تعرف هناك على الآنسة " لميعة برقي العسكري " التي شكلت انعطافا في مسار حياته . فقد تزوجا و انجبا ولدين ، هما " سدير " و " ياسر " ، و حمل " جبرا " الجنسية العراقية التي ما كان لها أن تفصله عن جنسيته الفلسطينية ، التي حافظ على لهجتها حتى آخر لحظة في حياته . " [١]

و جدير بالذكر أنه رغم ابتعاد " جبرا " عن فلسطين و سكنه – و ليس استقراره - في العراق ، إلا أن فلسطين ظلت تلازمه على المستوى الوطني و الإنساني ، و ظهر ذلك في أعماله الأدبية و رسوماته ، فقد ضاعت منه فلسطين ، فراح يبحث عنها و يتمثلها بين صفحات رواياته و على لوحات رسوماته .

٢ - اتجاهه السياسي و موقفه الفكري :

عرفنا أن " جبرا إبراهيم جبرا " قد قضى معظم سني حياته في العراق ، و عرفنا أيضا أنه كان يعيش فيها بصفته لاجئا فلسطينيا ، و الواقع أن لاجئا فلسطينيا ليست مجرد صفة ، بل إنها نمط حياة ، فاللاجئ الفلسطيني موجود دائما تحت المنظار يشغل وظائف معينة و يمكث فترة معينة . إنه ، دائما و أبدا ، لا يستطيع أن يخطط لمستقبله البعيد أو القريب ، حتى وضع خطة ليوم واحد من شأنه أن يتعذر لسبب ما دائما ، لذا فقد اتجه جبرا إلى أعماله الأدبية متخذا منها ميدانا يعبر فيه عن حاله و حال الفلسطينيين المشتتين و يدافع عن وطنه المغتصب ، من هنا احتلت فلسطين المساحة الأوسع في كتاباته ، حيث " تحيل كتابة " جبرا " على مدينة مقدسة هي القدس التي تستولى على الذاكرة و ثقافة تآلف الإنسان و المكان . " [٢]

و على الرغم من المكانة التي نالها " جبرا " في العراق ، إلا إنه لم يكن يشعر بالأمان ، فهو منفي عن وطنه ، لذلك لن يكون له وطنا إلى الأبد ، و هو يدرك جيدا أن العراق أو أي بلد آخر مهما فتح له ذراعيه فلن يكون أبدا بلدا له ، و من الممكن أن يطرد بسهولة و بدون إبداء الأسباب .

و قد حدث له ذلك بالفعل في العراق في مقتبل حياته العملية ، إذ امتنعت الحكومة العراقية آنذاك عن تجديد عقده بصفته مدرسا زائرا يدرس الأدب الإنجليزي في جامعتها ، فقد كان " جبرا " - دائما - يشعر أنه فلسطيني معرض للإبعاد عن أي أرض مادام وطنه مغتصبا ، و قد عبر عن هذا الإحساس ، عندما قال لصديقه " ثيو توفيق " و هما يقفان في مكان ما من سواحل بيروت : " أنظر " ثيو " إلى تلك الأسلاب التي يتقاذفها الموج ... نحن الفلسطينيين الآن مثلها ، تتقاذفنا أمواج العالم ، فتقارب بيننا حتى نتعانق ، ثم تفرق بيننا بعنف ، فنتطاير في ألف اتجاه ، و لا يعلم إن كانت ستعود يوما و تجمعنا ، و لو بعنفها مرة أخرى . " [٣]

و لعل محنة المنفى التي عانى منها " جبرا " ، و سائر أبناء الشعب الفلسطيني ، قد أثرت ، بلا شك ، في موقفه الفكري في كل أعماله ، إذ كان يشعر ، دائما ، أن إقامته في أي مكان هي إقامة مؤقته ، و قد ظهر أثر ذلك عنده في مجال الرسم ، إذ يقول :

" كنت منذ أول ذهابي إلى بغداد أرسم على الورق ، و أحيانا على قطع من الخشب المعاكس ، مختارا حجما أقرب إلى الصغر ، لأنني أعلم أن علي أن أنتقل برسومي أينما ذهبت ، و اللوحات الكبيرة عسير علي نقلها ، و بي ذلك الإحساس بأنني مهما توهمت أنني باق في مدينة ما ، فإن الهجرة بانتظاري ، و لابد من تهيؤ دائم لحركة قادمة . " [٤]

---

[١] أحمد دحبور : جبرا إبراهيم جبرا ، ديوان العرب ، مجلة أدبية فكرية ثقافية اجتماعية ، ١٣ سبتمبر ٢٠٠٦ ، مقال على الموقع الألكتروني : http://www.diwanalarab.com\5938

[٢] د / فيصل دراج : رواية جبرا إبراهيم جبرا فلسطين الأحلام ، كتاب " القلق و تمجيد الحياة " كتاب تكريم جبرا إبراهيم جبرا ، الطبعة الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ١٩٩٥ م ، صـ ١٩ .

[٣] تهاني عبد الفتاح شاكر : مرجع سابق ، صـ ٢٦١ .

[٤] تهاني عبد الفتاح شاكر : المرجع السابق نفسه ، صـ ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

من هنا ، و بسبب كل هذه المعاناة ، اتخذ " جبرا " موقفا ثوريا ضد التقاليد البالية ، و ضد التخلف الذي يعيش الحاضر العربي فيه ، فرأى أن الواقع العربي بأكمله مشلول و مصاب ، و لم يعد يصلح لاستكمال المسيرة ، لذا كان " جبرا إبراهيم جبرا " في تناوله للقضية الفلسطينية محرضا على الفعل الإيجابي ، فهو لم يكتف بنقد الحاضر و حسب ، و إنما دعا إلى الاعتماد على النفس بشكل واع .

و " جبرا " في دعواه هذه ، إنما يصدر عن إحساس الفلسطينيين أنفسهم بعد نكبة ١٩٤٨ ، فبعد أن كان الفلسطينيون يعملون تحت مظلة الوجود العربي كله ، قبل نكبة ١٩٤٨ ، فإنهم - بعد النكبة – و انسحاب الجيوش العربية أحسوا بمرارة شديدة من جراء اعتمادهم على هذه الجيوش ، و سعوا إلى اكتشاف ذاتهم ، و قد تضخم هذا الإحساس بالمرارة و وصل إلى أقساه ، بعد هزيمة ٦٧ ، حيث انشغلت الحكومات العربية جميعها بازالة آثار العدوان الإسرائيلي في المقام الأول . و قد كان مؤكدا أن الحكومات العربية عملت ، بعد نكسة ٦٧ على عدم تشجيع الشعب الفلسطيني على الخوض في حرب لتحرير أرضه ، بعد اتجاه معظم تلك الحكومات إلى تفادي الحرب المباشرة مع إسرائيل ، لذا فقد راح " جبرا " يهاجم تلك الحكومات ، و يتهمها بالتخلى عن القضية الفلسطينية ، و في الوقت نفسه راح يدعو إلى تحرير فلسطين بالسلاح ، بالفعل الايجابي دون سواه ، و من وجهة نظر " جبرا " ، فإن هذا هو السبيل الوحيد و الممكن لتفجير التناقضات العربية ، و من ثم إعادة تماسك العرب عبر مواجهة يعتمد فيها على الذات و يستخدم فيها لغة واحدة هي لغة السلاح .

٣ - أسلوبه الأدبي و أهم أعماله :

تفتحت عينا " جبرا " على الأدب و هو في سن صغيرة ، فقد كان والده يروي له حكايات كثيره ، يقول " جبرا " : " فإذا لم يكن متعبا حد الإنهاك ، أطال بها و زاد من الحوار ، و أسهب في الوصف . و العديد من تلك الحكايات ، إذا لم يكن مستقى في الأصل من " ألف ليلة و ليلة " كما تبين لي بعد أن كبرت ، كان في تمجيد الفضيلة و الزهد و الفقر . " [١]

فبلاشك ، أن تلك الحكايات كانت تثري خيال " جبرا " الطفل الصغير و كانت الخطوات الأولى لتكوين شخصيته الأدبية . و تجدر الإشارة هنا إلى سمة هامة تكاد تظهر في جميع أعمال " جبرا " الأدبية و هي حياته الحافلة بالتجارب بصفته من الفلسطينيين المطرودين ، و الشتات الذي أكسبه خبرات عديدة ، فقد استطاع أن يستفيد من هذه الحياة في إغناء رواياته ، و قصصه بتجربة عميقة واسعة ، جعلت منها أعمالا أدبية متميزة ، فقد كان " جبرا " محترفا في جعل أعماله الروائية شديدة القرب من واقعه المعاش ، فكان يجعل من نفسه إحدى شخصيات روايته ، أو قد يوزع نفسه بين عدد من شخصيات روايته ، لذا فحين نقرأ لـ " جبرا " يتعذر لدينا الوقوف على ما هو حقيقي فعلا و ما هو خيال من إبداع الكاتب . فـ "جبرا " " أديب موهوب في إحالة العادي و المألوف إلى مادة فنية تخرج من إطار الحياة اليومية إلى رحابة الإبداع . " [٢]

أيضا ، فإن " عالم جبرا الروائي في معظمه يسيطر عليه الزمن الماضي ملتقيا في ذلك مع السيرة الذاتية من جهة ، و مشيرا من جهة ثانية إلى مدى أهمية هذا الزمن في نفس مؤلفه إذ أنها ترتبط بتلك الذكريات الجميلة أو الشقية التي تذكره بنصفه الآخر الذي تركه في فلسطين على إثر نكبة عام ١٩٤٨ م . " [٣]

---

[١] جبرا إبراهيم جبرا : البئر الأولى ، مرجع سابق ، صـ ١٥١ ، ١٥٢ .

[٢] إبراهيم السعافين : مرجع سابق ، صـ ٧ .

[٣] خليل شكري هياس : سيرة جبرا الذاتية في البئر الأولى و شارع الأميرات ، دراسة ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠١ ، صـ ٧٢ .

و قد استطاع أصدقاء " جبرا " و معارفه أن يلمسوا العلاقة بين حياته و إنتاجه الأدبي ، لذلك نجد أن " حليم بركات " يقول عنه :

" بقدر ما أتعرف إليه و أتعمق في قراءة إنتاجه ، بقدر ما تتحول انطباعاتى الأولى إلى قناعات بأنه لا يمكن الفصل بين " جبرا " الإنسان و " جبرا " الكاتب ، أو بينه و بين كتاباته . " [١] و الواقع أن مسألة ارتباط أعمال " جبرا " الأدبية بحياته ، هي مسألة محسومة ، لا مجال للنقد فيها ، إذ يعترف " جبرا " نفسه بهذا ، فيقول :

" عندما أخذت أراجع نفسي ، بشأن أحداث هذه الطفولة ، وجدت أنني ، عبر أكثر من أربعين سنة من الكتابة ، استعرت العديد منها في مقالاتي و قصصي القصيرة ، و بخاصة في رواياتي . " [٢]

و يشكل المكان عند " جبرا " " إحدى الدعائم الأساية التي تقوم عليها العملية السردية ، فهو يشكل لوحة شاملة لوعي " جبرا " للعالم بوصفه وعيا مكانيا قائما على ثنائية أساسية هي ثنائية (المغلق / المفتوح) ، إذ يمثل المغلق مرحلة الطفولة و الصبا التي قضاها " جبرا " في فلسطين (بيت لحم و القدس) في حين يمثل المفتوح مرحلة الشباب و الانفتاح على العالم الذي يبدأ بسفر " جبرا " إلى الخارج للدراسة ، حيث الاحتكاك بالآخر ثقافة و وعيا . " [٣]

" و من الروايات التي اعترف " جبرا " أنه استعار فيها أحداثا من حياته الخاصة رواية " البحث عن وليد مسعود " ذلك الشخص الذي يتشبث بطفولته ، و يعيش أحداثا تشبه الأحداث التي مر بها " جبرا " . " [٤]

و إجمالا ، فيمكن أن ندرك أن " جبرا " في معظم رواياته " لم يستطع أن يكتب بعيدا عن ذاته و أنه في كل ذلك يعتمد على ما عاشه من تجارب أو ما قرأه ، لذلك جاءت الروايات زاخرة بجوانب كثيرة من شخصيته أو الشخصيات التي عايشها في الواقع ، إذ أن إفادة الكاتب من الحياة كانت إفادة كبيرة أغنت رواياته بتجربة عميقة و واسعة ، إذ نستطيع - ببساطة - أن ندرك أن رواياته للحياة في شكل سير ذاتية يتقاطع مع تجربة شخصياته الخيالية تقاطع الواقعى و المتخيل في حياته و فنه . " [٥]

و جدير بالذكر أنه قد " أجمع أكثر من ناقد و مثقف أن مشروع " جبرا " الروائي تميز بالبحث عن أسلوب كتابة حداثي يتجاوز أجيال الكتابة الروائية السابقة مع نكهة عربية ، و عالج بشكل خاص الشخصية الفلسطينية بالشتات . " [٦]

و يقول الدكتور " محسن جاسم الموسوي " : " و يجدر بنا ملاحظة موقف " جبرا إبراهيم جبرا " من الفن الروائي . فأين يقف من الرواية التقليدية ؟ لقد بلغ الكاتب قناعات نظرية أبرزها رفضه الرواية التقليدية . " [٧]

فـ " جبرا " في كتاباته " لا يكتب وهما ، بل يرسم عالما روائيا ذا قيمة جمالية و معرفية يصف طبقة تعشق الوطن وفقا لمنطقها و ثقافتها و وضعها الاجتماعي ، و في هذا الرسم و الوصف يطلق " جبرا " خياله الروائي و ينتج جسما فنيا متماسكا و متميزا. " [٨]

---

[١] حليم بركات : جبرا إبراهيم جبرا – الكاتب و الكتابة ، كتاب " القلق و تمجيد الحياة " كتاب تمجيد جبرا إبراهيم جبرا ، الطبعة الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، ١٩٩٥ م ، صـ ١٠٨ .

[٢] جبرا إبراهيم جبرا : البئر الأولى ، مرجع سابق ، صـ ٩ .

[٣] خليل شكري هياس : مرجع سابق ، صـ ١٢٩ .

[٤] تهاني عبد الفتاح شاكر : مرجع سابق ، صـ ١٨٣ .

[٥] خليل شكري هياس : مرجع سابق ، صـ ٧٢ .

[٦] نائلة خليل : شمولية الإبداع و اكتمال الإحساس ، ملحق ثقافي يصدر عن المكتب التنفيذي لاحتفالية القدس عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٩ متاح على الموقع الألكتروني : http://www.al-ayyam.ps\10-2009.

[٧] د / محسن جاسم الموسوي : الرواية العربية النشأة و التحول ، دراسات أدبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٨ ، صـ ٢٢١ .

[٨] د / فيصل دراج : الفلسطيني بين الواقع و الوهم الروائي في رواية جبرا إبراهيم جبرا ، شئوون فلسطينية ، العدد (٩٥) أكتوبر ١٩٧٩ م ، صـ ١٦٧ .

و هذا أمر طبيعي لكاتب نشأ في بيئة عربية خصبة ، و أتقن في الوقت نفسه اللغة الإنجليزية ، التي أهلته للاطلاع على الأدب الإنجليزي ، و من بعد ذلك تدريسه و ترجمته ، حتى وصل إلى مرحلة التأليف بالإنجليزية ، كما سيتضح من ذكر بعض أعماله ، لاحقا .

و لعل هناك سمة أخرى تظهر في أسلوب " جبرا " الأدبي و هي التأثير المسيحي ، إذ يظهر في معظم كتاباته أثر نشأته الدينية المسيحية ، رغم أنه قد اعتنق الإسلام كي يتزوج من " لميعة " العراقية ، فرغم " أن جبرا أسلم عام ١٩٥٢ م ، فإن تأثير الكنيسة عليه ظل مستمرا ، و هو لا يتحدث عن إسلامه إلا في سياق حديثه عن زواجه . " [١]

إذن اتسم أسلوب " جبرا " الأدبي بالجزالة العربية و التجديد الأوربي مع اتخاذه من حياته الواقعية نبعا يغذي كتاباته الأدبية ، بالإضافة إلى استمرار تأثير الكنيسة على ذلك الأسلوب ، كذلك فقد قدمت أعماله صورة قوية الإيحاء للتعبير عن عمق مأساة شعبه .

و الواقع أن أعمال الأديب الفلسطين " جبرا إبراهيم جبرا " كثيرة و متنوعة و لا يتسع المقام هنا لذكرها كاملة ، و لكن الملاحظ أن إنتاجه غزير في كمه ، متباين في نوعه ، حيث لم يترك " جبرا " ، تقريبا ، فرعا من فروع الأدب و الفن إلا اختبره و برع فيه ، و لكن اشتهرت بعض أعماله أكثر من غيرها ، فعلى سبيل المثال ، نالت رواياته الشهرة خلافا لرسوماته التي كان ، في أغلب الأحيان ، يهديها لأصدقائه ، دون أن يشترك بها في معارض اللوحات ، و حتى إن اشترك ، فكان يلبي ، فقط ، دعوة أصدقائه ، دون أن يسعى للتكسب من تلك اللوحات أو نوال الشهرة من خلالها . و بالنسبة لمجال الشعر ، فلم ينل شعر " جبرا " - رغم جودته - ما يستحقه من عناية النقاد .

٤ - الرواية موضوع البحث : " البحث عن وليد مسعود "

- عرض الرواية :

تحكي الرواية عن رجل أعمال و مفكر فلسطيني يقيم في العراق ، يدعى " وليد مسعود " ، يختفي هذا الرجل في ظروف غامضة ، بعد أن يترك سيارته عند نقطة قرب الحدود ، و في مسجلها رسالة صوتية منه لمجموعة من معارفه ، فلا تزيد تلك الرسالة قصة الاختفاء إلاغموضا . و يجتمع أصدقاء و صديقات " وليد مسعود " لسماع الرسالة و تتباين التفسيرات و التخمينات ، لتكشف لنا كلما تقدمنا في الرواية تاريخ حياة " وليد مسعود " ، ذلك الصبي الفلسطيني الذي ولد في قرية صغيرة قرب مدينة القدس لأب يعمل سائقا لعربة تجرها الخيول ، ثم لسيارة قديمة متهالكة ، تقوم بنقل الركاب من القرية إلى القدس و العكس .

و يتعلم " وليد " في بداية حياته في أحد الأديرة ، ثم يسافر في منحة دراسية إلى إيطاليا ، حيث يترك اللاهوت الذي بعث لدراسته ، لينغمس في الدراسات الفكرية و الإنسانية . وبعد ذلك يعود " وليد مسعود " ليشارك في النضال المسلح ، ضد الوجود الصهيوني في فلسطين ، قبل نكبة ١٩٤٨ ، و بعد أن تقع النكبة يتنقل " وليد مسعود " بين دول الخليج و يجمع ثروة لا بأس بها ، من خلال العمل في أعمال المصارف و المقاولات .

بعد ذلك يستقر " وليد " في مدينة بغداد و يمارس حياته فيها ، بوصفه مثقفا و مفكرا مرموقا ، كذلك باعتباره شخصية جذابة ، حيث تقع النساء و الفتيات جميعها أسيرات جاذبيته الرجولية الطاغية ، خاصة بعد إصابة زوجته " ريمة " و إيداعها في مصحة نفسية .

[١] تهاني عبد الفتاح شاكر : مرجع سابق ، صـ ٢٦٣ .

و تزداد علاقات " وليد مسعود " النسائية و تتشابك و تتعقد ، فيكون على علاقة بعدة نساء في الوقت نفسه ، حيث تحتل تلك العلاقات النسائية قسما كبيرا من نسيج الرواية ، أيضا فهى - أي العلاقات النسائية - تشكل محورا هاما من محاور علاقاته المركبة مع بقية أبطال الرواية ، من الرجال الذين يعتقد فريق منهم أن سر الاختفاء الغامض لـ " وليد مسعود " يكمن في واحدة من تلك العلاقات العاطفية ، و يصل بعض من هذا الفريق إلى درجة الاعتقاد بأن اختفاء " وليد " ما هو إلا نتيجة جريمة قتل تمت بدافع الغيرة ، و يبقى سر اختفائه معلقا ، كذلك يظهر سر آخر يضاف للأول ، هو البحث عن شخصية محبوبته الأخيرة ، تلك التي أطلق عليها في رسالته الصوتية لقب " شهد " ، و بعد ذلك تكشف تلك المحبوبة عن نفسها ، و عن ظنونها الأكيدة عن سر اختفاء " وليد مسعود " ، فهو قد ذهب ليشارك في النضال المسلح في الأراضي المحتلة ، بعد أن استشهد ابنه الوحيد " مروان " دفاعا عن هذه الأرض .

- الآراء النقدية حول الرواية :

" تعد رواية " البحث عن وليد مسعود " للكاتب الفلسطيني " جبرا إبراهيم جبرا " أكثر رواياته الأدبية شهرة على الإطلاق ، و قد كتبت هذه الرواية في الفترة الواقعة ما بين نكسة يونيو ٦٧ و انتصار اكتوبر ١٩٧٣ م ، و قد حظيت باهتمام نقدي كبير وقت صدورها ، و أجمع النقاد حين ذاك على قيمتها الفنية الكبيرة ، و إن اختلفوا تمام الاختلاف حول مضمونها و ما تطرحه من مواقف و أفكار . " [١]

و يقول د / " فيصل دراج " : " البحث عن وليد مسعود ، بحث طبقه عن هويتها الضائعة و انتمائها المفقود ، فتعثر عليه في السديم ، ثم يتطاول عجزها فيستبدل فكرها الواقع بالسديم ، و يقيم فيه مملكة البطولة المفقودة و النقاء المستحيل . و يمتد صوت الفلسطيني و يعلو و يمارس البطولة في زمن نسى معنى البطولة ، يمتد الصوت و يعلو و يهتك صمت الواقع و عجزه ، و يظهر العجز عاريا . و في حقول البطولة و العجز و العراء تطلق الطبقات الساقطة خيالها في السديم باحثة عن بطولة مستحيلة . " [٢]

و يرى د / " محسن جاسم الموسوى " أن رواية " البحث عن وليد مسعود " هي تكملة لرواية " صراخ في ليل طويل " ، إذ يقول : " و الآن و بعد صدور " البحث عن وليد مسعود " تصبح العودة إلى " صراخ في ليل طويل " ضرورية و لازمة ، خاصة إذا عرفنا أن قدرا كبيرا من رؤية الكاتب في " البحث عن وليد مسعود " لم يكن معزولا عن اعترافات " أمين " في رواية " صراخ في ليل طويل " ... فنهاية (الليل الطويل) هي بداية بحث جديد ، لكن هذا البحث لم يكن غير (البحث عن وليد مسعود) ، و هو بحث عن قيمة مطلقة يطرحها شريط يجمع بين الطقوس القديمة و عادية الحياة الحديثة في أجواء تتداخل فيها وجهات نظر عديدة ، هي في النتيجة تكرار للتقسيمات في " صراخ في ليل طويل " إذ النفس الملأى بالتناقضات توزع بعضها في أكثر من صورة و شخص بحثا عن الراحة النفسية . " [٣]

غير إنه يجب التأكيد هنا على تميز مجتمع الشخصيات في رواية " البحث عن وليد مسعود " عن مجتمعات " جبرا " الواقعة في أعماله الأخرى ، ففي رواية " البحث عن وليد مسعود " يظهر المجتمع بوصفه " مجتمعا متكاملا و مستقرا بمعنى الاستقرار التكويني و ليس الروحي ، أي أنه استوفى كثيرا من عناصره التي تمنحه الصفة الاجتماعية ، فحين نرى الاجتزاء الاجتماعي في روايته " صراخ في ليل طويل " و التقلقل في مكونات المجتمع في " صيادون في شارع ضيق " و خلخلة صفة الاجتماع في " السفينة " ،

---

[١] عبد الرحمن محسن : برنامج روايات عربية ، دولة قطر ، وزارة الإعلام و الثقافة ، إدارة الإذاعة ، إصدار إذاعة قطر ، ١٩٩٠ م ، صـ ٩ .

[٢] د / فيصل دراج : الفلسطيني بين الواقع و الوهم الروائي في رواية جبرا إبراهيم جبرا ، مرجع سابق ، ١٦٣ .

[٣] د / محسن جاسم الموسوي : مرجع سابق ، صـ ٢٢٧ .

يطالعنا مجتمع " البحث عن وليد مسعود " و قد اكتسب صفته ، و استقر ؛ لأنه مرحلة متقدمة من محاولات جبرا . " [١]

و يبدو أن رواية " البحث عن وليد مسعود " قد أثارت ، بالفعل ، ضجة نقدية كبيرة ، فإذا كانت الآراء السابقة تمدح في الرواية ، بشكل عام ، فإن هناك من لا يري فيها أي فضيلة ، بل و يرى أنها لا ترقى إلى مستوى الرواية الجيدة ، حيث يقول " محمد كامل الخطيب " عن جميع الشخصيات في الرواية " إنها تتمتع بثقافة رفيعة واحدة و متشابهة هي ثقافة المؤلف ، بالذات كما هو معروف عنه ، و غالبيتها تلقت تعليما عاليا في الغرب ، و جميعها غنية و تعيش مغامرات عاطفية مكلفة ماديا ، و هي ناجحة في حياتها . هذه السمات الواحدة للشخصيات أدت إلى عيبين أساسيين هما المستوى الواحد في اللغة و التفكير ، بل و البلاغة لجميع الشخصيات ، و بما أن جميع الشخصيات ذات مستوى واحد مادي و فكري ، فقد انتفى عنصر الصراع بينها ، و مضى وقت الشخصيات في حوارات ثقافية أو منولوجات داخلية . " [٢]

و في رأيه أن هذا قد أدى إلى جعل الرواية ، " رواية لا اختلاف فيها و لا صراع و لا شخصيات متعددة ، بل منولوج طويل تسرده شخصية واحدة ، و في كل مقطع يسمى الكاتب الشخصية باسم مختلف ، فالأسماء كثيرة ، و لكن الشخصية واحدة . " [٣]

أيضا يقول عبد الرحمن محسن : " و لعل أبرز الأقوال النقدية التي علقت بذاكرتي حول هذه الرواية هي تلك التي كانت تحمل بقسوة على بطل الرواية " وليد مسعود " و تصفه بأنه (سوبر مان) فلسطيني مع صنع أحلام يقظة كاذبة . فهو يمارس جمع الأموال و الإنتاج الفكرى و الحياة الرغدة و المغامرات العاطفية في الوقت نفسه الذي يمارس فيه النضال المسلح . " [٤]

و ربما يمكن للباحث أن يقدم هنا بعض تعليق على ما سبق ، فبعد أن عرفنا مظاهر نشأة " جبرا " و حياته ، منذ أن كان طفلا مرورا بسفره إلى الغرب و تشبعه بثقافته ، و انتهاء بمعيشته في العراق و وفاته فيها ، و بعد أن عرفنا كيف أثرت تلك الحياة على أسلوبه ، بالإضافة إلى تجربة الشتات الفلسطيني و الوطن المحتل ، ربما يمكن أن نفسر بعض النقد الذي وجهه " محمد كامل الخطيب " وغيره للرواية ، فكون شخصيات الرواية جميعها ذات مستوى ثقافي رفيع و تتمتع بثراء معقول و تعيش مغامرات عاطفية مكلفة ماديا و في الوقت نفسه ، فإنها - أي الشخصيات - ناجحة في حياتها العملية ، فهذا تلخيص لشخصية " جبرا " ، فبوصفه فلسطيني يعيش في الشتات بدون وطن ، بدون أقارب ، بدون شيء ، فإن عليه أن يثبت نفسه في كل مكان يذهب إليه . إنه لا يريد النجاح فقط ، بل يريد منتهى النجاح ، إنه لا يريد الصداقة فقط ، بل يريد منتهى الصداقة ، إنه متطرف في نجاحاته و صداقاته و علاقاته ، يريد أن يصل لحد الكمال ، يريد أن يصبح ، رغم كونه الفلسطيني المطرود المشتت ، أفضل من الجميع رغم ظروف حياتهم السلسة ، مقارنة بظروفه العسيرة ، لذا راح يعيش حياته بنهم في كل شيء سواء أكان نهما حسيا أو معنويا .

و بالنسبة لكون شخصيات الرواية جميعها ذات مستوى لغوي و ثقافي واحد ، فهذا راجع إلى أن هذه الشخصيات كلها هي " جبرا إبراهيم جبرا " نفسه ، و هذه سمة من سمات أسلوبه الأدبي ، كما اتضح سابقا ، ففي " معظم روايات جبرا كـ " السفينة " و " صيادون في شارع ضيق " و " البحث عن وليد مسعود " نجد أن الشخصيات متشابهة بين

---

[١] سليمان حسين : مضمرات النص و الخطاب ، دراسة في عالم جبرا إبراهيم جبرا الروائي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٩٩ م ، صـ ٩٠ .

[٢] محمد كامل الخطيب : عالم جبرا إبراهيم جبرا الروائي ، شئون فلسطينية ، العدد ١٠٢ ، مايو ١٩٨٠ ، تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية ، صـ ١١٦ .

[٣] محمد كامل الخطيب : المرجع السابق نفسه ، صـ ١١٦ .

[٤] عبد الرحمن محسن : مرجع سابق ، صـ ٩ .

الروايات ، و خاصة على مستوى الشخصيات الرئيسية في الرواية ، فهم بصورة عامة أناس جامعيون من جهة التعليم و قد يكونون متخصصون في حقل معرفي أو أكاديمي معين ، و بعضهم درس في أمريكا أو أوربا ، كـ " جبرا " نفسه ، و بعضهم يمارس الرسم أو الكتابة أو الشعر و ينشر في الصحف ، وهم يجيدون التحدث بلغة أجنبية كالإنجليزية مثلا ، و بعضهم مطلع على الفكر و الأدب و الفن الغربي ، و يستشهد بأفكار و أعمال و نماذج فنية غربية . أي نستطيع أن نقول إن أبطاله هم من فئة النخبة المثقفة المتأثرة بنمط الحياة الاجتماعية الغربية بكل ما فيها من تحرر ، و قل بل يندر أن تجد أبطالا روائيين له يخرجون عن هذه الدائرة . " [1]

فـ " جبرا " يوزع نفسه على شخصيات عمله الروائي ، و يجرى من خلالها حوار تحليلي لأزماته و أزمات وطنه ، يجادل و يحاور فيه نفسه على لسان شخصياته ، لعله يصل إلى حل لتلك الأزمات . و جدير بالذكرأن " جبرا " حين استخدم في روايته هذه شخصية " وليد مسعود الفرحان " فقد استخدم لقب عائلته " مسعود الفرحان " و نتيجة لذلك تصبح الرواية البحث عن " جبرا بن مسعود الفرحان " ، إنها رواية عن نفسه .

أما عن مسألة عدم وجود صراع بين الشخصيات لتشابهها ، فبالفعل لا يوجد صراع بين شخصيات الرواية بعضها البعض ، و فيم الحاجة للصراع بينهم ؟ ! إن شخصيات الرواية جميعها تتحد معا لتقوم بمهمة البحث عن الصديق المفقود ، فطالما هي شخصيات متحدة ، فلم نبحث فيما بينها عن الصراع ؟ ! ، إنما الصراع في الرواية يتمثل في الصراع بين مجموعة الشخصيات و ما تواجهه من مشكلات و صعوبات في تحليل المعلومات المتوافرة لديهم و استقرائها لتعينهم في مهمة البحث ، فالصراع قائم بين مجموعة الشخصيات و المجهول و ليس بين المجموعة بعضها البعض .

و ربما يمكن أن نفهم رواية " البحث عن وليد مسعود " بوصفها تجسيدا لوضع اللاجئ الفلسطيني في الشتات ، و كيف أنه مهما بلغ من مراتب المعرفة ، و الغنى و الشهرة فلن يشعر أبدا بالراحة الحقيقية أو بالاستقرار ، إنما سيظل ، دائما و أبدا ، يبحث عن وطنه الضائع ؛ ليحقق فيه هويته الكاملة ، الأمر الذي سيوفر له الشعور بالتوازن .

و خلال الرواية رحنا نفهم و نعيش حياة " وليد " ، منذ طفولته ، فعايشنا مفردات هذه الحياة التي رغم ما فيها من بريق ، إلا أنها حياة مأساوية ، مما يوحي بأن مأساة الفرد ليست غير صورة مصغرة لمأساة الوطن ، و مع أن " جبرا " يسعى إلى إقناعنا بأنه يرسم ملامح هذا الإنسان العربي الضائع - " شخصية وليد مسعود " – إلا أن الذي يظهر في الصورة هو الوطن الضائع " فلسطين " بصفتها معادلا منطقيا و طبيعيا لشخصية " وليد " و كما يتمزق " وليد مسعود " بين عدد من الشخصيات في صفحات الرواية ، يدمي الوطن بين عدد من المشاحنات العربية حتى الموت ، و هذا يفسر كيف أن " جبرا " في روايته هذه كان يحرض على الفعل الإيجابي ، لا نقد الحاضر المؤلم فحسب ، و الاعتماد على الذات الفلسطينية بشكل أساسي ، و نفهم ذلك من " مروان " بن " وليد مسعود " ، فكما حمل " مروان " الفلسطيني السلاح مع الآخرين الفلسطينيين بشكل جماعي ، فإن والده " وليد مسعود " ، الذي قدم ابنه ليكون فدائيا لتحرير فلسطين ، يمثل الرمز الجماعي لتحرير فلسطين ، حيث يوضح " وليد مسعود " بالتجربة العملية الطريقة الوحيدة لتحرير الأرض ، فقد كان يحمل هموم المأساة كلها و يعرف كيفية الخرج منها ، إن هذا الخروج لا يكون بانتظار وحدة عربية ، لأن الانتظار قد طال و ضاع الأمل في تحقيق هذه الوحدة المنشودة ، أو حتى الأمل في وجود شيء من التكاتف العربي بين فريق من الدول العربية ، و إنما يتلخص الحل و ينحصر الخروج من هذه المأساة في الولوج

[1] صالح المصيري : العثور على وليد مسعود ، نظرات في أدب جبرا إبراهيم جبرا ، ٢/ ١/ ٢٠٠٢ مقال على الموقع الألكتروني : http://www.bsu.edu\htm

إلى ساحة القتال ، من خلال الانضمام إلى الفدائيين ، ففلسطين العربية معناها عنده أن يحمل المرء سلاحا و يموت في سبيلها .

و جدير بالذكر أن " جبرا " ، رغم إصراره على دور الذات الفلسطينية الواعية لا يستبعد المساعدات العربية ، و لكنه يستبعد المساعدات غير ذات الجدوى ، تلك التي تقدمها الدول العربية لفلسطين ، و نفهم ذلك من شخصية " وصال " العراقية التي عرفت أن " وليد مسعود " إنما اختفى لينضم إلى الفدائيين ، فما كان منها إلا أن عقدت العزم و سافرت هي الأخرى لتنضم إليه في نضاله لتحرير وطنه ، لقد اكتسبت فلسطين في هذه اللحظة بعدا عربيا قوميا ، بالإضافة إلى البعد الفلسطيني الوطني ، و كأن لسان حال " جبرا " يقول : إذا أرادت الدول العربية مساعدتنا ، حقا ، لتحرير وطننا العربي ، فليحملوا السلاح . كذلك نجد الدلالة نفسها في فكرة الرواية الرئيسية و هي تجمع أصدقاء " وليد مسعود " الفلسطيني للبحث عنه ، و كأنه نداء إلى تجمع الدول العربية لإنقاذ فلسطين ، من خلال إعداد العدة و استخدام السلاح .

و عن أسلوب " جبرا " في روايته هذه نجده " يعتمد على الأسلوب الفني المعروف باسم (تعدد الرواة و تعدد الزوايا) ، فهو يروي لنا قصة من خلال اثنى عشر فصلا تقوم بروايتها عشر شخصيات عاشرها البطل في مراحل حياته المختلفة – و يربط بين هؤلاء الرواة جميعا صديقه الحميم و تلميذه المخلص د / جواد حسني . " [1]

أيضا ، فإن " لغة الرواية متينة صلبة متماسكة . متناسبة مع شخصيات الرواية الأبطال مثقفون تمتلئ لغتهم بالتعابير الأدبية و الفنية ، و يكثر فيها استخدام الشعر و بعض الألفاظ الإنجليزية باللغة الإنجليزية . و بعض الألفاظ الإنجليزية بالعربية . كما تتضح اللغة بالشعر في السطور و ما بين السطور ، و ذلك متوقع من كاتب ناقد شاعر يكتب شعرا و يكثف التجربة الإنسانية و يقطرها . " [2]

و يتحدث د / " فيصل دراج " عن عنصري الزمان و المكان في الرواية ، فيقول :

" في البحث عن وليد مسعود يبدو الزمان واضحا ، ثم يغترب لأنه يجهل طبيعة عصره فيتيه في عوالم النفس البشرية ، و يفصح المكان عن هويته ، ثم يتزايل في سيولة الذاكرة . يجهل السديم دلالة الزمان و المكان ، و لا يعرف إلا البطل المطلق . " [3]

في النهاية يمكن القول إن " جبرا " قد أبدع في هذه الرواية سواء على مستوى الحبكة ، أم الأسلوب ، كذلك فقد لخص فيها تجربته بوصفه من فلسطيني الشتات .

---

[1] عبد الرحمن محسن : مرجع سابق ، صـ ١١ .

[2] خليل شكري هياس : مرجع سابق ، صـ ١٦٠ ، ١٦١ .

[3] د / فيصل دراج : الفلسطيني بين الواقع و الوهم الروائي ، مرجع سابق ، صـ ١٦٣ .

الفصل الثاني

الهوية الوطنية

أولا : الجانب الإسرائيلي :

أ- اليهود الغربيون (الأشكيناز) :

" إن صفة الوطن أن يكون تاما ونهائيا لمواطنيه ، تاما تعنى ألا تعتقد جماعة معينة من المواطنين أن جزءا من أرض هذا الوطن ناقص أو يقع خارج الحدود السياسية المعترف بها لهذا الوطن ، ونهائيا تعنى أنه لا توجد جماعة معينة من المواطنين ترى أن هذا الوطن وضع مؤقت وتتطلع إلى وطن غيره "[1] وبالنسبة إلى إسرائيل ، فإذا طبقنا عليها هذا التعريف البسيط بوصفها ، كما تزعم ، وطن اليهود جميعهم ، سنجد أنه لم يهاجر إلى إسرائيل كل يهود العالم ، بل ظل قسم كبير منهم يعيش في دول أخرى مثل أوروبا وأمريكا ، و مع ذلك تعد إسرائيل نفسها وطنهم بالمآال . وكما يقول المفكر و الأديب الإسرائيلى " א.ב יהושע " أ .ب يهوشواع فإن إسرائيل " قد تنازلت عن جزء من سيادتها وقسمته على كل اليهود حيث يمنح قانون العودة بصورة أوتوماتيكية الجنسية الإسرائيلية لكل يهودى وافد سواء أكان الأمر يتوافق مع مصالحنا (يقصد اليهود داخل إسرائيل) أم لم يكن ، فعلى سبيل المثال ، إذا كانت هناك بطالة في إسرائيل ، أو إذا كانت هناك ظروف اقتصادية صعبة يتم استيعاب مهاجرين "[2]

من ناحية أخرى فإسرائيل بوصفها دولة لم تتحدد حتى الآن حدودها الجغرافية ، فحدودها غير تامة ، حيث يكتنف موضوع الحدود الإسرائيلية غموض شديد نتيجة لحرص الإسرائيليين على عدم البوح عما يجيش بأنفسهم بخصوص هذا الموضوع حفاظا على سرية الهدف ، و تجنبا لحدوث أى ردود فعل قد تؤثر على أنشتطهم لتحقيق أهدافهم وغايتهم الإقليمية .

والواقع أنه ، إذا ما طرحنا سؤالا حول حدود إسرائيل سيتفرع هذا السؤال إلى " ما هي حدود إسرائيل السياسية الجغرافية ؟ ما هي حدود إسرائيل الأمنية ؟ ما هى حدود إسرائيل من وجهة النظر الدينية اليهودية ؟ و ربما تكون هناك إجابة لهذه التساؤلات وهي أن حدود إسرائيل لم تكن أبدا نهائية حتى وقتنا هذا . و أنها متعلقة بالمعايير التوراتية الأسطورية ولعل في هذا تفسير لعدم وجود استقرار سياسي في المنطقة وعدم قبول إسرائيل لأي عملية سلمية . "[3]

من هنا فإسرائيل - من وجهة نظر اليهود - وطن غير تام وغير نهائي ، الأمر الذى أدى إلى حدوث هزة قوية و دائمة لمواطنى إسرائيل اليهود ، تلك الهزة التي وصلت إلى مرحلة الشك فى هوية هؤلاء اليهود الوطنية و أهمية إسرائيل بالنسبة لهم . و لعل أول ما نطالعه في رواية " מנוחה נכונה " " راحة حقيقية " هو قرار يوناثان الذي اتخذه سرا و الذي مفاده النزوح من إسرائيل ، دون تحديد وجهة معينة ، أو سبب معين أو طريقة هذا النزوح .

---

[1] مصطفى الحسينى و إسحق دويتشر :حيرة عربى وحيرة يهودى ، كتاب الهلال ، العدد٥٥٣ ، يناير ١٩٩٧ ، صـ٢٩.
[2] אברהם ב .יהושע : הקיר ו ההר , שם " עמ' 46 .
[3] مصطفى الحسينى و إسحق دويتشر : حيرة عربى و حيرة يهودى ، مرجع سابق ، صـ ٣٥ .

فنقرأ : " בחורף בשנת ששים ו חמש החליט יונתן ליפשיץ לעזוב את אשתו ו את הקיבוץ שבו נולד ובו גדל הוא גמר בלבו לצאת ו להתחיל בחיים חדשים . "[1]

" قرر يوناثان ليفشيتس في شتاء عام ١٩٦٥، ترك زوجته والكيبوتس الذي ولد و ترعرع فيه . فعقد نيته على أن يخرج و يبدأ حياة جديدة . "

و كذلك نقرأ :

" בבוקר שמע יונתן מאחורי שוועת הצפרים הקופאות שקוראים לו לקום וללכת ,לא אל הפרדס , אל מקום אחר לגמרי , המקום הנכון, המקום שלו ."[2]

" في الصباح ترامى إلى مسامع يوناثان صخيب العصافير المنكمشة وهي تدعوه للنهوض والسعي ليس إلى البستان بل إلى مكان آخر تماما ، المكان الصحيح ، مكانه ."

فإننا نرى من خلال الشاهدين السابقين – وإن كان هناك أكثر من شاهد في الرواية – عزم يوناثان و إصراره على الهجرة و الخروج من الكيبوتس ، بل و إسرائيل كلها ، فقد ضاق صدره من كل ما يحدث له داخل أسوار الكيبوتس . و نرى هذا القرار يلح عليه بصورة غير طبيعية و في مناسبات مختلفة و كأنه يردده داخل نفسه فيسيطر على كل خلجة من خلجاتها .

و في الشاهد الأول يوضح لنا الكاتب مدى صعوبة هذا الأمر بالنسبة لأى فرد طبيعي ، فقرار النزوح و الهجرة قرار صعب ، لأن هذا الفرد سيترك مكانه الذى " ولد و ترعرع فيه " فهو مكانه ، وطنه لهذا سيكون تركه أمرا صعبا و نلاحظ تكرار قوله "בו " " فيه " دلالة على تعلق أي فرد طبيعي بهذا المكان مكان الولادة و الطفولة و الشباب ، و لكن تأتي جملة " להתחיל בחיים חדשים " " يبدأ حياة جديدة " لتبرر لنا سبب هجرة هذا المكان رغم أهميته بالنسبة لذلك الشاب وهو الشروع في حياة جديدة ، كذلك توحى هذه الجملة بأن حياته في المكان (حياته الأولى) هي حياة مكروهة ، لذا فهو يعمل على تركها لأنها غير قابلة للتعديل و يستبدل حياة جديدة بها . و في الشاهد الثانى نتوقف عند قوله " המקום הנכון ، המקום שלו " حيث توحي بأن مكانه الصحيح ليس هنا في إسرائيل ، و إنما في مكان آخر مكانه ، لذا نرى هذا القرار يلح عليه بصفة مستمرة وفي كل المواقف التي تمر به سواء أكانت مواقف عادية ، أم عصيبة . و لنقرأ الآن مثالا لموقف عصيب تعرض له هذا الشاب و نرى كيف تعامل معه ، و من أي جانب جاء هذا التعامل . فنقرأ :

" בקיץ האחרון , חדשים אחדים לפני שיונתן ליפשיץ החליט בלבו לעזוב הכול מאחוריו ולצאת לדרך, אירע בחיי אשתו מקרה מעציב . אמנם , הוא לא ראה את המקרה הזה כסיבה להחלטתו . ... כך היה המקרה : רימונה סבלה מאיזו צרת נשים . כבר לפני שנתים הרתה והפילה . ושוב הרתה . בסוף הקיץ האחרון ילדה רימונה תינוקת מתה .

[1] עמוס עוז : מנוחה נכונה ,הוצאת ספרים עם עובד, בע"מ תל אביב , 1983, עם 7 .
[2] מנוחה נכונה , שם " , עמ' 14 .

הרופאים הציעו להימנע ,לפי שעה, מנסיון נוסף . יונתן לא רצה כלל בנסיון נוסף . רצונו היה לקום וללכת .״[1]

" في الصيف الأخير ، قبل أن يتخذ يوناثان قراره بأن يترك الكل خلف ظهره و أن يخرج إلى حال سبيله وقع حادث مفجع لزوجته . حقا ، هو لم ير في هذا الحدث سببا لقراره ... . وهكذا كان الحدث : عانت ريمونا مرضا من أمراض النساء ، فقد حملت منذ سنتين و سقط حملها ، ثم حملت مرة أخرى . و في نهاية الصيف الأخير وضعت ريمونا طفلة ميتة ، فأوصى الأطباء بمنع أية محاولة أخرى حاليا ، أما يوناثان فلم يكن يرغب بالمرة في محاولة أخرى بل كانت رغبته النهوض و الذهاب . "

فيمكن أن نلاحظ من خلال ماسبق مدى سيطرة فكرة الهجرة و الخروج من الكيبوتس على " يوناثان " فقد امتلكت كل مشاعره ، وسيطرت على جل عقله ، فلم يعد يشعر بما يدور حوله أو ينفعل به ، فرغم جل مصابه في فقدان طفلته و ألم زوجته نجده لا يفكر سوى في أن يخرج و يفلت بجلده من هذا المكان ، الذي قضى فيه فترة طفولته و شبابه ، بل إن الأمر ليتعدى مجرد اتخاذ قرار النزوح إلى الشعور بالندم و الحسرة على تلك الأيام ، التي ضاعت منه وهو يعيش في إسرائيل والتي لن يستطيع تعويضها أبدا . فنقرأ حوارا يدور بين يوناثان وزوجته . إذ يقول لها :

״ אני, בכלל לא חבל לי עליך מפני שלאף אחד , בכל העולם , לא חבל עלי. רק על הזמן המבוזבז חבל , רימונה , הלב מילל מרוב צער על הזמן שהיה ו הלך ואף אחד לא יחזיר לי ולך את החיים שיכלו להיות ולא היו .״[2]

" إنني لست آسفا عليك بالمرة ، لأنه لم يأسف عليّ أحد في العالم كله ، بل أشعر بالأسف فقط على الوقت الذي ضاع . يا ريمونا : إن القلب لينتحب من شدة الحزن على الوقت الذي كان و مضى و لن يعيده أحد لي و لك ، على الحياة التي كانت لتحدث و لم تحدث . "

فيظهر من كلامه مدى حزنه و لوعته ، لا بسبب عقده العزم على النزوح ، و إنما بسبب أنه لم يتخذ هذا القرار من فترة أطول ، مما يجعل خسارته أكبر فهو غير آسف على أي شيء أو فرد ، بل فقط على الوقت الذى أضاعه في محاولة العيش داخل هذه الدولة .

و في حوار آخر يدور بين يوناثان و زوجته نقرأ :

״ לא . אני רוצה להיות רחוק כל הזמן . רחוק בלי הפסקה .

אולי אני בכלל אסע לחוץ לארץ ,

אולי לאמריקה או למקום דומה .

אתה רוצה להיות רחוק ממני.

אני רוצה להיות רחוק מכאן .

[1] מנוחה נכונה , שם , עמ׳ 16 .
[2] מנוחה נכונה , שם , מ׳ 67 .

רחוק ממני .

כן . בסדר . רחוק ממך

ורחוק מהוריך ומאחיך עמוס ומכל החברים שלך .

כן . בדיוק .רחוק מכאן . "[1]

" كلا . أريد أن أكون بعيدا طوال الوقت . بعيدا بلا توقف .

ربما أسافر بالفعل إلى خارج إسرائيل ، ربما إلى أمريكا أو إلى مكان مشابه .

تريد أن تكون بعيدا عني .

أريد أن أكون بعيدا عن هنا .

بعيدا عنى .

نعم . حسنا . بعيدا عنك .

و بعيدا عن والديك و عن أخيك عاموس و عن كل رفاقك .

نعم . بالضبط . بعيدا عن هنا . "

نلاحظ في الشاهد السابق أن يوناثان ليفشيتس لا يريد أن يهجر إسرائيل و حسب ، بل يريد أن يهجر كل من يمت له بصلة داخل هذه الدولة . و يتضح ذلك من خلال حواره مع زوجته فهو يرد بإجابات قصيرة مقطوعة : " أريد أن أكون بعيدا عن هنا " " نعم . حسنا . بعيدا عنك " " نعم . بالضبط . بعيدا عن هنا " و تتكرر فيها كلمة " بعيد " التي توحي بانقطاع سبيل التصالح مع هذا الوطن ، فالحل الأمثل و الوحيد لأزمته هو أن يكون بعيدا . و قد رد هذا الفتى بإجابة تفصيلية في موضعين فقط في هذا الحوار . في قوله " كلا . أريد أن أكون بعيدا طوال الوقت . بعيدا بلا توقف . " و في قوله " ربما أسافر بالفعل إلى خارج إسرائيل ، ربما إلى أمريكا أو إلى مكان مشابه ." و نستطيع أن نلاحظ أن التفصيل قد جاء لبيان صفة البعد الذي يريده ، فهو يريد بعدا دائما غير ذى نهاية ، كما أنه يحدد نموذجا للمكان الذي يطمح فى الهجرة إليه و هو أمريكا أو دولة مشابهة لها .

و كما سبق أن أوضح الباحث ، فإن الشواهد التي تبين مدى إصرار يوناثان على النزوح خارج إسرائيل تحتل نسبة كبيرة من مساحة الرواية مما لا يتسع المجال لذكره ، و لكن ربما يمكننا من خلال استقراء الشواهد السابقة أن نتبين مدى حرصه على ترك إسرائيل ، فكيف يترك الانسان وطنه و لا يرغب في العيش فيه ، و كذلك يندم على الوقت الذي قضاه فيه ؟! حتى أنه يعده وقتا ضائعا إستقطع من حياته .

إن مرد هذا ، أغلب الظن ، إلى حالة الخواء الروحي لدى هذا الفرد و كذلك المحاولات الفاشلة ، رغم كل شئ ، للانتماء إلى الوطن و إلى الأفراد المحيطين به داخل

[1] מנוחה נכונה , שם , עמ׳76 .

هذا الوطن ، و عدم القدرة على التعايش ، مما أدى إلى شعور هذا الفرد بعدم التوازن و الاستقرار و جعله يهجر هذا الوطن . لقد سئم هذا الشاب من كونه جزءا صامتا داخل إسرائيل ، عليه فقط أن ينفذ التعليمات التي توجه إليه حتى يستطيع العيش داخلها ، و كذلك ليستمر بقاء إسرائيل نفسها وهي أمور غير طبيعية ، فالأصل أن الوطن قائم لا يتزعزع و لا يختلف على طبيعته و لا مقوماته فهو كيان أصيل غير قابل للتحول أو الفناء ، أما من يعيش داخل محيط هذا الوطن فيعيش حياة طبيعية عادية يحب و يفرح و يخاف ، و يفعل ما يحلو له تبعا لمعايير هذا الوطن أما إسرائيل (الوطن اليهودي) ، فلا يمكن أن يتحقق فيها ذلك ، لذا أراد يوناثان ليفشيتش أن يرحل إلى أي مكان بعيد . فنقرأ :

״ מקום מן המקומות הרחוקים שבהם הפול ייתכן ו הפול עשוי להתרחש , הישג פתאומי , אהבה , סכנות פגישות מוזרות . ״ [1]

" مكان من الأماكن البعيدة ، حيث كل شيء فيها ممكن و كل شيء محتمل حدوثه ، إنجاز فجائي ، حب ، مخاطر ، لقاءات غريبة . "

هذه هي مواصفات الوطن الطبيعي العادي و هي – ولاشك - لا تمت لإسرائيل بأية صلة . تلك الدولة التي حتى الآن تثار فيها الخلافات و تتعدد الآراء حول طبيعتها ، فمنذ نشوء إسرائيل واكبتها أزمة هوية حادة لم تحسم بعد ، حيث لازالت تطرح على المحك أسئلة شائكة تتعلق بطبيعة الدولة مثل : " ما خصائص المواطنة في الدولة العبرية ، هل هي قومية أو دينية أو سياسية إقليمية (الولاء للوطن) ؟ و ما المميزات التي تمكن من تعريف اليهودي ؟ هل تتعلق بالانتزام الدينى أو العقدى الأيديولوجى ؟ و ما صلة الكيان الجديد بالدين و رجالاته ؟ و كيف ينسجم الطابع الديمقراطي التحديثى للدولة و إطارها الديني ؟ و ما منزلة المواطنيين من غير اليهود داخل الدولة ؟ و ما علاقتها بيهود الشتات ؟ . "[٢]

و ذلك هو الإشكال الذي يصوغه أوري أفنيري * " بقوله : " عندما يبلغ كيان ما خمسين سنة من عمره فلابد أنه عرف ما هو . ليس ذلك شأن إسرائيل فما إسرائيل ؟ هل هي دولة اليهود كما أرادها مؤسس الحركة الصهيونية أو دولة الشعب اليهودي كما يعرفها قانون إسرائيل ؟ أوهي دولة يهودية و ديمقراطية كما يريدها المذهب الرسمي الذي تؤكده المحكمة العليا. و كيف يمكن لدولة كل خمسة من مواطنيها تضم فردا غير يهودى أن تكون في آن واحد يهودية و ديمقراطية ؟ و من اليهودي ؟ و ماذا تعني الدولة اليهودية ؟ من نحن الإسرائيليون ؟ هل نحن حقا يهود ؟ نوع جديد من اليهود ؟ إسرائيليون يهود ؟ أم نحن ببساطة إسرائيليون ؟ "[٣]

و الواقع أنه " واجهت إسرائيل خلال عمر الدولة ، العديد من المشاكل و التناقضات التي لم تكن الصهيونية و لا قادة دولة إسرائيل يتوقعونها ، الأمر الذى خلق العديد من التوترات و الصراعات الثقافية و الاجتماعية و الطائفية و الدينية و السياسية و الأمنية داخل الدولة ، وهو

---

[1] מנוחה נכונה , שם ״ , עמ׳ 9 .

[٢] د/ السيد ولد أباه و الأستاذ / منير شفيق: مستقبل إسرائيل ، دار الفكر المعاصر ، بيروت –لبنان ، الطبعة الأولى ، رجب ١٤٢٢هـ أكتوبر ٢٠٠١ م ، صـ ٣٤ ، ٣٥ .

*صحفي إسرائيلي يساري و عضو كنيست سابق ، أسس حركة גוש שלום كتلة السلام عام ١٩٩٣ ، و يعد من معارضي النفوذ الديني اليهودي على الحياة السياسية في إسرائيل .

[٣] د/ السيد ولد أباه و الأستاذ / منير شفيق : المرجع نفسه ، صـ٩٠ .

ما وضعها بالفعل أمام إشكالية واضحة بالنسبة لهوية الدولة . "[1] فهوية إسرائيل لم تستقر بعد ، فكيف إذن يحدد الفرد الذي يعيش داخلها هويته الوطنية ؟

لقد هاجر " يوناثان ليفشيتس " وطنه لأنه لم يستطع أن يحقق فيه هويته الوطنية فانهار بعدما أدرك أن وطنه هذا ما هو إلا وطن اصطناعي فقد أقيمت إسرائيل أولا ، ثم صارت بعد ذلك وطنا لليهود من هنا ظهر هذا المأزق الحياتي ، فتلك الحيرة لا يمكن أن تكون لدولة طبيعية إن الوطن دائما يوجد أولا ، ثم يصبح دولة من أي نوع ، و لكن في حالة إسرائيل وجدت مؤسسات الدولة في الخارج أولا ، ثم قامت الدولة و أصبحت وطنا .

و لعل في هذا تفسيرا لحالة الحيرة و الارتباك التي انتابت " يوناثان " تلك الحالة ، التي وقفت فى طريق تحقيقه لهويته الوطنية داخل إسرائيل و مما يزيد الطين بلة أن الفرد اليهودي داخل إسرائيل يعلم في قرارة نفسه أن دولته هذه إنما أقيمت على حساب الشعب الفلسطيني فهذه حقيقة يعيها جيدا و إن لم يفصح عنها و في هذا الشأن يقول الأديب الإسرائيلي " עמוס עוז " " عاموس عوز " :

" و كما أراها فإن المواجهة بين اليهود الذين عادوا إلى صهيون و بين السكان العرب في هذا البلد ليست فيلما من أفلام الغرب الأمريكي أو قصة . هذه المأساة ليست صراعا بين النور و الظلام ، العدالة و الجريمة ، إنها مواجهة بين العدالة والعدالة التامة حتى على الرغم من أن المرء لا يجب عليه أن يطلب تبسيط التناسق في هذه المأساة . "[2]

فيرى "عوز" أنه كما أن لليهود حق في (صهيون) – لاحظ استخدامه لـ " اليهود الذين عادوا " ليؤكد أزلية الحق اليهودي في فلسطين - ، فإن للفلسطينيين أيضا حق في فلسطين و لا يجب على إسرائيل ، إذا كانت تريد أن تكون وطنا ديمقراطيا ، أن تتعامل مع الفلسطينيين كالهنود الحمر و تعمل على تدميرهم و إبادتهم فهم أصحاب حق لا يقل عن الحق اليهودي . و يقول المفكر والأديب الإسرائيلى " أ . ب يهوشواع " :

"لم يكن للصهيونية أي حق تاريخي فى أرض فلسطين . ليس لمصطلح (حق تاريخى) أي مغزى سياسي أو قانوني أو شرعي . لقد ترك اليهود أرض مولدهم منذ حوالى ألفى عام ، و خلال تلك الفترة استقر بهذه الأرض سكان جدد تعاملوا مع هذه الأرض بوصفها أرضهم . و بالفعل أقام اليهود علاقة تاريخية عميقة بأرض فلسطين ، لكن ربما لا تكسبهم هذه العلاقة كل الحقوق لا الشرعية منها و لا السياسية . "[3]

إذن يرى " أ . ب يهوشواع " أن اليهود ليس لهم حقا تاريخيا في هذه الأرض يقتصر عليهم وحدهم دون الفلسطينيين . هذا و يتفق الناقد الإسرائيلى" يوسف أورين " مع هذا الرأى إذ يقول: " ليس للجمهور اليهودى حقوق ملكية مقصورة عليه فى هذه الأرض . و ليس هذا الأمر سوى أسطورة استعان بها الجمهور اليهودى ، ليحقق هو وحده فائدة منها ، كما استعانت بها الصيونية و أقرتها بصفتها منظورا رئيسيا بالنسبة لها . و لكن من يعى جيدا تاريخ فلسطين ، يدرك أن أصحاب هذه الأرض قد أغفلوا مسيرة التاريخ ، فكانت تلك الأرض تتبع ، في فترات متباينة ، من استوطن فيها و استحوذ عليها ، و ليس لدى أي من مالكيها السابقين الحق فى المطالبة بها بصفتها ملكية خاصة به وحده ، تحت دعوى

[1] د/ رشاد عبد الله الشامى : إشكالية الهوية فى إسرائيل , مرجع سابق , صـ15 .
[2] جيلا رامراز- رايوخ : مرجع سابق , صـ 196 .
[3] אברהם ב .יהושע : הקיר ו ההר , שם " עמ' 21 .

الحقوق التاريخية . "[1] و يعود " أ . ب يهوشواع " ليبرر الوجود اليهودى فى فلسطين و يبرر حق اليهود فى إقامة إسرائيل على أرض فلسطين ، فيقول :

" إن الحق الحقيقى الوحيد ، هو حق الضائقة اليهودية . حق الجائع في أن يسرق كسرة خبز ، أو حق المولى الأدبار من القتل أو من الحرق . و من هنا بدأت مأساة الصراع على أرض فلسطين "[2]

و ينفى " أ . ب يهوشواع " مصطلح " הזכות ההיסטורית " " الحق التاريخى " و يقدم بدلا منه مصطلح " זכות המצוקה " " حق الضائقة اليهودية " بوصفه التبرير المنطقي للوجود اليهودى في فلسطين ، و بذلك تكون إسرائيل ملزمة بواجب تجاه الفلسطينيين لأنهم أصحاب حق ، و ليسوا مجموعة من المتطفلين الذين يسيئون لها . فإذا أرادت إسرائيل أن تصير دولة ديمقراطية بالفعل و تحوى داخلها مواطنين طبيعيين يمارسون حقوقهم و يؤدون واجباتهم ، فعليها أن توقف عمليات الطرد و القتل و النهب التي تشنها على الفلسطينيين لأنهم ، أيضا ، ينتمون لهذه الأرض ، و لكن الذى حدث فى إسرائيل ، بل حتى قبل إقامتها ، أن تجاهلت الحركة الصهيونية منذ نشأتها الوجود الفلسطينى فى فلسطين .

و قد " لا زمت هذه النظرة تاريخ الصهيونية منذ الهجرة الأولى ١٨٨٢م، حيث كانت شعاراتها المعروفة و المتناقضة (شعب بلا أرض لأرض بلا شعب) من جهة ، و من جهة أخرى (العروس الجميلة ، لكنها متزوجة من رجل آخر) هذه الشعارات التي تجسدت لاحقا في عدم الاعتراف بكيان فلسطينى ، و فى السعي الدائم للتحالف مع قوة عظمى ، خارج الشرق الأوسط ، مثل علاقات حاييم وايزمان مع بريطانيا ، فبمقدار ما تعمقت هذه العلاقات ، بمقدار ما كان اهتمامه يقل و يضعف إزاء المصاعب المحلية التى يواجهها عرب أرض إسرائيل . "[3]

أما بعد قيام إسرائيل عام ١٩٤٨ فقد " أعلنت الصهيونية عن هدفها غير الأخلاقى فى صراحة تامة ، و حددت هدفها فى تفريغ فلسطين بالكامل من سكانها الفلسطينيين عن طريق طرد السكان بالقوة و نزع الملكيات وهدم المنازل و ترويع المواطنين و دفعهم إلى ترك أرضهم ، وبهذا فالصهيونية سرقت وطنا بكامله و بقوة السلاح و قتلت و شردت النساء و الأطفال ، و هددت الحياة الآمنة لليهود فى كل بلاد العالم . "[4] فسياسة إسرائيل تقوم على أساس واحد ، هو تجاهل مواطنيها الفلسطينيين وتهميشهم و العمل على إجبارهم على ترك إسرائيل . و هذه السياسة تتضمن بلا شك عدم الاعتراف بحق الفلسطينيين فى تقرير مصيرهم . و عن ذلك يقول الباحث الإسرائيلى " אלוף הראבן " ألوف هرئفين * :

" يجب علينا – أولا و قبل كل شيء – أن نعترف بوجود الفلسطينيين ، وأن هؤلاء يرون أنفسهم شعبا و يشعرون كشعب و هذا حقهم ، حقهم في تقرير مصيرهم حسب رغبتهم و حسب مشاعرهم و علينا أن نعترف بذلك ، و من الطبعي أن هذا ليس حقا – لا محدودا – فتقريرهم مصيرهم يجب ألا يتضمن تقرير مصير ينكر حقنا نحن في تقرير مصيرنا و طبيعي أنه يوجد نفور بين الحقين و لكن يجب القيام بمحاولة تسوية هذا النفور .

---

[1] יוסף אורן : העט כשופר פוליטי , שם " עמ' 59 .

[2] אברהם ב .יהושע : הקיר ו ההר , שם " עמ' 22 .

[3] د /دان ياهف : الجدار الحديدى.إسرائيل والعالم العربى ، مقال علي الموقع الإلكترونى
http:\\almash-had.madarcenter.org.articalid=2738 11\10\2005

[4] د/ محمد خليفة حسن : الوضع الأخلاقى للصهيونية ، مجلة إبداع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، العدد السادس ، ١٩٩٨ ، صـ٦٣ .

يجب علينا أن نقدم فحوى و مغزى لاعترافنا بهم بحيث يكون هذا الاعتراف يحمل معنى احترام صفتهم الإنسانية ، إنهم بشر مثلنا لا أكثر و لا أقل ، و كل فلسطينى بصفته إنسانا لا أفضل و لا أسوأ من أي إسرائيلى . "[1]

هذه إذن الطريقة الوحيدة ، التي يجب أن تتبعها إسرائيل لكي تتحول إلى وطن حقيقي ، يوفر لسكانه إشباعا كاملا لهويتهم الوطنية و بذلك فإن سياسة إسرائيل الداخلية ، التي تقوم على تصفية الفلسطينيين و سياستها الخارجية القائمة على الحروب ، منذ إقامتها ، تجعل الحياة فيها بوصفها وطنا يحمي مواطنيه ضربا من المستحيل و تبطل جدوى المشروع الصهيوني ، الذي هدف إلى إقامة وطن لليهود في فلسطين لحل ما سمي بـ الضائقة اليهودية ، حيث " وصف آباء الأيديولوجية الصهيونية مثل " موشي هيس " و " ليون بنسكر " و " ثيودورهرتسل " الضائقة اليهودية بأنها تتمثل في عجز اليهود في أماكن الشتات عن تحقيق الحياة الآمنة و العيش متساويين مع الآخرين الذين يختلفون عنهم . "[2]

فهل حقق اليهود داخل إسرائيل ما أرادوه و ما حرموا منه خلال سنوات الشتات ؟

أما بالنسبة للحياة الآمنة فهي غير موجودة في إسرائيل ، نتيجة للعمليات الفدائية الفلسطينية ردا على الانتهاكات الإسرائيلية على الشعب الفلسطيني ، حيث يعيش كل من اليهود والفلسطينيين " فى مأزق خطير و صعب ، من حيث مداه الحسي ، و هو صعب لأن الشعبين يعيشان فى مأزق آخر مع الفئات المتطرفة الموجودة فيهما ، و هو صعب لأن الشعبين لم ينجبا حتى الآن زعيما ، يتمتع بشخصية و صلاحية كافية لتحقيق التحول التاريخى ، و هو صعب لأن الجانبين غير متساويين فى القوة ، و لأن إسرائيل تتمتع بقوة ملموسة و لأن الفلسطينيين ضعفاء ، و لأن قوة الضعيف متمثلة فى تطرفه . "[3] .

و الواقع أن أعمال المقاومة ، التي يقوم بها الفلسطينيون فى إسرائيل لها ما يبررها ، فمع تصعيد إسرائيل لسياساتها العنصرية تجاه الشعب الفلسطيني و قيامها بمحاولات مستميته لمحو هويته ، لا يتبقى أمام الفلسطينيين سوى طريق المقاومة و العمليات الفدائية التي ، و لا شك ، تهدد أمن اليهود فى إسرائيل و مع أن أعمال العنف ، التي يقوم بها سواء الأفراد أم الجماعات مرفوضة قانونيا و عرفيا و أخلاقيا في المجتمعات المدنية و المتمدنة ، و لكن " عندما تكون الهوية هدفا يسعى إلى تحقيقه الأفراد و الجماعات تصبح أعمال العنف التي يلجأون إليها ، ليس فقط مبررة قانونيا و عرفيا و أخلاقيا ، بل تصبح أيضا حقا طبيعيا و حياتيا لا يمكن التنازل عنه تحت طائلة التنازل عن وجود الجماعة وعن مبرر وجودها . كل جماعة ، أو كل متحد بشرى له حق فى الوجود بهذه الصفة ، و حين يلجأ أعضاؤه إلى أعمال العنف فى سبيل قضية وجودهم فهذا يعنى أن حقهم في الوجود مسلوب أو معتدى عليه ، كما أن هذا يعنى أيضا أنهم فى حالة إضطهاد أو فى وضع يحاول فيه القوي أن يطمس هوية الضعيف أو أن يحول دون تفتحها و ازدهارها فى مناخ من الحرية و الحق و السلام . "[4]

---

[1] ألوف هرئفين : هل يوجد حل للقضية الفلسطينية ؟ مواقف إسرائيلية ، ترجمة غازى السعدى ، دار الجليل للنشر – عمان ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣ ، صـ١٢٣ .

*ولد في حيفا عام ١٩٢٦، حصل على بكالريوس العلوم السياسية من لندن ، عمل في الجيش الإسرائيلي حتى ١٩٧٠ بعدها عين في قسم الإعلام بوزارة الخارجية ثم مديرا لمعهد " שילוח " " شيلواح " بجامعة تل أبيب ثم استقال و أسس مع " فيصل عزيزه " رابطة " סיכוי " " سيكوي " لدعم فلسطيني ٤٨ ومنذ ٢٠٠٦ ترأس رابطة " בין אדם לאדם " " بين أدم لأدم " لتعزيز كرامة الإنسان بوصفها قيمة رائدة .

[2] د / محمد محمود أبو غدير : أسطورة الصهيونية ، مرجع سابق ، صـ٦٥ .

[3] ألوف هرئفين : هل يوجد حل للقضية الفلسطينية ؟ ، مرجع سابق ، صـ١٢٢ .

٤ د / برهان غليون :الهوية والثقافة ، مرجع سابق ، صـ ٩١ .

من هنا ، فلا يمكن أن يشعر اليهود فى إسرائيل بالأمان ، طالما بقى الحال على ما هو عليه بالنسبة للفلسطينيين . هذا عن حياة اليهود الآمنة فى إسرائيل و أما بالنسبة لمسألة المساواة مع الآخرين فهي أيضا غير واردة داخل إسرائيل . فإذا كان اليهود في دول الشتات يعانون من عدم المساواة بسبب كونهم في الطرف الأدنى من طرفي معادلة المساواة ، فهم في إسرائيل أيضا لا يشعرون بالمساواة مع الآخرين و الأمر الذي طرأ عليهم هو انتقالهم إلى الطرف الأعلى من طرفي معادلة المساواة .

ويقول " ألوف هرئفين " : " لقد مررنا خلال الأعوام الأربعين الأخيرة بوضعين أشد وطأة مما عرفناه في تاريخنا ، و في تاريخ العلاقة بين هويتنا و القوة . الأول ما حدث لليهود في أوربا ، أي خراب المهجر بسبب عدم وجود قوة دفاعية ، أما الوضع الثاني ، فذلك الذي نتج مباشرة في أعقاب الجيل الذي تلا هذه الأحداث ، و هو قوة إسرائيل المتنامية بصفتها قوة عسكرية عظمى من الدرجة الأولى . فمن شعب أصابته الكارثة إلى دولة قادرة على إنزال الكارثة بغيرها و من شعب مستعبد من قبل الغير إلى دولة تستعبد أبناء شعب جار ، فنحن حاليا نخصص تقريبا الثلث من إجمالى ناتجنا القومى من أجل إقامة القوة و بنائها" [١].

فمن حالة المضطهد إلى حالة المضطهد ، و من دور المظلوم إلى دور الظالم ، حيث حمل اليهود أمراض الشتات القديمة معهم إلى وطنهم الجديد . و الواقع أنه " حين أدرك بن جوريون بعد الإعلان عن قيام إسرائيل أن الدولة الوليدة تحمل في أحشائها كل الأمراض القديمة التي التصقت باليهود في الشتات عمل على التوصل إلى صيغة تفاهم و برنامج عمل يحافظ على استمرارية الدولة في الوجود و أدرك أن أفضل طريقة لتحقيق ذلك هي ترسيخ مفهوم الصراع الأبدي مع الأغيار و تبني عبادة القوة "[٢] . و تجدر الإشارة هنا إلى أن " أية دولة تشتمل على ثلاث ركائز أساسية : إقليم ، و شعب ، و نظام سياسي و أن مهمة الأمن القومي هى تأمين و حماية هذه الركائز الثلاث ، فالأمن القومي لأي دولة يعرف بأنه دفاع و وقاية ضد أخطار داخلية أو خارجية مثل : وقوع الدولة تحت سيطرة دولة أو معسكر أجنبى نتيجة لضعف أو انهيار داخلى أو ضغوط خارجية و لكن نظرية الأمن الإسرائيلية تتخطى مثل هذه التعريفات و الحدود ، كما قال بن جوريون : (إن أمن الدولة ليس قضية حماية الاستقلال أو الأراضى أو الحدود أو السيادة إنما هى قضية البقاء على قيد الحياة .) أي أن المفهوم الإسرائيلى للأمن يعني بقاء إسرائيل و الشعب اليهودى ككل و من هنا نجد أن تعبير الأمن يشكل محورا و مبررا لكثير من المبادىء أو الأنشطة الإسرائيلية . "[٣]

و من الأمور التي يشكل الأمن محورا مركزيا لها ، موضوع التوسع فى إقامة المستوطنات ، لاستقبال أكبر عدد ممكن من المهاجرين اليهود و التضييق على المناطق الفلسطينية ، و كل ذلك لضمان الأمن الإسرائيلى " فإسرائيل لا يمكن أن تضمن أمنها الحقيقى بدون الهجرة ... و الأمن يعني استعمار الأرض و شغل المناطق المقفرة في شمال البلاد و جنوبها بالسكان . "[٤]

و قد استندت سياسة الأمن الإسرائيلية ، دائما ، على قاعدة مفادها أن طريق القوة سوف يكفل في النهاية استسلام العرب " لأن العرب لن يجدوا حافزا لإقامة سلام مع

---

[١] אלוף הראבן : ישראל לקראת המאה ה-21שם " עמ' ٢١٤ .

[٢] د/ محمد محمود أبوغدير : التوظيف الصهيونى للمعاداة للسامية فى الأدب العبرى الحديث ، رسالة المشرق ، المجلد العاشر ، الأعداد من الأول إلى الرابع ، مركز الدراسات الشرقية ، القاهرة ، صـ٧٦

[٣] عادل محمود رياض :الفكر الإسرائيلى وحدود الدولة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، ١٩٨٩، الطبعة الثانية ، بيروت ، صـ٢٦٣.

[4] David Ben – Gurion : Israel .Years of challenge N . Y . i.b.i.d , p 60 , 61

إسرائيل الضعيفة . وعندما يقتنع العرب بأن إسرائيل من القوة بحيث يمكنها هزيمتهم ، حينئذ سيذعنون لها . "[1] هكذا إذن فقد تعاملت إسرائيل منذ قيامها مع مفهوم أمن الدولة ، و هكذا أيضا نظرت إسرائيل إلى أهمية القوة و تنميتها . و فى هذا الشأن يقول " ألوف هرئفين " :

" إن كل شعب يحتاج إلى القوة للدفاع عن وجوده . و الشعوب التي ترفض إقامة قوة دفاعية تعرض نفسها للخطر الخارجى و الداخلى معا . و قليلة هي الشعوب التى أصبحت القوة العسكرية تحتل أهمية مركزية كبيرة فى حياتها و هويتها و سلوكها ، فقبل مائتى سنة ارتبط مفهوم الأمن لدينا بعقيدة التوكل على الإله . لكن الأمن تحول من خلال تفسيره تفسيرا جديدا فى جيلنا إلى مفهوم الاعتماد على قوتنا فقط ، إذ أن جميع اليهود تقريبا يوافقون على مركزية هذا المفهوم . "[2]

فلا شك في أهمية القوة لأي شعب من الشعوب ، فبالقوة تحمي الشعوب نفسها ، إلا أن هذا المفهوم ، مفهوم القوة ، يتخذ لدى إسرائيل دلالات أخرى غير دلالة الحماية أو الدفاع ، لقد صارت القوة بالنسبة لإسرائيل طقسا من طقوس العبادة ، فصارت القوة مركزا للدولة ، تدور وفقا لها كل السياسات و من خلالها تصدر القرارات .

و يتابع " ألوف هرئفين " قائلا : " فإذا كنا مستعبدين في الشتات لانعدام القوة ، أليس هناك الكثير منا في إسرائيل قد سخر مفهومه للحياة من أجل القوة الزائدة و من أجل إظهار كل العرب بوصفهم خطرا زائدا ، دون التمييز بين عربي و عربي ، و بين الشعوب العربية و الحكومات . و بذلك فإن الخطر الزائد يشكل تبريرا للاحتفاظ بقوة زائدة ، و الاحتفاظ بالقوة الزائدة يشكل تبريرا للتعامل مع العرب من خلال كونهم يشكلون خطرا زائدا فقط ، دون الاعتراف بأن أولئك العرب هم أيضا الفرصة فى السلام و التسليم بوجود إسرائيل . إن القوة الزائدة في نظر الكثير هي مفتاح إجمالي العلاقات بيننا و بين جيراننا و بيننا و بين العرب الموجودين تحت سيطرتنا ، مواطنو الدولة ، و الجزء الأكبر منهم يعيش تحت الحكم العسكرى ، و هو حكم قائم بالقوة ، هذه أيضا هي النظرة التي من خلالها ينظر إلينا كثير من جيراننا العرب حاليا . ليس بوصفنا مجتمعا ديمقراطيا ، و لا مجتمعا يسمو فيه القانون على أي شيء آخر ، و لا مجتمع يحترم الغير ، بل بوصفنا مجتمعا يقوم على القوة . "[3]

فالقوة الإسرائيلية إلى جانب زيادتها المستمرة و مركزيتها داخل الدولة ، هي قوة عمياء ، فهي تتعامل مع العرب جميعهم سواء فلسطيني ٤٨ أم سائر الدول العربية بوصفهم الأعداء الواجب الإطاحة بهم قبل أن يدمروها و مع ذلك فهذه القوة لم تجلب الأمن لإسرائيل و لم تحقق الوطن الآمن ، كذلك فإن الصراع الأبدي مع الأغيار و القائم على أساس ديني يبتعد بالدولة كل البعد عن مواصفات الوطن الحقيقي و هي كلها مواصفات علمانية تقوم على حقوق المواطنة . و دور الفرد و حقوقه داخل هذا الوطن ، الأمر الذي جعل إسرائيل مكانا لليهودي ، الذي يريد أن يعيش حياة دينية يهودية و ليست هي الدولة ، التي تضم اليهودي العلماني و غير اليهودي و اليهودي المتدين . و قد أدى هذا إلى شعور اليهود داخل إسرائيل بأنهم لا يعيشون في وطن إسرائيلي حقيقى ، بل " يعيشون في إسرائيل مع وقف التنفيذ و أنهم يصنعون الجميل لطرف ما ، (للحكومة ، للهستدروت الصهيوني ، للدولة) انطلاقا من حقيقة أنهم موجودون في البلاد أي أن الوجود في إسرائيل لا يعنى أنك موجود في بلدك ، بل يعني بكل

---

[1] Ernest Stock , Israelon the road to Sinai ,1949-1956.with a sequel on the six days war 1967 . N . Y . cornel university , 1967, P. 110 .

[2] אלוף הראבן : ישראל לקראת המאה ה-21שם " עמ'214 .

[3] אלוף הראבן : ישראל לקראת המאה ה-21שם " עמ' 215 .

بساطة " تقديم الأضحية " و كذلك يعنى أن يكون المرء مثاليا . "[1]وقد سئم يوناثان ليفشيتس ، من مثالية الكيبوتس و من مثالية الدولة ، و من كونه يقدم التضحية تلو الأخرى ، لكى يستمر وجود الدولة . فنقرأ :

״אתה את חייך תשנה מן הקצה אל הקצה. תפתח דף חדש . תהיה חפשי. כל הדברים שהשארת מאחוריך יישארו לבדם בלעדיך...אנשים קרובים שנהגו בך תמיד כאילו אתה שייך להם כאילו אתה רק מכשיר בידם רק כלי להגשמת תכנית נלהבת שאתה אינך מבין מה תכליתה. ״[2]

" ستغير حياتك من النقيض إلى النقيض . ستفتح صفحة جديدة . ستغدو حرا . كل ما خلفته وراءك سيظل وحده دونك ... الناس القريبون ، الذين تعاملوا معك دائما كما لو أنك تنتمي إليهم ، كأنك فقط جهاز بأيديهم ، مجرد آداه لتحقيق مشروع حماسي أنت لا تفهم الغاية منه ."

و نلاحظ هنا - إلى جانب التأكيد مرارا و تكرارا على مسألة النزوح و الهجرة - الصفات الواجب توافرها في المواطنين الإسرائيليين ، لكى يتم ضمان وجود و استمرارية الدولة . فلابد من أن يكون المرء منتميا لمن يدير هذا الوطن " تنتمي إليهم " فلم يسند فعل الانتماء إلى الوطن ، و لكنه أسند لضمير الغائبين " هم " ، أي لمن يديرونه ، و لعل من المعقول أن ينتمي المرء إلى قيادات وطنه و يتبع توجيهاتهم ، لكن حين تتضح لنا طبيعة هذا الانتماء و حدود الطاعة ، التي يجب أن يتسم بها المواطن الإسرائيلي ، سندرك عدم قدرته على تحمل ذلك ، حيث يجب على المواطن أن يصير "جهازا " و " آداة " و نلاحظ ورود كلمة " فقط " قبل الكلمتين كلتيهما ، حيث توحى بأن هذه هي الصفات المطلوب توافرها فقط ، دون غيرها في المواطن الإسرائيلي ، و عندما يكون المواطن مجرد جهاز و آداه فى أيدى الدولة ، فإنه يستطيع أن يتبع الأوامر و ينفذ المطلوب منه رغم عدم معرفته مغزى هذه الأوامر و غاياتها " أنت لا تفهم الغاية منه " ، لذا فقد ضاق يوناثان ذرعا بهذا الوطن و أراد أن يبحث عن بديل و مرة أخرى نراه يعلن عن عدم جدوى إجراء تصحيح أو تعديل جزئى لحياته داخل إسرائيل ، فهو يريد تغيير هذه الحياة بأكملها "من النقيض إلى النقيض " من أولها حتى نهايتها ، يريد أن يبدأ " صفحة جديدة " ، حياة جديدة عوضا عن القديمة العقيمة ، لأنه يعيش فى هذا الوطن كالسجين المقيد بالأغلال ، لذلك يريد أن يصير " حرا " .

فالحياة داخل إسرائيل ما هي إلا اتباع مجموعة من التعليمات الموجهة للمواطنين الإسرائيليين اليهود و على اليهود أن يطيعوا تلك التعليمات إذا ما أرادوا بقاء الوطن . إنها مهمة كل يهودي مخلص ، حيث تحول اليهودي داخل إسرائيل إلى آداه تستخدم من قبل جهة عليا لتنفيذ مهمة معينة ، كذلك صارت حكومة هذا الوطن مسئولة عن تحقيق رغبات هذا اليهودي المخلص إعترافا بالجميل و تقديرا لجهوده المضنية المتمثلة في العيش داخل (وطنه) ! و نتيجة لنظرة اليهودي إلى نفسه و كأنه يقوم بمهمة " حدثت زعزعة في العلاقة المباشرة و الطبيعية بين الإنسان و بلاده ، أي حدثت زعزعة في مشاعر حب الوطن لديه و ثانيا ، أدى ذلك إلى وضع آداة ابتزاز في يدي الإسرائيلي ، يستخدمها ضد دولته لإنه متطوع و مثالي و صهيوني . و يستدل من هذه المفاهيم أنه يبذل جهدا يفوق ما هو مطلوب من أي مواطن في أي دولة ، و من أجل ذلك فإنه يسجل لنفسه قيامه بالمعروف ومستعد

[1] بوعز عفرون : مرجع سابق ، صـ ٤٧٦ .
[2] מנוחה נכונה , שם ״ , עמ׳ 21

في أي لحظة لكي يعلن في مواجهة الدولة أنه سئم أن يكون مثاليا و أنه يفضل الحياة الطبيعية في أمريكا . "[1]

و هذا ما فعله يوناثان ليفشيتس الصبار الإسرائيلى حين تزعزعت مشاعر حب الوطن لديه ، و حين ضجر من تلك الحياة الرتيبة ، التي قوامها التحمل من أجل استمرار قيام هذا الوطن ، إنه يريد أن يعيش شأنه شأن أي مواطن في وطنه العادي ، و لكن هذه أمنية بعيدة المنال ، فقد أيقن أنه لن يستطيع أبدا أن يحقق هويته الوطنية بصورة كاملة و صحيحة داخل إسرائيل ، فقام باتخاذ قرار الهجرة إلى خارج هذا الوطن . و خارج الوطن بالنسبة له " ليس مجرد سياحة ، بل هو عالم كله نقيض لإسرائيل ... هو هروب من الكثافة ، و من التوتر إلى عالم رحب ، يستطيع فيه الإنسان أن يتخلص من كل حواجز الحياة فى داخل المستنبت الزجاجي المضغوط ، و حيث يستطيع أن يكون مجهولا ، و أن يتصرف حسبما يحلو له دون أن يصطدم بعين غاضبة و حاجب مرفوع ، و أن يتخلص من السلوك المطلوب منه بوصفه صبارا سليم الروح و الجسد ، و أن يستطيع الاستمتاع بكل الأشياء التي تنقصه فى المجتمع الإسرائيلى دون أن يشعر أنها تنقصه : النظام و كبح جماح النفس ، و أسلوب الحياة ، و الحضارة الحديثة (نقيض حياة الكيبوتس) ، و السلوكيات الطيبة . "[2]

و جدير بالذكر أن هناك الكثير من أمثال يوناثان ممن اتخذوا قرارالنزوح من إسرائيل فهي ، أي ظاهرة النزوح ، ظاهرة عامة ، حيث " يكشف التقرير الذي وضعه رجل الإحصاء " حنوخ سميث " و المنشور في جريدة هآرتس أنه مع بداية القرن الحادي و العشرين سيصبح في الخارج ٨٠٠ ألف إسرائيلي فإذا وضعنا في الاعتبارات أن عصبة الأمم ، كما يقول الكاتب قد قررت الاعتراف بحق اليهود في أن تكون لهم دولة خاصة بهم في الوقت الذي كان عدد المستوطنين في البلاد يقدربحوالي ٦٠٠ ألف يهودي فإننا سنفهم المغزى الكامل لهذه المعلومة المفجعة و يعلق الكاتب على هذه الآفاق بقوله : لقد مضت أربعون سنة على تأسيس الدولة و لا زال الإسرائيليون في الطريق إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، و إلى كندا ، و إلى استراليا ، و إلى أي مكان عنده استعداد لاستيعاب الاسرائيليين ، الاسرائيليون يعبرون عن رأيهم بأرجلهم ."[3]

هذا و تعطينا الإحصائيات الإسرائيلية الرسمية فكرة واضحة عن عدد الذين هاجروا من إسرائيل ، " فعدد الإسرائيليين الذين نزحوا عن إسرائيل منذ قيامها يقدر بحوالي نصف مليون يهودي و هذا لا يتضمن الأعداد التي توفيت ، كما لا يتضمن مواليد الذين يعيشون خارج إسرائيل ، و تجدر الإشارة إلى أن أعداد النازحين اليهود من إسرائيل في حقبة التسعينيات تقدر بحوالي ١٥ – ١٧ ألف يهودي في السنة الواحدة . "[4] و قد نشرت جريدة الجيروزاليم بوست فى عددها الصادر بتاريخ ١٣ / ٩ / ٢٠٠١ م تقريرا ورد فيه أن " ٢٢ بالمائة من الإسرائيليين فى المرحلة العمرية بين ١٨ – ٣٥ سنة يفكرون فى الهجرة ، و هي نسبة عالية للغاية إذا أخذنا فى الاعتبار أن من ينتمون إلى هذه المرحلة هم أهم قطاعات أي مجتمع ، فهم أكثر القطاعات إنتاجية و نشاطا و أكثرها قدرة على الإنجاب ."[5]

---

[1] بوعز عفرون : مرجع سابق ، صـ ٤٧٨ .

[2] د / رشاد عبد الله الشامى ، الشخصية الإسرائيلية والروح العدوانية ، مرجع سابق صـ ٣١٨- ٣١٩ .

[3] جمعية الخريجين : القضية الفلسطينية فى أربعين عاما بين ضراوة الواقع و طموحات المستقبل، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمتها جمعية الخريجين فى الكويت، مركز دراسات الوحدة العربية،الطبعة الأولى ،سبتمبر ١٩٨٩،صـ ٢٤٩ .

[4] - http://Lib.cet.ac.iL\pages\item.asp?item= 12287.2003 . הספרייה הווירטואלית של מטח המרכז לטכנולוגיה חינוכית

[5] - http://www.palestine-info.com-arabic-books-entefada-tahrer10.htm المركز الفلسطيني للإعلام ١٤ / ١ / ٢٠١٠

هذا و قد جاء في الجريدة عينها بعد ثلاثة أشهر (١٠ / ١ / ٢٠٠٢) أن" عدد الذين يفكرون في الهجرة في المرحلة العمرية نفسها قد بلغ ٣٥ بالمائة . ثم أضافت أن هذا لا يتضمن الشباب الذي فقد وظيفته في قطاع التكنولوجيا المتقدمة (الهاى تك) في السنوات الماضية . ثم أشارت الجريدة إلى عدة حقائق تسترعي الانتباه ، فعشرات الشباب الإسرائيلي بعد أن يخدموا في الجيش يقومون برحلات طويلة خارج إسرائيل ، و يعيشون في مستعمرات إسرائيلية في وسط أمريكا و آسيا ، فهم يفضلون البقاء هناك على العودة إلى حاضر غير أكيد . كما بينت الجريدة أن كثيرا من الطلبة الإسرائيليين في الماضي كانوا يذهبون إلى الخارج ، للحصول على شهادات فى الطب البشري أو البيطري ثم يعودون لفتح عيادات في إسرائيل ، أما الآن فإنهم يلتحقون بجامعات أجنبية و فى نيتهم عدم العودة . "[١]

و في النقاش الذي أقامته لجنة الهجرة و الاستيعاب التابعة للكنيست ، قدمت بيانات عن ظاهرة النزوح وصفت بأنها بيانات تبعث على القلق فـ " نسبة النازحين من المهاجرين الجدد تزيد بما قيمته خمس نقاط عنها في أوساط المهاجرين المخضرمين ، كذلك فقد نزح عن إسرائيل مئات من تلاميذ المدارس الثانوية ليحصلوا على شهادات تخرج من روسيا و أوكرانيا و قد فضلوا البقاء هناك . أيضا ، فقد قدمت اللجنة بيانات صادرة عن البحث الذي أجرته شعبة التخطيط و البحث الذي أجرته وزارة إستيعاب الهجرة فيما يتعلق بعدد الذين هاجروا إلى إسرائيل من الاتحاد السوفيتي سابقا في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٨٩ و ٢٠٠٢ حيث اتضح من تلك البيانات أن واحد و نصف من كل ألف من مواليد إسرائيل نزح عن إسرائيل في تلك الفترة ، أما في أوساط مهاجري الاتحاد السوفيتي السابق فترتفع النسبة كثيرا حيث تصل إلى سبعة و نصف من كل ألف . و في تلك الفترة نزح عن إسرائيل ٧٢ ألف يهودي من أصل ٩٣٩ ألف . "[٢]

من ناحية أخرى فقد نشرت صحيفة معاريف الإسرائيلية مقابلة مع رئيس الأكاديمية الوطنية للعلوم " يهوشيع بورتنر " قال فيها : " إن ١٨٠٠أستاذ في الجامعات الأمريكية هم مهاجرون من إسرائيل خلال عقد واحد ، إذ يهاجر ٣٠٠ مهندس سنويا من إسرائيل من العاملين في مجال العلوم و الثقافة و هذا يعني بحسب رأي يهوشيع أن إسرائيل ستتحول إلى دولة من دول العالم الثالث ... و قد حاولت الأجهزة المختلفة في إسرائيل معالجة هذه الظاهرة و أنشأت مكتبا في نيويورك يسمى مكتب (الأكاديميين) مهمته تقديم الإغراءات الواسعة للعودة و هو مكتب لم ينجح إلا في إعادة عشرات الذين فشلوا في بدء حياة جديدة في العالم الجديد . "[٣]

و قد لاحظ " يوسي بيلين" ، عضو الكنيست عن حزب العمل فى حينه أن " كثيرا من زملائه في الجيش و الدراسة من أعضاء النخبة ، الذين بلغوا الخمسين من العمر لا يمانعون فى رحيل أبنائهم عن إسرائيل . و أن كثيرا من أبناء رجال النخبة يمكثون بالفعل في الخارج لفترات طويلة و أن آباءهم لا يعدون لهم بلادا جيدة ليعودوا إليها . "[٤]

و الواقع أن أسباب النزوح في أغلبها تعود إلى العوامل الاقتصادية ، إلا أنه يمكن أن يضاف إليها عامل رئيسي آخر ، هو الحرب ، حيث تعد الحرب و ما تجلبه من تهديد للوضع الأمني أحد الأسباب الرئيسية لنزوح اليهود من إسرائيل ، و لنضرب هنا مثلا بحرب لبنان الثانية ٢٠٠٦ ، حيث يقول مدير وحدة الاستيعاب و الهجرة بمركز الحكم المحلي

---

[1] - http://www.palestine-info.com-arabic-books-entefada-tahrer10.htm

[2] - http://www.Ynet.co.iL. 25\10\2006.מאת מירי חסון

[٣] جمعية الخريجين : مرجع سابق ، صـ ٢٥٠ – ٢٥١ .

[4] http://www.palestine-info.com-arabic-books-entefada-tahrer10.htm

" هناك ظاهرة أخرى تبعث على القلق هي تأثير حرب لبنان الثانية على أعداد المهتمين بالنزوح في أوساط المهاجرين الجدد ، فبعد الحرب ظهرت توجهات كثيرة تدل على وجود ضغط ما على جمهور المهاجرين ، حيث تسببت هذه الحرب في غياب الشعور بالأمان ، كما تسببت في الشعور بخيبة الأمل في دور الدولة و تعززت تلك المشاعر التي تأكد اتخاذ المهاجرين الجدد قرارهم بالنزوح . "[١]

و تجدر الإشارة هنا إلى البحث الذي أجراه كل من " إريك جولد " و الدكتور " عمر موآب " من المعهد الاقتصادي عن ما يسمى بـ " هجرة الأدمغة " " בריחת מוחות " حيث طلبا من المشاركين في عينة هذا البحث أن يوضحوا الأسباب الرئيسية التي دفعتهم للنزوح و كانت النتيجة كما يلي : " ٨١ % من المشاركين أشار إلى البطالة بوصفها العنصر الأساسي لنزوحهم . ٧٥ % أشار إلى غلاء المعيشة و عد ذلك الدافع الرئيسي وراء النزوح ، ٧١ % أشار إلى وظيفة الزوج أو الزوجة باعتبارها سببا للنزوح ، في حين رأى ٦٦ % أن فرض الضرائب الباهظة هو دافعهم ، أيضا فقد أبرز ٦٥ % من المشاركين الوضع الأمني المتدهور ، في حين أشار ٤٣ % فقط إلى ضعف مستوى الدخل السنوي بوصفه دافعا للمغادرة . و كما يظهر من تلك البيانات فإن العناصر الاقتصادية و فرض الضرائب تعد أقوى من الاعتبار الأمني . "[٢]

و نلاحظ أن النزوح اليهودي عن إسرائيل لا يتم – فقط - بسبب عجز في المال أو الدرجة الاجتماعية ، أو الاضطراب الأمني ، بل ينبع – في الأساس - من عدم التواصل مع إسرائيل بصفتها وطنا ، فالفرد فيها لا يشعر بحالة الانتماء الكامل ، لا يشعر بهويته الوطنية داخل هذا الوطن ، فهناك فرق كبير بين أن ينتمى المرء للوطن ببطاقة حكومية و بين أن يعيش الوطن في وجدانه و يصبح الانتماء له بالضمير و العقل و القلب و بكل الجوارح ، لذا فالنزوح من إسرائيل كثيف ، و نتيجته واحدة و هي أن تفقد إسرائيل مبررها الأصلي أمام شعوب العالم التي تعاطفت مع إقامة وطن لليهود (المضطهدين في أوربا) على أرض فلسطين من البداية . فإذا كان اليهود أنفسهم لا يسافرون إلى إسرائيل و إذا سافروا فهم لا يستقرون ، بل ينزحون عنها ، فما مبرر أن يكون هناك دولة لهم . و قد ذكر " بنيامين طومنتكين " أن " ظاهرة النزوح تعزز إدعاءات الأعداء بأن اليهود ليسوا أمة ، لأنهم ينقصهم الإحساس بالوطن ، و أن جميع أقوالهم عن حقهم ، و ارتباطهم التاريخي بأرض فلسطين هي أقوال عقيمة . "[٣]

فإسرائيل إذا لم تعمل على جذب اليهود من مختلف بلدان العالم و تعمل في الوقت نفسه على الاحتفاظ بهم داخل حدودها الجغرافية ، فلن يمكن أن يطلق عليها صفة وطن و سيترتب على ذلك ألا يكون هناك من يطلق عليه صفة مواطن إسرائيلي .و الواقع فقد " جاءت ظاهرة نزوح اليهود من إسرائيل إلى الخارج لتمثل أزمة بنيوية لها ، حيث اعتمدت إسرائيل منذ البداية على الهجرة كأساس أيدلوجي لها ... و من ثم فإن عملية النزوح تأتي لتشكك في هوية الدولة التي قامت على ذلك الأساس . "[٤]

---

[1] - http://www.Ynet.co.iL.25\10\2006.

[2] http://www.Ynet.co.iL.28\6\2006. מורן זליקוביץ'

[٣] بنيامين طومنتكين :مجلة تموروت،نيسان ١٩٧٧ ، نقلا عن د / رشاد عبد الله الشامى ، الشخصية الإسرائيلية والروح العدوانية ، مرجع سابق ، صـ٣٢٩ .

[٤] د / عماد جاد : من داخل إسرائيل . الآن ومنذ نصف قرن . صراعات داخلية وطموحات خارجية ، تقديم جورج حبش ، ميريت للنش والمعلومات ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢ ، صـ٤٢ .

فقد أحاطت إسرائيل موضوع الهجرة إليها بهالات مقدسة و ادعت وجود علاقة دينية روحية بينها و بين كل اليهود في العالم ، تلك العلاقة التي تستند على الوعد الإلهى ، ولأن هذه العلاقة كذلك ، فهى لم و لن تخضع لأية متغيرات تاريخية أو اجتماعية ، و لهذا أيضا خصص لتعريف الهجرة إلى إسرائيل مصطلح " עלייה " و المعنى المعجمي لهذا المصطلح هو " الصعود " فكأن اليهودي ، الذي يهاجر إلى إسرائيل ، يرتقي من الأدنى إلى الأعلى ، أما النزوح عن إسرائيل ، فقد خصص له المصطلح " ירידה " و دلالته المعجمية " الهبوط " و المعنى واضح ، فالذي ينزح عن إسرائيل يكون قد استبدل الذى هو أدنى بالذي هو خير . !

و جدير بالذكر أن تفاقم ظاهرة النزوح عن إسرائيل يقوض من سطوة إسرائيل على يهود العالم ، و يبطل ادعائاتها بوجود تلك العلاقة الربانية بينها و بين اليهود جميعهم ، حيث لم تعد إسرائيل دولة جاذبة بالنسبة لليهود الذين يعيشون بين ظهرانيها ، كى يكملوا حياتهم فيها ، و كذلك الحال بالنسبة لليهود خارجها ، فهم سيفكرون ألف مرة قبل أن يقدموا على الهجرة إليها ، و لن يقدم على ذلك سوى من ليس أمامه خيار آخر . و هنا نتبين كيف أن التمادى في عبادة القوة و ما يتبعها من علاقات عدائية بين إسرائيل و العرب ، لم تنفعها في شيء ، بل على العكس من ذلك فقد أضرتها . و عن هذا يقول " ألوف هرئفين " :

" هل الدولة و القوة يمثلان حقا الدلالة العميقة التي من خلالها سنستمر فى المحافظة على يهودية اليهود في الشتات ؟ ليست الدولة إلا آداه ، و استعمال القوة ليس إلا حلا عنيفا لمشكلة فشل الناس في حلها عن طريق الحوار . أحقا أن دولة و قوة عسكرية هما الرمزان المفضلان اللذان تعتزم إسرائيل من خلالهما تجسيد تعاطف أبناء الأجيال القادمة في الشتات و هويتهم اليهودية . "[1]

و الواقع أن إسرائيل تستمر فى فقد عناصر المواطنة ، و تستمر في ابتعادها عن سمات الوطن الطبيعى ، الأمر الذى يجعل فريقا كبيرا من اليهود خارج إسرائيل يرفض الهجرة إليها ، مما يؤدى إلى تراجع نسبة المواطنين الإسرائيليين من أصل يهودى " فهل دولة تعيش فى صراع دائم مع جيرانها ، و التي ستفرض سلطتها فى الجيل القادم على ثلاثة أو أربعة ملايين عربى ، ستكون محل جذب لعشرات الآلاف من الشباب اليهود كي يهاجروا إليها ؟ . هل لدى إسرائيل ، بشكل عام ، رسالة يهودية تبعث بها إلى هؤلاء الشباب فى الأجيال القادمة ، سوى الدولة و قوتها ، و سلطانها ؟ "[2]

إذن يجب على إسرائيل أن تتغير ، طالما أرادت أن تبقى و تستمر بصفتها وطنا يصون مواطنيه ، و إلا فلتواجه خطر النزوح عنها و عدم قدرتها على جذب مهاجرين جدد ، الأمر الذى سيقضي نهائيا على وجودها " فأحجام النزوح كانت و لا تزال تقلق الجمهور فى إسرائيل ، و تلحق الضرر بالمجتمع و الاقتصاد و المعنويات ، و الضرر الأكبر من الصورة التي تتكون فى ذهن كل إسرائيلى ، و كل شاب طيب فى إسرائيل ، و أمتعته جاهزة و معدة ، و هو ينتظر الفرصة للنزوح عن البلد فى أقرب وقت ممكن . "[3]

---

[1] אלוף הראבן : ישראל לקראת המאה ה-21שם ״ עמ׳ 217 .

[2] אלוף הראבן : ישראל לקראת המאה ה-21שם ״ עמ׳ 217.

[3] د / رشاد عبد الله الشامى : الشخصية الإسرائيلية و الروح العدوانية ، مرجع سابق ، صـ ٣٢٨ .

و تتضح رؤية " عاموس عوز " و موقفه الفكرى في مسألة هوية دولة إسرائيل ، في ثنايا روايته هذه ، إنه يراها وطنا لكل من يعيش فيها و أن اليهود الذين هاجروا إليها و أقاموها إنما فعلوا ذلك بدافع الحب و الاقتناع بهذه الدولة و أنهم هاجروا إليها أملا في العيش الهادئ و الاستقرار الطبيعي ، لكن كل ذلك لن يتسنى لهم إلا حين تصبح إسرائيل لكل الإسرائيليين و ليس لكل اليهود و جدير بالذكر أن" عاموس عوز " قد بدأ تأليف روايته هذه عام ١٩٧٠ ، إلا أنه لم يتمها إلا في الفترة ما بين عامي (١٩٧٦ - ١٩٨١) ، أي أنه ألف جزءا منها بعد حرب ١٩٦٧ و أكمل الباقي بعد حرب ١٩٧٣ و هما من أهم الحروب ، التي خاضتها إسرائيل . فبعد حرب ١٩٦٧ إزداد المد الديني داخل إسرائيل ، التي اتسعت حدودها بفضل مساحات الأراضي الشاسعة ، التي ضمت إليها و قد تم التعامل مع النصر ، الذي حققته إسرائيل في تلك الحرب ، بوصفه انتصارا دينيا منحه الرب لشعبه .

فبعد حرب ١٩٦٧ " تغيرت إسرائيل من الناحية السياسية و الجغرافية و النفسية و تحولت إلى جبهة قوية يجب أن تأخذ بعين الاعتبار ، حيث سيطرت على مليون عربي و مناطق كثيرة و صارت باستطاعتها التفاوض مع العرب من خلال موقف القوة . " [١] و في أعقاب هذا الموقف الجديد نظم التيار القومي المتطرف داخل إسرائيل صفوفه السياسية ، و اقترب بقوة من الحركات الدينية المتشددة ، مما عبر عنه (يهوشفاط هركابي) بقوله : " إن اليهودية التقليدية في السنوات التالية لحرب ١٩٦٧ ، أخذت تغير موقفها من داخل إسرائيل فبدلا من الاكتفاء بالتبعية ، أخذت تطالب بدور قيادي و تصر على أن تتبع السياسات الداخلية و الخارجية من التشريعات الدينية . و من ثم أصبحت القومية اليهودية المناضلة عاملا مهما للوصول إلى الهدف النهائي لليهودية ، و هو الخلاص ، و أصبحت العلاقة بين الدين و السياسة أكثر تألقا فالدين لخدمة السياسة القومية و السياسة لتنفيذ الوصايا الدينية ." [٢]

من هنا تم التعامل مع " الضفة الغربية المحتلة بوصفها جزءا من إسرائيل التوراتية الموعودة ، و قد أدى ذلك إلى ظهور صحوة قومية قامت بممارست ضغوطا على الحكومة الإسرائيلية في ذلك الوقت ، لكي تضم فورا تلك المناطق إلى حدود إسرائيل الجغرافية و لا تتنازل و لو حتى عن شبر واحد منها . " [٣]

و أما بعد حرب ١٩٧٣ و سقوط أسطورة جيش إسرائيل ، الذي لا يقهر فقد ظهر كابوس حاد " راح يخيم بنفسه أو بظلاله على الإسرائيليين . و اتجهت الأنظار صوب حالة التردي العام في المواقف الإسرائيلية و في أثر هذه الحالة على المدى البعيد . و قد عقدت أيام دراسية و ندوات حول ما حدث ، و ازداد طرح سؤال صار تقليديا هو " هل وجودنا معرض للخطر؟ و شاركت الصحافة و وسائل الدعاية عموما في الإجابة على التساؤلات الحائرة ، اشترك فيها أساتذة علم الاجتماع و أساتذة الفكر اليهودي و الفلسفة في الجامعة العبرية و جامعة تل أبيب بشكل خاص ."[٤] كذلك ، فقد ظهر الاتجاه نحو الشك فى قدرة إسرائيل على حماية مواطنيها اليهود و نجاح المشروع الصهيونى ، حيث يقول " جرشوم شوكين " :

" إن كل من يعد قيام دولة إسرائيل ذات القوة المادية الكبيرة دليلا على نجاح المشروع الصهيونى ، فإنما يضلل نفسه . فهدف الحركة الصهيونية أساسا لم يكن يتمثل فى

---

[1] - http://web.macam.ac.iL.

[٢] د / رشاد عبد الله الشامى : إشكالية الهوية فى إسرائيل ، مرجع سابق ، صـ ٢٢٧ .

[3] - http://web.macam.ac.iL.

[٤] إبراهيم عبد الكريم : الاستشراق وأبحاث الصراع لدى إسرائيل ، الطبعة الأولى ١٩٩٣ ، دار الجليل للنشر والدراسات و الأبحاث الفلسطينية ، عمان ، صـ ٣٠٧ .

إقامة دولة يهودية تتحدث العبرية و تتبنى لنفسها جيشا قويا ، بل كان هدفها الأساسى هو حل ضائقة اليهود في أماكن انتشارهم . "[1]

و يرى " عوز" أن الوجود اليهودي في إسرائيل معرض للخطر ، طالما تتعامل الدولة مع رعاياها من خلال تقسيمهم إلى يهود و أغيار و لا تتعامل معهم بوصفهم مواطنين إسرائيليين . فالتيار الديني المتنامي داخل إسرائيل ، ينظر إلى المسألة بوصفها مسألة دينية ، مسألة مقدسات يهودية و وعد بالظفر و الخلاص من خلال القضاء على الأغيار فالأمر كله صراع ديني بين اليهود و غيرهم و هذا الصراع تضرب جذوره في أعماق التاريخ ، لذا فإن إسرائيل ، إذا أصبحت دولة اليهود دون غيرهم ، و إذا استبدلت الهوية الدينية اليهودية بهويتها الوطنية الإسرائيلية مستخدمة في هذا مواطنيها اليهود بوصفهم أدوات عصرية لتحقيق هدف ديني قديم ، فإنها ، بذلك ، تعرض وجودها للخطر من خلال عملية الإخلاء ، التي ستقوم بها طبقة عريضة من الإسرائيليين ، بحثا عن وطن آمن وطن حقيقي ، تلك الطبقة التي لا ترتبط بإسرائيل ، من خلال الدين فقط ، بل ترتبط بإسرائيل بوصفها وطنا متكاملا و ليس مزارا دينيا يكفيها منه الحج فقط .

" فالرابطة الحقيقية مع إسرائيل ليست رابطة صهيونية ، بل هي رابطة تقوم على الاستمتاع فقط ، إنها رابطة وطنية عادية مثل الرابطة التي تربط الفرنسي بفرنسا . "[2] و تتفق وجهة نظر " عاموس عوز " فى هذه المسألة مع وجهة نظر المفكر الإسرائيلى " يديديا سيجل " إذ يقول :

" إن إسرائيليتى تحلم بمحو التشريع الدينى ، و بإلغاء جميع المؤسسات الدينية في الدولة ، و تحلم بادىء ذى بدء بتصفية الحدة التى وضعتها الأحزاب الدينية . إننى إسرائيلى ، و أحدد الهوية الإسرائيلية كموقف متحفظ من العناية الإلهية . إن إيمانى يكتفى بالمحافظة على المشاعر . فأنا لست كافرا بالرب و قدرته ، و لكننى أفضل ألا أنتظر بركاته الوفيرة لتترنح فوق رأسى . إن إسرائيليتى تحلم بدولة محدودة ، يكون نطاقها في اعتمادها – بقدر الإمكان – على عالم به مواطنون ورعون ، يتعاملون مع مفارقات معتقداتهم من خلال حريتهم و حرية الآخرين ."[3]

فمادام اليهود يرون فى أنفسهم شعب الله المختار ، و ماداموا يذهبون إلى أن الشعب اختار إلهه ، و أن الإله اختار شعبه ، و ليس لغير شعبه أن يعبده أو يتخذ منه إلها ، و ليس لهذا الإله أن يخص ، بجوار شعبه المختار ، شعبا آخرا بمحبته أو اختياره فسيظل الآخرون أغيارا لا يرتقون إلى رتبة اليهود ، و لن يحدث أبدا الامتزاج و الاختلاط ، لأن إسرائيل تبرز هويتها الدينية فى مواجهتهم ، تلك الهوية التى ترفض الاعتراف بندية الآخرين و بذلك يقوم الطرف المضطهد بمحاولات انتحارية يائسة للتعبير عن سخطه و رفضه لهذا المبدأ الإسرائيلى ، و من ناحية أخرى يزداد تمسك الطرف المضطهد بالتعالى و النقاء و التميز ، و يصنع منهم أسلحة تعينه على مزيد من الاضطهاد و القسوة . و نتيجة لذلك ، تصبح الأرض ، التي تدور عليها هذه الصراعات أبعد ما تكون عن الوطن بالنسبة للطرفين كليهما .

فلا فائدة من سعي إسرائيل لاحتلال مناطق أخرى و فرض سيطرتها على المزيد من الأراضي . " فالأرض ليست هوية ، إنما قاعدة يبنى عليها الانسان حياته و دلالاتها .

---

[1] د / محمد محمود أبو غدير : إسرائيل بعد خمسين عاما ، اليوتوبيا الصهيونية بين الحلم والواقع ، مجلة إبداع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، العدد السادس ، ١٩٩٨ ، صـ ٧٢ .

[2] بوعز عفرون : مرجع سابق ، صـ٤٧٩ .

[3] د / رشاد عبد الله الشامى ، إشكالية الهوية فى إسرائيل ، مرجع سابق ، صـ ١٤٦ .

إن الهوية الإسرائيلية تبدأ ، عندما يكون الإنسان سيد نفسه و ذا سيادة و لديه الثقة في قدرته على حماية حياته . و يسأل : ماذا يوجه حياتى بصفتى أحمل اسم إسرائيل ؟ ما الدافع وراء سلوكى ؟ و ماذا يوجه علاقاتي مع أبناء عائلتي و جاري و مواطنى دولتي ، يهودا و غير يهود ؟ من أنا بالنسبة لنفسي ؟ من أنا بالنسبة لغيري ؟ و ما الإصلاح الذي سأجلبه لعالمى ؟ "[1] و هي كلها أسئلة لا إجابة لها لدى يوناثان أو غيره . فنقرأ :

" و באחת השבתות , כשעמוס אחיו הצעיר של יונתן בא לחופשה קצרה מן הצבה , אמר לו יונתן כך :

למה לך לדבר כל – כך הרבה על השנה הבאה . אתה בכלל לא יכול לדעת עכשיו איפה תהיה בשנה הבאה . ו גם אני לא . "[2]

" في أحد أيام السبت ، حين عاد عاموس الأخو الأصغر ليوناثان من الجيش في إجازة قصيرة ، قال له يوناثان ما يلي :

مالك تكثر في الحديث إلى هذه الدرجة عن السنة القادمة ، إنك لن تستطيع عامة أن تعرف الآن أين ستصبح في السنة القادمة . و لا أنا أيضا . "

فهو مستعبد ، فاقد السيادة ، غير واثق في قدرته على حماية حياته ، فمن الطبعى ألا يستطيع أخوه عاموس المجند في الجيش الإسرائيلى ، أن يعلم أين سيكون موقعه السنة القادمة ، لأن هذا أمر مرتبط بقيادات الجيش و تحركاته ، و لكن الأمر غير العادي ، ألا يدرك يوناثان – و هو مواطن مدني غير مجند - مكانه في هذا الوطن ، و نلاحظ من قوله " و لا أنا أيضا " بنوع من المماثلة ، فحياة أخيه في الجيش و ما يصاحبها من معرفة محدودة عن الغد و عن الأوامر الواجب اتباعها و التحركات التي عليه القيام بها تشبه حياته في إسرائيل تلك الحياة ، التي يجهل كنهها . لذا فهو لا يفكر في الغد ، لأنه لا يعلم أي مكان سيكون له غدا ؟

و نقرأ فى موضع آخر :

" و בינתים הביאה רימונה את תיק הרקמה שלה וישבה קרוב אל הרדיו , התיק על ברכיה , בלי לפתוח אותו אסופה ושותקת , אסופה ומרוכזת בקשב שליו ועמוק , כאילו מרחוק משמיעים לה מה יהיה מחר ו מה יהיה בימים הבאים , וכאילו השמועה הזאת אין בה לא צער ולא שמחה ולא הפתעה . "

" و أثناء ذلك جلبت ريمونا حقيبتها التي داخلها أدوات التطريز ، و جلست على مقربة من المذياع ، واضعة الحقيبة على ركبتيها ، دون أن تفتحها . كانت متقوقعة على نفسها و صامتة ، متقوقعة و مركزة بإصغاء هادئ و عميق ، كأنما يسمعونها عن بعد ما سيحدث غدا و ما سيحدث في الأيام القادمة ، و كأن هذا الخبر لا يحمل حزنا و لا سعادة و لا مفاجأة . "

فهي تتحرك في آلية تامة ، كأنها في حياتها داخل وطنها تؤدي تلك المهمة المقدسة ، أما بالنسبة لها ، فهي غير مستمتعة بهذا الوطن ، فحالها داخل إسرائيل التي من المفترض أن

[1] אלוף הראבן : ישראל לקראת המאה ה-21 שם " עמ' 217- 218 .
[2] מנוחה נכונה , שם " עמ' 12 .

تمثل لها الوطن الذي يحقق لها الإشباع " متقوقعة " حيث تكرر هذا الوصف لها و هو يوحى بالضيق و الاختناق ، أيضا فهى فاقدة السيطرة على حياتها و تعجز عجزا تاما عن التحكم فى مجرياتها ، فهم " يسمعونها " من خلال الخطب اليومية ، ما يتوجب عليها عمله و ما يحظر عليها القيام به ، و كأنها إنسان آلي يتم تغذيته ببرنامج معين ليؤديه خلال فترة معينة ، لذلك فهي تتلقي هذا البرنامج و هي " مركزة بإصغاء هادىء و عميق " ، و نتيجة لذلك فإن هذه الأوامر جميعها ، لا تثير فيها أية مشاعر لأنها صارت معدومة المشاعر ، إنها مهيأة فقط لاتباع الأوامر ، لكي يتم ضمان استمرار بقاء هذا الوطن ، أما هي ، فليس لديها أمور نابعة من نفسها و تريد تحقيقها داخل وطنها محققة بذلك هويتها الوطنية .

و كأن لسان حال عوز يقول ، إذا كانت الأرض تلزمنا لتحقيق هويتنا الوطنية عليها ، و لا نكون عبيدا لدى الشعوب الأخرى ، فإن تعلم العيش بوصفنا مواطنين إسرائيليين مصلحين ، هو ما يلزمنا أكثر ، و ماذا جنت إسرائيل من الاعتداء على الأراضي الفلسطينية ، غير الموت و الخراب الذي تسببت فيه للطرفين على السواء و فى النهاية لم تحصل على شيء . فنقرأ :

" על הכול יורד ו יורד עכשיו הגשם השחור הזה ואיך כשהיתי קטן הלכתי פעם לבדי לשיח־דהר לחפש את מטמון מטבעות - הזהב שאמרו כי נשאר קבור מתחת לרצפת בית השיח׳ ואני התחלתי לעקור את המרצפות הירוקות המצוירות ולחפור מתחתן עוד ו עוד לחפש את המדרגות הסודיות שיורדות אל עומק המחבוא חפרתי ו רעדתי מפחד בגלל הינשוף ו עטלפים בגלל רוחות המתים ... רוחות - רפאים תועות שם בלילה ואורבות לחנוק מאחור באצבעות שלדים ... ו עוד מתחת להם שוב אבק שחור ואני לא ויתרתי אלא המשכתי לחפור הלאה עד שירד הערב בבת - אחת ועוף רע צעק עלי בקול זועות ואני זרקתי הכול וברחתי משם ו מה הבאתי אתי משיח׳ - דאהר כלום לא מצאתי שם מלבד התכווצות חזקה בחזה ו הפחד האיום והצער הזה המכרסם המפציר בך בזה הרגע לקום וללכת לחפש איזה סימן חיים אחורי השממה . "[1]

" و الآن يهطل هذا المطر الداكن اللون على كل شيء بلا توقف ، و كيف حين كنت بعد صغيرا ذهبت ذات مرة وحدى لـ " الشيخ دهر " ، لأبحث عن كنز مطمور من المجوهرات الذهبية ، الذى قالوا عنه إنه بقي مدفونا أسفل أرضية بيت هذا الشيخ ، و بدأت في اقتلاع الأرضية الخضراء المزخرفة و الحفر تحتها أعمق فأعمق ، للبحث عن الدرج السري المؤدي إلى عمق المخبأ ، حفرت و ارتعدت من الخوف من جراء البوم و الخفافيش و من جراء أرواح الموتى ... أرواح أشباح تائهة هناك في الليل ، و متربصة لتخنق من الخلف بأصابع هياكل عظمية .... و مرة أخرى أيضا ، كان تحتهم غبار أسود لم أتراجع ، بل واصلت الحفر أعمق ، حتى حل المساء و معه صراخ طائر شؤم بصوت مخيف ، فرميت كل شيء و فررت من هناك ... و ماذا جلبت معي من الشيخ دهر . لم أجد شيئا هناك ، سوى تجعد شديد في الجبهة و الخوف المهدد و هذا الحزن ، الذي ينغص عيشك و يتوسل إليك في تلك اللحظة أن تقوم و تمضي لتبحث عن أي ملمح للحياة وراء الخراب . "

[1] מנוחה נכונה שם " עמ׳ 30 .

و الواقع أن اليهود سافروا من البلاد التي كانوا يعيشون فيها إلى إسرائيل ، بعد أن دعتهم الصهيونية و وعدتهم بالجائزة الذهبية ، و هي الوطن الآمن ، و لكن حين هاجر هؤلاء اليهود إلى إسرائيل وجد الكثير منهم أن عليهم الاجتهاد لصنع هذا الوطن الوليد ، فبدأوا في إعداد هذا الوطن ، من خلال هدم البيوت و الاستيلاء على الأراضي . و نستطيع تبين ذلك من الشاهد السابق ، حيث نلاحظ أن هناك العديد من الكلمات و الجمل التي تدل على الحفر و الجدية و التصميم على استكماله . و من ذلك : " اقتلاع الأرضية " و " " للحفر ... أعمق فأعمق " و " إلى عمق" و " و لم أتراجع ، بل واصلت الحفر أعمق " و هذا بالفعل ما قامت به إسرائيل ، حين دمرت مئات البيوت و محت من الوجود عشرات القرى الفلسطينية ، هذا بالإضافة إلى طرد الفلسطينيين الموجودين على هذه الأرض ، غير أن المستوطنين اليهود قد تعرضوا ، خلال عمليات الهدم و الطرد هذه ، للعديد من العمليات الفدائية الفلسطينية ، التي أسفرت عن مقتل الكثير من اليهود و كأن لعنات الهدم و الطرد و الاستيلاء قد حلت باليهود أيضا . و في النهاية ، ماذا جنت إسرائيل ؟ إنها لم تجن شيئا سوى الخوف و الحزن و مرارة الحياة ، فالمواطن الإسرائيلي يعيش في خوف على مدار الأربع وعشرين ساعة و يعيش في حزن طوال حياته على من فقده من أقاربه أو أصدقائه في هذه العملية أو تلك ، و بطبيعة الحال فالفلسطيني مصيبته أعنف ، بعد أن فقد أرضه و أهله ، أما الوطن نفسه فصار خرابا ، لا يصلح لأن يعيش فيه الإسرائيلي و لا غيره ، لذا و تحت وطأة هذه الضغوط ليس أمام الإسرائيلي خيار سوى أن يهجر هذا الخراب و يبحث عن الراحة الحقيقية في مكان آخر " رميت كل شيء و فررت من هناك " و " أن تقوم و تمضى لتبحث عن أي ملمح للحياة وراء الخراب " ، فلا يمكن لإسرائيل و الحال فيها هكذا أن تصبح وطنا تتحقق فيه الهوية الوطنية لأفراده .

و هناك ملاحظة جديرة بالذكر ، هي أن يوناثان بعدما غادر إسرائيل و ابتعد عنها طوال عامين كاملين نراه يعود إليها مرة أخرى . و بعيدا عن ملابسات موقف العودة ، حيث يعيش يوناثان مع زوجته الحامل من عشيقها عزريا في جو من الكآبة و الخذلان ، ذلك الجو الخانق الذي يلف الكيبوتس ، فإن ما يشغل العقل حقا هي مسألة رجوعه نفسها . فكيف لرجل لا يجد في وطنه أي ملمح من ملامح الوطن الطبيعي أن يعود له ؟ و كيف له - بعد أن أظهر عدم احتماله للحياة داخل هذا الوطن – أن يرتد على عقبيه ؟

يعتقد الباحث أن مسألة الرجوع هذه تشير إلى عدم تمكن يوناثان الشاب الإسرائيلي من التكيف مع غيره من البشر بعد أن أصابه ما أصابه خلال وجوده في إسرائيل ، لقد فشل هذا الشاب في البدء في حياة جديدة خارج القفص الإسرائيلي و لما تبين له فشله عاد مضطرا إلى هذا القفص ، رغم أن هذا لا يُشعره بالراحة النفسية و لا يحقق له الرضا الكافي ، فهو في حالة ارتباك لا يجد راحته في وطنه و لا يجدها خارج وطنه . تلك هي إشكاليته ، فهو لا يستطيع أن يكون مواطنا إسرائيليا داخل وطنه إسرائيل و كذلك لا يمكنه أن يقيم صلات أخرى داخل مكان جديد كي يبدأ فيه الحياة التي كان يصبو إليها .

ب - اليهود الشرقيون (السفاراد) :

" منذ نشأة إسرائيل و هي تتسم بعدد من الخصائص النوعية عكست طبيعتها و دورها التاريخي في المنطقة ، فلكونها دولة استعمارية استيطانية ، كانت هناك أولويات للاعتبارات السياسية ، فسيطرت الدولة على موارد المجتمع و احتكرت سلطة توزيعها و استخدامها . و قد انعكس ذلك بطبيعة الحال على الهيكل الإنتاجي ، الذي اتسم بدرجات عالية من الاحتكارية و المركزية ، بيد أن ذلك لم يكن الملمح الوحيد لخصوصية

نشأة إسرائيل فمنذ البدء حفل النظام الاجتماعي بالعديد من التباينات فيما يتعلق بمعدلات الأجور و مستويات المعيشة و قد نجمت هذه التباينات عن السياسات الحكومية ، التي كرست نمطا مفارقا من التميز المؤسس على قاعدة الانتماء الإثني (أشكيناز / سفارديم) و القومي / الدين (إسرائيليون / عرب) و من ثم الطبقي ."[1]

فالتمييز الطبقي موجود ، منذ قيام إسرائيل سواء بين اليهود و اليهود أم بين اليهود و العرب فهو أمر أصيل و ليس بطارئ على إسرائيل . و قد تم استقبال اليهود الشرقيين بعد هجرتهم أو تهجيرهم إلى إسرائيل برشهم بالمبيدات الحشرية و نقلهم بشاحنات المواشي ، كما سكنوا في " المعبراه " ، و هي أحياء للإيواء المؤقت من الخيام و الصفيح . و قد قضى بعضهم في تلك الأحياء سنوات كثيرة وسط الأوحال و البرك . و كانت اضطرابات وادى الصليب في حيفا في صيف ١٩٥٩ ، التي قام بها اليهود الشرقيون و أخمدت بالقوة المسلحة نتيجة طبيعية للخلل الاجتماعي و الاضطهاد اللذين طالا اليهود الشرقيين منذ تأسيس الدولة .

و الحقيقة هي " أن كثيرا من أبناء الطوائف الشرقية ، الجيل الثاني و الثالث للهجرة ، يحملون في قلوبهم مشاعر الإهانة اللاذعة إزاء سلوك مسئولى الاستيعاب فى تلك الأيام ، حيث رشوا المهاجرين بمادة (دى . دى . تى) و ألقوهم كالقاذورات من شاحنات النقل إلى قلب الصحراء ، و حشروهم فى " المعبروت " بعيدا عن قلب المدينة ، كما تعاملوا مع موروثاتهم باحتقار ، و فرقوا أسرهم ، و جعلوهم يفهمون أنهم مواطنين من الدرجة الثانية . "[2] و الواقع أن أغلب المهاجرين من السفارديم سافروا إلى إسرائيل ، دون قادتهم و من جهة أخرى فقد " فضل عباقرتهم و صفوة أهليهم و رجال المال و الحرف ، لاسيما من يهود المغرب الهجرة إلى الغرب بدلا من إسرائيل و بوسعك أن تعثر في باريس و مونتريال على لافتات لأطباء و محامين و مصرفيين تحمل أسماء تقليدية يهودية مغربية ، أما في إسرائيل و بعد سنين طويلة على اكتمال الهجرة الأولى لليهود المغاربة إليها ، فقلما ظهر اسم منهم في الأدلة الطبية أو مكاتب المحاماة أو بين رجال الأعمال . "[3]

هذا و قد قامت إسرائيل ، بتجريد اليهود الشرقيين ، المهاجرين إليها من ميراثهم الروحي و من أملاكهم " إذ استبدلت لهم ملابسهم التقليدية بملابس خاكية اللون كئيبة الحال و التي كانت جد شعبية آنذاك و خدمت بصفتها زيا وطنيا غير رسمي و اكتشف العديد من المهاجرين عند وصولهم أن كنائزهم من الكتب القديمة النادرة و المجوهرات قد فقدت بعد أن وجدت هذه الأشياء سبيلها بطريق أو بآخر إلى حوانيت المواد التذكارية أو رفوف جامعيها و حين يصعب على مسئولي شؤون الهجرة تلفظ اسم ما نادوا عليه باسم أسهل ."[4] والواقع أنه منذ إنشاء إسرائيل و " شئونها تحت سيطرة اليهود ذوي الأصل الأوربي ، أصحاب الشخصية الجماعية ، كذلك فإن الدساتير المميزة ، التي صدرت في إسرائيل أوربية في مصدرها و وظيفتها و إسرائيل نفسها دولة أوربية في مقاصدها و أهدافها ، و قد زرعت في تربة شرق البحر الأبيض المتوسط . و كان مثل هذا الطابع الإسرائيلي ذي الميول الأوربية حتميا لا مفر منه . "[5]

---

[1] د / عماد جاد ، مرجع سابق ، صـ ١٦٩ – ١٧٠ .

[2] יוסף לפיד : כור ההיתוך . הצלחה או כישלון ، הספרייה הוירטואלית של מטח . مقال علي الموقع الالكتروني : \\ :http lib.cet.ac.il\item=2273.18-12-2008 .

[3] يوسي ميلمان : مرجع سابق ، صـ١٢٥ .

[4] المرج السابق نفسه ، صـ ١٢٧ .

[5] مايكل رايس : مرجع سابق ، صـ ٢٢٩ .

من هنا " فلم يعتقد أي يهودي أشكينازي ، هاجر إلى إسرائيل أنه بذلك قد تحول من يهودي شتاتى قديم ، إلى يهودي إسرائيلي جديد ، كذلك فلم ير هذا اليهودي الأشكينازي أن عليه أن يغير أساسه الثقافى الغربى ، فهو لم يدع إلى التنازل لا عن (موتسارت) و لا (بيتهوفن) ، لا عن (تولستوى) و لا (دوستويفسكى) ، لا عن (رمبرانت) و لا عن (مايكل أنجلو). إنه يستطيع أن يقيم كل قيم ثقافته الغربية و ليست اليهودية". [1]

و قد " ظهرت سريعا التناقضات القومية بين السفارديم ، و الأشكيناز ، و تجلت في المناحي الدينية و الثقافية و العرقية ، نتيجة للاختلافات الجوهرية ما بين النموذج الغربي ، الذي استنسخه بناة الدولة – و هم في الغالب من المهاجرين الأوربيين - و نمط الحياة الذي تتبعه الطوائف الشرقية التصاقا بالقيم الأرثوذكسية العتيقة . "[2] فإسرائيل دولة الأشكيناز ، لا دولة اليهود جميعهم و اليهود الشرقيون ما هم إلا جسم غريب داخل هذا البنيان الأشكينازي ، لذا فقد " شعرت الطوائف الشرقية – خاصة مهاجري المغرب – أن حزب العمل يضع فى مواجهتهم طلبا مضاعفا : ليس فقط إزالة النزعة الشتاتية و التحول إلى يهود جدد ، بل أيضا استبدال ثقافة أخرى بالثقافة الشرقية "[3] .

هذا و قد " صرح بنحاس سافير – و كان من قبل وزيرا للمالية في إسرائيل – لصحيفة (لوموند) في ٩ مارس ١٩٦٦ قائلا : إننا معشر الأشكيناز نعد النموذج الممثل لإسرائيل ، إسرائيل نفسها تنتمي إلى أوربا ثقافيا و سياسيا و اقتصاديا ، على الرغم من وجودها في الشرق الأوسط : و يعكس هذا القول الحنين للجلوس جنبا إلى جنب مع السادة القدامى ، كذلك استخدام الأشكينازعلاقة الاستبعاد و القبول لإخضاع " المزراحيم " ، و في الوقت نفسه توحيد اليهود عبر ما يسمى بوتقة الصهر ، التي يبدو أنها أخفقت بعد خمسين عاما في إنتاج شعب " موحد " محكوم بمحاولة دائمة لقطع المسافة بين طوائفه . "[4]

فإسرائيل بوصفها مجتمعا قائما على المهاجرين كانت ، منذ البداية ، بمثابة مجتمع تتعدد فيه الأصول العرقية و الطائفية " و بشكل أولي يمكن تقسيم مواطني إسرائيل إلى جماعتين قوميتين ، أغلبية يهودية و أقليه عربية فلسطينية . و تحت هذا التصنيف العام تنقسم كل جماعة قومية إلى جماعات إثنية فرعية ، حيث ينقسم اليهود لجماعات عديدة طبقا لبلدان المهجر (الدياسبورا) و إن كانوا يعودون للانتظام مجددا تحت التصنيفات الثلاثة الرئيسية أشكيناز ، سفارديم ، صابرا ." [5]

و يمكن أن نتبين مدى المعاناة ، التي يعانيها اليهود الشرقيون في إسرائيل ، حيث تم إجبارهم على الانسلاخ عن ماضيهم و تراثهم العربي ، الذين كونوه عبر العصور ، حين كانوا يعيشون في مختلف البلدان العربية ، " فلا تاريخ لليهودي الشرقي قبل القدوم ، و لكى يندمج ، عليه أن ينسى ماضيه ، فذاكرته تبدأ فقط من لحظة قدومه إلى (أرض الميعاد) ، و هنا تتدخل أيديولوجيا التغييب ، المسلحة بسلطة الدولة الأشكينازية ، حيث أن تغييب صورة هذا الشرقي شرط لتقديم صورة ناصعة لإسرائيل . لكن مأزق هذه العلاقة يتحدد بالذات في أن الاندماج مرفوض أصلا من قبل الأشكينازي ، و بما أن ماضيه غير معترف به ، بل

---

[1] א . ב . יהושע : סליחה , אלפיים . כתב עת רב־תחומי לעיון , הגות ו ספרות , הוצאת ספרים עם עובד בע״מ ,תל אביב ,נדפס בתשנ״ח בדפוס הוברמן תל אביב , 1998 .קובץ 16 עמ׳ 183 .

[2] د / السيد ولد أباه و الأستاذ منير شفيق : مرجع سابق ، صـ ٥٤ ، ٥٥ .

3 א . ב . יהושע : סליחה , שם ״ עמ׳ 183 .

[4] أحمد مصطفى جابر : مرجع سابق ، صـ ١٥ .

[5] د / عماد جاد : مرجع سابق ، صـ ١٧٤ .

تم شطبه فهو مجبر على أن يكتفي بالعيش في الحاضر فقط ، هذا الحاضر الذي ليس له فيه مكان محدد و واضح ، إذ إنه واقع غائم غير مفهوم بالنسبة إلى من يعيش على الحافة . "[1]

و جدير بالذكر أن " المعادلة الإثنية الإسرائيلية قد مرت بعدد من المراحل اتسمت أولاها – والتي استمرت منذ نشأة الدولة ١٩٤٨ و حتى أوائل الستينيات - بغلبة العنصر الأشكينازى ، حيث بلغت النسبة بينهم و بين السفارديم (١. ٥٢ % - ٩ . ٤٧ %) ، أما الثانية فقد استمرت من أوائل السبعينيات و حتى منتصف الثمانينيات ، و قد شهدت هذه المرحلة انقلاب المعادلة الطائفية ، حيث تقلصت نسبة اليهود الغربيين لصالح اليهود الشرقيين ، فأصبحت النسبة بين الطرفين (٢ . ٤٤ %) مقابل (٤. ٤٧ %) و ذلك عام ١٩٧٢ . و قد انعكس ذلك بشكل إيجابي – و لو نسبيا – على الأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية لليهود الشرقيين ، إلا أن هذه الوضعية قد تعرضت بدورها لمراجعة جذرية من أواخر الثمانينيات و حتى الآن ، حيث شهدت هذه الفترة موجات هائلة من الهجرات ، شكل يهود الجمهوريات السوفيتية ، السابقة الشطر الأعظم منها . الأمر الذي أثر بشكل عضوي على تركيبة المجتمع الإسرائيلي ، فعليا على المستوى العرقي ، و ضمنيا على المستوى الطبقي ."[2]

و رغم التغيير ، الذي طرأ على الخريطة العرقية للمجتمع الإسرائيلي ، يمكننا القول : إن اليهود الشرقيين يمثلون ، و لاشك ، طبقة عريضة داخل هذا المجتمع وهذه الطبقة تعاني ، حتى الآن ، من هضم الحقوق داخل إسرائيل . إسرائيل التي هاجروا إليها مضطرين ، كما اتضح في الفصل الأول ، سواء بدعاوي الصهيونية أنهم يعانون من الاضطهاد داخل البلدان العربية ، أم وعودها لهم بحياة أفضل داخل الوطن الجديد ، أم بسبب الظروف الاقتصادية السيئة التي عصفت بالدول التي كانوا يعيشون بين ظهرانيها ، ففقد تعددت مظاهر اضطهاد اليهود الشرقيين في إسرائيل ، و من ذلك أن السفارديم يشغلون الوظائف المتدنية أو الأعمال الحرفية اليدوية وبذلك فدخلهم قليل ، كذلك ضعف تمثيلهم السياسي ، رغم أعدادهم الكبيرة داخل إسرائيل حيث " تبنى حزب العمال منذ أوائل الخمسينيات ، حين هاجر السفارديم أول مرة إلى إسرائيل قادمين من اليمن و العراق و المغرب ، اليهود الأشكيناز و هذا ما تسبب في الدفع باليهود الشرقيين إلى النزول إلى مرتبة المواطنيين من الدرجة الثانية و أزيح بهم إلى أدنى درجة من التمثيل السياسي و التجاري و العسكري ."[3]

من هنا ، فلا عجب و حال اليهود الشرقيين في إسرائيل كذلك ، أن تزيد روح الثورة و الرفض تجاه حكومتهم ، فبعد تعرض السفارديم إلى التحامل و العنصرية و بعد أن علموا أن الأشكيناز في إسرائيل ، هم أصحاب الدار الحقيقيين الذين يشكلون طبقة السادة ، أما هم فمجرد الطبقة العاملة ، أدركوا ، حينئذ ، أنهم يشكلون ، فقط العنصر البشري ، الذي يعد الضمانة لاستمرارية وجود إسرائيل ، بصفتها وطنا يهوديا ، فأعدادهم الضخمة ، هي سبب قبول هجرتهم إلى إسرائيل، بل و تشجيع السادة الأشكيناز لها و ذلك ، فقط ، ليدرجوا في قوائم السكان اليهود فتظل إسرائيل يهودية و يظل العرب فيها مجرد أقلية عربية تعيش وسط أغلبية يهودية . و من ناحية أخرى فإسرائيل ، في ظل الإدارة الأشكينازية ، تحقق نفعا من الوجود الشرقي بداخلها ، حيث تجند الدولة أفرادا من اليهود الشرقيين ، ليقوموا بأعمال التجسس لحسابها على العرب و ذلك لقربهم منهم في اللغة و الثقافة ، مما يسهل مهمة الجاسوس . أما إذا ما كشف أمر هذا الجاسوس فتستطيع إسرائل ، بسهولة ، أن تنكره و لا تعمل على إعادته و ذلك فقط لأنه سفاردي ، حيث يؤكد عالم الاجتماع الإسرائيلي " يهود شنهاف " في كتابه " اليهود

[1] أحمد مصطفى جابر : مرجع سابق ، صـ ١٦ – ١٧ .
[2] د / عماد جاد : مرجع سابق ، صـ ١٧٥ .
[3] يوسى ميلمان : مرجع سابق ، صـ ١٢٤ .

العرب – قومية ، دين ، إثنية " الصادر عن دار" عم عوفيد " ، تل أبيب ٢٠٠٣ ، هذه الحقيقة و يدلل عليها بـ " فضيحة الجاسوس الإسرائيلي (إيلي كوهين) ، الذى عرف بـ (كمال أمين ثابت) و أعدمته سوريا شنقا في إحدى ساحات دمشق ، و يسأل لماذا لم يخطر على بال الدولة ، التي أرسلته للتجسس أن تخرج للدفاع عنه و تعمل على إطلاق سراحه ؟ ، لماذا (إيلي كوهين) بالذات ؟ و يضيف أن أحدا لم يهتم بحقيقة أن تجنيد (إيلي كوهين) للموساد يعد لكونه شرقيا . " [١] فاليهود الشرقيون في إسرائيل يستخدمون بوصفهم كبش فداء لغيرهم ، أما معاملتهم بوصفهم مواطنيين يهود في دولة اليهود فهذا أمر غير وارد ، و إن أصابهم بعض التحسن في الأحوال الآن ، إلا أنهم بعيدون كل البعد عن معاملة الدولة لليهود الأشكيناز ، الذين يعدون مؤسسى الدولة و الذين بدورهم لا يكفون عن احتقار اليهود الشرقيين ، لا لشئ سوى لكونهم شرقيين ، أيضا فهم يبسطون سيطرتهم على كافة مناحي الدولة ، متجاهلين بذلك وجود اليهود الشرقيين لأن هؤلاء اليهود ، من وجهة نظرهم ، لايمكنهم أن يشكلوا أحد الأسس ، التي يمكن أن تقوم عليها الدولة. وعن ذلك يقول "أ.ب. يهوشواع :

" ألم يكن واضحا للكل أن أساس الثقافة المنتجة فى إسرائيل يجب أن يكون أساسا غربيا . ليس ، فقط ، بسبب أن الثقافة الغربية عدت من وجهة نظرهم أغنى و أقوى و أكثر تعقيدا و تطورا من الثقافة الشرقية و ليس ، فقط ، بسبب أن الثقافة الغربية كانت أساسا قويا لمواجهة الحضارة التكنولوجية ، بل ، أيضا ، بسبب أن غالبية اليهود ، بالتأكيد قبل أحداث النازى و بعدها ، انتموا إلى هذه الثقافة . "[٢]

و قد " اكتشف هؤلاء الشرقيون مثلما اكتشف العرب – رغم ما يشاع عن الديمقراطية في إسرائيل – أنها لم تطبق تماما على اليهود ، الذين من أصل شرقي ، مثلما حدث مع السكان العرب الأصليين عندما منعت عنهم الحقوق المدنية . و لم يكن اشمئزاز اليهود الغربيين من الشرقيين ظاهرة جديدة ، ذلك أنه حتى على أيام العثمانيين ، كان اليهود الأوربيون ، الذين يعيشون في أراضي الإمبراطورية يطاليون بفصل الأحياء ، التي يعيشون فيها و طعامهم وعباداتهم عن أشقائهم اليهود الشرقيين ."[٣] و الواقع أن مسألة فصل الأشكيناز عن السفارديم ممتدة في إسرائيل حتى اليوم ، ففي مقال نشر يوم الأحد الموافق ٦ / ٦ / ٢٠١٠ في جريدة " يديعوت أحرونوت " الإسرائيلية تحت عنوان " إسرائيل ٢٠١٠ أشكيناز و سفارديم ، كل على حدة " نقرأ : " مرت سنوات عديدة و نحن نتابع التفرقة بين التلميذات ذوات الأصل الأشكينازي و نظرائهن من ذوات الأصل السفاردي في مدرسة بيت يعقوب ، و حاليا بعد أن قضت المحكمة بأنه يجب أن تتعلم التلميذات من أصل أشكينازي مع غيرهن من الأصل السفاردي ، قام أهالي التلميذات الأشكينازيات - بمنتهى البساطة - بإخراج بناتهم من المدرسة ليكملن تعليمهم في المنازل . " [٤]

فكراهية و احتقار اليهود الشرقيين أمر أصيل و كامن في نفوس اليهود الغربيين ، و يبدو أنه نابع من كراهيتهم و احتقارهم لكل ما هو عربي ، و هم بذلك يعترفون بعروبة هؤلاء اليهود الشرقيين ، من هنا فقد وجد الشرقيون في إسرائيل أنفسهم يتدنون إلى أحط الطبقات و أن قلة قليلة منهم فقط ، استطاعت أن تخرج من تلك الطبقات الحقيرة ، أما سائر اليهود الشرقيين فقد اعتادوا على أسلوب الحياة الصعب و الحقير و المذل داخل إسرائيل .

---

[1] http : \\www.almash-had.org\24-5-2004.

[٢] א . ב . יהושע : סליחה ، שם " עמ'١٨٣ .

[٣] مايكل رايس : مرجع سابق ، صـ ٢٤١ .

[4] - http://reshet.ynet.co.iL.6-6-2010.

و لنقرأ الآن موقفا وقع لـــ " نعيم " أحد أبناء " فؤاد " الثلاثة و" نعيم " ينحدر من أب نصراني و أم يهودية ، فهو يهودي وفقا للشريعة ، و خلفية الموقف تقوم على مساعدة " نعيم " لرجل يهودي مسن و إدخاله إلى ملجأ الطوارئ ، أثناء إحدى الغارات التى تعرضت لها إسرائيل فى حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ . فنقرأ و هو – أي نعيم - يحكي لـ " شولا " صديقة أمه " شوشنا " إذ يقول :

״ בחוץ שם לי את היד שלו על הראש ו לחש ברכה ושאל אותי מה שמי . לו ידעתי למה , אמרתי לו ששמי מחמוד , סתם התחשק לי . היית צריכה לראות איך היד שלו קפצה מעל הראש שלי כאילו הטביל אותה בטעות בסיר - לילה . ... וצרח שאנו ערבים מנוולים , בגללנו באים כל האסונות האלה – אני שואל אותך , זה הוגן ? אפילו אם הוא שונא ערבים – מה אני עשיתי לו ? ״[1]

" في الخارج وضع يده على رأسي و ربت برفق و سألني عن اسمي . لم أعرف لماذا أخبرته أن اسمي محمود ، فقط رغبت في ذلك . كان يجدر بك أن ترى كيف قفزت يده من فوق رأسي ، كأنه كان قد غطسها عن طريق الخطأ في قعادة (قصرية) . ... و صرخ أننا نحن العرب أوغاد ، بسببنا حلت كل تلك المصائب . إنني أسالك ، أهذا معقول ؟ حتى إذا ما كان يكره العرب ، فماذا فعلت له ؟ "

فقد صنع نعيم لهذا الرجل المسن معروفا و الرجل ممتن جدا ، لذا أراد أن يتودد إليه ، فسأله عن اسمه ، فعن للصبي أن يقول له إن اسمه " محمود " ، و هنا حدث تغيير فى رد فعل الرجل من النقيض إلى النقيض ، فبمجرد أن فهم الرجل أن هذا الصبي عربي ، و لمجرد أنه عربي تحول هذا الرجل المسن ، بعد أن انتفضت يده ، إلى مهاجم شرس ، بعد أن كان ممتنا ، ودودا و قام بسبب العرب جميعهم و اتهمهم بأنهم مصدر كل الكوارث ، التي تصاب بها إسرائيل ، ونلاحظ فى قوله " قفزت يده " كيف إنه أسند الفعل " قفز " إلى اليد و ليس إلى الرجل نفسه ، و كأن يده هي وحدة كلية مسئولة عن هذا التصرف ، مما يوحى بأن ما أبداه الرجل من رد فعل عنيف تجاه العرب ، إنما هو رد فعل طبيعى و لا إرادى و يعبر عن كل خلجة من خلجات الرجل ، فهو يكره العرب بالفطرة . و في النهاية يختم الموقف باستفهامين غرضهما التعجب والاستنكار :

الاستفهام الأول : " إننى أسألك أهذا معقول ؟ " الاستفهام الثاني : " ماذا فعلت له ؟ "

هذا و يمكننا أن نستنتج من خلال تحليل الشاهد السابق أمرين :

الأول : كراهيتهم العرب بالغريزة ، كأحد الدلائل المعبرة على كون المرء يهوديا . و هذا أمر مرده إلى الديانة اليهودية و إلى موقفها إزاء الأغيار بصفة عامة و العرب بصفة خاصة و قد امتدت هذه الكراهية العربية من العرب المسلمين و المسيحيين إلى العرب اليهود . فكراهية و احتقار اليهود الشرقيين ما هو إلا امتداد بدايته كراهية الجنس العربي نفسه .

الثاني : وضوح وجهة نظر الكاتب ، التى مفادها أن إسرائيل هي وطن يتسع للجميع لذا فالمعاملة القاسية ، التى يلقاها العرب أمر غير منطقي ، كذلك إذا كان العرب خارج

[1] סמי מיכאל : חסות , הוצאת עם עובד , תל אביב , הדפסה שביעית , 1985 , עמ׳ 284 .

إسرائيل يقاتلون إسرائيل و تقاتلهم ، فما شأن العرب ، الذين يعيشون في إسرائيل و يصنعون الخير فيها ؟ و بذلك يتلخص موقف سامي ميخائيل هنا ، فى كون إسرائيل وطنا لكل من يعيش فيها سواء أكانوا يهودا (أشكيناز أو سفارديم) ، أم عربا ، أم غيرهم ، طالما أرادت هذه القطاعات أن تحصل هي الأخرى على صفة مواطن إسرائيلي . هذا و يمكن تلخيص هجرة اليهود الشرقيين إلى إسرائيل و حالهم فيها من خلال قصة " مردوخ " و هو يهودي ، كان يعيش في العراق و قد حدثت له عدة مواجهات مع السلطات العراقية ، لا لكونه يهوديا ، بل لكونه شيوعيا . فنقرأ :

״ לאחר שבועים אמרו לי שהם מצטערים , החגיגה הסתיימה . עלי לצאת מן הארץ .

״ לאן ؟ ״ שאלתי

״ לישראל , כמובן . ״

״ מה פתאום ؟ ״

... את מבינה ؟ לא שהיה לי משהו על ישראל . אבל בעיני זה היה גירוש , עוד גלות , עוד צו שרירותי שקובע את גורלי . ״[1]

" بعد أسبوعين ، أعربو لي عن أسفهم ، لقد انتهى الحفل . يجب علي النزوح عن البلاد .

سألت : " إلي أين ؟ "

" إلى إسرائيل ، بالطبع . "

" ماذا حدث ؟ "

...

أمدركة أنت ؟ لم يكن لدي ما يسوء عن إسرائيل و لكن كان ذلك ، في نظري ، بمثابة طرد ، شتات آخر ، أمر تعسفى آخر حدد مصيرى . "

فحين اضطر " مردوخ " لترك بغداد ، تساءل إلى أين ؟ و كانت الإجابة تلقائية و مباشرة ، إلى إسرائيل بالطبع ، فليس لديك مكان بصفتك يهوديا فقيرا ، سوى إسرائيل تتقبلك و تكرم وفادتك ، فيسأل مندهشا لماذا ؟ ماذا بدر منى لأعاقب بالطرد ، هكذا كانت الهجرة بالنسبة له طرد و انسلاخ عن ذكرياته و أحبابه و وطنه ، أما إسرائيل ، فلم يكن يحمل لها أية ضغائن و في الوقت نفسه أي تفاؤل و لكن مجمل الأمر أنه رأى في هجرته من وطنه الأول اقتلاعا لجذوره ، هذا الاقتلاع ، الذي سيعيد رسم حياته . و يمكن الوقوف على حجم المصيبة ، التى عانى منها مردوخ إثر خروجه من العراق من خلال وصفه لتلك الهجرة بأنها " طرد" " شتات " " أمر تعسفي " .

[1] سمי מיכאל : שם ״ עמ׳ ١٥٧ .

هـذا و قـد وصـف " سـامي ميخائيـل " الهجـرة مـن وطنـه الأول " العـراق " إلـى وطنـه الـراهن " إسـرائيل " بقولـه : " فـي الهجـرة أنـت تنتحـر بأمـل أن تعـود إلـى الحيـاة ."[1] لذا فهجرته من وطنه الأول كانت بمثابة الانتحار، و كان اتجاهه إلى إسرائيل بوصفها الوطن البديل يقوم على الأمل في البدء بحياة جديدة بعد هذا الانتحار .

و بعد قيام إسرائيل " قامت المنظمات الصهيونية و السلطات الإسرائيلية بالضغط على يهود العراق ، لدفعهم إلى الهجرة إلى إسرائيل سرا و علانية ، ليعيشوا فيها كجزء من عمليات الضغوط ، التي تمارسها على بلاد الشرق الأوسط و قد وجد يهود العراق أنفسهم ، بعد حوادث القتال عام ١٩٤٨ في وضع حرج نسبيا . و ليس من الصعب توضيح الحقائق لمعرفة الدوافع الرئيسة ، التي أدت إلى توتر العلاقات بين العراقيين العرب و مواطنيهم اليهود ، فمن الثابت أنه نتيجة لما أثارته المنظمات الصهيونية في نفوس هؤلاء اليهود من الخوف و الأمل في حياة رغده ، حافلة بفرص السعادة و الثراء في الأرض المحتلة . "[2]

ففي إطار الحملة الصهيونية ، التي رفعت شعار كراهية العرب لليهود و اضطهادهم لهم " تولد الإحساس لدى اليهود الشرقيين بأن خيارهم هو إما الاندماج في المجتمع الإسرائيلي و قبول قيمه كما هي ، بما يقتضيه هذا من تحولات عنيفة في الهوية و الثقافة و تعريف الذات و إما الذبح على يد العرب ، كما دأبت الصهيونية على القول ، لكن هذا لم يؤد إلى قبولهم بشكل كامل لدى الأشكيناز ، فقد نظرت الطوائف الغربية إلى الطوائف الشرقية نظرتها إلى العرب الممثلين المطلقين للشرق ، فالطوائف اليهودية الشرقية بنظر الغربيين هي مماثلة لهؤلاء العرب الشرقيين ."[3]

لقد استقر في نفس اليهودي الشرقي ، خلال هجرته إلى إسرائيل ، أن يندمج فيها ، و لم لا و هي وطن اليهود جميعهم ؟ ! لذلك ، فقد اقتنع أنه ، و لا شك سيجد السلوى في هذا الوطن الجديد . لذا فقد أعد نفسه للاندماج ، أما ما حدث في الواقع و ما لم يرد في حسبانه أنه وجد هذا الوطن رافضا له ، و إن كان قد فتح له أبوابه ، من هنا تم وضع اليهودي الشرقي في مفترق طرق موحش ، فهو لم يعد قادرا على الرجوع أدراجه ، خاصة بعد نفاذ نقوده ، بل و استدانته ، و أيضا بسبب الأجواء السياسية غير المستقرة في ذلك الوقت ، و من ناحية أخرى ، فهو غير مقبول في الوطن الجديد و يعاني من عدم اعتراف الدولة بهويته الوطنية الإسرائيلية و حتى إن اعترفت الدولة بها ، فيكون ذلك من الناحية النظرية فقط ، دون تحقيق ذلك في الواقع العملى .

إذن فإسرائيل أو (الوطن اليهودى لكل يهود العالم) ، كما تصف نفسها ، رافضة و منكرة لليهودي الشرقي فما هو رد اليهودي الشرقي إزاء هذا الإنكار ؟ و لنعرف الإجابة على هذا السؤال نقرأ ما روته " شولا " زوجة " مردوخ " عن الأخير قائلة :

״ הארץ העניקה לו חסות . בסתר לבו הרגיש שהוא חב חוב גדול לארץ הזאת . רואה הוא את המשגים , אבל לעולם לא ישכח שזאת המדינה היחידה שהעניקה לו בית . ״[4]

---

[1] http://www.jamaliya.com2\12002p.3

[2] د / على إبراهيم عبده وخيرية قاسمية : يهود البلاد العربية ، دراسات فلسطينية ٨٢ ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، يونيو ١٩٧١ صـ ٦٩ – ٧٠ .

[3] أحمد مصطفى جابر : مرجع سابق ، صـ ٢٣ – ٢٤ .

[4] חסות ، שם ״ עמ׳ ٢٩٣ .

" منحته إسرائيل ملاذا . فقد شعر فى قرارة نفسه بأن عليه واجب كبير تجاه هذا البلد . و مع إنه لاقى فيه الأخطاء ، إلا إنه لن ينسى ، ما دام فيه قلب ينبض ، أن هذه الدولة هى الوحيدة التي منحته بيتا . و كذلك نقرأ عن مردوخ و شولا :

״ אבל היא ו מרדוך לא רצו בנצחונם של הערבים . הם לא השלו את עצמם - נצחונם הצבאי של הערבים משמעו שואה .״[1]

" لكنها و مردوخ لم يرغبا فى انتصار العرب . فهما لم ينسلخا عن نفسيهما ، إن انتصار العرب العسكرى معناه كارثة . "

فى الشاهد الأول نلاحظ ، كيف أن مردوخ اليهودي الشرقي لم ينس مطلقا أن إسرائيل هي البلد الوحيد الذي قبله – مهما كان شكل هذا القبول – في وقت الأزمة و لذلك ، فهو يشعر " بأن عليه واجبا كبيرا تجاه هذا البلد " ، فمهما عانى ستظل إسرائيل وطنه و هو بذلك يؤكد هويته الوطنية الإسرائيلية فى وضوح شديد . و في الشاهد الثانى نلاحظ ، مرة أخرى تأكيده هويته الوطنية ، و يتجلى ذلك في خروجه للحرب في صفوف الجيش الإسرائيلى ضد مصر و سوريا ، فهو و زوجته أيضا – لا يريدان النصر للمصريين أو السوريين ، فمن جهتهما ، أن انتصارالعرب على إسرائيل معناه " كارثة " و لفظ " **שואה** " * هو مصطلح أطلقته إسرائيل على عمليات القتل و التعذيب ، التى حلت على اليهود وقت أحداث النازى ، و كأن انتصار العرب على إسرائيل في الحرب ، معناه أن تحل كارثة جديدة على اليهود فى إسرائيل ، ليعانوا مرة أخرى من القتل و الذبح ، فحين وضعت هويته الوطنية الإسرائيلية تحت التهديد (الحرب) ، ظهر الولاء و التمسك بهذه الهوية ، حيث طبق في الواقع الملموس . و من هنا يمكن القول " إن سلسلة الحروب الدموية بين إسرائيل و الدول العربية ، و التى اندلعت على فترات زمنية شبه ثابته ، هي التي دعمت الشعور بضرورة تعاظم التضامن الداخلى و ضخمت من أسطورة (توحيد الصفوف) مما أدى إلى تجاوز نزاعات داخلية عديدة و إلى تخفيف حدة انقسامات خطيرة . "[2]

هذا و قد صدر عن " كاف أدوم " من منشورات " هكيبوتس همؤحاد " كتاب بعنوان " حوارات " . و هو عبارة عن مجموعة من الأحاديث يجريها الصحفي الإسرائيلى " روبيك روزنتال " مع " سامى ميخائيل " ، حيث يقول الأخير في حديثه عن الهوية و الثقافة : " أنا غير صهيوني ، لست معاديا للصهيونية ، أنا وطني إسرائيلي . و يفسر ذلك بقوله " منذ فجر شبابي عرفت نفسي بصفتي يهوديا ، المقياس الأعلى بالنسبة لي هو اليهودية . "[3]

فهو إسرائيلى قبل كل شيء ، و يحافظ على هويته الدينية اليهودية و يخشى على الهويتين (الوطنية و الدينية) من سياسات إسرائيل العنصرية ، حيث يرى أن تلك السياسات ، من شأنها أن تضر في النهاية بهويته الوطنية و الدينية ، فقد ارتبط بإسرائيل ، وأخلص لها و الدليل على ذلك تحمله المعاناة داخلها ، و كذلك تمسكه بالإقامة بها ، ففضل البقاء في إسرائيل ، رغم معاناته ، على الهجرة مرة أخرى إلى أي دولة عربية ، و تجدر

---

[1] חסות , שם ״ עמ׳189 .

[2] د / موشيه تسوكرمان : تخليق الهوية الإسرائيلية . الأساطير والأيديولوجيات فى مجتمع متناحر ، ترجمة وتقديم أ . د محمد محمود أبو غدير ، رسالة المشرق ، مجلة دورية محكمة المجلد الثامن عشر ، العددان الأول و الثانى ، مركز الدراسات الشرقية ، جامعة القاهرة ، ٢٠٠٦ ، صـ ٣٨ .

[3] http:www.amin.org\IdLanguage=17-2\1\2002.p.1.

* و معناه المعجمي " نكبة " و تجدر الإشارة هنا إلى منع إسرائيل الفلسطينيين من استخدام هذا المصطلح لإطلاقه علي الأحداث التي جرت لهم على أيدي إسرائيل حين احتلت فلسطين عام ١٩٤٨ .

الإشارة هنا إلى سبب آخر منعه من الهجرة مرة أخرى إلى أي دولة عربية ، ألا و هو أن أي دولة عربية ستفتقر إلى الحد الأدنى للديمقراطية و الحرية . و فى هذا المقام سؤال واجب و هو : كيف يمكن ألا يرغب اليهودي الشرقي في انتصار العرب على إسرائيل فى الحروب مع كونه يحب العرب و يشعر بالقرب منهم أكثر من اليهود الأشكيناز ؟

يعتقد الباحث ، أنه يمكن تقسيم العرب من وجهة نظر اليهود الشرقيين إلى قسمين :

القسم الأول: هو القسم ، الذي يعيش بينهم داخل إسرائيل ، و هو قسم قريب منهم مكانيا و يقيمون معه العلاقات و الصلات ، فأصدقاء مردوخ هم فتحي (شاعر فلسطيني مسلم) و فؤاد (كاتب فلسطيني نصراني) و غيرهم من العرب ، الذين يعيشون في إسرائيل .

القسم الثاني: هو القسم ، الذي يضم العرب خارج إسرائيل و هم يشعرون تجاههم بنوع من التعاطف ، لكن إذا وضعت الحرب أوزارها ، أو إذا كان هذا القسم العربي يهدد أمن إسرائيل وطنهم ، فيصيرون بذلك أعداء .

فهم يحاربون العرب الذين يحاولون تدمير وطنهم إسرائيل ، و من ناحية أخرى ، يحبون العرب الذين يعيشون معهم داخل إسرائيل ، حيث يشتركون معهم في المعاناة ذاتها . فنقرأ، حيث كانت شوشنا (يهودية شرقية) و زوجها فؤاد (نصراني فلسطيني) يسيران في شوارع إسرائيل هائمين على وجوههم :

"ושילבה את זרועה בזרועו , והביטה אף היא אל נקודה רחוקה בים , והתעלמה מן האנשים היהודים , מן הבנינים היהודיים , מן המכוניות היהודיות. ...וכך היו מהלכים להם בבדידותם בעיר המתנכרת להם . "[1]

" و تأبطت ذراعه و نظرت بدورها إلى نقطة بعيدة في البحر و توارت عن الناس اليهود و عن المباني اليهودية ، و عن السيارات اليهودية . ... و هكذا كانا يتهاديان سويا في عزلتهما في المدينة المنكرة لهما . "

فحال الزوجة (اليهود الشرقيين) هو نفسه حال الزوج (فلسطينيي ٤٨) ، حيث تنكرهما إسرائيل و لا تعترف بهما ضمن مواطنيها ، فكل من اليهود الشرقيين و الفلسطينيين يعيشون في إسرائيل داخل " عزلتهم " غير مسموح لهم أن يشتركوا في الدولة لأنهم لا يعدون مواطنيين فعليين داخلها ، فالدولة " منكرة لهما " و رغم ذلك ، فإسرائيل تشكل عند " مردوخ " الحصن ، الذي يؤدي سقوطه إلى كارثة ، حيث يقول هورفيتش (أستاذ العلوم السياسية و علم الاجتماع في الجامعة العبرية) :

" هنا في إسرائيل يوجد الخلاص النهائي ، هنا تكمن فرصتنا الأخيرة ، فإما الوجود و الاستمرار بأي ثمن ، و إلا فإن أمامنا الفناء النهائي . "[2] ، لذلك قرر " مردوخ " البقاء في إسرائيل ، و لكن ليس بأي ثمن ، إنه يريد لإسرائيل أن تبقى و تظل قائمة ، و لكن إسرائيل ذاتها هي التي ترفض ذلك ، ترفض ، من خلال التفرقة في المعاملة بين مواطنيها اليهود و العرب من جهة ، و مواطنيها اليهود و اليهود من جهة أخرى إنه يريد المساواة في المواطنة ، لكي يستمر بقاء الوطن ، و هو يرفض بشدة معايير الوطن

[1] חסות , שם " עמ'228 .
[2] إبراهيم عبد الكريم : مرجع سابق ، صـ ٣٠٢ .

الحالية لقبول اليهودى الشرقي ، من خلال تجريده من تراثه و ماضيه ، الذي ورثه عن آبائه و أجداده لأن تلك المعايير ستجعله في النهاية " يتحول إلى كائن مزيف بلا هوية أو أصالة ، و يجد نفسه عاريا أمام نفسه ، فيكره ذاته و يصبح غارقا أكثر فأكثر في البحث عن هوية جديدة من خلال تجريب عدد لا نهائي من الأقنعة يخدع بها نفسه قبل أي أحد آخر . "[1]

فهذه المعايير تحول إسرائيل من دولة و وطن إلى مستعمرة يعاني فيها الكثير من المضطهدين (اليهود الشرقيين و العرب) و لا بقاء لاستعمار ، مهما كانت قوته و نفوذه ، بل البقاء فقط للدولة ، التي تعترف بكل من يعيش فيها ، و تكفل له حقوقه ، و تلزمه بواجباته ، فيصير الفرد فيها مواطنا لا منفيا ، غير أن هذا لن يتم لإسرائيل ، إلا إذا أرست دعائم قوية لديمقراطية ذات تعددية ثقافية و الواقع أن " لتأسيس ديمقراطية ذات تعددية ثقافية في إسرائيل تداعيات هامة على علاقات المعاملة بالمثل بين الشرقيين و الأشكيناز ، حيث يستلزم هذا النوع من الديمقراطية تنظيمات مؤسساتية تؤدي إلى التجاوب مع رغبة الجمهور الشرقي أو أقسام منه للتعبير عن وحدته الاجتماعية و لرعايته . "[2]

و يبرز " سامي ميخائيل " خطورة التفرقة في المعاملة بين مواطني الدولة من يهود و عرب و أثر ذلك على الدولة ، في الموقف الذى دارفي منزل " فؤاد و شوشنا " و أولادهما الثلاثة : أمير ، نعيم ، فيكتور . فنقرأ :

" אתמול כשפרצה המלחמה ... קם אמיר ו הצהיר שהוא יהודי . נעים וויקטור ציירו בצבעי גואש על גליון גדול את הדגל הפלשתיני . כשעה אחר שהתחילו הפגזים שורקים ברמה ו בסיני התלקחה המלחמה בכל עוזה בדירה הדחוסה שבואדי אל - נסנאס . "[3]

" حين اندلعت الحرب أمس ... قام أمير و أعلن أنه يهودي ، أما نعيم و فيكتور فرسما بألوان مائية العلم الفلسطيني على لوحة كبيرة . و بعد حوالي ساعة من بدء صفير القذائف في الهضبة و سيناء ، اندلعت الحرب بكل قوتها في الشقة المكتظة الواقعة في وادي النسناس . "

حيث انقسم ولاء الأبناء ، و هم يهود نسبة لأمهم ، بين إسرائيل و فلسطين ، فأمير ، الولد الأكبر ، أبرز الهوية الوطنية الإسرائيلية و تمسك بها ، في حين تعززت لدى نعيم و فيكتور الهوية الوطنية الفلسطينية و تطور هذا الانقسام في الهوية إلى اشتباك بين الأبناء و كأن الحرب التي تدور في الخارج بين إسرائيل و العرب قد انتقلت إلى داخل شقة " فؤاد " ، فـ " حين اندلعت الحرب " بين اليهود و العرب " " قام " أولاد فؤاد بالتمايز إلى يهود و عرب و " بعد حوالي ساعة " من بدء الحرب بين اليهود والعرب " اندلعت الحرب " بكل عزمها في شقة " فؤاد " ، حيث يمكن تبين نوعا من التزامن بين الحربين ، كذلك نتبين أن هناك تكافؤا كبيرا بينهما ، رغم أن الأولى تدور بين دول و الثانية بين أطفال ، إلا أننا نستطيع ملاحظة مدى قسوة الحرب الدائرة في شقة فؤاد و عنفها ، حتى لتصل إلى حد أشرس من حرب الدول ، فحين اندلعت الحرب بين هؤلاء الأطفال فقد اندلعت " بكل قوتها " مما يوحي بأنها حرب حامية الوطيس و ليست مجرد شجار بين أطفال .

---

[1] أحمد مصطفى جابر : مرجع سابق ، صـ ٣٦ .

[2] יוסי יונה : מדינת כל אזרחיה . מדינת לאום . או דמוקרטיה רב - תרבותית ؟ ישראל ו גבולות הדמוקרטיה הליברלית , אלפיים שם " עמ'262

3 חסות : שם " עמ'244 .

و الأمر واضح ، فالطريق الذي تسير فيه إسرائيل سينتهي ، و لاشك ، إلى الانقسام و التفرقة ، فستنقسم إسرائيل إلى إسرائيل و فلسطين ، لتتسع إلى مواطنين إسرائيليين و مواطنين فلسطينيين ، ثم تنقسم إسرائيل مرة أخرى إلى إسرائيل أشكينازية و إسرائيل سفاردية . و بهذا ينتهي كل شيء . و نقرأ ، أيضا ، حوار بين " شوشنا " و ولديها " نعيم " و " فيكتور " .

"שושנה מצאה את נעים ואת ויקטור צמודים לרדיו המדבר ערבית. עיניהם השחורות הבריקו ו מפעם לפעם זימזמו שיר לא מוכר לה.

" איפה אמיר ؟ " שאלה

נעים השיב בערבית : " יצא בשעה מוקדמת עם השרמוטה שלו . "

לשמע צחוקו של ויקטור הקטן יצאה שושנה מכליה , והיא בעטה באחוריו וסטרה על פיו של נעים .

"בבית הזה," אמרה בנשימה כבדה, "תשמרו את הפה המלוכלך שלכם" .

ויקטור צרח לעומתה: אכזרית ! חתיכת כלבה , תראי מה עשיתי לו דם!

"אתם איומים , אתם איומים " התיפחה . " יהודיה , " לחש ויקטור הצעיר . "[1]

" وجدت " شوشنا " " نعيم " و " فيكتور " ملتصقين بالمذياع الذي يبث إرساله بالعربية ، و قد تألقت عيونهما السوداء و كانا يرددان من آن لآخر نشيدا مجهولا بالنسبة لها .

فسألت : أين أمير ؟

فأجاب " نعيم " بالعربية : " خرج مبكرا مع باغيته " .

عند سماع ضحك " فيكتور " الصغير ، ثارت ثائرة " شوشنا " و ركلت مؤخرته و صفعت نعيم على فمه .

و قالت بأنفاس ثقيلة : " في هذا المنزل ، عليكم أن تصونوا فمكم القذر " .

صرخ " فيكتور" مواجها إياها : " متوحشة ! كلبة ، أرأيت ما فعلت به . دم ! "

...

فقالت و هي تنتحب " أنتم مخيفون ، أنتم مخيفون " .

همس فيكتور الصغير . " يهودية "

[1] חסות , שם " עמ'245 .

و نلاحظ ، تعزز الهوية الوطنية الفلسطينية لدى الولدين . فهما " ملتصقين " بالمذياع و ينصتون إلى الإذاعة العربية و ليست العبرية ، كما هو مفترض ، و يتمتمون بنشيد غريب على مسامع أمهما ، لأنه بالعربية ، أيضا فحين أجاب " نعيم " أمه عند سؤالها عن أخيه جاءت الإجابة " بالعربية " ، الأمر الذي يدل على مدى وضوح و تأكيد هويتهما الوطنية الفلسطينية ، كذلك يمكن تبين أثر صراع الهويتين ، الفلسطينية و الإسرائيلية ، داخل الأسرة الواحدة ، حيث صارت الأم " متوحشة " و " كلبة " بسبب كونها " يهودية " و صار الأبناء " مخيفين " و قد تكررت هذه الكلمة مرتين على لسان الأم ، لتأكيد هذه الصفة .

فما تفعله إسرائيل سيجعل اليهود مكروهين في كل زمان و مكان ، يوصفون بالوحشية و الهمجية . و هو أي " سامي ميخائيل " حينما يحذر دولته من مغبة سلوكها العدائي تجاه مواطنيها ، إنما يؤكد إنتماءه الصادق لها و يبرهن على تعزيز هويته الوطنية الإسرائيلية ، رغم ما يعانيه هو و أمثاله داخل حدود هذا الوطن ، إنه يخشى على إسرائيل من الانقسام و الهلاك ، الذي سيصبح نتيجة طبيعية لهذا السلوك العدائي الذي تتبعه ، فإذا أرادت إسرائيل أن تتجنب ذلك الانقسام المر ، فإن عليها الاهتمام بالمواطنين الفلسطينيين و جعلهم عناصر وطنية طبيعية داخل إسرائيل ، كذلك عليها أن تنصف اليهود الشرقيين و تعوضهم عن سنين الاضطهاد و القهر ، التي طالما عاشوها و تضعهم في مرتبة مساوية للأشكيناز لأن الجميع يعيش في وطن واحد " فطالما يعيش الجمهور الشرقي و الأشكينازي و يعملان في مجالات جماهيرية مشتركة ، فيجب أن تكون هناك قيم أساسية مشتركة و إيجاد نمط حياة متشابه ، فيجب على الديمقراطية ذات التعددية الثقافية أن تنكب على إدخال عناصر من الثقافة الشرقية إلى الثقافة المشتركة بين الجانبين كليهما . و يجب أن يعد إدخال هذه العناصر ، إلى الثقافة المشتركة ، نوعا من التعويض عن القمع المتواصل للثقافة الشرقية و طردها خارج نطاق المجموعة القومية طوال سنين عديدة . "[1]

و خلاصة القول إن " سامي ميخائيل " يبحث عن الوطن داخل اسرائيل ، و هذا البحث مستمر يكاد لا ينتهي ، فوطنه يواصل التغير من يوم إلى يوم و من حدث إلى حدث ، دون أن تكون هناك إمكانية للوصول إلى وقف عمليات التغيير هذه .

و مع ذلك ، فالظاهرة الثابتة التي يحافظ عليها هذا الوطن هي ظاهرة كراهية العرب ، و من بعدها كراهية اليهود الشرقيين ، حيث يمثل اليهود الشرقيون بالنسبة لوجهة النظر الإسرائيلية الراهنة وصمة عار من الماضي ، يجب عليهم التخلص منها ، و لذلك يهيمن الأشكيناز على شئون الدولة و يصرفونها وفق منظور أشكينازي ، ثم يجعلون اليهود الشرقيين يبتعدون عنهم بمسافة ثابتة ، لا تقل أبدا ، فيمنعونهم من الاندماج معهم ، لذا يرى " ميخائيل " أن إسرائيل ، وفقا للمنظور الأشكينازي ، ترفض الوجود اليهودي الشرقي و تعمل على جعل اليهود الشرقيين منفيين داخل وطنهم ، و لكي ترفع عنهم هذا الحصار تطالبهم بالتخلي عن تاريخهم . و كيف يتنازل الإنسان عن تاريخه ؟ ! ، الأمر الذي أدى إلى تطور مأساة اليهود الشرقيين من مجرد أنهم مختلفون عن الأشكيناز و أن هذا الاختلاف هو سبب ظلمهم في وطنهم ، إلى الصعوبات المفروضة عليهم لقبولهم داخل الوطن الجديد ، و مطالبتهم إزاء هذا بأن يتحولوا إلى مجرد أشياء تعيش داخل هذا الوطن .

و حين ينظر " ميخائيل " إلى حاله في العراق بصفتها وطنه الأول يرى أن الطائفة اليهودية في العراق ، كانت تعيش فيه بوصفه وطنا لها ، دون أن يشوب ذلك شائبة ، و أن احتفاظهم بيهوديتهم ، لم يخرج عن النطاق الديني ، يقول سامي ميخائيل : " إن عددا كبيرا

[1] יוסי יונה : שם ״ עמ׳262 .

من مثقفي اليهود إنخرطوا في الحركة الوطنية المناهضة للإنجليز ، لأن أبناء الطائفة كانوا يشعرون ، بالفعل ، بأنهم جزء من الشعب العراقي لأسباب تاريخية عميقة ... فلم يكن هناك ما يفرق بين اليهودي و سائر المواطنين أمام القانون ، فقد كان اليهودي عراقيا مثل المسلم و النصرانى ."[1] و تعد الطائفة اليهودية في العراق " من أقدم الطوائف اليهودية في العالم ، و يؤرخ لوجودها بعهد الإمبراطورية الآشورية الأخيرة ، و الذي استمر ثلاثة قرون كاملة ما بين عام ٩١١ ق . م ، و عام ٦١٢ ق . م و ذلك في أعقاب عدة حملات آشورية قاموا بها على فلسطين و حرروها من اليهود و نقلوا من فيها إلى شمال العراق في أماكن جبلية نائية . "[2]

و منذ ذلك الوقت و الوجود اليهودي في العراق مستمر ، الأمر الذى جعل هذه الطائفة تحتل موقعا بارزا في العراق ، أيضا فقد " حظى اليهود في العراق القديم ـ في ظل تسامح عام مع تقاليدهم ـ باستقلال ذاتي في شئونهم العائلية و الدينية و أحوالهم الشخصية ، فتقدمت المؤسسة الدينية و الثقافية اليهودية في العراق أكثر فأكثر و حرروا التلمود البابلي ـ ثاني أهم كتبهم الدينية ـ و أسسوا معاهد علمية دينية مهمة ، أبرزها أكاديمية (نهر دعا) ، ثم أكاديمية (صورا) و أكاديمية (بومباديتا) الشهيرتان ، و نظموا شئون الجماعة تحت زعامة (رأس الجالوت) أى : رئيس الطائفة ذو السلطة الدينية و الدنيوية على الطائفة . "[3]

و قد عاش اليهود في العراق على قدم المساواة مع كل سكانه ، فاشتركوا معهم في كل شيء ، حتى في وقت الأزمات ، كان اليهود في العراق شأنهم شأن الجميع يعانون ، فقد " عانى اليهود العراقيون ، شأنهم في ذلك شأن سائر سكان العراق ، من اضطهاد المغول ، و ذلك بعد سقوط بغداد ، أيضا فقد شهد اليهود العراقيون فترة عصيبة خلال الصراع الذي احتدم بين الفرس و الأتراك حول السيطرة على العراق ، الذي انتهى بانتصار الأتراك عام ١٦٣٨ م و دخل السلطان التركي بغداد ، و عد اليهود يوم دخوله يوم معجزة . هذا و قد تمتع اليهود العراقيون ، طوال فترة الحكم العثماني (١٦٣٨ – ١٩١٧) بالحرية التامة ، و ازدهرت أحوال طائفتهم ، و شهدت مدن العراق تآلفا و علاقات و ثيقة بين مسلمي العراق و يهودها . "[4]

إذن ، فقد عاش اليهود في العراق وفقا للانتماء إليه بصفته وطنا ، ذلك الانتماء الذي لم يتعارض مطلقا مع الهوية الدينية لهم ، فمارسوا معتقدهم الدينى ، دون أن يفرطوا في انتمائهم إلى وطنهم و كان نتيجة لذلك أن " عدت الطائفة اليهودية العراقية نفسها قسما متمما للشعب العراقي ، استنادا إلى قدم وجودها فيه ، و إلى نسبتها العددية الضخمة ، الأمر الذي أدى إلى التقليل من اختراق التأثيرات الغربية لأفراد هذه الطائفة على عكس ما جرى لإخوانهم في بلاد عربية أخرى . "[5]

هكذا كانت أحوال الطائفة اليهودية في العراق مزدهرة " و لم يكن هناك تمييزا عنصريا ضد اليهود ، فهم يوجدون في كل مكان : في البرلمان ، و في الوظائف و في الجيش . و عاشوا أجيالا طويلة و تمتعوا بحقوق متساوية و كاملة ، لم يمنعهم أحد من كسب العيش و لم تكن هناك قيود على حرية عملهم ، لذلك لم يكن هناك ما يثير قلقهم أو عدم ثقتهم في المستقبل ، و لم تكن الإجراءات التي اتخذتها حكومة العراق بعد عام ١٩٣٢ : سواء في إتاحة الفرصة للعدد المتزايد من ذوي المؤهلات العرب لدخول الوظائف الحكومية ، أو في إحداث قمع الحركة

---

[1] www.aL-vefagh@al-vefagh.com.p.l.\ALvefaghNewspaper.

[2] أحمد سوسة : ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق ، سلسلة دراسات فلسطينية (١٢) بغداد ، ١٩٨٧ ، صـ ٢٠ .

[3] مركز زايد للتنسيق والمتابعة : الطوائف اليهودية في الأقطار العربية ، أبو ظبى الإمارات العربية المتحدة ، ٢٠٠١ ، صـ ١٩ .

[4] H.Cohen,The Anti – Jewish farhud in Baghdad,Middle eastern Studies mx Vol.3,London,1966-1967,p.3

[5] S.Landshat, Jewish communities in the Muslim countries of the Middle east,London,1950,p.42.

الآشورية الانفصالية أو في رد الفعل القومي الذي بدأ يتجلى في العراق ضد الحركة الصهيونية ، ما يعد سياسة موجهة ضد الأقلية اليهودية ، بل كانت حركة قومية عربية ذات تطور طبيعي في تلك المرحلة من تاريخ العراق السياسي . و رغم ما كان يعانيه العراق من مشكلة الأقليات ، و ابتعاد بعضها عن الأغلبية ، كان اليهود بسبب صلتهم القديمة بالبلد و مركزهم الاجتماعي و الاقتصادي و عدم وجود أي ميل انفصالي بينهم في مركز أحسن من سائر الأقليات ، يرتبطون بالبلد و يعدون أنفسهم جزءا متمما لأهل البلاد . "[1]

و حين يقارن " سامي ميخائيل " بين وضع اليهود في العراق و وضعهم في إسرائيل ، يصدم من النتيجة ، حيث يقول " سامي ميخائيل " بعد أن سافر إلى إسرائيل ، و بعد تسلمه جواز سفره و بطاقة هويته الإسرائيليين : " منذ أن تسلمت جواز السفر ، وضعته على المائدة بجانب بطاقة الهوية ، و أجريت فحصا أساسيا على المستندين كليهما. ذهلت ، حيث لم يذكر في كليهما أنني إسرائيلي . ذكرت في بداية الصفحة الثانية لجواز السفر ، الحقيقة المصيرية ، و هي أن محل ولادتي هو بغداد و أسفلها سجل (محل الإقامة – إسرائيل) . كذلك وجدت في بطاقة الهوية أن قوميتي يهودية ، أما إسرائيل فلم تذكر على الإطلاق . و قد خلصت من هذا الفحص إلى أن إسرائيل في نظر القانون و الهيئات الرسمية ، هي مجرد وضع مؤقت و متغير ، شأنه في ذلك شأن أي محل إقامة آخر . "[2]

فالوطن الإسرائيلي يمتنع عن منح الهوية الوطنية لقسم من مواطنيه ، و هذا أمر صادم ، إذ كيف يمكن للفرد أن يعيش في وطن يلفظه ، لذا فحين يقارن " ميخائيل " بطاقة هويته في إسرائيل بنظيرتها التي حملها في العراق يقول عن الأخيرة " ذكر فيها فقط إنني عراقي ، تابع لديانة موسى ، و أسكن في عنوان معين في بغداد . " [3] و هذا هو الوصف الأمثل لأي فرد يعيش داخل وطن طبيعي ، فهو أولا و قبل كل شيء يحظى بالهوية الوطنية لهذا الوطن ، عراقي ، مصري ، إسرائيلي ... ، ثم يأتي بعد ذلك دور الديانة (يهودي ، نصراني ، مسلم) ، أيا كانت هذه الديانة . إن هذا هو الوضع الذي يريده اليهودي الشرقي نظريا و فعليا ، أما مسألة الاستنكار من اليهود الشرقيين و استعلاء الأشكيناز عليهم و سائر مشكلاتهم في إسرائيل ، فهى أمور غير مقبولة بالمرة و عن ذلك يقول " ميخائيل " :

" لم نعرف في العراق أن هناك يهودا أشكيناز و يهودا سفارديم ، فقد عشنا وفقا لمشاعر الأخوة الكاملة ، التي تنساب من قلبنا إلى كل يهود العالم ، لقد أعلن المتدينون ، الذين يعيشون بيننا عن أيام الصيام و التقشف حين وصلت إلينا أخبار أحداث النازى . " [4] فلم لا يصير الحال هكذا في إسرائيل الآن ، كما كان في العراق قديما ، حيث يحظى كل فرد فيها بهويته الوطنية و يستطيع تحقيقها و ممارستها على أرض الواقع ، مع احتفاظه بهويته الدينية أو العرقية دون أن ينتقص هذا منه شيئا ؟ ، سؤال يتقدم به " سامي ميخائيل " إلى المؤسسة الحاكمة في إسرائيل .

---

[1] د/ علي إبراهيم عبده و خيرية قاسمية : مرجع سابق ، صـ ٨٢ .

[2] סמי מיכאל : הזהות הישראלית . http://lib.cet.ac.il.18-12-2008

[3] שם .

[4] שם .

ثانيا : الجانب الفلسطيني :

أ - فلسطينيو ١٩٤٨ :

بعد قيام إسرائيل ، و بعد أن تحقق لليهود ما يصبون إليه ، إذ أصبحت لهم دولة خاصة بهم ، لها مؤسساتها و أجهزتها المختلفة و لها جيش خاص بها ، " تبعثر الفلسطينيون في أماكن عدة ، حيث استقرت الغالبية منهم خارج إسرائيل ، و ظلت قلة منهم تعيش داخل إسرائيل ، أطلق عليها اسم (عرب إسرائيل) للتفرقه بينهم و بين الفلسطينيين ، الذين يعيشون في أماكن أخرى في العالم العربي . و قد تعرض الفلسطينيون ، الذين بقوا في إسرائيل لإجراءات شتى استهدفت محو هويتهم و تحويلهم إلى مواطنين من الدرجة الثانية ، عليهم أن يكتفوا بما توفره لهم مؤسسات الدولة من أماكن عمل محدودة و مصادر عيش طبيعية ، و بدون طموحات سياسية . "[١]

و بالفعل ، فقد تبقت قلة من الفلسطينيين في إسرائيل بعد قيامها ، و قد اعتقدت إسرائيل أن باستطاعتها أن تحول الهوية الوطنية الفلسطينية لهذه القلة إلى الهوية الوطنية الإسرائيلية ، فقد أطلقت إسرائيل على هذه القلة لقب (ערבי ישראל) (عرب إسرائيل) و تجدر الإشارة هنا إلى ما تحمله دلالة هذا اللقب من تشويه أساسي لهوية هذه القلة الفلسطينية ، فمن خلال هذا الاسم يصبح الفلسطينيون أولا عربا ، و ثانيا منسوبين إلى إسرائيل ، فهذا اللقب يعتمد في وصف هذه القلة الفلسطينية على الهوية القومية العربية (عرب) و الهوية الوطنية الإسرائيلية (إسرائيل) ، و بذلك تصبح الهوية الوطنية الفلسطينية بعيدة كل البعد عن هذه القلة الفلسطينية . و جدير بالذكر أن إسرائيل سرعان ما تبينت أنها لن تستطيع السيطرة على فلسطينى ١٩٤٨ و تحويلهم إلى إسرائيليين يهود ، لذلك فقد قامت بتعديل سياساتها تجاههم .

و الواقع أنه منذ البداية شرعت إسرائيل في التعامل مع من تبقى من الفلسطينيين فيها عام ١٩٤٨ وفقا لعدة اعتبارات . نذكر منها :_" تبني قوانين تمييزية ظالمة جعلتهم كالغرباء في أرضهم ، و مواطنين من الدرجة الثانية . و وضعهم تحت ظروف أمنية و اقتصادية صعبة تلجئهم إلى الهجرة و ترك الأرض . و تنفيذا لهذه السياسات ، فقد وضع هؤلاء الفلسطينيون تحت الحكم العسكري ، و تم عزل القرى العربية عن بعضها و إعلان كل قرية منطقة مغلقة لا يحق الدخول إليها أو الخروج منها إلا بإذن . حتى إن إميل حبيبي الشيوعي عضو الكنيست منع من مغادرة مدينته لحضور الكنيست إلا بعد حصوله على تصريح خاص . "[٢]

و قد تحول وضع الفلسطينيين ، من مواطنين متمتعين بحقوقهم الدستورية ، قبل قيام إسرائيل إلى " مواطنين من الدرجة الثانية ، و فرضت عليهم في مناسبات عدة أنظمة الطوارئ و الحكم العسكري . بحجة أمن الدولة ، و قد تدخلت في مختلف الشؤون الحياتية اليومية في عدم التنقل و تدخلت في المناهج التعليمية في المدارس العربية و في حرية التعبير وتكميم أفواه السياسيين ، و القصد من هذه المحاولات محو الهوية الفلسطينية و الطرد خارج إسرائيل . "[٣]

---

[١] محمد محمود أبو غدير : صورة الفلسطيني في القصة العبرية بعد الانتفاضة ، مجلة إبداع ، العدد الثاني ، فبراير ١٩٩٥ ، صـ ٧٥ .
[٢] محسن محمد صالح : فلسطين . دراسات منهجية في القضية الفلسطينية ، سلسلة دراسات فلسطينية (١) ، مركز الإعلام العربي ، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م ، الجيزة – مصر ، صـ ١٠٦ .
[٣] د / تيسير جبارة : تاريخ فلسطين ، دار الشرق للنشر و التوزيع ، عمان الأردن ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٨ ، سبتمبر ، صـ ٣٣٧ .

فقد كان الحكم العسكرى ، بصفة خاصة ، صفة مصاحبة لفلسطينى ٤٨ ، حيث " حكومات كثيرة تتشكل و تستقيل في إسرائيل و انتخابات تجرى أو تؤجل أو تلغى و ترتفع الأسعار و تنخفض و يتغير كل شيء في هذه الدولة بين حين و حين إلا الحكم العسكري . فالحكام العسكريون يستبدلون ، طبعا بآخرين ، بين وقت و آخر ، لكن هذا لا يقدم و لا يؤخر بالنسبة للمواطن العربي . فالحكام يتغيرون ، لكن السياسة تبقى دائما السياسة نفسها . أي : التدخل الفظ و التعسفي في كل مجالات حياة المواطن العربي ، ابتداء من الأمور السياسية و الاقتصادية و البلدية إلى أمور التعليم و الثقافة و العلاقات الاجتماعية و توزيع البريد و الشؤون الاجتماعية . "[١]

و قد عرض د / إيلي ريخس – رئيس مركز ديان في معهد شيلواح سابقا – توصيفا للصورة ، التي تبلورت وفقها السياسة الإسرائيلية في عامي ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ تجاه من يسميهم (عرب إسرائيل) ، و التي طبقت عمليا طوال سنوات قيام الدولة حتى الآن فيقول : " لقد كان لزاما على الحكومة أن تحسم الخيار بين خط ينظر إلى السكان العرب بوصفهم مواطنين متساوين في الحقوق من جهة – الاعتبارات الليبرالية – و بين خط يعدهم أقلية ذات صلة بالعدو العربي من جهة أخرى – الاعتبارات الأمنية – "[٢] و يعترف ريخس بأن الحسم كان لصالح سيطرة الاعتبارات الأمنية . و قد كان واضحا منذ البداية " أن السلطات الإسرائيلية لم تكن ترحب ببقاء هذه الأعداد من السكان العرب في المناطق التي احتلتها و سيطرت عليها في حرب ١٩٤٨ فالمخططات و الأطماع الصهيونية كانت تهدف دائما إلى الاستيلاء على الأرض العربية و تفريغها من سكانها الأصليين ، تمهيدا لجلب المهاجرين اليهود إليها من مختلف أنحاء العالم . و بذلك فإن السياسة الإسرائيلية تجاه العرب الفلسطينيين تحت الاحتلال تميزت دائما بالمحاولات المستمرة لطمس الهوية الوطنية الفلسطينية ، و محاربتها بشتى الوسائل . "[٣]

من هنا ، فقد كانت تجربة فلسطيني ٤٨ – و لازالت – التجربة الأكثر مرارة ، و ذلك " لا بسبب صعوبة حياتهم اليومية داخل المجتمع فحسب ، و إنما ، قبل أي شيء آخر ، لأن فلسطينى ٤٨ هؤلاء ، كانوا غائبين مرتين : إنهم غير موجودين بالنسبة إلى الإسرائيليين الذين لا ينظرون إليهم إلا باعتبارهم مجموعة بانتظار الرحيل ، و على أهبة أن تطرد ، كما كانوا للأسف منسيين إلى حد ما من قبل إخوتهم الفلسطينيين الذين رحلوا في سنة ٤٨ ١٩... و هكذا فقد دفعوا ، بصورة من الصور ، ثمن اختفاء فلسطين مرتين : المرة الأولى بإضاعتهم إياها ، و الثانية حين رأوا أنفسهم مضاعين معها . من هنا فإن فلسطيني الداخل هؤلاء عاشوا المنفى الأكثر اكتمالا و الأكثر مطلقيه هم أصحاب المطالبة الأكثر إصرارا بالهوية الفلسطينية . و لهم تعنى العودة و على أعمق نحو ممكن ، لا استعادة أرض و إنما عودة إلى الحياة و إلى الوجود . "[٤]

و الواقع أنه من الصعوبة بمكان وصف معاناة فلسطينيي ٤٨ ، بعد قيام إسرائيل على أرضهم ، و ما يعانونه حتى الآن ، و لكن حسبنا أنه رغم كل المحاولات الإسرائيلية المتنوعة في أشكالها و المشتركة في غرضها – و هو ترحيل و طرد فلسطيني ٤٨ – إلا أن هؤلاء الفلسطينيين – و هذا أمر عجيب – لا يزدادون إلا تمسكا بوطنهم ، حتى إن كان

---

[١] صبري جريس : العرب في إسرائيل ، الجزء الأول ، دراسات فلسطينية (١٤) ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، يونيو ١٩٦٧ ، صـ ٩٢ .

[٢] إبرهيم عبد الكريم : مرجع سابق ، صـ ٣٢٢ .

[٣] مؤسسة الدراسات الفلسطينية : فلسطين تاريخها و قضاياها المرحلة الثانوية ، الطبعة الأولى ١٩٨٣ ، صـ ١٣٤ – ١٣٥ .

[٤] إلياس صنبر : مرجع سابف ، صـ ٢٠٠ .

ثمن هذا التمسك حياتهم . و لنقرأ الآن حوارا يرويه " سعيد المتشائل " ، حيث يدور هذا الحوار بين أحد جنود الاحتلال الإسرائيلي و أم فلسطينية و هي تحمل طفلها ، بعد تدمير قريتها . فنقرأ:

" فصاح : من أية قرية ؟

فظلت الأم مقرفصة تطل عليه بنظرات شاخصة مع أنه كان واقفا فوقها كالطود .

فصاح : من البروة ؟

فلم تجبه بعينيها الشاخصتين

فصوب مسدسه نحو صدغ الولد ، و صاح : أجيبي أو أفرغه فيه .

....

و أما المرأة فقد أجابت هذه المرة : نعم من البروة .

فصرخ : أعائدة أنت إليها ؟

فأجابته : نعم عائدة .

فصرخ : ألم أنذركم أن من يعد إليها يقتل ؟ ألا تفهمون النظام ؟ أتحسبونها فوضى . "[1]

فرغم تضييق الخناق حول فلسطيني ٤٨ ، إلا أنهم لا يستطيعون ترك وطنهم و يتشبثون بترابه ، حتى عند هدم قرية ما فإنهم ينتقلون لأخرى ، أو يعودون إلى أطلال تلك القرية التي دمرت ، و لكنهم في مجمل الأمر لا يتخلون أبدا عن تلك الأرض ، فمبدأ النزوح عنها غير مطروح ضمن خياراتهم ، و هذا التمسك الشديد بالأرض يثير غضب و دهشة إسرائيل ، حيث يمكن أن نتبين من الحوار السابق أن " إميل حبيبي " ، قد وصف حالة الجندي الإسرائيلي حين سأل الأم " من أية قرية ؟ " و " من البروة ؟ " بقوله " صاح " ، أما عندما عرف أنها عائدة إلى قريتها ، فقد وصف حالته بقوله " صرخ " و هناك فرق كبير بين دلالة الفعل " صاح " و الفعل " صرخ " فالصراخ يعبر عن الثورة و الغضب ، كذلك يعبر عن الدهشة و الاستنكار . فما لهؤلاء القوم ، لا يتزحزحون عن أرضهم ؟ رغم كل تلك الممارسات القمعية و الدمار التي نلحقها بهم ، حيث " كانت القوانين المطبقة على الفلسطينيين في أرض ٤٨ جائرة إلى حد أن وزير العدل الإسرائيلي السابق يعقوب شابيرا يقول : حتى في ألمانيا النازية لم يكن هناك مثل هذه القوانين ، و لا يمكننا أن نجد نظاما يشبه نظامنا إلا في البلاد المحتلة . إن من واجبنا أن نقول للعالم بأسره إن قوانين الدفاع تدمر البنية التحتية للعدالة في هذا الكون ."[2]

و الواقع أن الاحتلال الإسرائيلي قد صادر آلاف الأفدنة الفلسطينية ، حيث وقعت المصادرات الكبرى ، عقب حرب ١٩٤٨ مباشرة " عندما تمت مصادرة حوالي مليون فدان من أراضي العرب و منذ ذلك الحين و وفقا للاحصاءات الإسرائيلية ، تم الاستيلاء على

[1] إميل حبيبي : الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل ، دار الهلال ، العدد (٥٩٣) ، مايو ١٩٩٨ ، محرم ١٤١٩ هـ ، سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي ، صـ ٢٦ ، ٢٧ .
[2] د / محسن صالح : مرجع سابق ، صـ ١٠٦ – ١٠٧ .

٤٤٠,٠٠٠ فدان أخرى لا تشمل المناطق التي أخذت من البدو ... و كانت الأساليب الأولى مباشرة فبموجب قوانين الطوارئ لعام ١٩٤٥ ، تم تنفيذ عمليات الطرد و المصادرة لاعتبارات أمنية ... فكان الأمن هو المبرر . و بمجرد أن تتم عمليات الطرد تدمر القرى و تسلم أراضيها لكيبوتس أو موشاف قريب ."[١]

و بالإضافة إلى ذلك فقد " استعمل وزير الدفاع ، آنذاك ، صلاحياته الممنوحة له بموجب قوانين الطوارىء ، و عين حكاما عسكريين لثلاث مناطق رئيسية تمتد على مساحات واسعة من الدولة . هذه المناطق هي : الجليل (الحكم العسكري في الشمال) ، و المثلث (الحكم العسكري في المنطقة الوسطى) ، و النقب (الحكم العسكري في الجنوب) . و في هذه المناطق يعيش ٧٥ % من السكان العرب في البلاد ، كما أن قسما من هذه المناطق قسم بقرارات من الحكام العسكريين أنفسهم إلى وحدات صغيرة أطلق عليها اسم المناطق المغلقة ."[٢]

و مع ذلك ، فلا يمنع تدمير قرية ما ، من انتساب أهلها إليها ، رغم زوال تلك القرية ، و لعل مشهد جامع الجزار في الرواية يجسد أسلوب الكاتب في تناول – هذا الموضوع – موضوع الانتساب إلى القرية نفسها حتى بعد فنائها ، حيث يلتقي " المتشائل " العائد متسللا من لبنان بحشد من الأهالي المنكوبين و المستجيرين برحاب المسجد ، باحة مسجد عكا الجامع ، حيث يسأل الأهالي عن أهاليهم الذين هاجروا أو هجروا إلى لبنان . فنقرأ :

" أنا من المنشية لم يبق فيها حجر على حجر ، سوى القبور . فهل تعرف أحدا من المنشية.

لا .

نحن هنا من عمقا ، و لقد حرثوها ، و دلقوا زيتها . فهل تعرف أحدا من عمقا ؟

لا .

نحن هنا من البروة . لقد طردونا و هدموها ، هل تعرف أحدا من البروة ؟

...

ثم عادت الأصوات تنتسب في عناد ، مع أن قراها ، كما فهمت قد درستها العسكر :

- نحن من الرويس - نحن من الحدثة - نحن من الدامون
- نحن من المزرعة - نحن من شعب - نحن من ميعار
- نحن من وعرة السريس - نحن من الزيب - نحن من البصه
- نحن من الكابري - نحن من أقرت ."[٣]

[١] ديفيد جيلمور : المطرودون محنة فلسطين ، ترجمة شاكر إبراهيم ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٤١٤ هـ ١٩٩٣ م ، صـ ١٢٠ .
[٢] صبري جريس : العرب في إسرائيل ، الجزء الأول ، مرجع سابق ، صـ ٣٨ .
[٣] المتشائل ، مصدر سابق ، صـ ٣٢ .

و كما يتضح ، فالمشهد مأساوي يزيده مأساوية عبارة " نحن من " يعقبها اسم قرية طرد أهاليها لتوهم منها و يعرف " المتشائل " لأنه يحكي الحكاية بعد سنين أن هذه القرى قد محيت من على الخريطة . و نلاحظ هنا أمرين :

الأول: تأكيد ما قد سبق ذكره من انتساب أهل القرية إليها ، رغم تدميرها و تلاشيها و زوالها من الوجود ، و قد وصف " إميل حبيبي " هذا الانتساب بقوله " في عناد " مما يؤكد الانتماء القوي لفلسطين بوصفها وطنا يحققون فيه هويتهم الوطنية .

الثاني: أن " إميل حبيبي " يعدد كثيرا من قرى فلسطين المدمرة ، و يظن الباحث أنه يعرض ذكرياته ، التي تعد جزءا من شعور بالحنين يعيشه هو و سائر فلسطينيي ٤٨ . إنه الحنين للوطن الذي تغيرت معالمه و للعالم الذي اختفى ، فهم مرتبطون بهذا الوطن و إن كان لا يرى بالعين .

و قد ظهر هذا – أي رسم صورة فلسطين قبل الإحتلال الإسرائيلي لها – في العديد من المواضع داخل الرواية . فنقرأ :

"وقد أخذوها مع غيرها من المتسللين إلى حيفا، ومن الناصرة، ومن المجيدل، ومن يافه، ومن معلول، ومن شفا عمرو، من عبلين، ومن طمره، وكل عامل تسلل إلى حيفا ليطعم عياله، وألقوا بها في سهل جنين بين ألغام الإنجليز والعرب واليهود. وبعضهم اختبأ بين الخرائب، وبين الأعواد، ولم يصل إلى الخطوط الأردنية، بل انتظر حتى أعتمت، ونام النهار، فعاد أدراجه فعادوا وطردوه. فعاد. فعادوا وطردوه. فعاد حتى يومنا هذا"[1] .

و نرى " إميل حبيبي " و قد رسم لنا هنا أيضا ، صورة لقرى فلسطينية ، و كأنها رغم تدميرها أو تهويدها ظلت حية في ذاكرته ، بوصفها تلك القرى الفلسطينية الحقيقية و أغلب الظن ، أننا لو تتبعنا و حصرنا كل القرى التي ذكرها " إميل حبيبي " لجمعنا أطلس لتلك القرى ، التي لم نعد نراها اليوم بسبب عمليات التهويد الإسرائيلية ، حيث " كرس الجغرافيون الإسرائيليون ، في البداية ، جهدا كبيرا لبناء معرفة جغرافية يهودية مستقلة لملامح البلاد . و أرادوا لهذه المعرفة أن تكون بديلة لما كتب حتى الآن في كتب الرحالة و المستشرقين و الكشافين السابقين ، حيث تستغل هذه المعرفة الجغرافية على الصعيدين الداخلي و الخارجي . فجاءت وظيفة الجغرافيا على الصعيد الداخلي ، لتقريب السكان اليهود ، الذين هم ، بغالبيتهم ، من المهاجرين الجدد ، إلى المكان الذي يعيشون فيه ، و بذلت جهود مكثفة لإقناع أولئك المهاجرين بأن مكانهم الحالي هو (مسقط الرأس) . "[2]

و الواقع أن " منذ عام ١٩٢٥ و حتى إنشاء الدولة عملت إلى جانب الصندوق القومي اليهودي لجنة لأسماء المستوطنات ، التي اهتمت بإعطاء الأسماء للمستوطنات اليهودية الجديدة ، و بعد إنشاء الدولة ألف دافيد بن جوريون عام ١٩٤٩ لجنة لتحديد الأسماء في النقب و أعطت هذه اللجنة أسماء عبرية لأماكن كان لها أسماء عربية لمدة قرون ، و توجد أمثلة كثيرة مثلا : (شاعار ها – جاى) هو عبرنة للاسم العربي (باب الوادي) و (ناحال بوليج) الاسم العربي (وادي الفالق) و (حامات جدر) الاسم العربي (الحمة) . و هكذا دواليك ، و قد استمرت مأسسة أسماء المستوطنات في المناطق المحتلة بعد عام ١٩٦٧ ، و تم إعطاء المستوطنات التي أقيمت بالقرب من القرى العربية النسخ العبرية من الأسماء العربية ، مثلا

[1] إميل حبيبي : المتشائل ، مرجع سابق ، صـ ٦٧ .
[2] د / غازي فلاح : أسرلة الجغرافيا العربية لفلسطين ، شئون فلسطينية ٢٠٩ ، شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية شؤونها المختلفة ، مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية ، أغسطس ، ١٩٩٠ م ، صـ ١٨ .

تم بناء مستوطنة (عيناف) بالقرب من القرية العربية (عنبتا) في الضفة الغربية و بالقرب من (الحفصة) تم بناء مستوطنة (أفنى حيفتس) و هكذا . " [1]

و قد " شكلت ثقافة اللغة مفتاح الحركة الصهيونية ، التي تحاول قلب التاريخ من خلالها و تحوله لصالحها . فلم يقتصر الغزو اللغوي الصهيوني على أسماء المدن و الأماكن و الشوارع ، بل وصل إلى المواد الغذائية و الكهربائية . و صار العديد من الفلسطينيين يستخدمونها بشكل غير واع . "[2] و من ناحية أخرى يؤكد " إميل حبيبي " تمسك فلسطيني ٤٨ العنيد بوطنهم و يصوغ هذا في أسلوب موجز يصيب الهدف خاصة في قوله " فعاد أدراجه فعادوا و طردوه فعاد . فعادوا و طردوه " ، ففلسطينيو ٤٨ يصرون على تمسكهم بوطنهم في عناد شديد ، و نلاحظ أن الكلام بدأ باقتران الفعل (عاد) بقوله " أدراجه " مما يوحي بأن هذا هو مكانه الطبيعي و الأصلي ، كذلك نلاحظ تذييل العبارة بقوله (فعاد حتى يومنا هذا) ، فبعد المحاولات الإسرائيلية المستميتة لترحيل فلسطينيي ٤٨ نراهم يعودون إلى وطنهم حتى يومنا هذا ، مما يوحي بوجوب استقرارهم الأبدي في هذا الوطن . و في هذا تأكيد على تمسك هؤلاء بهويتهم الفلسطينية ، حيث " أن شعور الانتماء لهوية وطنية واحدة هي الهوية الوطنية الفلسطينية قد برز بشكل واضح في جميع التحركات التي شاركت فيها قطاعات واسعة من الجماهير الفلسطينية في إسرائيل ... و أخذت تعبر عن شعورها هذا على النحو الواضح في معاركها المطلبية و الاجتماعية العامة و المحلية ، و ذلك أمر طبيعي و مفهوم ، خاصة أمام الشعور بالظلم الذي تعيشه في حياتها اليومية و أمام المعاناة من سياسة التمييز العنصري التي تمارسها الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة . "[3]

و مهما يكن من أمر ، فقد عاش فلسطينيو ٤٨ ، حياة غيرعادية ، فهم فلسطينيون و يحملون في الوقت نفسه ، الجنسية الإسرائيلية . و إن كانوا لا يستفيدون منها ، إلا أنها تشكل عنصرا خطيرا في إعادة رسم مستقبلهم ، فهم بين الهوية الوطنية الفلسطينية و الهوية الإسرائيلية يعانون من عمليات التجاهل من الجانب الفلسطيني و من عمليات الطرد و التهجير المستمر التي تشنها عليهم سلطات الاحتلال الإسرائيلي . و عندما تلا ديفيد بن جوريون ، أول رئيس وزراء في إسرائيل ، إعلان الاستقلال " تحدث عن الحرية لا المساواة لكل المواطنين و ما إلى ذلك ، لكنه كان كلاما منمقا لا معنى له و كان بن جوريون يدرك ذلك ، فلم يكن بن جوريون يحب العرب و كان سعيدا برحيل مثل هذا العدد الكبير منهم . و على أية حال كان يفضل لو أنهم طردوا جميعا لأنه كان ، مثل وايزمان ، يريد دولة يهودية بقدر ما أن إنجلترا إنجليزية ، أو مثل دايان الذي أراد دولة يهودية بقدر ما أن للفرنسيين دولة فرنسية و عندما طاف بسيارته حول الجليل في الخمسينيات كان مستاء من رؤية القرى العربية على بعد حتى إنه قال : من يطوف بالجليل يشعر أنه ليس جزءا من إسرائيل ."[4]

لذا " فإسرائيل ، التي تعرف نفسها بأنها دولة يهودية ، ترفض أن تعترف بالعرب بوصفهم جزءا منها مثلهم مثل اليهود و لا حتى أن تعدهم أقلية قومية لها حقوقها المشروعة ، بل تعاملت معهم منذ البداية بوصفهم أقلية غير يهودية ، غير مرغوب فيها ، أقصى ما يمكن أن تتطلع إليه هو أن يسمح لها أن تعيش في هذا البلد . "[5] من هنا يمكن

---

[1] د / محمد أمارة : اللغة و الهوية في إسرائيل ، مرجع سابق ، صـ ٩٩ .

[2] صابرين الزين : هوية اللاجئين في ثقافتهم و لغتهم المحكية ، بحث مقارن ما بين الجيل الثاني و الثالث للنكبة . مخيم الجلزون نموذجا ، بديل المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة و اللاجئين ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٧ ، صـ ١٩

[3] المكتب السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين : الدولة المستقلة و السيادة الوطنية ، شركة التقدم العربي للصحافة و الطباعة و النشر ، بيروت ، الأوائل للنشر والتوزيع ، سورية ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١ م ، صـ ٥٢ .

[4] ديفيد جيلمور : مرجع سابق ، صـ ١٠٩ – ١١٠ .

[5] د / إيمان حمدي : مرجع سابق ، صـ ١٣٩ .

قول إن " العداء و التعصب تجاه العرب ، قد شكلا أساس موقف إسرائيل تجاه الأقلية من سكانها بعد قيام الدولة مباشرة و لا يمكن فهم مشكلات الفلسطينيين في إسرائيل فهما صحيحا إلا إذا تم الاعتراف بهذه الحقيقة ."[١]

فلا مكان للفلسطيني داخل إسرائيل ، التي أراد لها أصحابها أن تكون لليهود فقط دون غيرهم ، و إن كان معظم هؤلاء اليهود لا يعيشون فيها ، لذلك " عاش فلسطينيو ٤٨ في السنوات الأولى بعد الحرب ، تحت الإدارة العسكرية ، برغم حقيقة كونهم قانونا مواطنين على قدم المساواة مع اليهود و أن لغتهم العربية لغة رسمية في البلاد مع اللغة العبرية . لقد فرقتهم الدولة عن اليهود ، فكانت ضد كل ما فعلوه أنى ذهبوا و هذا هو واقع الحال . لقد أحدت من خطواتهم كثيرا ، لقد جردوا العرب من كامل الخدمات المدنية و أعفوهم من الخدمة الوطنية الإجبارية في قرار اتفق عليه الطرفان . فالدولة اليهودية لا ترغب في أن تجند العرب الذين يبقى ولاءهم لدولتها محط شك دائم ، كما لا يرغب العرب في الالتحاق بقوات ستجربهم يوما على مواجهة القياس الأقرن في خدمة دولة كانت في حرب مع إخوانهم و أخواتهم ."[٢]

ففلسطينيو ٤٨ ، رغم كونهم قانونا مواطنين إسرائيليين لهم مثل ما لليهود و عليهم مثل الذي عليهم ، إلا أن الواقع أمر مختلف ، فهم محرومون من معظم الامتيازات الممنوحة للمواطنين اليهود . و من ناحية أخرى ، فإن فلسطينيي ٤٨ لا يرغبون في منح إسرائيل الولاء لأن هذه الدولة تعادي العرب جميعهم ، كذلك لما تفعله هذه الدولة بهم خلال معيشتهم اليومية داخلها ، و بإخوانهم الفلسطينيين خارج الدولة ، مؤكدين بذلك هويتهم الوطنية الفلسطينية ، و قد أدركت إسرائيل هذه الحقيقة ، فجعلت الفلسطيني داخلها مجرد فرد محسوب في دفاتر الإحصاء ، لكنه بلا حقوق مدنية و أي قول أو فعل يصدر عنه ، يتم إخضاعهما للرقابة الإسرائيلية ، حيث يتم تأويل هذه الأقوال و الأفعال ، و ذلك لتوقيع الجزاء الصارم على هذا الفلسطيني . و عن غبن و اضطهاد فلسطيني ٤٨ يقول : " אבנר דה - שליט " " أفنير شاليط " ، الأستاذ بالجامعة العبرية :

" يوجد في إسرائيل ما أخجل منه بشدة ، ألا و هو ، الطريقة التي تتبعها الدولة في منع السكان العرب من أن يكونوا جزءا منها ، ليس من الحقوق الليبرالية ، و إنما من تلك التي عرفها البروفيسور (يوآب بلد) الحقوق الجمهورية : أن يكون الفلسطينيون جزءا من الحوار حول ماذا نمثل نحن معا بوصفنا جماعة ؟ . بصعوبة بالغة منح الفلسطينيون دورا غير ذي أهمية مفاده الذهاب إلى حفلات الأكاديمية و الحصول على جوائز . إنهم لم يشاركوا في المجالس الوزارية المصغرة ، و لم يتقلدوا أبدا منصب وزير المالية أو وزير الدفاع . لم يكونوا يوما رؤساء لجان ذات أهمية و لو لمرة واحدة . لم يشغل أحد منهم على الإطلاق منصب رئيس بنك إسرائيل . "[٣] وهي كلها أمور تجعل حياة الفلسطيني داخل إسرائيل جحيما لا يطاق ، و لولا تشبث هذا الفلسطيني بأرضه و تمسكه بهويته الوطنية لقام بالانتحار أو على الأقل بالهجرة من هذا الجحيم ، إلا أن انتمائه لأرض وطنه هو ما يمنعه عن الهجرة و يعينه ، في الوقت نفسه ، على التحمل . فنقرأ على لسان " المتشائل " :

---

[١] ديفيد جيلمور : مرجع سابق ، صـ ١١١ .

[٢] يوسي ميلمان ، مرجع سابق ، صـ ١٩٢ .

[٣] אלי אברהמי ו אלי צור : שיחה עם פרופ׳ אבנר דה־שליט , מפנה כתב עת לעניני חברה יוצא לאור ארבע פעמים בשנה ، ע " י יד טבנקין ו יד יערי , מאי ٢٠٠٨ , עמ׳٧ .

" عشت في الدار الخارجة ، خارج الديناميس ، عشرين عاما و أنا أريد أن أتنفس فأعجز ، كالغريق ، عن التنفس ، و لكنني لا أموت . و أريد أن أنطلق فأعجز ، كالسجين عن الانطلاق . و لكني أبقى حرا . "[1]

هذا حال الفلسطيني داخل إسرائيل مكبل و مقيد . يعاني الشعور بالعجز و الإحباط ، فهو على شفا الموت ، على شفا الحياة ، على شفا الأسر . إن حياته كلها في النقاط الفاصلة بين الشيء و ضده . و ترجع هذه المتناقضات ، التي يعيشها فلسطينيو ٤٨ إلى صراع هويتين هما الهوية الوطنية الفلسطينية ، و الهوية الوطنية الإسرائيلية . فالأولى هوية أساسية و موجودة بالفطرة داخل الفلسطيني ، اكتسبها منذ نعومة أظافره ، كذلك فهى متوارثة من جيل إلى آخر ، و الثانية هوية مفروضة عليه و تحاول جبره على التخلي عن الأولى ، لذا فهو لا يستطيع أن يقبلها ، و حتى إن قبلها فلن تصل به إلى طريق المساواة . و في ظل هذا العذاب نجد الفلسطيني صابرا ، و لم يحاول هجرة وطنه ، بل حتى لم يحاول التفكير في هذا الأمر ، لذلك نجد " إميل حبيبي " قد جعل تذييل الشاهد السابق قوله " و لكني أبقى حرا " فرغم الحصار و رغم الضيق و رغم المعاناة ، التي يلقاها فلسطينيو ٤٨ ، إلا أن مجرد وجودهم في وطنهم ، الذي صار ضيقا ، يعد في نظرهم أفضل من رحاب الغربة كلها .

و لعل هذا هو الأمر الذي جعلهم يتقبلوا " حقيقة أنهم برغم كونهم مواطنين داخل دولة إسرائيل لن يلقوا ، ما حيوا ، معاملة مساوية لمعاملة أقرانهم اليهود ، فاليهودي في دولة اليهود يتمتع بامتيازات معينة أولها قانون العودة الذي يمنح اليهودي فائدة أساسية يفتقر إليها غير اليهودي . "[2]

و مقابل تلك الامتيازات التي يلقاها أي يهودي داخل إسرائيل أو أي يهودي ينوي القدوم إليها يتم نفي أى حق لفلسطينيى ٤٨ ، رغم حملهم الهويات الإسرائيلية ، و حتى إذا ما تم الاعتراف ببعض هذه الحقوق ، يظل هذا الاعتراف محدود و مشروط بدور معين يلعبه فلسطينيو ٤٨ ، و كأن إسرائيل تبعث برسالة للفلسطينيين الذين يعيشون بداخلها ، مفادها " حسنا نحن نعترف بحقكم في أن تنظموا جمعيات ، و نعترف بحقكم في التنافس في الانتخابات ، لكن شريطة أن تكونوا أولادا طيبين ، لكن إن قلتم بالفعل ما تعتقدون فيه – فلتحذروا ، فنحن أيضا نستطيع أن نطلق عليكم الرصاص . فكيف يتفق أن تطلق دولة ديمقراطية الرصاص على متظاهرين و تتجاهل الدولة هذا العمل . "[3]

فالأوامر العسكرية الإسرائيلية تسمح بقمع المتظاهرين من فلسطينيى ٤٨ بالقوة حتى إن وصل الأمر إلى إطلاق النار في حين تحظر ذلك بالنسبة إلى فض أعمال الشغب و التظاهر في الوسط اليهودي . " و قد علق إسرائيلي على جريمته بعد مقتل ١٣ عربيا في الجليل أثناء انتفاضة الأقصى قائلا : رأيت اثنين على الأقل فقتلتهما . القتل يؤدي إلى شعور ليس سهلا ، لكني مقتنع ذاتيا ، و علقت مجندة إسرائيلية بالقول : إنني رامية جيدة و عندما أصيب متظاهرا أرى كيف يصاب بالعرج فورا . و عندما أعود إلى البيت أفكر في إطلاق الرصاص الذي تم ، لكني لا أحسب و لا يهمني عدد من أصيب . "[4]

---

[1] المتشائل ، مصدر سابق ، صـ ٧٩ .

[2] يوسي ميلمان : مرجع سابق ، صـ ١٩٧ .

[3] אלי אברהמי ו אלי צור :שם " עמ׳٧ .

[4] د / محمد خالد الأزعر : الفكر الاستراتيجي العربي وفلسطينيو ١٩٤٨ قضايا للبحث والمناقشة ، مجلة البحوث والدراسات العربية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، العدد ٤٠ ، ديسمبر ٢٠٠٣ ، نقلا عن جريدة هآرتس الإسرائيلية ١٥ – ١٠ – ٢٠٠٠ م .

هكذا يعيش فلسطينيو ٤٨ داخل إسرائيل ، حيث تضعهم إسرائيل و من بعدهم العرب جميعهم في وضع الدونية و تستفيد من ذلك ، من خلال توجيه دعايتها الخارجية ، خاصة إلى أوربا و بذلك يكون من حقها تهميش و طرد فلسطيني ٤٨ من داخلها ، وكذلك رفض عودة اللاجئين من الخارج . و يمكن قول إن " هذا هو الواقع المفهوم الذي تحاول إسرائيل أن تصل إلى غرسه في أذهان الإسرائيليين أولا ، ثم في أذهان الأفراد و الجماعات الاجتماعية و الحكومات في العالم ثانيا ، و ذلك على أساس أن هذه الفكرة لو استقرت في الأذهان ، فإن من شأنها أن تساعد إسرائيل ، لدرجة كبيرة على مواصلة سياستها العدوانية التوسعية إزاء العالم العربي ، و على حساب العرب الذين لا يستحقون ، وفقا لمنطق الدعاية الإسرائيلية الصهيونية ، اهتماما كبيرا ما داموا أدنى من الإسرائيليين . "[١]

و يحاول " إميل حبيبي " و ضع تصور لحل ، تلك الإشكالية التي يعيش فيها فلسطينيو ٤٨ داخل إسرائيل . يقول " سعيد المتشائل " :

" و كنت أذهب إلى شاطئ الطنطورة ، و قد أصبح عامرا بالمستحمين ، فأقعد مقعدة ولاء على صخرته في لسان البحر ، و أ رسل خيطي . و أناديه في قلبي أن يرد علي . فإذا بطفل يهودي و قد قعد إلى جانبي ، دون أن ألحظه يفاجئني بالسؤال :

بأية لغة تتكلم يا عماه ؟

بالعربية

مع من ؟

مع السمك

و السمك ، هل يفهم اللغة العربية فقط ؟

السمك الكبير ، العجوز ، الذي كان هنا حين كان العرب .

و السمك الصغير ، هل يفهم العبرية ؟

يفهم العبرية و العربية و كل اللغات . إن البحار واسعة و متصلة . ليس عليها حدود و تتسع لكل السمك . "[٢]

و قع هذا المشهد ، بعد أن فقد " سعيد المتشائل " ابنه " ولاء " الذي انشق على الدولة . و نلاحظ أن " سعيد المتشائل " ، حينما نادى ابنه ، في قلبه ، أي حينما فكر في هذا الابن ، ظهر في الوقت نفسه الطفل اليهودي ، كذلك نلاحظ أن الطفل استخدم في مخاطبته للمتشائل لفظ (عماه) ، حيث يتضح من الحوار المعاملة الطيبة التي تعامل بها " المتشائل " مع الطفل اليهودي ، حيث نشعر بنوع من التقارب ، أو على الأقل المودة ، و كأن التعامل بينهما ليس به حقد و لا عنف و لا كراهية ، ثم في النهاية يأتي تذييل الحوار بقول " المتشائل " " إن البحار واسعة و متصلة . و ليس عليها حدود و تتسع لكل السمك ."

---

[١] السيد ياسين : الشخصية العربية بين مفهوم الذات و مفهوم الآخر ، مكتبة مدبولي ، ١٩٩٣ ، صـ ١٨٥ .
[٢] المتشائل ، مصدر سابق ، صـ ١١٣ .

و ربما يمكننا أن نستنتج من الشاهد السابق تصور " إميل حبيبي " لحل إشكالية فلسطيني ٤٨ بل و لكل من يعيش داخل إسرائيل ، إنه يرى في فلسطين التي قامت عليها إسرائيل بلدا يعيش فيه بسلام و بأخوة الشعبان المتصارعان عليها الآن . فإسرائيل بوصفها دولة عنصرية غير قابلة للحياة و مصيرها إلى زوال ، و هذا ليس لأن العرب يريدون زوالها ، بل لأنها بنهجها الذي تنتهجه ، تريد أن تلغي ذاتها من الوجود ، و من ناحية أخرى فهو يعارض المبدأ الذي ينص على أنه من أجل كون فلسطين عربية من البحر إلى النهر فينبغي ترحيل كل من قدم إليها بعد عام ١٩٤٨ م ، أيضا ، فهو يعلن رفض دعاوي الصهيونية القائلة إن فلسطين لليهود فقط دون غيرهم و ليس فيها شبر واحد للعرب ، و كأنهم أي العرب وجدوا خطأ في أرض فلسطين ، فقد " أعلن (يوري لوبراني) مستشار رئيس الوزراء الإسرائيلي ١٩٦٠ – ١٩٦٣ أن الفلسطينيين في إسرائيل هم الأعداء الأبديين لإسرائيل . لذا فلا يمكن أن توجد مساواة حقيقية لجميع المواطنين ، لأن إسرائيل أعلنت نفسها منذ البداية دولة اليهود ، أينما يقيمون ، و مهما كانت جنسياتهم ، و حالما تطأ أرجلهم الأرض المحتلة يصبحون مواطنين أصليين لهم كافة الحقوق . أما وجود العرب فيها و لو منذ آلاف السنين ، فلا يعني ذلك أنها دولتهم ."[١]

إن " إميل حبيبي " يعارض محاولة أن يلغي طرف الطرف الآخر ، داعيا لتكوين و إقامة وطنا واحدا مشتركا بين جميع مواطنيه . وطنا يعيش فيه العرب و اليهود و كل الفئات و الطوائف ، فيصير وطنا تعدديا يتم تعريف من يعيش فيه وفقا لهويتهم الوطنية في الأساس و هذا في نظره هو الطريق الصحيح و الوحيد لإيجاد صيغة للتعايش السلمي بين الطرفين .

و تجدر الإشارة هنا إلى أن رؤية " إميل حبيبي " لوطن واحد يضم كل من يعيش فيه ، تعد متفقة إلى حد كبير مع رؤية الباحث الإسرائيلي " ألوف هرئفن " ، و يتضح هذا الاتفاق حين يعرض " ألوف هرئفن " تخيله لإسرائيل إذا ما أرادت أن تصير دولة ديمقراطية حقيقية و ناجحة فيقول أن عليها أن تجعل من نفسها " مجتمع يترعرع فيه الفرد ، منذ ولادته ، في ظل حوار الحضارات : بين متدينين و علمانيين ، قرويين و سكان مدن ، يهود و عرب ، إسرائيليين و صينيين ، سمكريين و مؤرخين ، عمال حدائق و موسيقيين ، علماء آثار و رواد فضاء . "[٢]

و نقرأ ، حين كان " سعيد المتشائل " محمولا على ظهر صاحبه الفضائي و مسافرا في الفضاء ، إذ يقول :

" فنظرت إلى تحت . فرأيت الشاب المتأبط الجريدة ، و ما زال يحمل فأسه . و رأيت يعاد و رأيت أخاها سعيد . و أبا محمود ، و أطفاله يحملون أغطيتهم على ظهورهم و يقومون . و الجارات ، و كن يزغردن . و العامل " أخت " من وادي الجمال يحمل مزودته و يذهب إلى عمله ، و يعقوب و قد نزل عن خازوقه . و خالتي أم سعد " المخصية " و حتى هي كانت تزغرد . و رأيت يعاد ترفع رأسها إلى السماء و تشير نحونا و تقول : حين تمضي هذه الغيمة تشرق الشمس ."[٣]

هذا هو الوطن الذي يرسمه " إميل حبيبي " ، فنرى شابا فلسطينيا يحمل الجريدة و الفأس و هما يرمزان للثقافة و العمل ، كذلك نرى " يعاد " و أخاها " سعيد " و

[١] د / محسن محمد صالح : مرجع سابق ، صـ ١٠٧ .
[٢] אלוף הראבן : ישראל לקראת המאה ה – ٢١ , שם " עמ'٢٢١ .
[٣] المتشائل ، مصدر سابق ، صـ ١٥٤ .

هما من الفلسطينيين الذين قاموا بالحفاظ و الدفاع عن هويتهم الوطنية الفلسطينية ، رغم عمليات التعذيب الإسرائيلية و قد انتهى الأمر باحترام الإسرائيليين لهم و الإفراج عنهم ، بل و الاعتذار لهما ، أيضا يأتي دور الأب و أطفاله و الجارات و هم يعيشون في جو من الفرح ، و يدخل ضمن الصورة العامل " أخت " و هو عامل ألماني قابله " سعيد " أثناء قيامه بجولة داخل يافا و قد ظن أنه لكون هذا العامل يهودي ، فلن يفهم إلا العبرية ، فحين سأله عن الوقت بالعبرية ، أجابه العامل بالألمانية ، ثم خرج إلى عمله . و في النهاية نجد " سعيد المتشائل " نفسه ، و لكنه وصف بأنه غيمة تسد طريق الشمس نحو الشروق و ذلك مرده ، إلى تصرف " سعيد " الجبان ، الذي راح يهرب على ظهر صاحبه الفضائي ، فلا مكان له في هذا الوطن ، إلا إذا قام بحفر مكان له فيه .

فالوطن ، كما يرسمه " حبيبي " ، يضم الجميع و يحميهم ، لكن شريطة المحافظة على هويتهم الوطنية ، أما غير المحافظين عليها ، فهم الغيمة التي تلقي بظلالها الثقيلة على شروق هذا الوطن .

و الواقع أن " إميل حبيبي " في تصوره هذا لا يختلف عن تصور الحزب الشيوعي – لذات الموضوع – حيث كان " إميل حبيبي " أحد أركان هذا الحزب ، فقد " لعب الحزب الشيوعي الإسرائيلي دورا فريدا من نوعه في التاريخ السياسي لعرب إسرائيل . فباتخاذ هذا الحزب جانب المعارضة ، بعد وقت قصير من قيام الدولة ، أصبح المدافع الرئيسي عن حقوق العرب في البلاد . فلقد استولى الحزب الشيوعي على زمام المبادرة فيما يتعلق بكل النشاطات السياسية و الاجتماعية التي أبدتها المعارضة العربية المحلية تجاه سياسة الاضطهاد التي اتبعتها حكومات إسرائيل المختلفة تجاه العرب – خاصة في فترة ثلاث أو أربع سنوات الفوضى التي سادت المجتمع العربي بعد قيام الدولة . "[1]

فقد كان الحزب الشيوعي الإسرائيلي " المدافع الأقوى عن العرب الإسرائيليين ، و كان الحزب الإسرائيلي الوحيد الذي أرشد بالتعايش المشترك السلمي بين العرب و اليهود و قبل كلاهما أعضاء في المجتمع بعد أن رفضت جميع الأحزاب اليهودية الصهيونية أن تقبل بين صفوفها أعضاء من غير اليهود . و ربما كان الحزب الشيوعي الإسرائيلي الحزب الوحيد الذي نجح في السنوات الأولى ، بعد مأساة ١٩٤٨ في أقل تقدير أن يعبر عن الطموح القومي الأصلي للإسرائيليين العرب و لهذا نرى أن كثيرا ممن ساندوا الحزب الشيوعي لم يكونوا في الحقيقة شيوعيين . "[2]

و بسبب هذا الموقف العقلاني الذي اتخذه الحزب الشيوعي ، ازدادت نسبة التأييد له وسط الجماهير العربية ، حيث " تكاثر بين العرب عدد مؤيدي هذا الحزب و المتعاونين معه ، و ليس عدد أعضائه بصورة خاصة ، تكاثرا كبيرا ، بينما حصر معارضوه ، تدريجيا ، في زاوية ضيقة . و لقد ازداد تأثير هذا الحزب في أوساط المجتمع العربي بصورة متواصلة إلى درجة أنه في سنة ١٩٥٦ – ١٩٥٧ أصبح الحزب الشيوعي الناطق باسم عرب إسرائيل أمام الرأى العام . "[3]

إذن فـ " حبيبي " يرى فلسطين بوصفها وطنا مشتركا يعيش فيه كل مواطنيه على قدم المساواة رافضا مع ذلك إنكار وجود إسرائيل ، فهي واقع يجب التعامل معه " فلم يكن

[1] صبري جريس : العرب في إسرائيل ، الجزء الثاني ، دراسات فلسطينية (٢١) ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، نوفمبر ١٩٦٧ ، صـ ٧٥ .
[2] يوسي ميلمان : مرجع سابق ، صـ ١٩١ – ١٩٢ .
[3] صبري جريس : العرب في إسرائيل ، الجزء الثاني ، مرجع سابق ، صـ ٧٥ – ٧٦ .

إميل حبيبي يؤمن أن إسرائيل جسما غريبا ، إنه واقعي . إسرائيل موجودة ، إذن يجب التعامل معها . تلك حجة إميل حبيبي التي لم يتردد في طرحها بقوة و صلف إن لزم الأمر ، في جميع السجالات التي خاضها مع المثقفين الفلسطينيين و العرب . "[1] و قد أدرك معظم فلسطينيي ٤٨ بعد السنوات الأولى من الغضب و الإحباط " أن عليهم القبول بالوجود الإسرائيلي ، فليس بمقدورهم و إخوتهم العرب الفلسطينيين الواقعين على الجانب الآخر الحصول على فرصة واقعية بإقامة دولتهم على حساب إسرائيل فإسرائيل قوية و لها جيش حديث أثبت نفسه في حروبه مع الدول العربية المجاورة ."[2]

و يجب التأكيد هنا على شرط " إميل حبيبي " في أن تكون فلسطين وطنا لكل من يعيش فيها و هو الحفاظ على الهوية الوطنية الفلسطينية ، فهو يدعو للتعايش الديمقراطي ، دون التبعية المضيعة للهوية ، و يدعو لاعتناق مذاهب ثقافيه جديدة ، لكن دون التنازل عن الجذور العربية ، و بمعنى أصح إنه يريد أن يقوم الفلسطيني بإعادة تشكيل لذاته فيحافظ على جذوره و أسسه العربية الفلسطينية و يتبنى إلى جوارها بعض من معايير المجتمع الإسرائيلي المتطور . و بالفعل " فقد مر العرب بمسار عميق من التكيف مع المجتمع الإسرائيلي ، بما في ذلك ثنائية اللغة و تبني أنماط ثقافية غريبة إلى جانب الثقافة العربية الفريدة . و بالتوازي مع إضفاء الطابع الإسرائيلي تعزز العنصر الوطنى الفلسطيني الذي تمثل في بلورة المفهوم القائل : إن العرب في إسرائيل هم جزء لا يتجزأ من الشعب الفلسطيني ."[3]

فالفلسطينيون داخل إسرائيل " كانوا و لايزالون من حيث الانتماء و الشعور جزءا من العالم العربي و الشعب الفلسطيني . لكن هناك فريق من الفلسطينيين في إسرائيل يؤمن بإمكانية العيش بصفته عربي فخور بعروبته ، و في الوقت نفسه يكون مواطنا يحترم قوانين الدولة . و بالفعل ، فإن اندماج الفلسطينيين في إسرائيل في حياة المجتمع الإسرائيلي منذ قيام الدولة ، أوجد هوية جديدة لدى الفلسطينيين في إسرائيل ، ألا وهى الهوية الإسرائيلية و يعيش معظم مواطني إسرائيل من الفلسطينيين وفق نمط غربي حديث ، و الجزء الأكبر منهم يعد ذا لغتين و ثقافتين ، كما أنهم يشعرون بأن مصيرهم مرتبط بإسرائيل كدولة أكثر من أي دولة عربية في المنطقة "[4]

من هنا بدأ فلسطينيو ٤٨ يسعون إلى تحقيق هويتهم الإسرائيلية على أرض الواقع في إسرائيل ، حيث طالبوا بأن تكون إسرائيل دولة لكل مواطنيها ، و بذلك لا يتخلون عن هويتهم الفلسطينية ، فهم يتطلعون إلى تحقيق مكسبا سياسيا يقوم على المساواة بينهم و بين غيرهم من اليهود ، دون تفريط في موروثهم و انتمائهم الفلسطينيين ، إنهم يعملون على تغيير واقعهم الإسرائيلي المرير " و تغيير كهذا من شأنه أن يضمن لهم الحصول على مواطنة مساوية لمواطنة يهود إسرائيل ، إلا أن الغالبية العظمى للجمهور اليهودي في إسرائيل تعترض اعتراضا شديدا على هذا التغيير . "[5]

و بالفعل فإن" فلسطينيي ٤٨ ، حقا ، يرغبون في أن يكونون شركاء في تحديد هوية الدولة ، أن تصبح الدولة ، دولة لكل مواطنيها و المعنى أن تكون الدولة دولة غير

---

[1] أمجد ناصف : إميل حبيبي خائن أم بطل ؟ ، صحيفة الوقت البحرينية ، يومية سياسية مستقلة ، العدد ٣٠٨ ، ٥ ذو الحجة – ٢٥ ديسمبر ٢٠٠٦ م .

[2] يوسي ميلمان : مرجع سابق ، صـ ١٩٤ – ١٩٥ .

[3] د / أحمد الديك : مجتمع الانتفاضة ، دار الآداب ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م ، صـ ٢١١ – ٢١٢ .

[4] د / رشاد عبد الله الشامي : إشكالية الهوية في إسرائيل ، مرجع سابق ، صـ ١٦٢ – ١٦٣ .

[5] יוסי יונה : שם " עמ'238 .

صهيونية . "[1] ، لكن هذه رغبتهم و هم الجانب الضعيف ، الذي لا تهم رغبته ، فهى لن تقدم أو تأخر الأمور ، فإسرائيل لن تحقق لهم هذه الرغبة في المستقبل كما لم تحققها لهم في الماضي لأنها تسير وفق معاييرها الدينية اليهودية الخالصة و نتيجة لذلك فهي تسير في اتجاه مضاد لرغبة فلسطينيي ٤٨ . و عن ذلك يقول د / دان ياهف الأستاذ في كلة بيت بيرل : أن زئيف جابوتنسكي ، الأب الروحي للحركة الإصلاحية ، قد كتب مقالين سنة ١٩٢٣ تحت عنوان " الجدار الحديدي " جوهر المقالين أنه " لا يجوز حتى الحلم بالتوصل إلى اتفاق بيننا و بين (عرب أرض إسرائيل) ، و إننا فقط إذا ما أقمنا جدارا حديديا بمعنى قوة عسكرية كبيرة و قوة عظمى راعية ، حامية ، مساندة ، فربما يرضخ هؤلاء العرب عنئذ و يتنازلون عن (أرض إسرائيل) . عمليا فإن نظرية و تفكير الزعيم الروحي لليمين الإسرائيلي مازالا يصاحبانا حتى اليوم ، و لا سيما تجاه الفلسطينيين في الأراضي المحتلة . كل ما حصل أننا استبدلنا جدار الفصل الإسمنتي بالجدار الحديدي . "[2]

و لنقرأ الآن أحد المواقف التي وقعت لـ " سعيد المتشائل " ، حيث قام جنود الاحتلال الإسرائيلي بتفتيش منزله و كانت يعاد مختبئة داخل احدى غرف المنزل . فنقرأ :

" فانقضوا دفعة واحدة و جرجروني حتى أخرجوني خارجا . ثم دحلوني على الدرجات من الطابق الثالث . فظلت الأيادي تتقاذفني ، و أنا مدحول حتى وجدتني في فناء الدرج تحت أقدام يعقوب ، و يدي متشبثة ببطاقة اتحاد عمال فلسطين و أنا أمدها ، متمددا ، نحو عينيه ، فلا تبلغهما. فصاح : إنني أعرف من أنت ، ياحمار . قم و أخبرني بما حدث ! "[3]

ثم يأتي دور " يعاد " ليجدها الجنود داخل منزل " المتشائل " و تحدث المواجهة بينها و بين الجنود الإسرائيليين فنقرأ :

" فقد سمعنا ، من فوق ، صراخا أنثويا ، و صوت لطمات و ركل ، و جلبة . و تطلعنا إلى فوق فإذا بمعركة حامية تدور بين يعاد و بضعة عساكر آخرين و هم يحاولون ألا يروا ما يحدث . وهي تقاوم و تصرخ و تركل بقدميها . و عضت كتف أحدهم فصاح من الألم و ولى بعيدا . و ظلوا يدفعونها و هي تقاوم و تركلهم حتى ألقوا بها في فناء الدرج ، فهبطت على قدميها منتصبة القامة و رأسها في السماء . و قال أحدهم و هو يلهث : متسللة . فصرخت : هذه بلادي ، دارى ، و هذا زوجي ، فلفظ يعقوب شتيمة ذات خمسة أحرف . فنسبتها إلى أمه . فتكاثروا عليها . و دفعوها أمامهم إلى سيارة كانت امتلأت بالخلق من أمثالها ، و ذهبوا و سمعتها ، و السيارة تتحرك ، تنادي بأعلى صوتها : سعيد يا سعيد ، لا يهمك ، فإنني عائدة . و كنت بعد متمددا"[4]

من خلال مقارنة الشاهدين السابقين ، يمكن أن نلاحظ أنه في الشاهد الأول يرمز " سعيد " إلى الفلسطيني الذي فقد هويته ، فصار تابعا ، إنسانا سلبيا ، لا يقوى على الفعل أو رد الفعل الواقع عليه ، إنه متلقي فقط ، لما يحدث له ، و ذلك التلقي يتم في خضوع تام ، و بلا أدنى ذرة من المقاومة . فحين نستعرض أحداث الشاهد الأول سنكتشف كيف أن " سعيد " ليس له أي دور فيه ، بل هو يعكس ما يفعله الآخرون فقط و قد استخدم

---

[1] אלי אברהמי ו אלי צור : שם " עמ'7 .

[2] د / دان ياهف : مناقشة لكتاب المؤرخ الإسرائيلي آفي شلايم " الجدار الحديدي . إسرائيل و العالم العربي " http://almash-had.madarcenter.org=2738.11-10-2005.

[3] المتشائل ، مصدر سابق ، صـ ٦٦ .

[4] المتشائل ، مصدر سابق ، صـ ٦٦ .

" حبيبي " العديد من الصيغ التي تؤكد ذلك منها " جرجروني " ، " أخرجوني خارجا " ، " دحلوني " ، " تتقاذفني " ، " حتى وجدتني " .

و نلاحظ كذلك ، أن حال " سعيد المتشائل " طوال الشاهد حال إنهزامي و الذي يوحي بذلك جملة الحال في قوله " و أنا مدحول " و " متمددا " فهو أقرب إلى الشيء أو الحيوان منه إلى الإنسان ، لذا فقد انهارت رتبة " المتشائل " من درجة الإنسان إلى الحيوان و الذي يوحي بذلك قوله " تحت أقدام يعقوب " فهذا هو المكان اللائق بحيوان مثله ، و أخيرا ينال " المتشائل " رتبته اللائقة في صراحة و وضوح تامين و هي " حمار " و ذلك أمر طبيعي بسبب فقدان الهوية .

و على العكس من ذلك ، نجد في الشاهد الثاني ، شخصية " يعاد " و هي التي تعززت لديها الهوية الوطنية الفلسطينية ، فنراها قادرة على الفعل و المواجهة ، و مستعدة في أي وقت لهذه المواجهة ، فهي مدربة و قادرة على الدفاع عن نفسها و عن بلادها . و نراها تواجه الجنود الذين ضربوا " سعيد المتشائل " مواجهة عنيفة ، و الشاهد ينطق بعنصر المقاومة و القوة و يدلنا على ذلك قوله " صراخ " و " لطمات " ، و " ركل " ، و " جلبة " ، و " تصرخ " ، و " تركل " ، و " معركة حامية " ، و " عضت " ، و " صاح من الألم " ، و " ولى بعيدا " ، و " تقاوم تركلهم " .

و حين نقرأ هذا الشاهد ، لا يمكن أن نتخيل أن تلك المواجهة تقع بين بضعة جنود و امراة واحدة ، بل نشعر بتكافؤ في العدد و في القوة ، فكأنهما فريقان متساويان ، مما يدل على الندية ، و تتأكد هذه الندية في قوله " فلفظ يعقوب شتيمة ذات خمسة أحرف . فنسبتها إلى أمه " حيث استخدم حرف الفاء ليبين سرعة رد هذه الإهانة و لم يستخدم – مثلا - " ثم " التي تفيد التراخي ، فعملية الرد جاءت سريعة و في عقب عملية الإهانة و كأنها رد فعل لا إرادي و طبيعي فهي لم تتردد لحظة و لم تفكر في الجنود المتربصين و المتحفزين لها ليهجموا عليها مرة أخرى .

و تجدر الإشارة إلى ملاحظة أخرى في هذا الشاهد ، وهي مكان يعاد ، حيث نلاحظ دائما أن مكانها أعلى و ليس أسفل ، فهي أعلى من الكل هي و أمثالها ففي بداية الشاهد نقرأ " فقد سمعنا من فوق " ثم أتبعه قوله " و تطلعنا إلى فوق " و كذلك ، فهي حين هبطت نجدها " منتصبة القامة و رأسها في السماء " فشخصيتها مناقضة تماما لشخصية " سعيد " الإنهزامية الفاقدة للهوية .

و من ناحية أخرى نرى " يعاد " تؤكد انتمائها في ظل تلك الظروف العصيبة ، إذ تقول " هذه بلادي " " داري " " إنني عائدة " فهي كلها عبارات لا تؤكد سوى هويتها الوطنية المتعززة ، تلك الهوية التي لا تقبل التنازل .

و في النهاية يأتي تذييل الشاهد ، و هو قوله " و كنت بعد متمددا " فقائل هذه العبارة " سعيد " ، حيث يختم " إميل حبيبي " هذا الموقف المقارن بصوت " سعيد " ، الذي كان يلعب دور المتفرج و هو بعد متمددا تحت أقدام العدو ، مقدما الدليل على انغلاق طريق استرجاع هويته التي فقدها ، فقد تجاوز مرحلة اللاعودة ، فلن يعد فلسطينيا بعد الآن ، كذلك فهو لم يستطع اعتناق الهوية الإسرائيلية ، لأنه في نظر العدو ، و بعد كل ما قدم من خدمات جليلة ، يعد العربي الفلسطيني المشكوك في إخلاصه و انتمائه .

فإذا كان " سعيد " يرمز إلى أن البقاء في الوطن خير من الرحيل ، حتى لو كان ثمنه فقدان الهوية و الضياع أو العمالة للعدو فإن " يعاد " المرأة الفلسطينية ترمز إلى القدرة على التضحية بالنفس و العيش مع العميل ، تحت سقف واحد في سبيل البقاء ، و لكن دون أن تقفز معه في بركة الوحل ، و إذا كان " سعيد " متطوعا لخدمة أعداء شعبه خوفا من الترحيل ، فإن " يعاد " تحرص على البقاء ، دون دفع هذا الثمن المستحيل ، و تتحدى العدو بتصميمها المعلن على العودة ، لذا فإن " سعيد المتشائل " رغم بقائه في وطنه نراه لايستطيع الاستمتاع به و لا يستطيع ممارسة هوية الوطنية فيه ، بل يصل الأمر به إلى ضياعه داخل هذا الوطن ، فهو لا يجد له مكانا داخله ، فقد صار هذا الفرد الفاقد لهويته شبحا مجنونا بلا مكان ، غير أن " إميل حبيبي " يأبى إلا أن يجد له مكانا يليق به و بمن مثله . و قد جعل هذا " المتشائل " يختار مكانه بنفسه . فنقرأ

" قلت لك يا محترم إنني لم أذهب إلى قرية السلكة و لم أصنع الحصر لا فيها و لا في غيرها . فالذي جرى هو أنني ذهبت و قعدت على ذلك الخازوق ... وحدي ، مرة أخرى . و فوق هذا الخازوق أنظر إلى خلق الله من فوق علوه الشاهق ."[1]

لقد تخلى هذا الفرد عن هويته ، فلم يجد له مكانا في وطنه غير هذا المكان . و تكملة لرؤية " إميل حبيبي " لفلسطين بصفتها وطنا و دعوته للتعايش بين جميع فئات هذا الوطن ، نراه يلقي الضوء ، و إن كان بالرمز ، حول كيفية تحقيق هذه الرؤية و الوسائل التي يمكن أن يستخدمها فلسطينيو ١٩٤٨ لإثبات هويتهم الوطنية و العيش داخل وطن يجمع الكل . فنقرأ حوارا يدور بين " ولاء " ابن سعيد المتشائل و والدته " باقية " الطنطورية بعد أن قرر " ولاء " الانضمام إلى الفدائيين فلجأ إلى أحد الكهوف الفلسطينية حاملا السلاح ، حيث يقول .

" لست بمختبئ يا أماه . إنما حملت السلاح لأنني مللت اختباءكم .

...

مسدود هذا الكهف يا أماه ، لكنه منفذ .

فهتفت به أمه .

منفذ ؟ الموت ليس منفذا بل نهاية .

ليس في حياتنا ما يعيب حياتنا . فإذا استترنا فعلى أمل الخلاص استترنا . و إذا احترسنا فحرصا عليكم .

...

لو كنا أحرارا يا ولدي ، ما اختلفنا . لا أنت تحمل سلاحا و لا أنا أدعوك إلى احتراس . إنما نحن نسعى في سبيل هذه الحرية .

كيف ؟

[1] المتشائل ، مصدر سابق ، صـ ١٥٢ .

مثلما تسعى الطبيعة في سبيل حريتها . فالفجر لا يطلع من ليله إلا بعد أن يكتمل ليله . و الزنبق لا تبرعم إلا بعد أن تنضج بصلتها . الطبيعة تكره الإجهاض يا ولدي .

و الناس لا يتحملون ما أنت مقدم عليه .

...

أماه ، أماه ، حتى متى ننتظر برعمة الزنابق ؟

لا ننتظر يا بنى . إنما نحن نحرث و نزرع و نتحمل حتى يحين الحصاد ."[1]

يوضح هذا الحوار رأي " إميل حبيبي " في حل مشكلة فلسطينيي ٤٨ بالسلاح ، من خلال عمليات المقاومة المسلحة ضد الجيش الإسرائيلي ، حيث لا يرى فيه فائدة ، بل العكس إنه يرى فيه النهاية . نهاية الوجود الفلسطيني داخل إسرائيل ، فـ " الموت ليس منفذا بل نهاية " ، كذلك فإذا كان هناك جزء من الفلسطينيين يستطيع القيام بعمليات المقاومة المسلحة ، فليس معنى ذلك أن كل الفلسطينيين يستطيعون القيام بها فـ " الناس لا يتحملون ما أنت مقدم عليه " ، حيث تسهم عمليات المقاومة الفلسطينية في قيام إسرائيل بعمليات عسكرية مكثفة و عنيفة و وحشية لا يستطيع فلسطينيو ٤٨ تحملها . و إذا كانت حياة الشعب الفلسطيني داخل إسرائيل ممزقة و غير آدمية ، و تقوم على عدم لفت الانتباه ، فليس هذا بجديد ، فقد عانوا المعاناة نفسها على أيدي البريطانيين قبل الإسرائيليين فقد " ظلوا دائما يحكمهم أجانب و قليلون منهم رأوا مدينة عربية تحت حكم عربي . و معظم السنوات الثلاثين الأخيرة كانوا في حالة من الضعف و في موقف الدفاع تواقين إلى عدم جذب الانتباه ، فهم يدركون أن وضعهم شاذ ، و أن أقلية عربية داخل دولة ، تكاد تكون في حالة حرب دائمة مع العالم العربي لابد أن ينظر إليها نظرة شك من جانب حكومة تلك الدولة . "[2]

من هنا فهم يستترون على أمل أن ينفك عنهم هذا الحصار " فإذا استترنا فعلى أمل الخلاص استترنا . " فاستتارتهم هذه على أمل الخلاص ، و نلاحظ تكرار قوله " استترنا " إمعانا في تأكيد تجنب إثارة الإدارة الإسرائيلية ، من خلال أي نشاط عنيف و الاكتفاء فقط بالمسيرات و المظاهرات السلمية للتعبير عن رغبتهم أو رفضهم لأمر ما فوضعهم داخل إسرائيل - في أبسط معانيه - يعد وضعا شائكا ، أيضا فتحملهم و حرصهم مرده إلى " و إذا احترسنا فحرصا عليكم " فالهدف من التحمل و الصمود و عدم إثارة المشاكل هو الاحتفاظ بموقعهم في بلدهم ، حتى إن كان هذا الموقع موقع الأسر ، فالأسر داخل الوطن ، أفضل من الحرية في الغربة فـ " لو كنا أحرارا يا ولدي ، ما اختلفنا " .

فسبيل التحرير عند " حبيبي " ، إنما هو العمل داخل الوطن و محاولة البروز فيه ، رغم الصعوبات و العراقيل ، التي يواجهها فلسطينيو ٤٨ ، فالعمل و الصبر و التحمل ، هى الوسائل الوحيدة التي سيتمكنون من خلالها ، من الحصول على حقهم المسلوب في وطنهم " لا ننتظر يا بني . إنما نحن نحرث و نزرع و نتحمل حتى يحين الحصاد " فحصاد العمل و الصبر و التحمل هو الحرية ، أما حصاد السلاح و الحروب فهو الموت ، لذلك فعلى فلسطينيي ٤٨ أن يروا في العمل المتواصل طريقا نحو الحرية ، و إذا مات البعض

[1] المتشائل ، مصدر سابق ، صـ ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ .
[2] ديفيد جيلمور : مرجع سابق ، صـ ١٢٩ .

قبل أن يحين موعد الحرية ، فقد مات على الأمل ، فهم سيموتوا قبل أن يعود أهلهم و ليس دون أن يعود أهلهم . فالحرية ستتحقق لا محالة .

و لعل هذا يفسر " قبول إميل حبيبي لجائزة الإبداع الإسرائيلية من يد رئيس الوزراء الإسرائيلي " إسحاق شامير " ، في عز الانتفاضة الأولى . "[1] فهو يؤمن أنه على فلسطينيي ٤٨ أن يثبتوا مكانهم داخل إسرائيل ، التي صارت حقيقة واقعية ، لا ينكرها إلا جاهل . و العمل في الوقت نفسه على الحفاظ على الهوية الوطنية الفلسطينية و التمسك بها ، تلك الهوية التي تحاول إسرائيل أن تبتلعها . بهذا فقط يتسنى للفلسطينيين العيش داخل إسرائيل .

و نلاحظ - مرة أخرى - إتفاق وجهة نظر " إميل حبيبي " ، حول وضع فلسطينيي ٤٨ و الطريقة المثلى لتحقيق التعايش السلمي لهم في إسرائيل ، مع " ألوف هرئفن " إذ يقول الأخير : " إن قدرة الفلسطينيين المستقلين و الإسرائيليين المستقلين على خلق ثقافة للتعايش معا في هذه البلاد التي ترتبط شعوبها ارتباطا وثيقا بعضها ببعض – هى الاختبار التاريخي لكليهما في الجيل المقبل و هذا هو اختبار للمجتمعين ليرتفعا إلى فوق مستوى الذكريات المريرة و المشاعر القوية لتحقيق معجزة مشتركة في هذه البلاد التي شهدت معجزات كثيرة في جيلنا و الأجيال السابقة و ليس بعيدا عن متناول يدنا تحقيق معجزة جديدة . "[2]

و يتضح أن دعوة " إميل حبيبي " للتعايش و للكفاح من أجل تحقيق هذا التعايش تقوم على الفردية الفلسطينية ، دون العربية ، فيقدم الهوية الوطنية الفلسطينية على الهوية القومية العربية ، دون أن ينكر الأخيرة ، إلا إنه يجد في الأولى الملاذ و الحماية لفلسطينيي ٤٨ داخل وطنهم فلسطين ، أما الاعتماد على الدول العربية لحل قضايا الفلسطينيين فهو أمر مرفوض ، حيث يقول " إميل حبيبي " :

" و لقد أدركنا ، منذ اللحظة الأولى ، أن مواقف الرجعية العربية هذه غير صادرة فقط عن التعصب القومي الأعمى و لا فقط عن جهلها المثير و الذي عناه شاعرنا القديم بقوله : " يا أمة ضحكت من جهلها الأمم . " بل هو صادر – في الأساس – عن ارتباطها بمخططات الإمبريالية هذه الإمبريالية التي كانت معنية (و لا تزال معنية) بمنع الشعب العربي الفلسطيني من ممارسة حقه الشرعي في تقرير مصيره و معنية بدعم حكام إسرائيل في أطماعهم التوسعية و في تحويلهم إلى " قبضاى " لحماية مصالحها النفطية و الاستعبادية و للمحافظة على عروش أعوانها في الشرق الأوسط . "[3] و هكذا و في ظل " تخلي الدول العربية عن فلسطينى ٤٨ ، تبقى إسرائيل الطرف الوحيد المتحكم في مصيرهم و يصبح من الصعب التكهن بمستقبلهم ، حتى إذا ما قامت دولة فلسطينية في الضفة الغربية و غزة ، و تتنبأ إحدى رؤى المستقبل بأن تصبح إسرائيل بعد وجود الدولة الفلسطينية أكثر تمسكا بهويتها اليهودية ، و بذلك تكون أكثر اضطهادا لسكانها العرب . "[4]

و بعيداعن الأمور السياسية ، فإن " إميل حبيبي " – كما يتضح – يفضل الاعتماد على الشعب الفلسطيني نفسه في تقرير مصيره ، دون تعليق الآمال العظام على القومية العربية . فنقرأ :

---

[1] هشام نفاع : www.amin.org.ArabicMediaInternetNetwork.8-03-2002.
[2] ألوف هرئفن : هل يوجد حل للقضية الفلسطينية ، مرجع سابق ، صـ ١٢٦ .
[3] إميل حبيبي : المعجزة ، مرجع سابق ، صـ ٨٠ .
[4] د / إيمان حمدي : مرجع سابق ، صـ ١٥٨ .

" أما فريديس – الفردوس – فبقيت لحاجة في نفس يعقوب . وهو غير معلمي يعقوب من اتحاد عمال فلسطين . بل جيمس " يعقوب " دي روتشلد ، الذي أقام بحلالة مستوطنة " زخرون يعقوب " - لذكرى يعقوب – في أواخر القرن التاسع عشر . فانصرف أهلوها القادمون من أوروبا ، إلى صناعة النبيذ الجيد ، فتضعه مصايف العروبة ، و قد تعددت أسماؤه ، على موائد أمراء الجزيرة ، من الربع الخالي ، عبر الجسور المفتوحة ، فيستذوقونه ، فينشد منشدهم :

" يا بشر مالي للسيف و الحرب و أن نجمي للسهو و الطرب " *

ثم ينتشي منتشيهم صائحا يتهم كل مطالب بتنفيذ قرارات مجلس الأمن بأنه خائن العروبة ."[1]

و كذلك نقرأ :

" فقد كان العرب حين يفكرون – قال المغضوب عليه – أسرع حركة حتى من دوران الأرض حول شمسها ، فأصبحوا الآن يتخلون عن ملكة التفكير لغيرهم ."[2]

و كذلك نقرأ على لسان " سعيد المتشائل " :

" فقلت : غدا أعود إلى مدينتي حيفا يا ذا المهابة ... وأحيا فيها فانصحني فهدأ اضطرابه و قال : لن تجديك نصيحتي . إلا إنني سمعت في بلاد فارس حكاية عن فأس ليس فيها عود ألقيت بين الشجر . فقال الشجر لبعض : ما ألقيت هذه ها هنا لخير ! فقالت شجرة عادية . إن لم يدخل في أست هذه عود منكن فلا تخفنها "[3] .

نلاحظ من الشواهد السابقة أن موقف " إميل حبيبي " تجاه الدول العربية و مساعداتها للقضية الفلسطينية يمكن تلخيصه في : تقديم المصالح الشخصية على مصلحة الفلسطينيين ، و غباء حكام تلك الدول و افتقارهم الحكمة و التخطيط ، و العيش في أوهام الماضي و الفخر بالتاريخ ، دون العمل على تحسين الأوضاع في المستقبل ، و أخيرا الخيانة . لذا فمن غير المنصف ، من وجهة نظر " إميل حبيبي " أن تعد إسرائيل المسئول الوحيد عن معاناة فلسطيني ٤٨ ، دون أن يتحمل العالم العربي بأكمله نصيبه من المسؤلية ، فرغم وقوع فلسطيني ٤٨ تحت السيطرة الإسرائيلية المباشرة ، إلا أنهم على مستوى آخر يعدون جزءا من العالم العربي و لهم عليه حقوق ، لذلك فقد كان يجب على العرب ألا يخذلوهم و أن يقدموا لهم المساندة في إطار ظروفهم الخاصة ، بدلا من أن يتركوهم فريسة لإسرائيل تفعل بهم ما تشاء .

و إكمالًا لموقف " إميل حبيبي " من الدول العربية ، تجدر الإشارة إلى أنه حتى عندما بدأ العرب التفاوض مع إسرائيل من أجل إيجاد حل للمشكلة الفلسطينية ، قبلت منظمة التحرير المنطق الفلسطيني الهادف إلى قصر التسوية الإسرائيلية الفلسطينية على فلسطينيي الضفة الغربية و غزة ، دون بقية الشعب الفلسطيني الذي يعيش داخل إسرائيل و في الشتات و بذلك فقد سقط حق فلسطينيي ٤٨ في أن يكونوا جزءا من أية خطة سلام من شأنها أن تضمن لهم الحصول على الحد الأدنى من حقوقهم داخل إسرائيل .

---

[1] المتشائل ، مصدر سابق ، صـ ٨٢ ، ٨٣ .

* من قصيدة لأبي نواس

[2] المتشائل ، مصدر سابق ، صـ ٣٩ .

[3] المتشائل ، مصدر سابق ، صـ ٤٨ . و هى حكاية أوردها الجاحظ .

و مهما يكن من أمر ، فما يعنينا هنا هو تأكيد " إميل حبيبي "على الاعتماد على الذات الفلسطينية في إدارة الشئون الفلسطينية ، فالحفاظ على الهوية الوطنية الفلسطينية لدى فلسطينيي ٤٨ ، رغم تناقضه مع الهوية الوطنية الإسرائيلية المفروضة عليهم هو طريق النجاة الوحيد بالنسبة إليهم . و الواقع أن " الفلسطينيين قد حافظوا على هويتهم الفلسطينية و العربية و تصاعد التناقض بالتدريج بين هذه الهوية و بين تماثلهم مع إسرائيل باعتبارها أمرا قائما ... ولم يعودوا عربا إسرائيليين ، إنما أصبحوا " فلسطينيين إسرائيليين " و يعيشون هذه التجربة المعقدة المتمثلة في حرب شعبهم ضد دولتهم . و في الوقت نفسه يحاول الجيل الجديد تحسين مكانته في المجتمع الإسرائيلي ، و زيادة نفوذه من أجل المساعدة على تحرير إخوانه من نير الاحتلال . "[١] حيث نستطيع رصد تغلب مركبات الهوية الوطنية الفلسطينية لدى فلسطينيي ٤٨ على نظيرتها الوطنية الإسرائيلية و نظيرتها القومية العربية لديهم ، فتعززت هويتهم الوطنية الفلسطينية و صارت هوية رئيسية و جاء بعدها الهوية الوطنية الإسرائيلية و يليهما الهوية القومية العربية .

ب - فلسطينيو الشتات :

تقول المفكرة الإسرائيلية " حنا ارندت " : " سيكون لزاما علينا ذات يوم أن نواجه حقيقة أن إسرائيل ليست بريئة و لا يمكن أن تحصل على الصفح فبمجرد خلق إسرائيل ذاتها و توسعها ، تسبب اليهود بخلق ما عانو منه ذات يوم ، شعب من اللاجئين و دياسبورا (شتات) ، حيث تحول الفلسطينيون و بضربة واحدة عام ١٩٤٨ من شعب على أرضه ، إلى لاجئين فقدوا ممتلكاتهم ، و بيوتهم و وسائل العيش ، و حقوقهم المدنية و السياسية ، و الاقتصادية و الثقافية التي يوفرها لهم قيام الدولة المستقلة ."[٢]

فبعد قيام إسرائيل ، أصبح اللاجئون الفلسطينيون أقدم لاجئي العالم و أكثرهم عددا و أطولهم إقامة و أبرزهم شهرة بين كل مشردي العالم " فقد شهد التاريخ المعاصر أزمات عانى فيها الكثير من الناس من التشرد بسبب الحروب و الاضطهاد و الأوبئة . و ما تدفق اللاجئين من (البوسنة) و (رواندا) بسبب سياسة التطهير العرقي إلا مثال على مثل هذه الأزمات . و في تلك الحالات ، تنصب مهمات المنظمات الإنسانية و الحكومية على مساعدة هؤلاء اللاجئين . غير أن اللاجئين الفلسطينيين ، على نقيض ذلك ، بقوا يعيشون في لبنان و الأردن و سوريا و الضفة الغربية و قطاع غزة منذ عام ١٩٤٨ أو على الأقل منذ عام ١٩٦٧ ، و هي فترة أطول بكثير من أن نسميها (حالة حادة من التشرد) . "[٣]

" و لأن وضع اللجوء بالنسبة للفلسطينيين يختلف عن أية حالة لجوء أخرى في العالم و لأن الآخر (الإسرائيلي) كان يقصد في مخططاته أساسا نفي الفلسطينيين و عدم الاعتراف بهم و بحقوقهم . و هو ما يجعل وضع اللجوء الفلسطيني من أعقد الحالات ، بالرغم من وجود العديد من القرارات الدولية التي تنص على عودتهم إلى ديارهم الأصلية ، إلا أن عدم اعتراف إسرائيل بالمسؤولية الكاملة تجاه اللاجئين الفلسطينيين و حقهم بالعودة يساهم بإمكانية فقدان الفلسطينيين لحقهم الكلي في هذه الأرض . "[٤]

---

[١] د / أحمد الديك : مرجع سابق ، صـ ٢١٣ .
[٢] حمد سعيد الموعد: الأبارتيد الصهيوني– دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١ ، صـ ٣١ .
[٣] دونا آرتز : من لاجئين إلى مواطنين – الفلسطينيون و نهاية الصراع العربي – الإسرائيلي ، ترجمة و تلخيص : جورج عطا الله ، صـ ٧ ، مقال على الموقع الإلكتروني .http://www.group194.net.22-12-2005
[٤] صابرين الزين : مرجع سابق ، صـ ٩ ، ١٠ .

هذا و يعرف المنفي بأنه " الإنسان المنشطر بين حال من الحنين الهوسي إلى المكان الأول ، و عدم القدرة على اتخاذ القرار بالعودة إليه ، و ينتج هذا الوضع إحساسا مفرطا بالشقاء لا يدركه إلا المنفيون الذين فارقوا أوطانهم ، و مكثوا طويلا مبعدين عنها ، فاقتلعوا من جذورهم الأصلية ، و أخفقوا في مد جذورهم في الأمكنة البديلة . و في اللغة العربية تحيل مشتقات الفعل " نفى " على دلالة واحدة مترابطة الأطراف ، هى : الإبعاد ، و التنحية ، و الطرد ، و الإخراج ، و التغريب ، و الذهاب ، و الانتفاء ، و الانعدام . و جميعها تؤكد حال الانبتات ، و الانقطاع ، و الاجتثاث ، و عدم المكنة على التواصل و العجز عنه ."[1]

من هنا ربما نتمكن من التعرف على المواطن الفلسطيني الذي صار بين ليلة و ضحاها خارج وطنه ، و مدى المصيبه التي حلت عليه ، فهو عاجز عن التواصل في أي مكان يحط فيه رحاله . " فأي منفي حقيقي عندما يترك موطنه لن يتمكن ببساطة ، أينما حل ، من استئناف حياته و يصبح مجرد مواطن آخر في المكان الجديد ، فالمنفى معناه أن تظل على الدوام هامشيا . "[2] و هذا ما حدث للفلسطيني المنفي ، فمنذ عام ١٩٤٨ " تعرضت الهوية الوطنية الفلسطينية إلى نوع من إعادة المركزة حول الارتباط بأرض لم تكن أبدا بمثل كلية الحضور هذه كما أصبحت عليه بعد أن جعل منها الصهاينة أرضا ممنوعة . "[3]

و الواقع أنه " استنادا إلى المقاييس التي تستعمل في الغالب لتعريف مجموعة إثنية ، و هي الثقافة و اللغة و الدين و العرق و الأرض ، فإن الفلسطينيين يمثلون لغزا . لقد أصبحوا يعيشون في جميع دول المنطقة و سواها و لا يقطنون أرضا واحدة . و هم لا يتميزون ثقافيا تميزا بارزا عن المجتمعات الأخرى في المشرق و لعل العامل الأهم في تطور هوية وطنية مميزة لدى الفلسطينيين هو الخطر على طابع فلسطين العربي المتمثل في الصهيونية و مشروعها المتمثل بوطن يهودي قومي في فلسطين . و تضافرت عدة عوامل لربط الفلسطينيين بعضهم ببعض تمييزا لهم عن المجتمعات الأخرى في دول الملجأ العربي ، و من هذه العوامل فقدان الوطن و فقدان القدرة على ممارسة حق تقرير المصير . "[4]

من هنا تثير قضية اللاجئين جدلا على المستويين المحلي و الدولي ، الأمر الذي من شأنه أن " يجعل من الحل السياسي بين الفلسطينيين و الإسرائيليين حلا عقيما . فاللاجئون الفلسطينيون الذين اقتلعوا من أراضيهم و تشتتوا في مختلف أرجاء العالم ، بما فيها داخل وطنهم فلسطين ، لا يمكن تعويضهم ماديا عن الخسارة النفسية و الاقتصادية و الاجتماعية و المعاناة التي عانوا و يعانون منها نتيجة الاقتلاع . و يعد الحفاظ على الهوية أحد الطرق لاستمرارية قضية اللجوء الفلسطيني ، حيث تعد الهوية الفلسطينية من القضايا التي حاول الفلسطيني جاهدا الحفاظ عليها عبر التاريخ و زاد الاهتمام بها و تعزيزها و حمايتها من التراجع نتيجة للنكبة المستمرة منذ عام ١٩٤٨ حتى هذه اللحظة . فقد تكون الهوية معتمة أو نائمة فتأتي الهوية المضادة لإنارتها و إيقاظها . إنها موجودة و كل ما يفعله الخطر المضاد ، الهوية المضادة ، إنما هو بعثها و إيقاظها . "[5]

---

[1] د / عبد الله إبراهيم : إدوارد سعيد . المنفى .. الوطن .. العودة المستحيلة ، مجلة العربي ، شهرية ثقافية ، تصدرها وزارة الإعلام بدولة الكويت ، (٥٩٦) رجب ١٤٢٩ – يوليو ٢٠٠٨ ، صـ ١١٦ .

[2] رسول محمد رسول : مرجع سابق ، صـ ١٥٦ .

[3] إلياس صنبر: فلسطيني ١٩٤٨ التغييب، ترجمة كاظم جهاد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٨٧ ، صـ ١٩٧ .

[4] بيسان عدوان : إشكالية الهوية الفلسطينية بين المركز والأطراف ، الحوار المتمدن ، العدد ٥٠٨ ، ٤- ٦- ٢٠٠٣ ، مقال على الموقع الإلكتروني .http://www.ahewar.org

[5] صابرين الزين : مرجع سابق ، صـ ١٠ .

لقد صار المواطن الفلسطيني " غريبا " و هذه هي الكلمة الأدق لتعريفه ، حيث حرم وطنه عليه و حصل هذا الفلسطيني بعد نفيه عن الوطن على لقب " لاجئ " ، عوضا عن لقب " مواطن " فصار هذا اللاجئ ، أحد رعايا هذه الدولة أو تلك ، و يلزمه دائما إعادة تجديد تصريح إقامته ، و ملء النماذج و شراء الدمغات و الطوابع ، كذلك يلزمه أن يثبت بالبراهين و الوثائق هويته ، وهو رغم أن تفاصيل و مجريات حياة القوم الذين يعيش بينهم لا تشغله في شيء ، إلا أنه يكون أول من يتأثر بها و تقع عليه عواقبها ، لقد كتب عليه أن يظل حزينا و خائفا و مشتتا ، و إن كان ناجحا في مكانه الجديد ، لذلك احتاج هذا الفلسطيني اللاجئ إلى أن يحمل معه أرض وطنه إلى كل مكان يذهب إليه فهو يحيا فيها حتى لا يموت ، و ينتظر العودة إليها إلى أن يموت ، هكذا " بدأ النفي بكل ما انطوى عليه من بؤس و تشرد . و الفلسطيني ، دون سواه ، هو الذي يستطيع أن يصف ما مر به من يأس و قنوط ، نتيجة لكونه يعيش بغير دولة ، و بدون انتماء ، و من مهانة أن يكون لاجئا و غريبا في كل بلد يسمح له بزيارته . الإحساس بأنه لا يمكنه أن يكون إلا حيث المعاناه ، و بأنه يعيش على الإحساس و سوف يطرد إذا ما أساء التصرف و من مذلة كونه غريبا ، و من حمله على انتظار تصاريح العمل و التأشيرات إلى ما لا نهاية لأنه لا يملك جواز سفر خاص به ، و فوق هذا كله الحنين إلى العودة إلى الوطن . "[1]

و يحكي " إبراهيم الحاج نوفل " أحد أصدقاء " وليد مسعود " عن الأخير قائلا :

" أبعد وليد إلى الحدود الأردنية . أخذوه من مكتبه إلى سيارة الشرطة . و لما لم يكن يحمل أوراقه ، رفضت السلطات الأردنية السماح له بالعبور ، فأعيد إلى الرطبة ، ثم أعادوه إلى الصحراء ، ثم أعيد إلى الرطبة ، لعبوا به لعبة الكرة ، و بنوا الحلال في بغداد يسعون من أجله – كلنا كنا نسعى ، و زوجته ريمة تكاد تنهار أعصابها خوفا عليه ، إلى أن وافقت السلطات على عودته ، بكفالة تاجر مسجل في غرفة التجارة ، و وضعه تحت المراقبة لسنة ، إلى آخر تلك الأساليب المشهورة ." [2]

فنلاحظ أن مصيبة النفي ، التي ابتلى بها الفلسطيني ، كانت نقطة تحول في حياته فصار مجرد شيء " لعبوا به لعبة الكرة " ينقل من مكان لآخر ، هذا المكان يقبله و هذا يلفظه . و نلاحظ تكرار الأفعال الدالة على انعدام حيلته " فأعيد " ، " أعادوه " ، " ثم أعيد " و هي أفعال مبنية للمجهول أو مسنده إلى ضمير الغائبين و في هذا دلالة واضحة على كون أن المجهول و المجهول فقط هو من يتحكم في مصير الفلسطيني اللاجيء ، الذي يبحث في انتقاله هذا عن مستقر جديد له ، ليستأنف حياته التي توقفت عند نفيه عن وطنه .

و يروي لنا " إبراهيم الحاج نوفل " جزءا من سيرة " وليد مسعود " الفلسطيني المنفي قائلا :

" بدأ – أي وليد - الدراسة قبل ذلك ببضع سنوات في القدس ، و لكن نزوحه من مدينته ، و مجيئه إلى بغداد ، و هو لا يحمل ، كما قال ، إلا الثياب التي على ظهره ، أخرا دراسته بعض الشيء ، و يبدو أنه انخرط لفترة قصيرة عام ٤٨ في جيش الإنقاذ بدمشق ، إلى أن سرح الجيش . و صمم على أن تكون بغداد منطلقا جديدا – له ، و لكل فلسطيني ."[3]

---

[1] ديفيد جيلمور : مرجع سابق ، صـ ٨٩ .
[2] جبرا إبراهيم جبرا : البحث عن وليد مسعود ، دار الآداب ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٩٩٠ ، صـ ٣١٣ .
[3] المصدر نفسه ، صـ ٣١٤ .

فهو في حاجة ماسة إلى بداية جديدة ، لمكان جديد ، ليستقر فيه ، و قد استطاع أن يستقر في بغداد محاولا أن يستكمل دراسته و يحقق ذاته في تلك الأرض الجديدة ، و السؤال هنا : هل هذه البداية الجديدة و محاولة بدء حياة جديدة كانتا عوضا عن الحياة القديمة داخل الوطن الفلسطيني ؟ أم كانت مجرد بديلا مؤقتا ؟ و للإجابة على هذا السؤال نقرأ ما أورده " إبراهيم الحاج نوفل " عن " وليد " إذ يقول :

" بقى مستقره في بغداد ، بين أصحابه الكثيرين . أدهشني أنه لم يذهب إلى بيروت للاستقرا فيها ، كغيره من الفلسطينيين اللامعين ." ضربت لي جذورا في هذه المدينة التي لا يعرف روعتها إلا من أدمن عليها . أبتعد عنها كل مرة بلهفة ، و أعود إليها كل مرة بلهفة . و أريد لابني مروان ، إلى أن نعود إلى فلسطين ، أن يقيم فيها . " و من قال له إن بغداد ستخلص له أكثر مما أخلصت إلي أنا ؟ و لكنه يقول أقوالا كهذه : " المهم أن تحب الآخرين ، لا أن يحبوك ."[1]

لقد اتخذ الفلسطيني المنفي – وليد مسعود – بغداد مستقرا له و ضرب له جذورا فيها من خلال العلاقات الكثيرة التي أقامها مع العديد من مثقفي المدينة ، و قد أحب هذا المكان و أحب أهله و أراد لابنه " مروان " أن يحب تلك المدينة و يحب أهلها و يقيم فيها ، و لكن نجد في قوله عبارتين تكشف عن جانبا هاما من التناقض في حياته داخل هذا المستقر الجديد و هما :

العبارة الأولى قوله " إلى أن نعود إلى فلسطين " ، حيث توحي بأن الفلسطيني ، مهما استقر و أحب أرض ، فلن يتخذها وطنا له في يوم من الأيام ، بل يظل قلبه و عقله مرتبطين بفلسطين ، فهويته الوطنية لن تتحقق إلا بالعودة إليها و الاستقرار بها .

العبارة الثانية " المهم أن تحب الآخرين لا أن يحبوك " و فيها إشارة واضحة إلى عدم القبول الكلي للفلسطيني المنفي داخل المجتمع الذي يعيش فيه ، مهما أبدى ذلك الفلسطيني من تعلقه بالمكان و الناس إلا أنه يظل مختلفا عنهم و يظلون مختلفين عنه

" و هم أي - الفلسطينيون - يدركون بصورة جنونية أنهم بلا دولة و يتوقون إلى بلد ينتمون إليه و حتى إذا ما واصلوا العيش في ابو ظبي أو قطر أو البحرين فإنهم سوف يظلون بحاجة إلى مكان يمكنهم الارتباط به . إن ارتباطهم بوطنهم لا زال على ما كان عليه من قوة و يظهرون ذلك بالطريقة التي يربون بها أطفالهم الذين يعرفون شأنهم شأن أطفال فلسطين في كل الشتات ، من أين جاءوا من فلسطين ، و يلتحق الكثيرون منهم في الكويت بمدارس تشرف عليها منظمة التحرير الفلسطينية ." [2]

و الحقيقة أن الفلسطيني المنفي يعيش و يعمل في مكانه الجديد و يحقق فيه النجاح ، حتى أنه ليصبح أحد أغنياء هذا المكان الجديد ، و لكنه ، رغم كل ما يحققه من نجاح و غنى ، لا ينسى أرض وطنه ، بل إنه يوجه تبرعاته و نفوذه لخدمة أهداف وطنه فلسطين مؤكدا بذلك هويته الوطنية الفلسطينية خارج وطنه فلسطين . و هو ثوري أكثر من غيره ، يريد التجديد و التحرير ، فيدعو لتحرير أرضه و يعمل في الوقت نفسه على تحقيق هذه الدعوة ، و لا يكتفي بمجرد القول ، كذلك فهو يرى في كل مجال يعمل به أنه في وضع يفرض عليه تحد

[1] البحث عن وليد مسعود ، مصدر سابق ، صـ ٣٢١ .
[2] ديفيد جيلمور : مرجع سابق ، صـ ١٠٤ .

مع الظروف ، مع الحياة ، مع العالم ، لذلك يريد أن يثبت نجاحه و تفوقه و يبين للعالم كله أن الفلسطيني ناجح و بارز حتى ، إن كان خارج وطنه . فنقرأ :

" أينما كان هناك عمل جرىء ينتهي إلى التضحية بالذات ، وجدت الفلسطيني : فلاعجب أن يميل علي رجل كـ (كاظم إسماعيل) و يهمس في أذني : " الفلسطيني خطر . خطر ... " إنهم من الخلف يأتونك يا وليد . و أنت لا تجزع ، و لا تستدير ، و لا تنسى . "[1]

فهو حريص على النجاح في كل مجال يشارك فيه ، كذلك فهو على استعداد تام للتضحية بالنفس ، إنه لا يخشى على نفسه ، و لا يحرص على حياة . و نلاحظ ، هنا أيضا ، مسألة عدم القبول الكلي فالفلسطيني " خطر خطر " و هكذا نجد " فيما يتعلق بالفلسطينيين الذين استقروا في الأقطار العربية خارج حياة المخيمات ، أن إمكاناتهم المادية ، التي بفضلها تمكنوا من الاستقرار في المدينة ، لم تساعدهم ، مع ذلك ، في الانخراط في المجتمعات المضيفة و ينبع هذا من أسباب عديدة ، فأولا ، ليس هناك ما يجبر هذه الفئات الميسورة الحال على أن تكون أقل وطنية من بقية فئات شعبها ، ما دامت قد طردت مثلها ، و ما دامت قد فقدت ، أسوة بها ، كل شيء ، و هي إذا كانت تمكنت من الاحتفاظ بمكانة معينة في المنفى فهذا يظل غير قابل للمقارنة ، و بأية حال من الأحوال ، مع هذا الذي كانت تتمتع به في فلسطين . و ثانيا ، فحين تمكن هؤلاء الأثرياء الفلسطينيين من تطوير نشاطاتهم و مضاعفة عائداتهم المادية ، فإن طبقة تقنية و مثقفة قد انبثقت من صفوفهم ، و هي سرعان ما ستحتل المناصب الرئيسية في مجموع البلاد العربية . إن قسما لا بأس به من سكان فلسطين العاملين قد حقق بالتدريج ، مستوى من الرفاه المادي ، و لكن ، و على نحو شديد من التناقض ، لم تقم هذه الاندفاعة إلا بتعزيز تعلقهم بهويتهم الوطنية . إن هذه الفئات ، المدعومة بتضامن كان يجد في التشتت في العالم العربي و البلدان الأجنبية ما يغذيه قد أعربت عن وطنية شديدة الحماس ." [2]

فالفلسطيني في منفاه يحافظ على هويته الوطنية الفلسطينية ، حيث يفضل وصف لاجئ فلسطيني يعيش في دولة ما على وصف مواطن في هذه الدولة ، حيث يعد الوصف الأول تأكيدا على هويته الوطنية الفلسطينية ، أما الوصف الثاني فيعني التخلى عن الهوية الفلسطينية و إحلال هوية الدولة الجديدة محلها ، حيث عاش " الفلسطيني اللاجئ نصف قرن من الزمان و هو يحلم باستبدال الجنسية الفلسطينية بأوراق اللجوء التي يحملها ، لكن تلك الأوراق كانت على الأقل تعترف له بأنه أصلا من بلد اسمه فلسطين ، فهو لاجئ من فلسطين ." [3]

إن الفلسطيني يعيش في هذه الدولة أو تلك و يحاول الاستقرار فيها و يألفها و يحبها و أحيانا يتعلق بها ، إلا أنه لا يقبل بها وطنا بدلا من وطنه الأصلي فلسطين التي يجري حبها في عروقه و دمه . و نقرأ على لسان " سميرة " و هى إحدى صديقات " وليد مسعود " :

"وليد مقتلع ، و هذا أمر لا يحتاج إلى ذكاء كثير لرؤيته و هو يحاول أن يجد الأرض . يعيد فيها غرس جذوره و إلا فإنه لن يستطيع أن يفكر ، أن يكتب ، أن يحقق شيئا . " [4]

---

[1] البحث عن وليد مسعود ، مصدر سابق ، صـ ٣٢٢ – ٣٢٣ .
[2] إلياس صنبر : مرجع سابق ، صـ ١٩٨ .
[3] د / عصام نعمان : دولة أم دولتان أم مقاومة شاملة ، مجلة دراسات باحث فصلية تعنى بقضايا فلسطين و الأمة ، ربيع / صيف ٢٠٠٤ م – ١٤٢٥ هـ ، المؤتمر السنوي الثاني ، مشاريع التسوية و مستقبل فلسطين .
[4] البحث عن وليد مسعود ، مصدر سابق ، صـ ٦٨ .

فـ " وليد" الفلسطيني " مقتلع " لذلك فهو بلا حياة و لذلك أيضا فهو في رحلة بحث لن تنتهي ، إلا حين يجد " الأرض " أرض فلسطين لـ " يعيد فيها غرس جذوره " التي اقتلعتها إسرائيل ، و بذلك يعيد بدء حياته من جديد .

و الواقع فقد رفض " اللاجئون بعزة و إصرار كافة خطط التوطين و الاستقرار في أي مكان ، و ظلت قلوبهم – و لا تزال - معلقة بعودتهم الكريمة إلى أرضهم المغتصبة . و رغم قسوة الظروف ، فقد أظهر الفلسطينيون رغبة هائلة في التعلم و الارتقاء الأكاديمي و تحت ضغط هذه الأوضاع و حاجة بلدان الخليج للكوادر المتعلمة و الأيدي العاملة مع ظهور النفط ، و الانتعاش الاقتصادي فيها ، فقد انتقل الكثير من الفلسطينيين إلى هناك ليحسنوا من أوضاعهم و يسهموا في نمو تلك البلدان ، دون أن ينسيهم ذلك العمل من أجل قضيتهم حيثما حطت رحالهم ." [1] ، كما تجدر الإشارة هنا إلى أن الفلسطينيين في دول اللجوء قد " حافظوا على درجة من التماسك الاجتماعي و على هويتهم الوطنية لأن أغلبيتهم عاشت في معازل خاصة بهم ، و حتى تلك الشرائح التي اندمجت نسبيا و انخرطت في المجتمعات المضيفة ظلت تحافظ على تمسكها بالهوية الفلسطينية و قد ساعد الفلسطينيين في الحفاظ على هويتهم الوطنية سياسات الدول العربية التي لم تسهل عملية الاندماج في هذه المجتمعات . "[2]

فالفلسطيني المنفي خارج وطنه ، مهما كان غنيا أو مثقفا أو ذائع الصيت في العلم أو الأدب أو غيرهما من المجالات المختلفة ، لا ينسى وطنه فلسطين و لا ينسى أن هذا البلد الذي يعيش فيه ليس وطنه الحقيقي ، لذلك يظل هذا الفلسطيني يشعر بالطرد ، بالنفي ، بافتقاد الوطن ، و لذلك أيضا ، يظل يبحث عن طريق ليحقق من خلاله هويته الوطنية الفلسطينية و ليشبع من خلالها حنينه إلى وطنه الممنوع ، لهذا نراه يلجأ إلى منظمات المقاومة ليحمل سلاح و يشترك في عمليات ضرب العدو المغتصب أرضه ، و هو يقوم بهذا ليحقق حلمه بدولة فلسطينية مستقلة يعيش فيها ، وطن يعيش فيه الشعب الفلسطيني وحده ينعم بدفئه و يتجمع تحت رايته الموحدة ، فهو يريد دولة غير مقسمة و لا مشتركة مع أحد ،. إنها فلسطين خالصة للفلسطينيين دون غيرهم ، حيث يرتبط حلم العودة لديه بحلم إقامة وطن فلسطيني حر .

فنقرأ :

" و أيام كان يجاهد في القدس ، راجت إشاعة مفادها إنه في إحدي الليالي الراعبة بالبرق و الرعد كان له دور في نسف شارع في أحد أحياء القدس الجديدة الآهلة بالعدو . " [3]

فقد رأى الفلسطيني المنفي ، المقاومة طريق النصر الوحيد ، و التحمل و الإصرار هما وسيلتا هذا النصر . فنقرأ :

" يضربونك ، و يقفون على رأسك ، لأن يديك مقيدتان ، و شعبك مقيد . ما علاقتك بفتح ؟ أنت هاجرت إلى بغداد . أقمت في الخليج . في بيروت . ماذا تعمل في بيت لحم ؟ من رأيت في الخليل ؟ في بيت ساحور ؟ في نابلس ؟ في رام الله ؟ في البيرة ؟ لم أر أحدا سوى زوجتي . زوجتك حجة واهية . أبدا : كانت الزنزانة الرطبة لا تتسع لقامتي وقوفا ... بعد ساعات ، صراخ و عويل أسمعها و أنا في الزنزانة ... تذكر إلياس جثة مهشمة تحت الأنقاض ، و تلك

[1] د / محسن صالح : مرجع سابق ، صـ ١١٥ .
[2] www.plord.org. مقال بعنوان : أوضاع اللاجئين الفلسطينيين .
[3] البحث عن وليد مسعود ، مصدر سابق ، صـ ١٠٩ .

الليلة الرائعة الرهيبة ، و المطر الدافق و سيارة الجيب " المصادرة " التي سقتها و هي مشحونة بالديناميت، عبر منطقة ج، ثم منطقة أ، ثم منطقة ب ، و أنت بملابس الجندي الإنكليزي . " [١]

فقد قام " وليد " بالانضمام للجماعات الفدائية ، لتوجيه الضربات للعدو الإسرائيلي و لتحرير وطنه فلسطين ، مما جعله عرضة لهجمات و اعتقالات شرطة العدو ، كذلك كان يخضع لعمليات استجواب غير آدمية لا يحتملها إنسان ، لكي يشي بباقي رفاقه الذين نفذوا معه هذه العملية أو تلك ، و لكنه يتحمل ، و لا يجد غير هذا التحمل سبيلا لتحقيق حرية بلاده و لتحقيق هويته الوطنية فيها .

فنقرأ:

" كان العياط يخفف الألم و فجأة سألوني : أين طهبوب ؟ و من طهبوب ؟ ألم تكن معه في عملية نسف شارع بن سوميخ عام ١٩٤٨ ؟ لا أدري عن ماذا تتكلمون . إذن هم يعرفون عن تلك الليلة الرائعة المطرة قبل عشرين سنة ، و يذكرون طهبوب ؟ كأنهم يقرأون دماغي . لكني أدركت من أسئلتهم أنهم غير متأكدين من شيء . و إلا فلماذا هذا التعذيب و الجنون ؟ المهم ألا أنهار التحمل و الصمت حتى الموت ." [٢]

فالفلسطيني المنفي ، يرى أنه عائد لا محالة إلى وطنه ، و يرى كذلك أن الاحتلال الإسرائيلي لوطنه مصيره الزوال ، و عنده أن الوجود الإسرائيلي داخل فلسطين يعد أمرا غير صحيح ، لذلك فهو لن يدوم أبدا .

" فمن غير الممكن ، في نظر المطرودين ، أن يقوم على هذه الأرض العربية إلا مجتمع واحد (هذه البلاد لهذا الشعب) و لا يمكن لأي شكل اجتماعي آخر يفرض عليها ، إلا أن يمثل نوعا من التطعيم أو التصور. تصورات ليست خيالية ، و لكنها مصطنعة و زائلة . لقد نظر المطرودون إلى المجتمع الإسرائيلي باعتباره زواجا منافيا للطبيعة ، مع هذه الأرض العربية . من هنا ظهر الشعور السائد لدى الأغلبية الساحقة من الفلسطينيين بأن الإسرائيليين موجودون ، لكن لا إسرائيل . من هنا ، كذلك ، ظهر هذا الشعور بأن أرض فلسطين هي الأخرى تنتظر عودة سكانها الحقيقيين . " [٣]

من هنا ، فإن مسألة إقامة دولة فلسطينية على جزء من أرض فلسطين ، لا يحمل صفة الحل للقضية الفلسطينية من وجهة نظر " جبرا " ، حيث يعده حلا عنصريا ناتجا عن عنصرية قوى الهيمنة الغربية ، المتمثلة في قوى الغرب و على رأسها الولايات المتحدة الأمريكية إلى جانب عنصرية إسرائيل ذات الطابع اليهودي . و هذا الحل عنده هو نقيض الحل الحضاري العمراني الإنساني الذي تصبو إليه حركات تحرير الشعوب المحتلة ، لذلك فهو يرى أن على الشعب الفلسطيني أن يجاهد و يناضل من أجل تحرير فلسطين بأكملها ، دون أن ينقص منها شبر واحد ، من الإحتلال الإسرائيلي .

أما بالنسبة لمشكلة اللاجئين من وجهة نظر إسرائيل ، فقد استمر رفض الموقف الإسرائيلي " حل مشكلة لاجئي ١٩٤٨ ، و دعا إلى توطين اللاجئين في لبنان ، و سوريا ، و الأردن ، و مصر ، و دول الخليج حتى عام ١٩٦٧ أي عام عدوان الخامس من يونيو و سقوط الضفة الغربية ، و غزة و الجولان في يد الجيش الإسرائيلي ، فوجدت

[١] البحث عن وليد مسعود ، مصدر سابق ، صـ ٢٤٥ .
[٢] البحث عن وليد مسعود ، مصدر سابق ، صـ ٢٤٧ .
[٣] إلياس صنبر : مرجع سابق ، صـ ٢٠٢ .

إسرائيل نفسها مسيطرة على مئات الآلاف من اللاجئين ، و من هنا اضطرت إلى التعامل مع هذه المشكلة ، و لكن جاء تعاملها من خلال زيادة موجات القمع بناء على اعتقاد " ليفي أشكول " رئيس الوزراء الإسرائيلي في ذلك الوقت بأن هذه السياسة ستؤدي إلى هجرة عشرات الآلاف من اللاجئين إلى الخارج . "[١]

و جدير بالذكر أنه جرت محاولات عديدة لتوطين اللاجئين الفلسطينيين في مناطق كثيرة ، خاصة في العراق " لكن كافة المشاريع ذهبت في مهب الريح ، نتيجة الموقف الرسمي العراقي ، و كذلك رفض اللاجئين لفكرة توطينهم و دمجهم و إعادة توزيعهم . و مع توقيع أوسلو ١٩٩٣ ، جرت محاولات أمريكية و غربية لتوطين آلاف اللاجئين الفلسطينيين في العراق مقابل رفع الحصار عنه و قبوله مبدأ عملية السلام في الشرق الأوسط ، لكن الخطاب السياسي العراقي الرسمي كان واضحا و زادت وتيرته عام ٢٠٠٠ ، لجهة رفض تلك المحاولات ، و جاء ذلك على لسان أكثر من مسئول في الحكومة العراقية عام ١٩٩٩ م و عام ٢٠٠٠ م ، ناهيك عن الرفض المطلق من قبل اللاجئين الفلسطينيين و خاصة في مخيمات و تجمعات الفلسطينيين في لبنان . "[٢]

و يستمر الفلسطينيون في دول الشتات في رفض أي مشروعات تهدف إلى إعادة التوطين ، فهم على وعي بأن " سحق الفلسطينيين و تذويبهم في كيان الأكثرية العربية في المنطقة أو تهجيرهم ، هو أساس مشروع طمس فلسطين و محوها إلى الأبد ، و هذا ما لم يحدث . و رغم استماتة الإسرائيليين لتحقيق هذا الهدف ، إلا أن الفلسطينيين استطاعوا أن يفشلوا ذلك . و عدم محو فلسطين من الوجود بسبب تشبث أهلها بها و استماتتهم في الدفاع عنها و عن هويتهم ، هو السبب المباشر في إعطاب المشروع الصهيوني . و ما دام الفلسطينيون موجودين بوصفهم شعبا ، فإن شرعية الدولة اليهودية ستظل باستمرار في دائرة المساءلة و التآكل و ستظل الفرضيات الأولى للمشروع الصهيوني موضع مراجعة و نقد مستمرين . " [٣]

و الفلسطيني المنفي لا يعرف غير المقاومة طريقا ، لتحقيق الهدف الوحيد الذي يسعى إليه ، منذ أن حرم من وطنه ، و هذا الهدف هو تحرير وطنه ، فيرفض الحلول الدبلوماسية لأن عنده أن السلاح ، دون الحوار هو لغة التفاهم مع إسرائيل .

و يقول " وليد مسعود " لأحد الصحفيين :

" أرجوك ، لا تحدثني عن الشجاعة . فالشجاعة أمر شخصي بحت ، قائم بين المرء و نفسه . أصبح الجهر سخفا لا يقنع أحدا ، بل لا يسمعه أحد ، كمن يضرب طبلا بين الطرشان . الشجاعة الوحيدة التي تستحق الممارسة هي مجابهة الموت بالعضل ، بالفعل العنيف ، حيث يكون في الموت نفسه غلبة على الموت . موت الفدائي مثلا . أما أنتم فاسمحوا لي أن أقول لكم : أنكم جميعا جبناء تضربون للحوت طبولكم و صفائحكم ، لعله يقذف من حلقه القمر ."[٤]

---

[١] مكرم يونس: المشروعات الإسرائيلية لتوطين اللاجئين، مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية، العدد٨٦، يناير١٩٧٦،صـ ١٠٩ .

[٢] نبيل محمود السهلي : اللاجئون الفلسطينيون في العراق ، حقائق ودلالات ، دنيا الرأى ٢٢- ٤- ٢٠٠٥ ، مقال على الموقع الإلكتروني .http://www.pulpit.alwatanvice.com\20481.html

[٣] هيثم محمد أبو الغزلان : اللاجئون الفلسطينيون . القلق على الوجود و رفض التوطين ، مجلة دراسات باحث ، فصلية تعنى بقضايا فلسطين و الأمة ، صيف – خريف ٢٠٠٥ – ١٤٢٦ هـ ، (١١ – ١٢) ، صـ ٦٤ .

[٤] البحث عن وليد مسعود ، مصدر سابق ، صـ ١٥ .

و لنتوقف قليلا عند العبارات " مجابهة الموت بالعضل " و " بالفعل العنيف " و " في الموت نفسه غلبة على الموت " و " موت الفدائي " ، حيث نلاحظ أنها عبارات إن دلت على شيء ، فإنما تدل على مشروعية الفعل العنيف ضد العدو ، بل إنها تتخطى المشروعية لتصل إلى درجة أن هذا الفعل العنيف هو الطريق الوحيد المتاح في مواجهة العدو الغاصب ، و يبدو أن هذا التأكيد على استخدام الفعل العنيف من أجل الدفاع عن الهوية التي يهددها المحتل ينبع من يأس في قرارة الفلسطينيين اللاجئين ، فهم يترجمون هذا اليأس بموقف متطرف شديد الخطورة من شأنه أن يؤدي إلى أعمال شرسة و فظيعة ضد الآخرين و إلى أعمال استشهادية يذهب ضحيتها عادة الفدائيون أنفسهم ، ففي عالم لا يجد فيه الفلسطينيون اللاجئون مكانا لقيمهم و لا لحرياتهم و لا لحقوقهم المشروعة في الانتماء إلى هوية ، لا يسعهم إلا أن يجدوا في قضيتهم الحقيقة المطلقة ، فلا يعودوا يروا سوى هذه الحقيقة ، و لا يمكنهم أن يؤمنوا إلا بها . من هنا يتجهون إلى استعمال المقاومة بوصفها حلا أخيرا تلوح فيه بوارق الأمل .

و من ناحية أخرى لا يكون بوسع أحد أن يفرض على أناس من هذا النوع قواعد و مفاهيم من خارج مفاهيمهم و حقائقهم ، لأنهم هم الذين يحددونها و يختارونها و يلتزمون بها بمقدار ما تخدم قضيتهم و بمقدار ما تتناسب مع الظروف التي يناضلون فيها ، لذا فهم لا يراعون أي عرف اجتماعي أو سياسي ، كما أنهم لا يراعون أية قاعدة أخلاقية قد تشكل عائقا في سبيلهم ، فيضعون تحت تصرفهم جميع الطرق و الأساليب و الوسائل الممكنة ، دون أن يتراجعوا أمام الصعاب ، مهما بلغت خطورتها ، لأنهم في الأصل يلعبون لعبة الموت فقط ، الموت من أجل حياة بعينها يريدونها دون غيرها ، فكل ما هو ممكن فهو مسموح ، و كل ما هو نافع و فعال فهو ضروري و لا يمكن التخلي عنه لأي سبب من الأسباب ، فهم يهدفوا في الأساس إلى التغلب على العدو و تحقيق الأهداف المرجوة و انتصار قضيتهم الحقيقية على الإطلاق ، و المهم أن ينجحوا ، لذلك فلا فرق عندهم بين الوسائل العادية و القانونية و بقية الوسائل الأخرى مهما بلغت حدا كبيرا من العنف ، لقد صار اللاجئون و قضيتهم وجهين متلازمين فالواحد منهما لا يكون بدون الآخر لأن من له قضية حياتية لا يمكن أن يكون بلا هوية .

أما الحورات التي تدور حول مشكلة فلسطين بصفة عامة ، و أزمة اللاجئين الفلسطينيين ، بصفة خاصة ، فهي حوارات عقيمة الجدوى لا طائل من ورائها ، و لن تسفر عن أي تقدم ، فالعدو المحتل يعجز عن فهم لغة الحوار ، و في الوقت نفسه ، يفهم جيدا لغة القوة و السلاح ، إن حل مشكلة فلسطين ، ومن بعدها حل أزمة اللاجئين ، في نظر " وليد مسعود " لينحصر في نقطة واحدة فقط لا غير هي – الفلسطيني الفدائي – و هو يرى ذلك لأنه يدرك تماما أن أية تصريحات أو تلميحات أو بيانات أو وثائق أو مشاريع تستهدف وضع حلول بديلة لحق عودة الفلسطينيين إلى فلسطين كلها ، تعد استكمالا للمشروع الصهيوني فهي بمثابة استجابة واضحة و صريحة لشروط إسرائيل الاستعمارية التي تهدف إلى شطب قضية اللاجئين و تصفيتها .

و عنده أن إسرائيل يجب أن تتحمل المسؤلية القانونية و الأخلاقية عن ارتكاب أعظم جريمة في العصر التي تتمثل في طرد معظم أبناء الشعب الفلسطيني من أرض وطنهم بالقوة و تشريدهم في العالم بدعم و مساندة الغرب ، لذا فهو يرى أن حق العودة لأرض الآباء و الأجداد ، لفلسطين ، كل فلسطين هو حق مطلق و غير قابل للتنازل أو التفريط أو حتى التفاوض ، كذلك فإن جميع مشاريع التوطين و التهجير و التعويض لا تتجاوز حدود المشاريع و المخططات الإسرائيلية التي تهدف لتفتيت و تصفية قضية اللاجئين .

و الواقع أن " تمسك اللاجئين الفلسطينيين بحق العودة واضح بالرغم من سيطرة إسرائيل على الأرض الفلسطينية و تعنتها في عدم حل قضية اللاجئين و الصمت الدولي و العربي حيالها ، بالإضافة إلى الأوضاع الفلسطينية الداخلية و الأطماع الاقتصادية و الاجتماعية المعيشية السيئة يضفي جميعا أجواء من التشاؤم على قضية اللاجئين و حلها حلا يضمن تطبيق حقوقهم و منها حقهم بالعودة إلى ديارهم الأصلية . " [١]

" فواقع المواجهة الساخنة في الوطن مع الاحتلال الإسرائيلي ، لا يقلل من أهمية حركة مستقلة للاجئين ، بل هو يجعل من قضيتهم أحد العناوين الرئيسية للتعبئة الجماهيرية ضد الاحتلال و ضد تساوق السلطة و استجابتها لمخططات معينة تصب في مجرى تصفية حقوق اللاجئين . إن دور حركة اللاجئين في الوطن مرشح للتطور و التحول إلى أحد الروافد الرئيسية للحركة الجماهيرية الواسعة المناهضة للاحتلال ." [٢]

فهو – جبرا – يعلن عن عدم ثقته و يأسه و نقمته تجاه كل من يدخل في حوارات و مباحثات مع إسرائيل و يشعر بالخزى تجاههم ، و لسان حاله يقول لهم إن القرارات التي تخرج عن مؤتمراتكم و مفاوضاتكم بصدد قضيتنا ، لم تخرج عن موقفنا تجاهها ، و لكن شعبنا المشتت جراء الاحتلال الإسرائيلي ، يحتاج إلى أكثر من مجرد مواقف ، و دعاوي و وجهات نظر ، إنه لا يحتاج إلى الكلام ، فهذا كله لم يغير واقعنا و معاناتنا و غربتنا التي نتذوقها يوميا نتيجة للتقصير و العجز العربي ، فإذا أردتم المساعدة حقا ، فترجموا مؤتمراتكم هذه إلى أسلحة و حولوا مفاوضاتكم إلى حرب ، و انضموا إلينا لنحرر ذلك الوطن المغتصب .

فقد " أخذ الفلسطينيون زمام المبادرة في مواجهة المشروع الصهيوني بعد أن انكشف لهم مدى ضعف الأنظمة العربية إثر هزيمة ١٩٦٧ . و اضطرت الأنظمة تفاديا لموجات الغضب الشعبي لإفساح المجال أمام العمل الفدائي الفلسطيني ، الذي استطاع أن يبني قواعد قوية و واسعة خصوصا في الأردن و لبنان . " [٣]

و يؤكد " جبرا " انعدام الأمل في مساعدة الدول العربية لتحرير فلسطين . فنقرأ :

" ما هذه الأموال التي تحققها يا وليد أنت و زملاؤك ؟ لماذا لا تبقون لتعفنوا في المخيمات بل تسمحون لأنفسكم أن تتمركزوا في العواصم العربية ، و تمارسوا أعمالا كبيرة تثير حسد الناس و تنسيكم واجبكم الأوحد تجاه بلدكم السليب ؟ لماذا لا تحاربون بأيديكم العزلاء الحروب التي تحجم عنها الدول العربية بجيوشها ؟ و طبعا ، حالما تتحركون ، سيضربونكم على رؤوسكم و ينسفون الأرض تحت أقدامكم . يعلمون أنكم القوة التفجيرية الرهيبة التي تنتظر الساعة المؤاتية . يعلمون أنكم الوحيدون الذين لا تنسون ، و أن العالم العربي بدونكم لن يتحرك شبرا إلى الأمام . المشلولون المتحجرون يريدون منكم الشلل ، و التحجر . يريدون للبركان أن يبلع نيرانه و يدفن في أحشائه حممه ." [٤]

---

[١] صابرين الزين : مرجع سابق ، صـ ٢٠ .

[٢] المكتب السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين : القبضة المثقوبة . نظرة على المفاوضات و الحركة الجماهيرية من مجيء نتياهو إلى برتوكول الخليل ، شركة التقدم العربي للصحافة و الطباعة و النشر ، بيروت ، الأوائل للنشر و التوزيع و الخدمات الطباعية ، سورية ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١ ، صـ ١٣٩ .

[٣] د / محسن محمد صالح ، مرجع سابق ، صـ ٣١٥ .

[٤] البحث عن وليد مسعود ، مصدر سابق ، صـ ٣٢١ – ٣٢٢ .

و يظهر من كلام " جبرا " أنه لم يبق للدول العربية إلا الحديث عن مشكلة فلسطين دون العمل من أجلها " الحروب التي تحجم عنها الدول العربية بجيوشها " و حتى هذا الحديث صار حديثا سلبيا ، حيث أخذت التهم تلقى على كل فلسطيني غني و كأنه تخلى عن وطنه و انشغل بغناه و عمله ، مع أن هذا الأمر – كما ذكر آنفا – غير صحيح . و رغم يقين الدول العربية بأن السلاح و المقاومة و العمل الفدائي هي الطرق الوحيدة لحل الأزمة الفلسطينية ، إلا أن تلك الدول لا تدعم هذا العمل ، و لا حتى يتركونه لحاله دون مساعدة ، بل " حالما تتحركون ، سيضربونكم على رؤوسكم و ينسفون الأرض تحت أقدامكم " إنهم يضعون العراقيل في طريق العمل الفدائي الفلسطيني ، بغية تقويضه و كأن الفلسطينيين أعدائهم ، و هم في حالتهم هذه " مشلولون ومتحجرون " ، ويريدون الشلل و التحجر أيضا للمقاومة الفلسطينية . و من ناحية أخرى فهم – أي الدول العربية – ينادون في مختلف المحافل بالإخوة و الوحدة العربية ، و مع ذلك ، فهم يتعاملون مع الفلسطيني كما يتضح من الشاهد التالي :

" لقد كانت مصيبة الفلسطيني لا النفي عن مسقط رأسه فحسب ، بل الصعوبة المفروضة عليه في التنقل من بلد إلى بلد و رصده رصد المجرمين من أجهزة أمن لا تحصى أنواعها ، و ما من حكومة عربية إلا و تصرخ بالوحدة و تضع في الوقت نفسه ألف حاجز بين قطرها و القطر العربي الآخر . أمرنا لله ." [1]

فـ " جبرا " يحمل الدول العربية قسما كبيرا من مصيبة الفلسطينيين ، من خلال تخليهم عنه و يرى أن هذا هو حال الدول العربية مع الفلسطينيين اللاجئين حتى اليوم . و تجدر الإشارة في هذا المقام إلى التقرير الذي أعده الصحفيان الأمريكيان " جوديت ميلر " و " ديفيد صامويلز " و الذي نشر بصحيفة " الإندبندت " بعنوان " لا طريق نحو الوطن : مأساة الشتات " حيث نقرأ :

" لقد تم طرد نحو ٢٥٠ ألف فلسطيني من الكويت و دول خليجية أخرى عقابا للقيادة السياسية الفلسطينية بسبب دعمها لـ " صدام حسين " ، كما أن عشرات الآلاف من الفلسطينيين المقيمين في العراق جردوا من ممتلكاتهم بعد حرب الخليج الثانية . أما في لبنان ، فقد حرم اللاجئون الفلسطينيون عام ٢٠٠١ من حق تملك العقار أو نقل ملكية العقارات التي يملكونها أصلا إلى أبنائهم . و في السياق نفسه ، صدرت قوانين تحظر عليهم العمل في عشرين مهنة من المهن منها مهنة الطب و المحاماة و الصيدلة ، بل و حتى الفلسطينيون الذين يعيشون في الأردن لهم أسبابهم الخاصة التي تدعوهم إلى عدم الشعور بالأمان في ظل التهديدات الرسمية بتجريد بعضهم من الجنسية الأردنية . " [2]

هكذا يرى " جبرا " كيف أن الدول العربية تبعد و تنحى القضية الفلسطينية عن بالها ، و تبقي عليها فقط في الخطاب الإعلامي الذي يبرز التضامن و الوحدة و التضحية في سبيل القضية ، فيتم مناصرة الفلسطينيين بالقول فقط ، دون العمل على تحقيق ذلك في الواقع الملموس ، لهذا يرفض " جبرا " تلك المساعدة ، و لا يريد لها أن تستمر ، فمن يريد حل قضية فلسطين ، حقا ، فليتجه صوب ميدان الحرب ليحقق هذا الهدف ، لذا ترك " وليد مسعود " عمله ، حيث كان يعمل في أحد البنوك و في قطاع الأعمال و كذلك كان يعمل كاتبا ، واتجه إلى ميدان القتال و كذلك ، أيضا ، فعلت " وصال رؤوف " و هي إحدى صديقاته من العراق . فنقرأ :

---

[1] البحث عن وليد مسعود ، مصدر سابق ، صـ ١١٠ .

[2] http://www.bbc.co.uk\arabic\worldnews\2009\10\091022-ra.shtml.

" كانت تلك آخر مرة رأيناها فيها . و بعد أيام ركبت الطائرة إلى بيروت ، و لم تعد . و لم أدهش . بل كنت أتوقع ذلك : لقد التحقت بجبهة فدائية . و جاءتني منها رسالة تذكر الجبهة التي التحقت بها ." [1]

من هنا فقد اتسعت رقعة العمليات الفدائية ، و تعرضت إسرائيل بشكل أكبر لمخاطرها ، رغم محاولاتها المستميته للقضاء عليها " فما كادت إسرائيل تفترض النجاح في اقتلاع المقاومة و ضرب القواعد الفدائية داخل الحدود و خارجها ، حتى فوجئت بوجود و نشوء المزيد من الخلايا و استمرار العمليات الفدائية الكبيرة و العادية سواء في الداخل و على الأخص في غزة أو من الحدود الأردنية حتى سبتمبر ١٩٧٠ و الحدود اللبنانية بخاصة في الأعوام ١٩٧٢ ، ١٩٧٤ ، ١٩٧٥ ، أو من داخل و خارج منطقة الشرق الأوسط . كذلك حين حاولت إسرائيل تصفية القواعد الفدائية في عمق الأراضي الأردنية و السورية و اللبنانية ، فوجئت بكونها قد جنت فشلا عسكريا رئيسيا عندما تحولت تلك القواعد إلى وجود عسكري أو وجود سياسي التفت الجماهير و طلائعها الوطنية حوله سواء في الأردن حتى عام ١٩٧٠ – ١٩٧١ أو في سورية أو في لبنان على وجه الخصوص طوال سنوات الحقبة ١٩٦٧ – ١٩٧٧ . " [2]

هذه هي المساعدة الوحيدة المقبولة بالنسبة للفلسطينيين ، المقاومة و السلاح و العمل الفدائي ، حيث نرى " جبرا " يطالب بتقليص المسافة بين عالم السياسة و بين واقع الجماهير الشعبية ، مؤكدا سحب السياسة من برجها العاجي ، نحو المزيد من الإلتصاق بالواقع و تفاصيله و متغيراته . لقد هددت إسرائيل هويته الوطنية بعد أن حرمت عليه وطنه و عندما تتهدد الهوية يتهدد معها الفرد ، فلا يسعه عند ذلك إلا أن يهب للدفاع عنها بجميع الوسائل المتاحة . و بهذا تشكل – عنده – المقاومة ، بعدا جديدا يحقق من خلاله ، هويته الوطنية . و نراه يقوم بتوريث هذه الوسيلة – المقاومة - إلى ولده ليحقق هو الآخر هويته الوطنية بها فـــ " مروان " ابن " وليد " أحد الأعضاء النشطين في الجماعات الفدائية ، يوجه نيرانه نحو العدو و يكبده الخسائر إلى أن يستشهد . هذا و قد قطع " مروان " على نفسه عهدا . فنقرأ في حوار دار بين " وصال " و " مروان " . يقول الأخير فيه :

" عندنا تدريب قاس ، عنيف ، أنا و مجموعتي . لا أصدق متى سنعبر الحدود .

...

" لك مني وعد ".

" وعد ؟ "

أن أطعمك ، يوما من الأيام ، سمكا من بحيرة طبريا ، و أنا و أنت و أبي جالسون على ضفتها . و لو بعد خمس سنوات . أو عشر سنوات . موافقة ؟ "[3]

---

[1] البحث عن وليد مسعود ، مصدر سابق ، صـ ٣٧٨ .

[2] د / أسعد عبد الرحمن : أبرز معالم المقاومة الفلسطينية منذ عام ١٩٤٨ ، كتاب العربي ، الفلسطينيون من الاقتلاع إلى المقاومة ، الكتاب التاسع عشر ، سلسلة فصلية تصدرها مجلة العربي ، ١٥ إبريل ١٩٨٨ ، صـ ١٠٨ .

[3] البحث عن وليد مسعود ، مصدر سابق ، صـ ٢٨٥ .

فصورة الوطن الفلسطيني الحر ، لا تفارق خيال فلسطينيي الشتات لا الآباء منهم و لا الأبناء ، فقد اتخذوا عهدا بينهم و بين أنفسهم : أن يعودوا إلى ذلك الوطن ، مهما كانت الصعوبات ، و مهما طال بهم الزمن و هذا إن دل على شيء فإنما يدل على تمسكهم بهويتهم الوطنية في الشتات و العمل علي تحقيقها في الوطن المحرم .

و في عام ١٩٥٤ قال " جون فوستر دالاس " * ، لجمهور من المستمعين في الجامعة الأمريكية في بيروت " إن المشكلة الفلسطينية سوف تحل عندما يحل محل جيل المنفيين أبناؤهم ، لأنهم سوف لا يشعرون بارتباط بوطنهم ، ربما كان يعتقد أن ذلك صحيح ، ومما لاشك فيه أنه مثل الإسرائيليين كان يأمل في أن يكون ذلك صحيحا . لكننا الآن أمام جيل ثالث من اللاجئين و لا ينكر مراقب أمين دقيق أن ارتباط الفلسطينيين بأرضهم قد ازداد قوة خلال سنوات النفي و كما يشيرون هم أنفسهم فإنه إذا كانت فلسطين تعني الكثير بالنسبة إلى يهود الشتات الذين لم يروها طيلة ألفي سنة ، فما الذي يمكن أن تعنيه بالنسبة لشعب يتذكرها فعلا ؟ " [١]

فحق العودة للاجئين الفلسطينيين تتوارثه الأجيال من جيل لآخر حتى يتم استعادة كامل الحقوق الوطنية و القومية لهم و لتعلم إسرائيل و ليعلم من يعاونها من الغرب أو من الشرق أن مشاريع التوطين و التعويض و التجنيس لا يمكن أن تمحو قضية الوطن ، مهما كانت الإغراءات أو الظروف الاجتماعية و السياسية السيئة التي يمر بها الفلسطينيون .

و الواقع أن الذاكرة الفلسطينية للاجئين قد لعبت دورا هاما في الحفاظ على هويتهم الوطنية لقد حملوا وطنهم في ذاكرتهم فصار يصاحبهم و يتنقل معهم في بلدان الشتات ، حيث " تعد الذاكرة الفلسطينية و ذاكرة النكبة تحديدا ، إحدى الشواهد الحية على إبراز همجية الحركة الصهيونية ، كما تحمل أيضا الصورة الجميلة للأرض و الإنسان و العادات و التقاليد التي كان الفلسطينيون يعيشونها قبل نكبة عام ١٩٤٨ . و بعد مرور أكثر من ستين عاما ، تعلو حاليا أهمية التاريخ الشفوي المروي على لسان أبناء الجيل الأول للنكبة و الأشخاص الذين عايشوا المأساة لحظة بلحظة . كما يركز العديد من الباحثين في هذا المجال على إبراز دور الذاكرة في تشكيل الهوية السياسية للاجئين . " [٢]

إذن يعد شعور الارتباط بالوطن الفلسطيني أمرا يستحيل استئصاله ، رغم كل المحاولات الرامية لذلك ، فقد تحول هذا الشعور إلى إحدى السمات الوراثية ، التي تتواصل من جيل إلى جيل ، هذه السمات التي مكنت الفلسطيني المنفي ، الذي لم ير فلسطين أبدا لأنه ولد في الشتات ، من أن يدرك أن فلسطين وطنه و أن شعبه مشتت و ممزق جراء الاحتلال الإسرائيلي لهذا الوطن ، فقد تحولت الهوية الوطنية الفلسطينية للاجئين إلى " قضية حياتية تضع أصحابها أمام الاختيار بين الموت و الحياة ، فلا يسعها عند ذلك إلا أن تحرك غريزة البقاء عند الإنسان الذي ينتمي إليها و تدفعه إلى ردة فعل تبلغ حدود اللاعقلانية . " [٣]

و يصر " فلسطينيو الشتات جميعهم على حقهم في العودة إلى فلسطين ، و لم تثنهم عشرات السنوات من اللجوء و البعد عن الوطن و ظروف القهر و المعاناة و محاولات التذويب و التوطين . لم تثنهم عن تعلق قلوبهم بالأرض المقدسة ، فلا زالوا

---

[١] ديفيد جيلمور : مرجع سابق ، صـ ٩٦ .
[٢] صابرين الزين : مرجع سابق ، صـ ١٦ .
* وزير الخارجية الأمريكية في عهد الرئيس دوايت أيزنهاور.
[٣] د / برهان غليون : مرجع سابق ، صـ ٩٣ .

يربون أحفادهم و أبناء أحفادهم على هذا الأمل و يعلمونهم أنهم أبناء تلك القرية أو المدينة من أرض فلسطين و لا زال الكثير منهم يحتفظون بمفاتيح بيوتهم القديمة و شهادات امتلاك الأرض ... و قد كان دور فلسطينيي الشتات قياديا بارزا في إنشاء المنظمات الفدائية و منظمة التحرير الفلسطينية و قيادة التحرك السياسي الفلسطيني طوال العقود الماضية الأربعة . " [1]

و بهذه الطريقة يضمن اللاجئون ألا يسقط حقهم في العودة إلى وطنهم ، فلا زالوا حتى اليوم يعلمون الأبناء بأنهم من اللد أو الرملة أو عكا أو غيرهم من المدن أو القرى الفلسطينية المندثرة . من هنا ينتقل إلى الجيل الجديد تيار التمسك بهوية وطنية لوطن سليب لم تطأ أقدامهم أرضه ، لكن رغم ذلك يتوقون إليه و لا يعرفون غيره و لا يرضون بغيره بديلا ، مهما استقروا في بلدان العالم ، فظروف الشتات المختلفة التي عانى منها الفلسطينيون قد ساهمت إلى حد كبير في خلق نوع من الحضور الكلي المتخيل لأرض فلسطين الممنوعة يقومون من خلالها بالدفاع عن حقهم السليب في تلك الأرض المغتصبة ، و هكذا يتم التحايل على التهديد الذي واجه هويتهم الوطنية بخلق ما يشبه وطن فلسطيني ينتقل معهم في كل مكان و في كل زمان و يتوارثه عنهم الأبناء و الأحفاد في انتظار أن تحين اللحظة التي يتحول فيها هذا الخيال إلى واقع .

و من ناحية أخرى ، فلازال اللاجئون ، حتى اليوم يرون أن المقاومة هي الأسلوب الأمثل لتحرير فلسطين و جعلها لكل الفلسطينيين ، و لذلك نراهم أكثر عنفا في الدفاع عن هويتهم الوطنية الفلسطينية و هذا العنف ، إنما يوازي في شدته و قوته و عمقه التهديد الذي ألحقته إسرائيل بهذه الهوية ، فيقوم الفلسطينيون اللاجئون بالعديد من أشكال العنف للدفاع عن هذه الهوية ، سواء الأعمال المنظمة أم الخارجة عن القانون .

" فسواء أتكدسوا – أي الفلسطينيون اللاجئون – في المخيمات أم هاموا بحثا عن أقربائهم ، أم استقروا في المدن العربية ، أم خضعوا إلى الإدارة العسكرية المصرية في شريط غزة ، أم منحوا بين عشية و ضحاها الجنسية الأردنية في الضفة الغربية فإن الفلسطينيين قد بقوا ، على الرغم من هذا الانفجار يعملون ككيان وطني مبعثر تراوده - قبل أي شيء آخر - فكرة استعادة تماسكه من جديد ."[2]

فالهوية الوطنية الفلسطينية لفلسطينيي الشتات راسخة غير قابلة للزعزعة " فاللاجئون لا يريدون التوجه إلى أي مكان آخر غير وطنهم . و هم فخورون بهذه الحقيقة و كثيرا ما يزعمون أنهم أول لاجئين في التاريخ يرفضون قبول وضع اللاجئين و إعادة التوطين . " [3]

من هنا كان لزاما على فلسطينيي الشتات أن يقضوا بقية حياتهم هائمين في أرجاء العالم باحثين عن وطنهم الضائع ، ليستطيعوا ممارسة هويتهم الوطنية في رحابه بصورة طبيعية شأنهم في ذلك شأن أي جماعة داخل وطنها . و لقد كانوا دائما في وضع مقلقل في بلدان اللجوء ، لأن أحدا منهم لم يكن قادراعلى التخلص من هويته الوطنية الفلسطينية و اكتساب هوية شعب آخر.

[1] د / محسن محمد صالح : مرجع سابق ، صـ١٣٩ .
[2] إلياس صنبر : مرجع سابق ، صـ ١٩٥ .
[3] ديفيد جيلمور : مرجع سابق ، صـ ٩٦ .

الفصل الثالث

الهوية الاجتماعية

أولا : الجانب الإسرائيلي :

أ – اليهود الغربيون (الأشكيناز)

ليس من السهولة بمكان أن نتناول بالدراسة مجتمعا لم تتبلور بعد أطره الاجتماعية و الثقافية و السياسية تبلورا كاملا ، فالمجتمع الإسرائيلي في تغير مستمر ، لكونه مجتمعا حديث العهد ، يضم في داخله العديد من الثقافات المختلفة و التوجهات الأيديولوجية المتضاربة التي ميزت الجماعات اليهودية على الدوام . و رغم المحاولات المستمرة لبلورة مجتمعا إسرائيليا جديدا يكون متكاملا و متعاونا و متناغما و يتسم بسمة المجتمعات العادية الطبيعية ، فإن ذلك لم يتحقق ، و في بعض الحالات تعمقت الفجوات بين المجموعات المختلفة المشكلة للمجتمع الإسرائيلي .

و قد شغلت قضية البحث عن هوية المجتمع الإسرائيلي الأوساط الثقافية و الأدبية و السياسية داخل المجتمع الإسرائيلي " و احتلت مساحة لا بأس بها من النتاج الأدبي العبري المعاصر ، كما استغرقت أمدا طويلا بدأ قبل قيام الدولة و لا يزال مستمرا ، فهوية المجتمع الإسرائيلي – عند تحديدها و الوقوف على أبعادها الأصلية – يشوبها الكثير من التعقيدات و تصطدم بالكثير من العقبات التي تجعلها مغايرة عن سائر الهويات الأخرى ، و ربما يرجع ذلك إلى أن المجتمع الإسرائيلي نفسه يختلف في نشأته و تركيبته الاجتماعية عن الشعوب الأخرى قاطبة . " [١]

و يُعد وضع المجتمع الإسرائيلي وضعًا شاذا إذا ما قورن بسائر المجتمعات ، ذلك أن " بناء الأيديولوجية الصهيونية السائدة في المجتمع الإسرائيلي سابق في وجوده على البناء الاجتماعي ذاته ، الأمر الذي يعني أن هذا المجتمع قد نشأ و تكون تحت مظلة أيديولوجية فلسفية سياسية تحكم و تضبط دينامياته الداخلية . "[٢] فعدم التجانس سمة تميز المجتمع الإسرائيلي كله ، حيث " يعاني من المتناقضات العديدة ، مثل التناقض الواضح في البنية الاجتماعية بين الأشكيناز و السفارديم ، و التناقض في التركيبة السكانية من عرب و إسرائيليين ، و صراع الهوية أو ازدواجية الجنسية التي يحملها المواطن الإسرائيلي ، و ما تمليه من ولاء مزدوج بين الموطن الأصلي و الموطن الجديد ، بالإضافة إلى التناقض بين جيل ما قبل قيام الدولة و ما بعد قيامها و ما أوجده من تصدعات نفسية بين الجيلين ، فهذه التناقضات جميعا – و غيرها من التناقضات الأخرى – آلت إلى صراع من شأنه أن يفتك بالبنية الاجتماعية الإسرائيلية و تعصف بكل مزاعم الأمن و الاستقرار ، و خاصة في زمن السلم ." [٣]

هذا و قد دخل المجتمع الإسرائيلي في " مرحلة التبلور الاجتماعي في شكل مجتمع رأسمالي استهلاكي و بدأت تسمو فيه ملامح الاستقطاب الطبقي بكل ما يترتب عليها من

---

[١] د/ زين العابدين محمود أبو خضرة : جيل يبحث عن هوية – دراسة في قصة " جبل المكبر " للكاتب الإسرائيلي عاموس عوز ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٥ ، صـ ١ .

[٢] د / إبراهيم البحراوي ، الأدب الصهيوني بين حربين حزيران ١٩٦٧ – تشرين ١٩٧٣ ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، يونيو ١٩٧٧ ، صـ ١٤ .

[٣] د / زين العابدين محمود أبو خضرة : قضايا المجتمع الإسرائيلي في القصة العبرية ، بدون طبعة ، ٢٠٠٦ ، صـ ٩٤ .

نمو ميول التمرد النفسي الاجتماعي و ظهور أشكال متناقضة من الوعي الطبقي لا تتناقض مع ذلك في مجملها مع البناء الأيديولوجي الصهيوني في مقولاته الأساسية . " [١]

فالمجتمع الإسرائيلي مجتمع متناقض يضم بين طبقاته فئات اجتماعية كثيرة و متباينة ، بما تحمله هذه الفئات من تنوع ثقافي متضارب . و المعروف أن " التناقض سمة البشرية اللازمة . فلا يمكن أن يخلو فرد أو مجتمع من تناقض . و على كل فرد أو مجتمع علاج التناقض الكامن سواء في محيطه الداخلي ، أم في بيئته الخارجية و إلا أودى به . بيد أنه مهما قيل عن تناقض مجتمع من المجتمعات البشرية سواء في الماضي أم الحاضر ، فلا يمكن أن يبلغ في حدة تناقضاته ما يبلغه اليوم مجتمع إسرائيل . " [٢]

من هنا فقد أدى وضع المجتمع الإسرائيلي بكل ما يكتنفه من متناقضات إلى إصابة أفراده بحالة من الارتباك و التخبط ، تلك الحالة التي تطورت لتصل إلى إحداث نوع من الإشكال في الهوية الاجتماعية لدى أفراد هذا المجتمع ، الأمر الذي أدى إلى وجود صعوبة بالغة سواء في تكيفهم مع هذا المجتمع و اندماجهم فيه ، أم في انفصالهم و نزوحهم عنه ، فبينما " كانت الأيديولوجية الخاصة بالصهيونية السياسية تستند على افتراض " رفض الشتات " ، فقد ارتبط كيان الدولة منذ بدايتها بشرط الهجرة الجماعية ليهود الغرب إليها . و نتج عن ذلك أن قضية تهجير يهود الشتات ارتبطت منذ البداية بنشاط مكثف يجري في الخارج ، و لكن بحضور هؤلاء إلى إسرائيل خضعوا لسياسة " بوتقة الصهر التوحدية " بغرض انتزاع كل شوائب الغربة الشتاتية منهم ، و كان الهدف من ذلك هو بلورة اليهودي الجديد بهدف تحقيق عنصر التكامل لديه . و جرى ذلك في وقت واحد مع تحقيق نجاحات أخرى مؤكدة ، و لكن نشأت عن هذا الوضع فجوة أخذت في الاتساع بين أنماط حياة غير متجانسة نشأت بدرجة كبيرة على أيدي يهود الشتات الذين هاجروا إلى البلاد ، و بين أيديولوجيات التوحد الخاصة بالدولة و التي حظيت بالدعم الرسمي و قامت بدور الوسيط السياسي . " [٣]

فالمجتمع الإسرائيلي ، مجتمع صغير و منغلق و يحوي توترات كثيرة " فمن ناحية يوجد توتر الحياة في كثافة على جزيرة سياسية ، و من ناحية أخرى ، اللقاء بين الثقافات و الطوائف المختلفة . إن هذا التوتر المزدوج يخلق ذلك التناقض الأساسي للوجود الإسرائيلي : التضامن ، و الاشتراك في المصير و الاتفاق العام إلى جانب الانفصالية ، و الصدام الثقافي و كذلك العداء الحاد بين الأشخاص و بعضهم . و يضاف إلى ذلك عدم وجود الانسجام في اللغة ، و في الثقافة ، و في التصرفات ، و في بناء المدن – و من هنا يمكن أن نقترب من فهم ذلك الطابع الخاص لهذا المجتمع . " [٤]

و يظهر أمامنا الآن " يوناثان " الشاب الإسرائيلي بوصفه مثالا على تأثير تناقضات المجتمع الإسرائيلي على أفراده و معاناتهم داخله . إن " يوناثان ليفشيتس " ولد وترعرع في أحد الكيبوتسات في إسرائيل فصار صبارا إسرائيليا و كما ذكر في الفصل الأول من البحث فإن كلمة " صبار " تعني من ولد في إسرائيل ، أيضا فهي " تعني التين الشوكي ، و قد أخذت مدلولا اجتماعيا في المجتمع الإسرائيلي ، يعني ذلك الجيل من اليهود الذي ولد أو تربى في فلسطين قبل عام ١٩٤٨ ، أو بعد ذلك التاريخ و قد ارتبط استخدام هذا التعبير

---

[١] د / إبراهيم البحراوي ، مرجع سابق ، صـ ١٥ .
[٢] فؤاد محمد شبل : مشكلة اليهودية العالمية ، مرجع سابق ، صـ ٩٥ .
[٣] د / موشيه تسوكرمان ، مرجع سابق ، صـ ٣٥ .
[٤] د / رشاد عبد الله الشامي : الشخصية الإسرائيلية و الروح العدوانية ، مرجع سابق ، صـ ٣١٨ .

بهذا المدلول الاجتماعي بواقعة المباريات التي كانت تجرى في مدرسة (هرتسليا) الثانوية في تل أبيب بين الطلبة اليهود الذين من أصل أوروبي و بين أقرانهم من اليهود من مواليد فلسطين حول الإمساك بثمرات التين الشوكي و تقشيرها بالأيدي العارية . و نظرا لأن اليهود من مواليد فلسطين كانوا دائما هم الفائزين فإن هذا التعبير قد لصق باليهود من مواليد فلسطين ثم أصبح يطلق بعد ذلك على جيل كامل من اليهود الذين ولدوا على أرض فلسطين أو تربوا فيها اعتبارا من العشرينيات . " [١]

فبعد إقامة إسرائيل " تطلعت إدارتها لخلق صورة جديدة للإسرائيلي و هي الصبار ، فكانت صورة الصبار مضادة تماما للصورة الشتاتية ، حيث حملت صورته عدة معايير أساسية فالصبار هو المحارب الذي يحتل الأرض . المحارب هو اليهودي الجديد و الفخور الذي يشعر أنه المسئول عن الأرض و أمورها و الصبار هو الطليعي العبري الذي يحرث الأرض و يتكسب من عمل يده و ليس اليهودي المنعزل الذي يقتات من هبات الأغيار ، بل هو شخص يحرس و يدافع عن بيته و ممتلكاته و يحارب في سبيلها حتى آخر نقطة في دمه . " [٢]

من هنا فـ" يوناثان " مولود داخل المجتمع الإسرائيلي و يحمل لقب " صبار " ، لذا فالمفروض أن يكون أكثر تقبلا لهذا المجتمع و أكثر استعدادا للاندماج فيه ، و من ناحية أخرى فهو يجب ألا يشعر بأية تناقضات لأنه قد تربى عليها و هي تمثل بالنسبة له أمرا معتادا ، كذلك فالكيبوتس ، في حد ذاته من أهم أنواع البناء الاستيطاني ، و أكثرها شهرة ، فمنذ بداية القرن العشرين " كان الكيبوتس عنصرا مركزيا في مشروع الإحياء القومي و إقامة إسرائيل على أرض فلسطين ، و قد انتشر نشاط الكيبوتس على مستوى العالم كله و بصفة خاصة في كيبوتسات اليهود في دول الشتات ، و تكمن أهمية دور الكيبوتس بالنسبة للمشروع الصهيوني أساسا في نمط حياته الخاص لكونه مجتمعا متعاونا يقوم على المساواة و الديمقراطية التي يديرها مجموعة من الناس تجمعوا بمحض إرادتهم كي يعيشوا سويا . " [٣]

هذا و قد " نشأ الكيبوتس بوصفه جزءا من المجتمع الطليعي في إسرائيل في أوائل القرن العشرين ، ثم تبلور فأصبح أسلوب حياة يقوم على مبادئ المساواة و المجتمع الجماعي ... و قد أسهم أبناء الكيبوتسات إسهاما فعالا في بناء الدولة و في خدمة مرافقها . و تولى الكيبوتس قبل قيام الدولة و في السنوات الأولى لقيامها مهام متنوعة في مجالات الاستيطان و الاستيعاب و الزراعة . " [٤]

و تجدر الإشارة إلى أن كلمة " كيبوتس " في دلالتها اللغوية تعني " تجميع " و هي " إشارة إلى تجميع اليهود في مكان واحد طبقا للتعبير التوراتي (קבוץ גלויות) أي تجميع المنفيين . أما دلالتها الاجتماعية ، فهي تشير إلى مستوطنة صهيونية تعاونية تضم مجموعة من المستوطنين اليهود يعيشون داخل حيز معين من الأرض حياة جماعية اشتراكية تعاونية ، فالأرض و المباني و الآلات ، و كل شيء داخل الكيبوتس ملك للجماعة و

---

[١] د / رشاد عبد الله الشامي : المرجع نفسه ، صـ ٨٣ .

[٢] אסתי שפר : תפיסת כור ההיתוך - הצבר הישראלי 2008-10-21 http://www.articles.co.il.

[3] - http://www.kibbutz.org.il.

[٤] مركز الإعلام الإسرائيلي : حقائق عن إسرائيل ، بدون طبعة ، ١٩٩٤ ، صـ ١١٨ .

لا مكان فيه للملكيات الخاصة ، أو الثروة الخاصة و تدور وسائل الإنتاج فيه طبقا للجهد الذاتي ، فيحظر استقدام عمال أو أجراء من خارج المستوطنة ." [1]

و رغم تلك المثالية التي يحظى بها الكيبوتس ، غير أن " يوني " قد شعر بعدم قدرته على التكيف مع هذه المثالية ، فأحس بالانقطاع ليس عن الكيبوتس فقط ، بل عن إسرائيل بأكملها . و السؤال الذي يطرح نفسه هنا ، هو إذا كان الفرد مولودا داخل إسرائيل و معتادا على كل ما بها و إذا كان مجتمع الكيبوتس ، و هو جزء من المجتمع الإسرائيلي ، يمثل صورة مثالية للمعيشة داخله ، فكيف يمكن أن يعاني الفرد من الشعور بالانقطاع عن هذا المجتمع و يعجز عن التكيف مع سائر الأفراد المحيطين به ؟

وللإجابة عن هذا السؤال نقرأ الآن حوارا دار بين " يوني " وزوجته " ريمونا " :

" אל תתרגז , יוני "עכשיו את גם כן . מה יש לכם כל היום , כולם מהבוקר אומרים לי אל תתרגז אל תתרגז בזמן שאני בכלל לא מתרגז ואם אני דווקא רוצה להתרגז אז מה , אסור לי להתרגז? מה יש? כל אחד בא ומציל לי את הנשמה שלי . כל אחד מתחיל אתי בויכוחים כל היום . את ו אודי ו האיטלקי הזה ו אבא שלי ואיתן ריי"ש ו כולם . הלא אפשר להשתגע לגמרי ככה . בבוקר האיטלקי המשוגע התעקש לתקן לי את הנעל שלי ו בערב את עם הז'קט המסמורטט הזה ואחר־כך אבא שלי בוא לחלק לי משימות ו לתקן את הנשמה שלי . " [2]

" لا تغضب يا يوني "

و الآن ها أنتِ هنا أيضا . ماذا دهاكم طوال اليوم ، فمنذ الصباح و جميعكم تقولون لي لا تغضب ، لا تغضب ، بينما أنا لست غاضبا بالمرة ، و لو أردت الغضب بذاته ، فماذا في ذلك ، أمحرم علي الغضب ؟ ما الذي يحدث ؟ كل شخص يأتي و ينقذ روحي . كل شخص يتحاور معي طوال اليوم . أنت و أودي و هذا الإيطالي و أبي و إيثان رايس و الجميع . ألا يمكن هكذا أن أُجن تماما . في الصباح أصرّ الإيطالي المجنون على أن يصلح لي فردة حذائي و في المساء أنتِ و هذا الجاكت الممزق ، و بعد ذلك يأتي أبي ليوكل إليّ مهام و يقوّم نفسي ."

نستنتج من كلام " يوني " أن الجماعة المحيطة به تفرض نفسها عليه فرضا ، فإذا غضب فالجميع يعرف عن غضبه و عن سبب هذا الغضب و يقوم أفراد هذه الجماعة بتوجيه عبارات التهدئة و النصح و الإرشاد لإنهاء حالة الغضب التي يمر بها الفرد ، مع أن الغضب أحد المشاعر الإنسانية التي لا يوجد بشر لا يشعر بها و إذا شعر بها فهذا الأمر لا يقلل من شأنه ، الأمر الذي يصيب هذا الفرد بالضيق و الثورة على هذه الأوضاع " ما الذي يحدث ؟ كل شخص يأتي و ينقذ روحي " ، فكأنه مراقب طوال الوقت ، كذلك فإن أبسط أمور هذا الفرد تكون معروفة لدى الجماعة حتى إن كانت تافهة فقد أصر عضو الكيبوتس " الإيطالي " على تصليح حذاء " يوني " و هو أمر غريب ، فالكل يعلم عن الكل كل شيء . و نلاحظ أن " عاموس عوز " هنا استخدم لفظ " الإيطالي " ليعرف به الفرد الذي أراد أن يصلح حذاء " يوني " و لم يستخدم اسم هذا الفرد و لم يصفه بالإسرائيلي أو حتى اليهودي ، علما بأن كل من في الكيبوتس ، إسرائيليون – يهود ، إلا أنه استخدم هذه

[1] د / زين العابدين محمود أبو خضرة : قضايا المجتمع الإسرائيلي ، مرجع سابق ، صـ ٥١ ، ٥٢ .
[2] מנוחה נכונה ، שם " עמ'٢٨ .

الصفة ليقول للمجتمع الإسرائيلي : إن كل فرد جاء إلى إسرائيل إنما جاء بثقافته و عاداته و تقاليده التي حملها معه من موطنه الأصلي أو وطنه الأول ، كذلك فقد حدد " عاموس عوز " " فردة الحذاء " و لم يقل الحذاء ، ليبين مدى تدخل كل فرد من أفراد الكيبوتس في خصوصيات رفيقه و كيف أنه يعرف أدق أدق التفاصيل عنه .

و يقول عضو الكنيست السابق " شلومو بن عمي " : " إن هذا المجتمع الذي أنشأه الآباء المؤسسون من الصهاينة على أن يكون بوتقة صهر تمتزج فيها مختلف الثقافات و اللغات ، تحول إلى مجتمع متعدد الأعراق ومتعدد الثقافات و متعدد الطوائف . لقد تغيرت و تفتت الصورة الأسطورية المأمولة لتحل محلها صور أخرى عديدة لكل منها شرعيته . بين اليهودي و العربي و المتشددين دينيا (الحريديم) * و القوميين الدينيين (جوش إيمونيم) و التقليديين و العلمانيين و غيرهم ممن تمتد جذورهم إلى أصول عرقية مختلفة مثل (السفاراديم) و (الأشكيناز) و(المهاجرين الروس) و (الأثيوبيين) و غيرهم و قد أدى هذا التفتت للصبغة الإسرائيلية إلى تشرذم المجتمع بين ثقافات و طوائف مختلفة و لهجات متباينة و بين مواقف متصارعة تجاه صورة الدولة اليهودية . و يرى بن عمي أن هذه الانشقاقات تؤهل لحدوث انفجارات عنيفة داخل المجتمع . " [1]

فالمجتمع الإسرائيلي مكون من أعراق و ثقافات و طوائف متعددة و مختلفة ، يعيش كل منها داخل هذا المجتمع وفق منظوره الشخصي أو وفق الثقافة التي تربى عليها في مجتمعه الأول الذي عاش فيه خلال وجوده في وطنه الأصلي و ليس وفقا لمعايير المجتمع الإسرائيلي ، الأمر الذي يؤدي إلى كثير من النزاعات الداخلية ، فاختلاف طبائع أفراد المجتمع الإسرائيلي قد يصل إلى درجة الحرب الأهلية ، لأن ليس بينهم أية قواسم مشتركة . فنقرأ :

" בעיירה היה כרח לקשור בחבלים עבים שני תושבים בגיל העמידה שיצאו זה מול זה בגרזן ו במעדר . מניף המעדר היה אופה מבולגריה ו יריבו בעל הגרזן - צורף זהב מתוניס . " [2]

" في البلدة دعت الضرورة إلى تقييد كهلين من المستوطنين بحبال سميكة ، إذ خرج كل منهما مواجها الآخر ببلطة و معول . كان حامل المعول خبازا من بلغاريا ، أما خصمه صاحب البلطة فكان صائغا من تونس . "

ويمكن أن نتبين مدى عدم الانسجام و عدم التآلف بين أفراد المجتمع الإسرائيلي ، و مدى السوء الذي آل إليه هذا المجتمع ، و عن ذلك يقول الكاتب الإسرائيلي" יוסף לפיד " " يوسف لابيد " في مقال بعنوان " כור ההיתוך : הצלחה או כישלון " " بوتقة الصهر : نجاح أم فشل " : " لقد خلقنا خلال جيل واحد شعبا واحدا مؤلف من سبعين شتاتا يهوديا ، لم يكن لديهم قاسم مشترك سوى شعور بوحدة المصير و أحيانا يكون هذا الشعور غير قوي ، و لم تكن لدينا أية لغة مشتركة ، و لا الدين (لأن غالبية الجمهور كانت علمانية) لا خلفية ثقافية و لا زعماء ، لا تعليم ديمقراطي و لا نوع من الحضارة ، لا ثقافة ، و لا فولكلور ، و لا موسيقى ، لا أناشيد و لا رسما و أحيانا لا شيء . فقط بعض الأعياد ، و كتاب واحد لا

[1] د / رشاد عبد الله الشامي : إشكالية الهوية في إسرائيل ، مرجع سابق ، صـ ٢١٠ .

* الطائفة الحريدية هي أحد التيارات السياسية البارزة في إسرائيل و تتميز بعدائها الشديد للصهيونية و هي تعد امتدادا لليشوف القديم المتطرف غير أنه في الآونة الأخيرة ظهر تغيير حاد في توجهات هذه الحركة و يظهر ذلك من انضمام الحاخام عوفديا يوسف الزعيم الروحي لحزب شاس الديني المتطرف للاتحاد الصهيوني .

[2] מנוחה נכונה , שם " עמ'120 .

يقرأه الجميع " التناخ " فيما عدا ذلك كان فقط الشعور بوحدة المصير ، للشعب المطارد للبحث اليائس عن وطن . " [1]

و يبدو أن هذا (الشعب) لم يصبح بعد شعبا واحدا و لا زال يحمل أفراده كل عاداتهم و تقاليدهم الاجتماعية ، حتى بعد أن أصبحوا يعيشون في مجتمع واحد ، لذا فهم لن ينسجموا معا أبدا ، حيث يتضح أن حتى الشعور بوحدة المصير لا تكفي لصنع مجتمع طبيعي . فالمعايير التي تربى عليها الآباء في أوطانهم الأولى قبل هجرتهم إلى إسرائيل هي نفسها التي يربون عليها أبناءهم و بذلك تظل الخلافات مستمرة على مر الأجيال بين أفراد المجتمع الإسرائيلي . و في الشاهد السابق نرى مستوطنا بلغاريا و مستوطنا تونسيا ، فالأول إسرائيلي يهودي غربي و الثاني إسرائيلي يهودي شرقي و رغم اشتراكهما في وصفي ، إسرائيلي و يهودي ، فهما مختلفان تمام الاختلاف ، فكما عرفنا في الفصل الأول ، فإن المواطنة الإسرائيلية الممنوحة لليهودي الغربي مختلفة تماما عن نظيرتها الممنوحة للشرقي ، كما أن اليهودي الشرقي مختلف عن نظيره الغربي في طريقة العبادة ، هذا بالإضافة إلى المعايير الاجتماعية و المنظور الثقافي المتباين لديهما . لذلك فهما مختلفان تماما و نتيجة لذلك فقد استل كل منهما سلاحه للقضاء على الآخر . و تجدر الإشارة هنا إلى الصراع الموجود بين اليهود الشرقيين و اليهود الغربيين داخل المجتمع الإسرائيلي ، فقد نشب هذا الصراع بينهما في الماضي و لكن لا زالت آثاره ممتدة حتى الآن .

و ينقل الدكتور " رشاد الشامي " وصف صبار إسرائيلي هو " آساف أور " لتلك المشاعر المتداخلة لدى الفرد داخل الجماعة الإسرائيلية بقوله : " لا يحبون أن يعيشوا بمفردهم ، و يتنسم كل واحد الآخر ، ماذا أنا ؟ إذا كانت لديك دعايات طيبة فإن الجميع سمعوها كلها ، و إذا كنت تحتفظ في داخلك بأسرار فإن الجميع يعرفونها منذ فترة طويلة ، و إذا كنت تختفي من الجماعة ، و إن كنت تحاول أن تكون شخصا آخرا فإن هذا لن يفيد ، لأننا نعرفك أيها الصديق ، و إذا كرهت هذا يوما ، و أردت أن تحلم حلما خاصا بك فإنك ستحلم بضمير جمع المتكلمين". [2]

لقد ضج " يوني " من هذا الجو الخانق ، من هذا التدخل في كل شيء في حياته ، فالجماعة الإسرائيلية مصاحبة له ليل نهار تراقبه و تقيم عمله ، و توجه حياته . و هو يسير معها و إن كان لا يرتبط بها ، لا يرى شخصيته الفردية سوى داخلها فهو جزء من كل ، واحد من الجميع وهذا حال أي فرد إسرائيلي داخل إسرائيل ، إلا أن هذا الحال يتفاقم و يتعقد داخل مجتمع الكيبوتس بوجه خاص فالكيبوتس " مجتمع صغير الحجم ، و هو مجتمع مغلق ، يعرف كل واحد فيه الآخر ، لذلك تكثر فيه الإشاعات و الانتقادات المتبادلة ، كما هو الحال في المجتمعات الصغيرة ، إلا أن الحالة في الكيبوتس أكثر إزعاجا في هذا المجال ، لأن أحدا لا يستطيع أن يغلق على نفسه الباب لأن أموره الشخصية مكشوفة لكل شخص ." [3] فالفرد يعيش حياته من خلال حياة الجماعة ، و يتصرف وفقا لما تصدره هذه الجماعة من أوامر أو وفقا لأهداف الجماعة ، دون أن يفكر حتى في هذه الأوامر أو الأهداف . و لنقرأ مونولوجا داخليا لـ " يوني " سبقه تقديم للكاتب .

---

[1] יוסף לפיד : הספרייה הוירטואלית של מטח ، .http://lib.cet.ac.il.item=2273.18-12-2008

[2] د / رشاد عبد الله الشامي : الشخصية اليهودية الإسرائيلية و الروح العدوانية ، عالم المعرفة ، سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب – الكويت ، رمضان ١٤٠٦ هـ - يونيو ١٩٨٦ م ، صـ ١٢٤ – ١٢٥ .

[3] حاييم دارين درابكين : الكيبوتس . واقعه الاجتماعي و الاقتصادي ، ترجمة محمود عباس ، مكتبة الدراسات الآسيوية و العربية ، مطبعة دوكمة ، القدس ، ١٩٧٤ ، صـ ١٤٩ .

״ בכל הצער הזה מצא יונתן סיבה לרוגז ו אף להתמרמרות כאילו שוב מפעילים עליו לחץ ו דורשים ממנו להמשיך בויתורים עד אין קץ . כאילו גם רגשותיו שלו חברו אל כל שאר הכוחות שאינם חדלים לעשות לו עוול. כל הזמן כל החיים שלי אני מותר ומותר וכבר כשהייתי כזה קטן לימדו אותי דבר ראשון לותר ובכיתה לותר . ״[1]

" مع كل هذا الحزن التمس يوناثان سببا للغضب ، و التذمر أيضا ، كما لو أنهم يمارسون عليه ضغطا مرة أخرى و يطالبونه بالاستمرار في تقديم تنازلات دون نهاية . كأن مشاعره قد انضمت أيضا إلى كل ما تبقى من القوة التي لا تكف عن إيقاع الظلم به . طوال الوقت على مدى حياتي و أنا أتنازل و أتنازل و كذلك حين كنت بعد صغيرا علموني بادئ ذي بدء التنازل و في الفصل أن أتنازل . "

و نلاحظ تكرار كلمة " يتنازل " و ارتباطها بحياته في كل مراحلها و كأنها قاعدة عامة على الجميع أن يتبعها . فأي حياة تلك التي تقوم على التنازل ؟ ! إنه بشر و يريد أن يعيش حياته بشكل طبيعي ، دون تنازلات إجبارية و عطاء إلزامي . إنه يعيش في ضغط اجتماعي مستمر ، وفق مبادئ و معايير محددة ، لا يمكنه الفكاك منها ، و الواقع فقد راودت زعماء الصهيونية آمال كبيرة بأن يقيموا " مجتمعا مثاليا تتحقق فيه كل الأهداف التي وضعوها ، و تترسخ فيه المبادئ التي ارتضوها أسسا لحياتهم الجماعية التي تقضي بأن يعيشوا معا ، بنمط حياة يلزم التفاهم و كبت الأنانية و في حالات معينة يحتم تسامح الكبير مع الصغير . " [2] ، لذا " فالفتى الإسرائيلي داخل هذا المجتمع قد تمت عملية توجيهه و تربيته داخل إطار عقيدة صهيونية منغلقة على ذاتها ، مما يجعلنا نذهب إلى القول إنه ينمو و يتربى داخل مستنبت زجاجي في مجتمع ذي خصوصية شديدة . " [3]

فهذه المبادئ المطالب بها الفرد الإسرائيلي قد حولته إلى آلة تديرها أجهزة الدولة في محاولة منها لخلق مجتمع مثالي ، طالما كانت تصبو إليه ، و لكن هذه المثالية تحولت إلى عقد نفسية ، و مشاعر مكبوتة بين الفرد الإسرائيلي و مجتمعه ، لأن تلك المبادئ ضد الطبيعة البشرية و هنا يقول " لورانس ماير " في كتابه " إسرائيل الآن" :

" و من الواضح أن الإسرائيليين ليسوا دائما في أفضل لحظاتهم . و في معظم الأحيان ، هناك دائما كرم غير عادي ، و أنانية في حالة تنازع دائم داخل النفس الواحدة ، فهناك تنازع بين الإنجازات العظيمة و التفاهات الفاضحة ، و بين العظمة و الدناءة و بين الأهداف العظيمة و المطالب الدنيوية للحياة اليومية ، و بين الآمال التي يعقدها الإسرائيليون و الحقيقة المروعة التي يتعين عليهم التوافق معها . و تعد الأوضاع و الظروف في إسرائيل ، وهي رفض الحدود ، و رعاية الفنون و الموسيقى في ظل الاستعداد الدائم للحرب ، و الجهود الجادة من أجل جعل الصحراء أرضا خضراء ، و التناقضات الهائلة التي يواجهها المرء في كل مكان بمثابة دلائل على حدوث صراع دائم . و لأن إسرائيل تحت حصار دائم ، و مهددة بالانقراض ، فإن كل يوم في حياة أي إسرائيلي يأتي مؤكدا هذا كله . و الإسرائيلي في ظل هذا الوضع يشبه من يحمل

[1] מנוחה נכונה ، שם " עמ׳ ١٣ .
[2] د / زين العابدين محمود أبو خضرة : قضايا المجتمع الإسرائيلي ، مرجع سابق ، صـ ٦٤ .
[3] د / رشاد عبد الله الشامي : الشخصية الإسرائيلية و الروح العدوانية ، مرجع سابق ، صـ ٣١٨ .

شمعة خافتة في وسط مهمة يائسة ، و هو تشبيه يدل على تمسكه اليائس بالأمل في وسط ظروف مستحيلة ."[1]

هذه إذن حياة الفرد الإسرائيلي داخل مجتمعه ، حيث تنخلع تناقضات هذا المجتمع على حياة الفرد ، فيندلع النزاع النفسي بين المثالية المطلوبة و الطبيعة البشرية العادية . فالفرد مطالب بتحقيق أهداف كبيرة و إنجازات عظيمة و حين يحقق هذه الأهداف أو بعضها يشعر بعظمته و قوته ، و لكن يصاحب هذا الشعور شعور بالتفاهة و بفقدان الشخصية داخل هذا المجتمع الأمر الذي يحول حياته داخل مجتمعه إلى مهمة أخرى يؤديها لأنه مطالب بها ، لذلك يغلب عليه الشعور بالتجرد و عدم الاندماج النفسي و الفكري ، فهو يعيش في عزلة اجتماعية ، لانعدام التكيف الاجتماعي الناتج عن ضعف الاتصال بينه و بين سائر أفراد المجتمع الذي يعيش فيه ، فيرى المجتمع غريبا عنه و يرى نفسه غريبا فيه ، من هنا يبدأ دوره الاجتماعي في التراجع و يفقد جوهره و مغزاه ، فلا يرى فيما يفعله أي فخر له ، فيرفض واقعه و يرفض ذاته ، إذا ما استمرت في هذا الواقع " فالحياة اليومية و المعيشة داخل الكيبوتس تعاني من مشاكل جمة و هذه المشاكل تتحول إلى مظاهر كبت و شعور بالمرارة و الخيبة لدى الأعضاء ، فالعضو لا يختار طعامه أو ملابسه أو العمل الذي يوكل إليه ، بل هو مضطر لقبول ما يفرض عليه من الآخرين ، و باختصار هو قضاء مبرم على الشخصية الذاتية ." [2]

فأنظمة المجتمع الذي يعيش فيه تقف حائلا دون تحقيق أهدافه و رغباته ، الأمر الذي يدخله في مجال العزلة الاجتماعية بانعزاله عن المجتمع ، فقد ملّ من الرتابة في عمله و في حياته و يعاني من اليأس من أن تصبح الحياة جديرة بأن تعاش إنه يريد لحياته أن تعبر عن ذاته لا أن تعبر عما يطلب منه . لذا ، فقد رفض " يوني " أن يتراجع عن فكرة الهجرة ، هجرة هذا المجتمع و التخلي عن كل شيء ، كذلك رفض أن يتسلم إدارة الورشة ، رغم عدم وجود شخص غيره ليديرها ، فنقرأ:

״יולק אביו חלה בשפעת וגם סבל מכאבי גב אכזריים. יונתן נכנס ערב אחד לבקר בדירת הוריו ו יולק נזף בו על שאינו בא לעתים קרובות יותר , על שאינו מוכן לקבל את ניהול המוסך ההולך ומתמוטט מחוסר אדם אחראי , על מגמות ההתפרקות ההרסנית בקרב הנוער הישראלי בכלל יונתן שתק . ״[3]

" أصيب والده يولك بالأنفلونزا ، كذلك عانى من آلام قاسية في الظهر . دلف يوناثان في إحدى الأمسيات إلى شقة والديه للزيارة ، فوبخه يولك على عدم مجيئه ليعوده في بداية مرضه ، و لأنه غير مستعد لتسلم إدارة الورشة الآخذة في التداعي بسبب عدم وجود شخص مسئول ، و على اتجاهات التفكك المدمرة في أوساط الشباب الإسرائيلي بصفة عامة . صمت يوناثان "

يتضح من هذا الشاهد أن " يوني " غير مستعد أو لنقل غير مؤهل نفسيا لإدارة الورشة ، رغم معرفته بأنها ستنهار لعدم وجود شخص مسئول يديرها ، كذلك نلاحظ أمرا آخر وهو " اتجاهات التفكك المدمرة في أوساط الشباب " و ذلك من وجهة نظر

[1] د / نبيل جامع : العرب و إسرائيل و القنبلة الذرية ، منشأة المعارف ، ٢٠٠١ ، صـ ٤٧ ، ٤٨ .
[2] د / زين العابدين محمود أبو خضرة : قضايا المجتمع الإسرائيلي ، مرجع سابق ، صـ ١٠٠ .
[3] מנוחה נכונה , שם ״ עמ׳20 .

" يولك " الأب الذي ينتمي إلى جيل المؤسسين للدولة فشخصية " يولك " والد " يوناثان " هي شخصية موازية لشخصية " اليهودي التائه ، المضطهد ، و يمثل من الناحية التاريخية – الأيديولوجي الصهيوني التقليدي ، و يمثل للكيان الصهيوني القوة الأصلية التي تقف وراء حركة إعادة اليهود من أرض شتاتهم إلى فلسطين ، حيث يأملون أن يجدوا هناك الأمن و الراحة ، و تمثل كذلك مشاعر الأسلاف العميقة و لكن دون مستقبل مؤكد . " [1]

إن شخصية " يولك " هي رمز الجيل الذي صنع من لا شيء كل شيء و سلمه للأبناء " الجيل الثاني " و طالبهم بأن يكملوا المسيرة ، لكن يبدو أن معظم الشباب الإسرائيلي مثل " يوني " هم أيضا رفضوا أن يتموا رسالة الآباء ، و رفضوا أن يسيروا على نهجهم ، فصار جيل الأبناء جيلا مغايرا و مناقضا تماما لجيل الآباء ، حيث ظهر بوصفه جيلا متمردا يقف مجابها لآبائه . فيونى " قد رباه والده و الكيبوتس بوصفه أميرا وليا للعهد ، و توق يولك لقيام سلالة يهودية جديدة اتضح في خطابه إلى أشكول ، فكان هذا التوق توق جيل لاستمرار يهودي آخر ، هو " الصبار " الذي كان من المفترض أن يكون يهوديا جديدا ، غير ذي صلة باليهودي الشتاتي . و قد ربى " يولك " " يوني " ، منذ صغره ، على هذا الهدف . و تحكي الرواية عن هزيمة هذا الزعم . " [2]

و يبدو أن هذا الجيل من الشباب " الصباريم " " يتسم بالتنكر الواضح لقيم جيل المؤسسين ، و هي القيم التي خلقت حاجزا نفسيا و فسيولوجيا بين الآباء و الأبناء على اعتبار أن المكونات النفسية و الأوضاع الاجتماعية التي يعيشها جيل الصابرا تختلف اختلافا بينا عن مثيلها عند جيل الآباء ، و لذلك فهم ينحون دائما صوب التغيير . " [3]

فقد كانت أمنية الأب يولك " جيل الآباء " أن تغدو له سلالة يهودية نقية خالية من أمراض الشتات " جيل الأبناء المأمول " . يقول " يوني " :

" רוצה נכדים , הזקן . שתהיה לו שושלת . " [4]

" يريد أحفادا هذا الشيخ . فلتكن له ذرية . "

و قول " يوني " هذا يتوافق مع خطاب " يولك " إلى " بنيامين تروتسقي " ، إذ يقول :

" וזה יוני שלי שממנו קיויתי לראות הגשמת תקוותינו דור יהודי חדש שיוליד נכדים ו ניניים ו ישים קץ לגלות הממארת והנה שבה הגלות בתחפושת הדור העשיר . " [5]

" و ها هو عزيزي يوني ، الذي تمنيت أن أرى فيه تجسيدا لآمالنا ، جيل يهودي جديد ينجب أبناء و أحفادا . و يضع حدا للمنفى الملعون . و ها هو المنفى قد عاد من جديد ، كما جسده الجيل الثري . "

---

[1] د / رشاد عبد الله الشامي : الشخصية الإسرائيلية و الروح العدوانية ، مرجع سابق ، صـ ٨٥ .
[2] יוסף אורן : ההתפכחות בסיפורת הישראלית , שם " עמ'129 .
[3] د / زين العابدين محمود أبو خضرة : قضايا المجتمع الإسرائيلي في القصة العبرية ، مرجع سابق ، صـ ٦٤ .
[4] מנוחה נכונה ، שם עמ'١٨٥ .
[5] מנוחה נכונה ، שם " עמ'٢٠٣ .

و الواقع أن " جيل الصباريم يحل بالنسبة للمفكرين الصهاينة و الإسرائيليين جزءا من مشكلة تعدد الأصول الحضارية بالنسبة للمجتمع الإسرائيلي ، و ذلك عن طريق تكتل نما في ظل ظروف نفسية و اجتماعية و ثقافية موحدة تخلق في النهاية كتلة منسجمة لها مواقفها و خصائصها و اتجاهاتها ، كتلة موحدة من المستوطنين الصهاينة التي لا يستعصى تنافرها على التوحيد ، كتلة يمكن من خلال تأكيد وجودها و تجانسها تدعيم مفهوم جديد عن الهوية الإسرائيلية ، بعد أن قضت حجج العلوم الإنسانية ، و حقائق الواقع الإسرائيلي نفسه على مقولة وحدة التاريخ القومي اليهودي و التكوين السيكولوجي لليهود عامة . " [1]

فالصبار هو يهودي جديد هذا اليهودي " الذي من المفروض أن يكون مختلفا عن اليهودي الشتاتي ، في نمط حياته و تفكيره ، و في علاقته بالتقاليد اليهودية ... في الطريقة التي يستوعب بها المسؤولية الشاملة تجاه أمنه و بيئته و في تفكيره الاجتماعي و غير ذلك . " [2] فقد " تربى الشباب الإسرائيلي الصغير بوصفه ابن مجتمع الأغلبية اليهودية . و ليس مثل كثير من آبائهم و أمهاتهم الذين وفدوا من الشتات ، و من ثم لم يكن لدى هذا الجيل من الشباب تجربة حياة شخصية بوصفه يمثل أقلية يهودية . الآباء و الأمهات هم الذين رسموا ملامح دولة يهودية و جاهدوا لتحقيقها ، أما أبناؤهم و بناتهم فقد وجدوا دولة يهودية قائمة ، و ما تلك الفترة التي كان فيها اليهود بلا دولة ، من وجهة نظرهم ، سوى ميراث تاريخي . " [3]

و رغم ذلك ، فقد ضاع أمل " يولك " ، و صار المجتمع الإسرائيلي يعاني من الشتات نفسه الذي كان قد عانى منه الآباء في الماضي . و صار جيل الأبناء غير مهيأ لتحقيق آمال الآباء ، حيث " ثار يوني على الهدف الذي أعده له والده قبل سنوات من هروبه إلى الصحراء ، وحين كان يجتاز الحدود في طريقه إلى بترا تذكر فجأة " [4] قوله لزوجته

" עוד מוקדם לנו , אמרתי לה והתרגזתי . אנחנו לבד וזה טוב . אני לא מחויב לעשות לאבא שלי שושלת ." [5]

" قلت لها غاضبا : إن ذلك سابق لأوانه بالنسبة لنا . نحن وحدنا و هذا أفضل ، فليس لزاما عليّ أن أنجب لأبي ذرية . "

فهو لا يريد شيئا البتة و لا حتى الأطفال ، و لسان حاله يقول يكفي أنني هنا في هذا المجتمع و متزوج ، فأنا لا أريد التورط أكثر من ذلك فيه و ذلك ناجم ، و لاشك ، عن شعوره بعدم الأمان و عدم الثقة في هذا المجتمع لذا فهو يكره حاضره و يخشى مستقبله . و ينتهي الشاهد بتذييل جيد فيقول : " ليس لزاما عليّ أن أنجب لأبي ذرية " حيث يتضح من قوله أنه " يوني " قد أطاع " يولك " في الكثير و الكثير من الأمور ، لكن يكفي هذا . إن طاعته و إتباع أوامره ، لا تصل إلى درجة إنجاب ذرية ، كما نشعر من هذه العبارة بشيء من الآلية و كأن الذرية أو العائلة و الرغبة في تكوينها تخرج عن مجرد الشوق الإنساني ، لتتعدى إلى عملية إثراء المجتمع الإسرائيلي بأفراد يهود أصحاء يخلون

---

[1] د / رشاد عبد الله الشامي : الشخصية الإسرائيلية و الروح العدوانية ، مرجع سابق ، صـ ٨٧ .

[2] א . ב . יהושע : סליחה , אלפיים , כתב עת , שם " עמ'183 .

[3] שמעון הרמן : הזהות היהודית , שם " עמ'143 .

[4] יוסף אורן : ההתפכחות בסיפורת הישראלית , שם " עמ'129

[5] מנוחה נכונה , שם " עמ'346 .

من أمراض الشتات ، فنشعر عند القراءة بشيء من الآلية ، سواء في طريقة تكوين الذرية ، أم في الغرض منها .

لقد شعر " يوني " الذي يمثل جيل الصابرا بأنه مستغل من قبل كل شيء : من دولته ، من مجتمعه ، من أبيه ، من رفاقه . لذا تعذر عليه أن ينشئ صلة مرضية بينه و بين واقعه ، فهو غير قادر على خلق المواءمة أو الانسجام بين سلوكه و معايير المجتمع و من هنا يتكون شعوره بالانفصال عن مجتمعه ، فقد أصابه الضجر من محاولة فرض المثالية المطلقة على المجتمع الإسرائيلي و تحكم الدولة في مواطنيها كأنها تتحكم في أشياء صماء تعمل على تحقيق الأهداف و الرغبات الموكلة إليها فيقول :

״ מה הם רוצים ממני . חושבים שאני שלהם . קוראים לי גורם אנושי או כוח - אדם או תופעה . אני לא כוח - אדם , אני לא התחמושת שלהם . וכל החגיגה שלהם לא מזיזה לי כלום רק מוכרח כבר לקום ו ללכת . לאיזה מקום . לא אכפת . ריו . אוהאיו . באנגקוק . לאיזה מקום אחר שאפשר להיות בו לבד ו קורים בו דברים בלי תכנית , דברים שהם לא שום חוליה בשלשלת ו לא איזה שלב חיובי או שלילי או חמור . ו להיות בן - אדם חפשי״[1]

" ماذا يريدون مني ؟ أيحسبونني ملكا لهم ؟ يدعونني بقولهم عنصر بشري أو إنسان قوي أو ظاهرة . أنا لست إنسانا قويا ، أنا لست ذخيرتهم . و لا تحرك احتفاليتهم كلها في ساكنا ، أنا فقط مضطر لكي أقوم و أمضي . لأي مكان . ليس مهما . ريو ، أوهايو بانكوك . لأي مكان آخر ، يمكن أن أكون فيه وحدي ، حيث تحدث فيه أمور غير مخطط لها ، أمور ليست مجرد حلقة في سلسلة و ليست مجرد مرحلة إيجابية أو سلبية أو خطيرة. مكان أكون فيه إنسانا حرا".

نلاحظ من كلام " يوني " مدى ثورته على وضع المجتمع الإسرائيلي ، و مدى اعتراضه على المهام التي توكلها الدولة إلى مواطنيها ، و كيف أن الجيل الأول جيل الآباء يقوم بتحفيز الجيل الثاني جيل الأبناء و يصفهم بأوصاف مثل " عنصر بشري " و " قوة عاملة " و " ظاهرة " . و هي أوصاف جيدة ، إلا أنها تتيح للدولة التحكم في أفراد المجتمع الإسرائيلي . فعلى الدولة التخطيط و على هذه العوامل المذكورة أعلاه التنفيذ فقط ، بذلك يصير الفرد الإسرائيلي ، في مجتمعه ، مجرد أحد العوامل أو الموارد التي تستغل ، شأنه في ذلك شأن الثروة الزراعية و الثروة الحيوانية و مصادر المياه ... الخ حيث تصرف هذه الموارد وفقا لاحتياجات المجتمع و ضروریاته ، و يتبع ذلك أن يصير مستقبل هؤلاء الأفراد أو تلك العوامل البشرية عبارة عن حلقة في سلسلة بلا نهاية ، مرحلة من المراحل الإيجابية أحيانا و السلبية أحيانا أخرى . و يأتي رد " يوني " على هذا الواقع الاجتماعي الغريب ، فيعلن بوضوح عن رفضه لكل تلك المعايير فهو :

أ - ليس ملكا لأحد . " أيحسبونني ملكا لهم " .

ب - ليس من القوة البشرية العاملة و لا ذخيرة إنسانية لهذا المجتمع . " أنا لست إنسانا قويا ، أنا لست ذخيرتهم " .

جـ - لا يعنيه أمر كل الأهداف و التطلعات التي تلتمسها الدولة فيه ." و لا تحرك احتفاليتهم كلها في ساكنا "

[1] מנוחה נכונה ، שם ״ עמ׳ ١٨٤ .

د - لن يعيش في مخطط معين ، و لا في مرحلة ما سواء أكانت إيجابية ، أم سلبية ، أم خطيرة . " دون تخطيط " " ليس مجرد مرحلة إيجابية أو سلبية أو خطيرة " ، فهو يفصح عن رغبته الوحيدة و هي ضد رغبة أبيه ، ففي الوقت الذي يريد فيه الأب تكوين سلالة وإثراء المجتمع الإسرائيلي ، تظهر رغبة الابن المضادة و هي النزوح و ليس إلى مكان محدد ، بل إلى أي مكان يغدو فيه فردا حرا . إنه يريد مجتمعا مفتوحا ، عصريا و ليس مجتمعا إسرائيليا يقوم على المثالية الزائفة المرتبطة بالصهيونية ، لأنه في الواقع مجتمع خانق يسيطر على أفراده و يصيبهم بالعجز و كأنهم يعيشون مثل آبائهم في جيتو الشتات .

و يقول عالم النفس الإسرائيلي " جورج تامارين " : " إن الصراع داخل المجتمع الإسرائيلي يكشف عن نفسه في التناقض الجذري بين دعاة تحويل إسرائيل إلى (جيتو) كبير و بين هؤلاء الذين يسعون لإقامة مجتمع مفتوح . هذا التعارض الأساسي ، إلى جانب الخلاف بين دعاة التكامل مع الحضارة الإنسانية المعاصرة و بين أنصار الانعزال و البعد عنها ، قد أدى إلى عزل إسرائيل حضاريا ، و إن جعلها قلعة عسكرية بالنسبة لجيرانها العرب ، و كانت النتيجة قطع الروابط بين الشباب الإسرائيلي و العالم ، و ساعد ذلك على ظهور مشاعر مرضية لدى الإسرائيليين إزاء الانتقادات التي توجه إلى الممارسات السياسية و الاجتماعية . " [1]

فقد صارت إسرائيل جيتو كبيرا يختلف عن الجيتو الأوربي في حجمه فقط . فيه يعيش المجتمع الإسرائيلي من خلال شعور أفراده بأنهم معذبون ، حيث تصبح إسرائيل معزولة ليس فقط عن جيرانها ، بل عن العالم الخارجي بأكمله ، و لا زال أفراد مجتمعها يشعرون بالخوف و الاضطهاد و عدم الثقة . و تقوم الحكومة بدور المستثمر لهذه المشاعر و العزلة و تعمل على إنمائها ، لكي تكتسب القوة العسكرية و تتمكن من المزيد من فرض السيطرة و التزود بالقوة ، و تظل القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسرائيلي قائمة و هي أن الفرصة الوحيدة لضمان البقاء تكمن في هزيمة الآخرين . من هنا جاء قرار هجرة " يوناثان " لمجتمعه ، غير أن هذا الأمر لا ينطبق على يوناثان فقط ، " فهناك تغيرات اجتماعية تطرأ على الأجيال الجديدة الشابة لا تفتأ تبحث عن هوية محددة لها ، مستقلة عن اليهودية العالمية ، و مستقبل آخر غير مرتبط بالحركة الصهيونية التي سيطرت على قطاع كبير من يهود العالم ردحا من الزمن . " [2]

و الواقع أن هجرة الصابرا ، بصفة خاصة ، تمثل كارثة لإسرائيل لأنها " لا تتعلق بمهاجرين قضوا في البلاد بضع سنوات و لم يستطيعوا ، لسبب أو لآخر ، التأقلم و التكيف مع الحياة الجديدة ، بل يتعلق الأمر بيهود كان متوقعا أن يصمدوا حتى النهاية ، دفاعا عن القيم الصهيونية و عن أرض ولدوا فيها و ترعرعوا و عاشوا . و هجرة الصابرا ، أي مواليد البلاد ، من الشباب بخاصة ، تؤرق الاستراتيجيين الذين يعتبرون ذلك علامة خطر كبيرة على مستقبل الدولة . " [3]

و هو الأمر الذي فطن له " يولك " ، فإذا أصيب جيل الصابرا و انقطع عن مجتمعه و دولته ، فقد ذهب كل ما فعله الآباء هباء . من هنا فقد شعر " يولك " بالهزيمة و انبثق هذا الشعور من حقيقة أنه ليس لديه وريث يكون مستعدا لاستكمال مشواره

---

[1] ضياء الحاجري : مرجع سابق ، صـ ٢١ .
[2] ضياء الحاجري : إسرائيل من الداخل ، مرجع سابق ، صـ ٢٠ .
[3] جمعية الخريجين : د / هابي فارس ، مرجع سابق ، صـ ٢٤٩ – ٢٥٠ .

السياسي ، و يكون في ، الوقت نفسه ، ضمانا لاستمرارية الوجود اليهودي في إسرائيل ، و قد اعترف " يولك " بهذا الأمر و أفصح عنه أمام نفسه ، فقط ، في الخطاب الذي أعده ليرسله إلى " ليفي أشكول " - رئيس الوزراء الإسرائيلي في هذه الفترة - و لكن بعدما أنهى كتابته عدل عن رأيه و لم يرسل إليه الخطاب . يقول " يولك " مخاطبا " أشكول " :

" עבר זמננו , אשכול , ו אַל אחטא בשפתי - אכן בטל קרבננו . " [1]

" لقد ولى زماننا ، يا أشكول ، و لا يجانبني الصواب إن قلت لقد ذهبت تضحيتنا سدى . "

فقد مضى عهد الآباء ، و جاء جيل الأبناء مخيبا للآمال ، فذهب جهد جيل الآباء سدى ، حيث انتشر الفساد و الانحلال بين جيل الشباب و نتيجة لذلك لن يستطيعوا أن يكملوا المسيرة و يحققوا حلم الآباء . يقول " يولك " في الخطاب نفسه.

" הנה , בני הגדול בא ו מבשר לי בימים אלה שהמוּסָך הוא לא בשבילו . והקיבוץ גם כן לא בשבילו . וארץ־ישראל , עם כל הכבוד, היא רק פינה נידחת בעולם הגדול . אל העולם הגדול עליו לצאת . " [2]

" ها هو ابني الأكبر ، جاءني في تلك الأيام و بشرني ، أن الورشة لا تناسبه و لا الكيبوتس . و أن إسرائيل ، مع فائق الاحترام ، ليست سوى زاوية قصية في العالم الكبير . و أن عليه الانطلاق إلى هذا العالم الكبير . "

لقد حل الخراب على المجتمع الإسرائيلي ، فالأبناء منقطعون عنه و عن الدولة ، و هم مندفعون إلى النزوح . و يقول المفكر الإسرائيلي" جرشوم شوكن " عن ظاهرة النزوح :

" إن هذه الظاهرة هي ظاهرة اجتماعية مرتبطة بواقع حياتنا في إسرائيل بكل أبعاده و نابعة كذلك من طابع الشعب اليهودي . لقد كنا دوما شعبا جوالا ، و قد كان هناك ، كما هو معروف ، شتات يهودي كبير في العالم القديم قبل خراب الهيكل الثاني بفترة طويلة . و يمكننا أن نأسف بسبب الهجرة من إسرائيل ، لأنها تضعفنا ، و لكن أسفنا لابد أن يكون أكثر لأنها تدل على ضعف صياغتنا الاجتماعية . " [3]

و بالفعل تعاني إسرائيل من ضعف شديد في بنيتها الاجتماعية ، فأعداد المهاجرين منها في ازدياد مستمر ، أما أفراد مجتمعها فقد تقطعت بهم السبل ، حيث يعاني المجتمع الإسرائيلي من انقطاع الصلات بين طبقاته الاجتماعية . و يقول " يولك " :

"הכל נהרס לפני העינים שלנו . המדינה . הקיבוץ . ו הנוער . אומרים שאלפי בחורים צעירים קמים ו עוזבים את הארץ . " [4]

" تدمر كل شيء أمام أعيننا . الدولة ، الكيبوتس ، الشباب . يقولون أن آلاف الشباب الصغير يتركون البلاد . "

---

[1] מנוחה נכונה , שם " עמ'163 .

[2] מנוחה נכונה , שם " עמ'167 .

[3] د / رشاد عبد الله الشامي : الشخصية الإسرائيلية و الروح العدوانية ، مرجع سابق ، صـ ٣٣٠ .

[4] מנוחה נכונה , שם " עמ'190 .

فيتضح مدى خطورة ظاهرة النزوح و مدى ما تخلفه من آثار نفسية شديدة على من تبقى داخل المجتمع الإسرائيلي . و قد أجمل " حاييم هرتزوع " – رئيس إسرائيل سابقا – القضايا التي تدفع نحو النزوح ، و منها الاستقطاب الحاد و الانشقاق المجتمعي ، فيقول :

" لقد وقفت شخصيا مكتوف اليدين تقريبا أثناء مناقشة موضوع النزوح في الكنيست ، و ذلك إزاء الجو المسيطر على البلاد ، فالواقع مضغوط و يعوق بصورة مهددة و مخيفة . هناك ضيق من القلق و عدم الوضوح و عدم الطمأنينة . و كلها ناتجة عن الأزمة الاقتصادية و التضخم و القطبية الداخلية بين اليمين و اليسار و المتدينين و العلمانيين ، و بين الطوائف ، و التوتر الأمني المستمر ، و التدخل الكبير و العميق للمواطن في حياة الدولة ، و الحرب و الإرهاب ، و الخسائر ، و الخدمة الاحتياطية ، و إغلاق حدود إسرائيل من كل الجهات تقريبا ، مقابل عالم متحرر بإمكانات مفتوحة يغري بالنزوح . " [1]

فالنزوح ما هو إلا نتيجة مباشرة لتناقضات المجتمع الإسرائيلي بالإضافة إلى الصعوبات التي يواجهها الفرد في التكيف الاجتماعي و شعوره بالغربة داخل هذا المجتمع إلى جانب ، ازدياد قوة التيار الديني المتشدد في إسرائيل و الافتقار إلى الأمان الشخصي بسبب حالة الحرب المستمرة و الاستدعاء الطويل لقوات الاحتياط و عدم الرضا عن السياسات العامة للصفوة الحاكمة في المجتمع الإسرائيلي . و عن ذلك يقول الصحفي الإسرائيلي " بوتس إيفرون " :

" إن صورة هذا البلد الذي تكرس فيه جميع المواهب من أجل الحرب ، هي صورة دولة ترى أن جميع الحلول تنبع من الدبابة و البلدوزر و هذا أسوأ شيء يمكن أن يصيب مجتمعنا . " [2]

و الواقع أنه لا لوم على " يوني " في إصراره على النزوح و هجرة هذا المجتمع ، لأن هذا تصرف طبيعي لابد أن يقوم به أي إنسان عادي ، فالمجتمع الإسرائيلي يعج بشتى أنواع الضيق و القلق و الغموض و عدم الطمأنينة ، الأمر الذي يجعل الحياة داخله تجري على درجة كبيرة من الصعوبة ، لذلك فقد شعر " يوني " بالاغتراب عن هذا المجتمع ، كما شعر بأن جذوره تضرب في تربة أخرى ، غير تلك التي يعيش فيها تلك التربة التي استفحلت فيها التناقضات الاجتماعية و تفاقم فيها الصراع بين الأجيال و اتسعت فيها الهوة بين المثالية المفرطة التي رسمت لهذا المجتمع و بين الواقع المؤلم . من هنا كان لزاما على هذا الشاب أن يتخذ قرار النزوح و ينفذه فيفر إلى الصحراء هربا من مجتمعه ، آملا في أن تنمو قوته الاجتماعية من جديد ، و طلبا لحياة طبيعية غير آلية .

و " يونى " شخصية قلقة تسيطر عليها مشاعر الكبت و الحصار و الاغتراب ، فهو يشعر بعدم التجانس مع المجتمع من حوله ، فيفر خارجه و يرنو إلى إقامة علاقات اجتماعية جديدة في مجتمع جديد ، الأمر الذي يحقق له الراحة الحقيقية . و يبدو أن أمثال " يوني " كثيرون ، فقد وفد على مجتمع الكيبوتس العديد من الأفراد و هم يحملون

[1] جمعية الخريجين : د / هابي فارس ، مرجع سابق ، صـ ٢٥٥ .
[2] ضياء الحاجري : مرجع سابق ، صـ ١٣٤ .

الأمـل و الرغبـة و الاسـتعداد التـام للعـيش و الاسـتقرار بداخلـه ، إلا أنهـم فـي النهايـة ينكسرون و يهربون من هذا المجتمع ، فنقرأ هذا المونولوج الداخلي لـ " يوني " إذ يقول :

״לפעמים מגיעים אל הקיבוץ טיפוסים זרים הנשארים זרים עד הסוף. יש ביניהם אחדים המרעישים, מתלהבים, מגזימים עד בלי די בהשתדלותם להידמות ו להתקשר ולהתבולל בתוך הקיבוץ אבל כעבור שבועות אחדים או שנים שלושה חֲדשים הם נשברים ונעלמים פתאום״[1]

" تصـل إلـى الكيبـوتس أحيانـا شخصـيات غريبـة و تظـل غريبـة حتـى النهايـة . مـن بيـنهم المضطربين ، المتحمسين ، المبالغين بلا نهاية في مسعاهم للتشبه بحياة الكيبوتس و الارتباط به و الاندماج فيه ، إلا إنهم بعد مرور بضعة أسابيع أو شهرين أو ثلاثة أشهر ينكسرون و يختفون فجأة . "

فـرغم اسـتعدادهم النفسـي و حرصـهم الشـديد علـى العـيش داخـل المجتمـع ، إلا أن ظـروف هـذا المجتمـع و مـا يحملـه مـن معوقـات تحـول هـذا الاسـتعداد النفسـي إلـى انكسـار و هروب من هذا المجتمع .

و يظهـر لنـا الآن شـاب إسـرائيلي يـدعى " عزريـا " . هـذا الشـاب يريـد أن ينتمـي إلـى مجتمع الكيبوتس و يصير عضوا فيه ، فيقول :

״ שמי עזריה גיטלין . אני אני מעוניין להשאר כאן . לגור אצלכם , זאת אומרת . רק בקיבוץ עוד יש צדק . בשום מקום אחר לא מוצאים היום צדק . אני הייתי רוצה לחיות כאן . ״ [2]

" اسمي عزريا جيطلين . إنني معني بالبقاء هنا . أن أعيش بينكم ، أي أنه . فقط في الكيبوتس لا زال يوجد عدل . ليس ثمة مكان آخر حاليا به عدل . لطالما رغبت في العيش هنا . "

فهـو يحـدد السـبب الـذي دفعـه إلـى السـفر إلـى إسـرائيل و الانضـمام إلـى المجتمـع الكيبوتسي لما سمعه أو قرأه عن هذا المجتمع و مثاليته المعروفة . و قد قابل هذا الشاب " يوني " و تسلم العمل معه في الورشة و كان محنكا في عمله ، حيث أصلح الجرار الزراعي التالف بمهارة ، فسأله " يوني " عما إذا كان قد ولد في إسرائيل ، و إذا ما كان قد أتيحت له فرصة التعامل مع محرك جرار (كاتر بلر - دي سيكس) . و قد كانت إجابة عزريا كما يلي :

״ על שתי השאלות השיב הבחור בשלילה : לא , הוא נולד בגולה (יונתן התפלא מעט על שהבחור השתמש במלה גולה במקום לומר חוץ - לארץ או לקרוא , בפשטות , בשם הארץ שנולד בה) . ״ [3]

[1] מנוחה נכונה , שם ״ עמ׳96 .
[2] מנוחה נכונה , שם ״ עמ׳40 .
[3] מנוחה נכונה , שם ״ עמ׳90 .

" أجاب الشاب بالنفي على السؤالين كليهما : كلا ، لقد ولد في المنفى (تعجب يوناثان قليلا بسبب استخدام الشاب كلمة منفى بدلا من قوله خارج إسرائيل أو يذكر ، ببساطة ، اسم البلد التي ولد بها .) "

و ما يهمنا في هذا الشاهد سوى إجابة عزريا بأنه ولد في " المنفى " ، حيث لفت " عاموس عوز " انتباهنا لاستخدام هذه الكلمة ، بصفة خاصة ، دون غيرها من خلال الشرح الذي أورده على لسان " يوني " ، فهذه الكلمة تحمل دلالة عميقة فإذا رجعنا إلى السبب الأصلي الذي دفع الصهاينة الأوائل لإقامة دولة تجمع اليهود و تكون وطنا لهم ، نجده : حل الضائقة اليهودية ، فمن وجهة نظرهم أن اليهود خلال وجودهم في الدول التي عاشوا فيها بوصفهم أقليات قد لاقوا الكثير من العذاب و الاضطهاد على يد تلك الدول و شعوبها ، الأمر الذي دفع هؤلاء الصهاينة لإيجاد وطن خاص باليهود يكونون فيه هم السادة و هم الحكام و ليس مجرد طائفة تعيش بين شعب هذه الدولة أو تلك . من هنا تكتمل أمامنا ملامح صورة هذا الشاب " عزريا " الذي عانى المر في المنفى و هاجر إلى إسرائيل طلبا للعيش داخلها و بصفة خاصة داخل الكيبوتس حتى يتخلص من كل ما مرّ به من أحداث سيئة خلال سنين شتاته في المنفى . و هنا تبرز شخصية " عزريا " بوصفها شخصية مناقضة تماما لشخصية " يوني " بين من " كبر في حضن الأسرة (يوناثان) و تلقى المعايير الاجتماعية الملزمة الخاصة بالكيبوتس و بين من جاء إلى الكيبوتس من الخارج المفتوح (عزريا) و لم يتربى على معايير حاسمة . لقد ثار يوناثان على تلك المعايير ، أما عزريا فقد طالب أن يفرضوا عليه القوانين ، و تلقى بحب عبء شريعة الكيبوتس . و طلب يوناثان الهروب إلى خارج حدود المعايير إلى الأفق الرحب . " [1]

فقد ضاق صدر " يوناثان " من تلك المعايير الاجتماعية التي تجعله أداة لمجتمعه و تحول دون تحقيق طموحاته و رغباته الشخصية و قرر هجرة هذا المجتمع الذي يكبت روحه و يقيد نفسه و في الوقت نفسه يطالب عزريا بما يعاني منه " يوناثان " فـ " يوني " يطلب تحطيم الدائرة الاجتماعية المستحيلة و في الوقت نفسه يطلب " عزريا " الانغماس ، ما أمكنه ذلك ، في الدائرة عينها .

و إذا تتبعنا سير الشخصيتين نرى أن شخصية " يوناثان " ، قد حدث لها انهزام بعد ثباتها فقد عاد " يوناثان " إلى مجتمعه بعد هجرته إياه . و عن هذا يقول الناقد الإسرائيلي " جرشون شاكيد " : " القصة أكثر إيجابية من ناحية رسالتها . فإذا كانت لها رسالة محددة أليس يتضح منها أن الأبناء في نهاية الأمر ينتهجون طرق الآباء . يبدو من وجهة نظري أن هذه الرسالة الإيجابية ليست بالذات لصالح الرواية ، لأنها لا تتيح للأبناء التعبير و تمتص تمردهم . " [2]

و يعتقد الباحث أن عودة " يوناثان " الصبار الإسرائيلي إلى مجتمعه مرة أخرى كان أمرا متوقعا و متوافقا مع السلوك الاجتماعي لدى الصباريم الإسرائيليين " فالجماعة موجودة و هي التي تحدد ، من نواح كثيرة طابع الصبار الذي ينمو في إسرائيل . إن الجماعة هي التي تربطه و هي التي تعيد بناءه ، و هو متزوج بها ، حيث تصعب عليه الحياة معها ، و لكنه لا يستطيع الحياة بدونها . " [3]

---

[1] גרשון שקד : גל אחר גל , שם " עמ'86 .
[2] גרשון שקד : גל אחר גל , שם " עמ'94 .
[3] د / رشاد عبد الله الشامي : الشخصية اليهودية الإسرائيلية ، مرجع سابق ، صـ ١٢٤ .

أما بالنسبة إلى شخصية " عزريا " ، فقد ظلت على ثباتها ، حيث ينجب من " ريمونا " زوجة " يوناثان " و يحقق آمال " يولك " الأب . إذن فيمكن أن نفهم من ذلك رسالة " عاموس عوز " وهي أن " الصبار قادر على الدفاع عن الملك ، و لكن ليس باستطاعته أن يجلب الراحة ، لذلك سيكون من المجدي أن يأتي من كان في المنفى و يجلب من هناك تجربة الحياة الأليمة ، و كذلك يجلب الأشواق لوجوده و التوق للحياة داخل إسرائيل . و عزريا وحده كان الضمان لاستمرار الوجود اليهودي . " [١] من هنا ربما يمكننا أن نفهم أنه لكي يتمكن الفرد اليهودي من العيش داخل المجتمع الإسرائيلي ، و لا يرى عيوبه أو تناقضاته ، فإنه يجب أن يتحلى بأمرين :
الأول : أن يكون قد عاش حياة الشتات . الثاني : أن تكون هذه الحياة أليمة ، فلا يكون قد عاش في الشتات و حقق نجاحا ما .
فإذا توافر فيه ذلك ، فسيكون قد اكتسب سمتين :
السمة الأولى : الاشتياق لوجوده داخل المجتمع الإسرائيلي . السمة الثانية : القدرة على الاندماج داخل هذا المجتمع .

أمّا الفرد العادي فلا يمكن أن يتفاعل داخل هذا المجتمع بكل ما فيه من عيوب . فإذا أراد هذا المجتمع أن يكون مجتمعا طبيعيا . و يجذب إليه أفرادا طبيعيين ، فإن عليه التخلي عن المشاعر التي طالما سيطرت عليه " مشاعر الضحية و عقلية الحصار و البطولة العمياء ، و نزعة الاستقواء ، و إيجاد التبريرات لأي عمل و مشاعر جماعية مثل الخوف ، و الكراهية ، و الغضب التي تحولت إلى بنية أساسية نفسية اجتماعية . " [٢]

فمن خلال عملية تخلى المجتمع الإسرائيلي عن تلك البنية النفسية الاجتماعية السيئة يصير هذا المجتمع " مجتمعا تعدديا يفسح المجال لكل رأي و لكل اعتقاد ديني لكي يعيش حياته وفقا لرغبته ، دون إكراه و دون اضطهاد . العلماني متساو مع الحريدي و المواطن المتدين ليس أقل من السياسي الديني ، يُبجل الحاخام مثل البروفيسور ، لأن كلهم موجودون على الصعيد نفسه ، صعيد المساواة بين الإنسان و أفكاره . كذلك العربي ، اليهودي ، الغني و الفقير ، و المرأة المتساوية بكل رجل . " [٣]

بهذا يمكن للمجتمع الإسرائيلي أن يكون مجتمعا يرتبط أفراده به و يرتبط أفراده فيما بينهم مكونين بذلك هويتهم الاجتماعية ، دون أن يكتنفها أية إشكاليات .

ب - اليهود الشرقيون (السفا راد) :

منذ نشأة إسرائيل و مع موجات الهجرة الأولى التي وصلت إليها في ذلك الحين و فيها برز العنصر الشرقي مثل الانتماء الطائفي معيارا للفرز و الاستقطاب المجتمعي داخل بنية المجتمع الإسرائيلي الأمر الذي أدى إلى تكوين " واقع سياسي و اقتصادي و اجتماعي كانت له تداعيات بعيدة المدى في مجالات الوجود المختلفة للمجتمع الإسرائيلي . فقد تبلورت جماعات المهاجرين ، التي لم تكن مترابطة في الماضي بصورة تاريخية مثل المهاجرين من المغرب و العراق على سبيل المثال ، تبلورت مكونة جماعة ثقافية شاملة واحدة ذات سمات اقتصادية متشابهة : ألا و هي الشرقيون ." [٤]

---

[١] יוסף אורן : ההתפכחות בסיפורת הישראלית שם " עם ١٣٨ .
[٢] עקיבא אלדר : מה יודעים היהודים בישראל על הסכסוך עם הפלסטינים ،
http://www.haaretz.co.il\itemNo=1059977.30 -01-2009.
[٣] אברהם בורג : הזהות היהודית המודרנית ، http://lib.cet.ac.il\item=2270.18-02-2008.
[٤] ד"ר / אנדרה לוי : לקראת פוליטיקה של זהויות . http://lib.ac.il\item=17186.18-02-2008.p.2

هـذا و قـد شـكل الغربيـون (الأشـكيناز) غالبيـة البرجوازيـة المحليـة فضـلا عـن الشـرائح العليـا و الوسـيطة مـن الطبقـة الوسـطى ، فـي الوقـت الـذي مثـل فيـه الشـرقيون " السفاراد " غالبية الطبقة العاملة في إسرائيل و ذلك مقابل استبعاد و تهميش شبه كاملين للأقلية العربية . فعلى الرغم من الأدوار العضوية التي لعبها السفارديم في القطاعات الإنتاجية الرئيسية أثناء حقبة بناء الدولة ، إلا أن الهيكل الإنتاجي قد حصرهم على الدوام في قاع السلم الوظيفي و من ثم الاجتماعي . " [١]

و رغم الهجرة الجماهيرية (التي أخذت في التعاظم منذ الخمسينيات) التي وفدت إلى إسرائيل من الدول العربية ، فلم تهتز على الإطلاق مكانة الزعامة الأشكينازية في المجالات السياسية و الاقتصادية و العسكرية و في المجالات المؤثرة على الثقافة الشعبية الرسمية حتى بعد أن تغيرت الموازين الديموجرافية لصالح الطوائف الشرقية . " [٢] فعندما " وصل إلى إسرائيل التجار الأثرياء من بغداد و الأطباء و المدرسون من القاهرة و الإسكندرية و الفلاحون و صغار أصحاب المحلات من الجزائر و المغرب و الفلاحون الأميون الحفاة من اليمن و حشد غفير من صغار الناس من كافة هذه الأماكن ، لم تثبت إسرائيل عطفها عليهم و سرعان ما أحيل اليهود الشرقيون إلى المرتبة الثانية و أطلق المستوطنون الأوربيون صفات الازدراء و السباب عليهم و على طريقتهم في الحياة ، و حتى اليوم فإن التجمعات الشرقية يصفها الأشقاء الأشكيناز بأنها (السوداء) و ليس ذلك من باب المديح . " [٣]

و الواقع أنه قد بدأت " القرارات التمييزية التي اتخذها المسئولون الإسرائيليون ضد السفارديم قبل وصول السفارديم إلى إسرائيل ، و قامت على أساس أن الأشكيناز ، باعتبارهم ملح الأرض يستحقون أوضاعا أفضل و امتيازات خاصة . ... و على العكس من المهاجرين الأشكيناز عومل السفارديم بصورة غير إنسانية في المعسكرات التي أقامها الصهاينة في بلاد المنشأ في أثناء الانتقال ... و من هنا كان صوت إسرائيل الطاغي ، بصورة لا تكاد تتغير تقريبا هو صوت اليهود الأوربيين الأشكيناز ، بينما صوت السفارديم هو صوت مخنوق و مطموس إلى حد كبير . " [٤]

و لدى وصول اليهود الشرقيين إلى إسرائيل " وزعت مجموعات متعددة منهم عبر البلاد ، على الرغم من إرادة البقاء معا . العائلات فرقت ، و المجموعات القديمة فتت ، و القادة التقليديون جردوا من مناصبهم . و اليهود الشرقيون أسكنوا في الغالب في (معبروت) أي معسكرات انتقال ، و قرى نائية و مستوطنات زراعية ، و في ضواحي المدن ، و منها ما أفرغ حديثا من الفلسطينيين . " [٥]

هـذا إذن حـال اليهـودي الشـرقي فـي المجتمـع الإسـرائيلي ، فموقعـه ، دائمـا ، فـي قاع هذا المجتمع . و قد استمر حال اليهودي الشرقي على هذا المنوال منذ قيام الدولة ، حيث " قطن المهاجرون الشرقيون في المناطق البعيدة عن المركز السياسي و الاقتصادي ، كذلك سكنت التجمعات السكانية العشوائية منهم مدن التطوير ، و قد أسفر ذلك عن مشكلات كثيرة فقد أقيمت مدن التطوير بلا بنية تحتية اقتصادية ملائمة . و بشكل عام فإن ساكنيها اشتغلوا في المصانع عمالا يدويين ، ثم اتضح بعد عهود معدودة عدم مقدرتهم على

[١] د / عماد جاد : مرجع سابق ، صـ ١٧٦ .
[٢] د / موشيه تسوكرمان : مرجع سابق صـ ٣٥ .
[٣] مايكل رايس : مرجع سابق ، صـ ٢٤١ .
[٤] إيلا حبيبة شوحيط : اليهود الشرقيون في إسرائيل . الصهيونية من وجهة نظر ضحاياها اليهود ، مجلة الدراسات الفلسطينية ، العدد ٣٦ ، صـ ١٠٥ – ١٠٦ .
[٥] إيلا حبيبة شوحيط : المرجع السابق نفسه ، صـ ١٠٩ .

منافسة التطور في السوق العالمي و قد كان من الصعب تأسيس جهاز تعليمي مناسب في تلك المدن و ذلك لأن المعلمين و المربين ذوي الخبرة و الكفاءة يفضلون المناطق الأكثر تأسيسا . " [1]

كذلك فإن اليهود الشرقيين يشغلون أعمالا " أدنى مرتبة من تلك التي يشغلها يهود الغرب و أبناؤهم ، ففي عام ١٩٤٨ بلغت نسبة من يعملون في المجالات العلمية و الأكاديمية ٨ . ٨ % من إجمالي القوى العاملة في إسرائيل . و في الوقت الذي بلغت فيه النسبة لدى يهود الغرب ٣ . ١٩ % فإنها وصلت إلى ٩ .٤ % لدى يهود الشرق . و قد استمرت هذه الفجوة مرتفعة لدى أبناء الجيل الثاني ، حيث بلغت لدى أبناء يهود الغرب ٩ . ٢٦ % مقابل ٨ . ٤% لأبناء يهود الشرق . " [2]

و الواقع أن التمييز ضد اليهود الشرقيين يعد سمة بارزة في كافة مجالات المعيشة داخل المجتمع الإسرائيلي ، بداية من طريقة الاستقبال و أماكن التوطين و انتهاء بالوظائف التي يسند إليهم القيام بها . " فباعتبار اليهود الشرقيين قوة عاملة رخيصة ، و متحركة ، و قابلة للتلاعب بها ، فقد كانوا ضروريين للتطور الاقتصادي لدولة إسرائيل ، فأصبح الكثيرون منهم عمال بناء بأجور منخفضة . ثم أدت الأرباح العالية ، الناشئة عن الأجور المتدنية ، إلى توسع سريع لشركات البناء التي يديرها اليهود الأشكيناز أو يملكونها ... و تكشف الوثائق المنشورة مؤخرا الحجم الذي كان فيه التمييز سياسة محسوبة ميزت ، عن قصد ، المهاجرين الأوربيين و أوجدت ، أحيانا ، أوضاعا شاذة يكون فيها اليهود الشرقيون المتعلمون عمالا غير مهرة ، بينما يحتل الأشكيناز الأقل تعلما مواقع إدارية عالية . " [3]

و تجدر الإشارة إلى أن التفرقة ضد اليهود الشرقيين لا تنتهي عند حدود اليهودي الشرقي نفسه ، بل تنسحب على أولاده من بعده مقارنة بأولاد الأشكينازي ، فهم – أي الشرقيون – من وجهة النظر الأشكينازية ما هم إلا سلالة بربرية همجية ، لا يمكن بأي حال من الأحوال التعامل معها ، كذلك تنقطع كل الطرق التي يمكن أن تعمل على ترقي هذه السلالة لتواكب المعايير الحضارية الأوربية الحديثة . و قد كتب " أمنون دانكر " الكاتب في صحيفة " هآرتس " مقالا بعنوان " ليس لي أخوات " نشرت في ١٨ فبراير ١٩٨٣ م . يصف فيها حياته بوصفه أشكينازيا مع اليهود الشرقيين بقوله :

" يضعونني في قفص واحد مع قرد بابون ، و يقولون لي : إنكما معا ، ابدأ الحوار ، و لا أجد أمامي أي خيار ، فالقرد يقف ضدي ، و الحارس ضدي و الرسل التي تنادي بحب إسرائيل تقف حياديا و تغمزني بأعينها الحكيمة ، إن الحرب بين المزراحيم و الأشكيناز لن تكون حربا بين الأشقاء ، فهؤلاء ليسوا أشقاء أو أخوات لنا . " [4]

فالأشكيناز لا يتعاملون مع الشرقيين بوصفهم أفرادا مساوين لهم في المجتمع نفسه ، بل يتعاملون معهم بوصفهم مجتمعا دخيلا على مجتمعهم الإسرائيلي و هو مجتمع عربي رديء ، بدائي ، أيضا ، فهو مجتمع لن يتمكن أبدا من التطور ، لذلك يجب أن يظل هذا المجتمع الشرقي بمنأى عن المجتمع الأشكينازي ، مجتمع السادة الذين يجب أن يكونوا هم المسيطرين على مقاليد الدولة لأنهم الأقدر على ذلك ، و نتيجة لذلك " تتحكم في المجتمع الإسرائيلي قلة يهودية غربية بأغلبية يهودية شرقية حتى إنهم يستعملون أحيانا داخل إسرائيل نفسها تعبير دولة الأشكيناز للتدليل على ذلك . لقد رفع اليهود الشرقيون شعار الخبز و العمل للتعبير عن المشاكل المتفاقمة التي تواجههم في المسكن و الملبس و

---

[1] ד"ר / אנדרה לוי : שם " עמ' ٢ .
[2] د / عماد جاد : مرجع سابق ، صـ ٤٨ .
[3] إيلاشوحيط : مرجع سابق ، صـ ١١٠ – ١١١ .
[4] أحمد مصطفى جابر : مرجع سابق ، صـ ٢٦ .

الأجور و الحياة الاجتماعية و الثقافية . إن اليهود الذين حلت مشاكلهم هم اليهود الذين التحقوا بالأحزاب اليمينية . " [١] و يقول "ميخائيل بارزوهار" في صحيفة "يديعوت أحرنوت":

" إننا ألغينا منذ سنوات و بسعادة التعبير التعيس إسرائيل الثانية ، و يمكننا اليوم أن نخرجه مرة أخرى . فقد بعثت إسرائيل الثانية ، و ينمو بيننا شعبان يهوديان شعب يهودي غربي حصل ثلثه على تعليم عال و أقل من الثلث يعمل في حرف يدوية و إلى جانبه شعب يهودي شرقي حصل ٦ % منه فقط على تعليم عال و ٦٣ % منه يعملون في حرف يدوية . هذا ما يكشفه بحث يعقوب ناهون من معهد القدس للأبحاث الإسرائيلية الذي يؤكد أن الفجوة الطائفية في إسرائيل قد ازدادت على مر السنين . " [٢]

و عن ذلك يقول سامي ميخائيل : " لقد كانت لغتي هي اللغة العربية التي أتكلم بها و إن العقلية و التقاليد و أسلوب التفكير و التطلعات الثقافية عندي قد نبتت و تطورت جميعها في بغداد العربية المسلمة اليهودية المسيحية . كنت فخورا بهذه الموروثات و ذلك لأن اكتسابها قد استغرق سنوات من الكفاح ، و لم يخطر ببالي أن هذه الموروثات تعد شناعة في المجتمع الإسرائيلي الذي وصلت إليه . ذلك أن الكلمات التي كنت أنطقها و الحروف التي كان يخطها قلمي و أفكاري و التقاليد التي جبلت عليها كانت بجملتها من إنتاج العدو العربي . و نتيجة لهذا الضغط ، و مطالبة إسرائيل المهاجرين الجدد بالانصهار التام و خلع الموروثات الثقافية و اعتناق الثقافة الإسرائيلية خلع الصبية الذين كانوا في مرحلة المراهقة جلدهم السابق متجاهلين بذلك جذورهم . أما الشيوخ فقد فرضوا على أنفسهم العزلة ، و تحصنوا وراء جدار منيع و واصلوا العيش بوصفهم مهاجرين منعزلين عن البيئة المحيطة بهم حتى آخر أيام حياتهم . " [٣]

و في مقابلة أجراها الصحفي الإسرائيلي " اسحق لأور " من الملحق الأسبوعي لجريدة " هآرتس " الإسرائيلية مع الأديب " أ . ب يهوشواع " قال فيها الأخير : " ليس لدي أو لدى أختي لهجة شرقية في النطق ، رغم أن أبي و أمي كانا ينطقان العبرية بلهجة شرقية ، و الواقع أنك لو أمعنت فكرك في هذا الأمر لتعجبت أشد التعجب : فالطفل الإسرائيلي البالغ من العمر سنة واحدة يمكنه أن يستوعب أن عليه أن يتبنى النطق العام الإسرائيلي و ليس النطق الشرقي ، لأن أساس هويته لم يعد الأسرة و لا البيت ، بل أصبح أساس هويته هو الأغلبية ، الرفاق ، المدرسة ، كما لو أن البيت يقول له لا تصبح مثل الأسرة ، عليك أن تكون مثل مدرسيك ، مثل الأطفال في دار الحضانة ، عليك ألا تصبح مثل أبيك و أمك . " [٤]

هذا و يمكن أن نجمل وضع اليهود الشرقيين داخل المجتمع الإسرائيلي بقولنا :

إنه وضع غير آدمي ، لا يشعر الفرد من خلال هذا الوضع بالانتماء إلى المجتمع الذي يعيش بداخله . و اليهودي الشرقي في هذا الوضع الاجتماعي المتردي لا ينافسه فيه أحد ، اللهم إلا الفلسطيني الذي يعيش داخل إسرائيل ، فالفرق بينهما ليس كبيرا ، كذلك فإن معظم مشكلاتهم الاجتماعية واحدة و مطالبهم ، أيضا ، تكاد تكون واحدة و إن كانت معاناة اليهودي الشرقي في إسرائيل أصعب من فلسطيني ٤٨ ، لأن الأول ينطبق عليه أي وصف للمجتمع الإسرائيلي ، فسواء وصف هذا المجتمع بأنه مجتمع يهودي أم مجتمع إسرائيلي فاليهودي الشرقي ، في كلا الحالتين ، يهودي و إسرائيلي ، أما الفلسطيني فلا ينطبق عليه الوصف الأول و يقتصر على الوصف الثاني فقط .

و قد عبر " سامي ميخائيل " في روايته هذه خير تعبير عن مدى معاناة اليهود الشرقيين داخل المجتمع الإسرائيلي ، و أيضا عن مدى التقارب بين المجتمع الفلسطيني داخل إسرائيل و المجتمع اليهودي الشرقي و مدى اندماجهما ، فالرواية تكاد تخلو من

---

[١] د / أحمد الديك : مرجع سابق ، صـ ١٩٤ .

[٢] جمعية الخريجين : مرجع سابق ، صـ ٢٦٤ .

[٣] روبيك روزنتال : حوار مع سامي ميخائيل .http:\\www.amin.org.2-1-20020

[4] - http://www.haaretz.co.il.12 -06-2010.

شخصية أشكينازية واضحة أو حتى حديث عن الأشكيناز ، و ربما رسم " سامي ميخائيل " روايته على هذه الصورة متجاهلا ذكر الطرف الأشكينازي ، رغم ما لهذا الطرف من تأثير كبير على اليهود الشرقيين و على المجتمع الإسرائيلي بصفة عامة – كما تبين سابقا – ليوضح للقارئ الإسرائيلي سواء أكان أشكينازيا أم سفارديا ، أن الشرقيين ، كذلك ، يتجاهلونكم كما تتجاهلونهم و لا يرونكم في مجتمعهم ، كما لا ترونهم ، فقد غيب " ميخائيل " اليهودي الشرقي الشخصية الأشكينازية و أسقطها من روايته و لا نرى أثرها سوى في مساكن الشرقيين الفقيرة ، و المخيمات الفلسطينية ، و معاناة فلسطيني ٤٨ داخل إسرائيل و كأن ميخائيل يرى أن دور الأشكيناز في المجتمع الإسرائيلي ينحصر في كونهم مصدرا لمعاناة سائر أفراد هذا المجتمع .

و نلاحظ أن أول ما ورد في الرواية ، استفهام يوجهه " مردوخ " لزوجته و لا يتركها تجيب عليه ، بل يقوم هو بالإجابة فنقرأ :

" אם תתחסל ישראל , מה יזכרו ממנה הדורות הבאים ? רק שני דברים , השיב בעלה על תהייתו שלו . חקלאות פנטסטית באזור צחיח ודפיקת הערבים . בשתי אלה אין לי חלק . "[1]

" إذا ما محيت إسرائيل من الوجود ، ماذا ستتذكر الأجيال القادمة عنها ؟ أمران فقط ، " أجاب زوجها على تساؤله . " الزراعة الرائعة في إقليم مقفر و ضرب العرب . وليس لي في كلا الأمرين أي نصيب . "

و إذا تمعنا في هذا الاستفهام عما سيتذكره الناس عن إسرائيل إذا انتهت من الوجود سنجده بداية غريبة للرواية ، فكيف تبدأ الرواية بفرضية إبادة إسرائيل و تلاشيها من الوجود ؟ ! الواقع أنه رغم غرابة هذه البداية ، إلا أن لها ما يبررها ، فقد ألف " ميخائيل " هذه الرواية بعد حرب ١٩٧٣ ، حيث ساد المجتمع الإسرائيلي بعد هذه الحرب شعور ثقيل بالإخفاق و الفشل و قد فسر " أدير كوهين " و " إفرات كرمون " هذه الظاهرة في كتابهما الذي يحمل عنوان " في ظلال حرب يوم الغفران " و الذي أصدرته جامعة حيفا عام ١٩٧٦ م قائلين إنها ترجع إلى عدة عوامل منها " الشكل الذي نشبت به الحرب و انعدام الاستعداد و المفاجأة المطلقة ، و ظهور المجتمع الإسرائيلي بكل نقاط ضعفه التي تعرض وجوده للخطر و الانقسام الداخلي و ضعف الوعي . و شدد المؤلفان على أن الشعور بالفشل في أوساط الجمهور بعد الحرب مبعثه الضعف الاجتماعي ، و على أن التفاعلات التي خلقت الخلفية لثبات المجتمع الإسرائيلي في الحرب ناتجة عن مشكلة جذرية للاستيطان في البلاد منذ مطلعه : هي ما السبيل إلى البقاء "[2]

من ناحية أخرى ، فقد صاحب هذه الحرب آثار نفسية سيئة بعيدة المدى ، لا يزال يعاني منها المجتمع الإسرائيلي حتى اليوم ، حيث ثارت التساؤلات عن جدوى الدولة و إذا ما كانت قد وفرت الحماية و الأمن للإسرائيليين ، كذلك ثار العديد من التساؤلات عن المدة التي ستظل فيها إسرائيل قائمة و متى ستختفي من الوجود ، وما الذي سيتذكره العالم عن إسرائيل بعد اختفائها . ففي مقال بجريدة هآرتس العبرية بعنوان " هل يمكن أن تمحى إسرائيل من الوجود ؟ يقول الكاتب : " كلما تمعنت في هذه الأفكار المتشائمة يظهر أمامي هذا المصير بصفته نتيجة معقولة جدا لوضع إسرائيل الحالي ؟ "[3]

هذا و قد تحدث الكثيرون عن المستقبل الغامض لتلك الدولة ، حيث تقول الكاتبة الإسرائيلية " أبياله سباج " في مقال بعنوان " ليس هناك غد ":

---

[1] חסות ، שם " עמ'٥ .

[2] إبراهيم عبد الكريم : مرجع سابق ، ٣٠٨ – ٣٠٩ .

[3] בני ציפר : הייתכן שישראל תחדל להתקיים ؟ http://www.haaretz.co.ilitemNo=670095. 14-01-2006 .

" لا غد !!! و لا بعد غد !!! الكل هراء . نحن نعيش في زمن مستعار وسط أناس نحن ، دائما ، لا نعرفهم جيدا ، و لا بصورة كافية . نحن نعيش تحت سطوة سلطة زائفة فاسدة و الغد هو شيء غير واضح المعالم ، و لا معروف ، إنه مجهول بالنسبة لنا و يكمن بداخله مفاجآت و انقلابات غير متوقعة . " [1]

و نعود للسؤال الذي طرحه " سامي ميخائيل " على لسان " مردوخ " في مطلع روايته ، حيث يجيب " سامي ميخائيل " عن سؤاله بأن ما سيتذكره العالم عن إسرائيل ، بعد فنائها هو قدرتها الفائقة على زراعة الأرض المقفرة و ضرب العرب فقط ، و يعلن أنه لا نصيب له في كلا المجالين . و نلاحظ هنا أنه قصر ما يجيده المجتمع الإسرائيلي على الزراعة و ضرب العرب فقط ، مما يدل على أنه مجتمع عاجز و قاصر ، كذلك نلاحظ أنه حول ضرب العرب و تعذيبهم إلى حرفة يجيدها هذا المجتمع غريب الأطوار ، من هنا فهذا مجتمع مريض لا يمكن للفرد الطبيعي أن يجد لنفسه مكانا داخل طبقاته ، فهو مجتمع يعادي كل من يعيش بداخله و لا يعمل على دمجهم ، و لا يقدم لهم العوامل الاجتماعية التي تهيئ لهم سبل تكيفهم فيه و كيف يمكن له العيش داخل مجتمع يعاني قسم كبير منه من الفقر و الجوع ، و يحمل ذاكرة جماعية سيئة تجاه قسمه الآخر ، حيث صور لنا " ميخائيل " معاناة المجتمع الفلسطيني داخل المجتمع الإسرائيلي ، و كيف أن الدولة تجور على حقوقه .

و يحكى لنا " ميخائيل " عن طفولة " فتحي " الشاعر و نسيبه " وصفي " في شتاء عام ١٩٤٩ و كيف كانا فقيرين ، و لكنهما كانا مستمتعين في أرضهما ، ثم صارا بعد جور الدولة فقيرين و لاجئين ، شأنهما شأن الكثير ، فنقرأ حين كان " وصفي " و " فتحي " يمران أمام أحد الكيبوتسات ، إذ قال " وصفي" لـ " فتحي " :

״ ראה , פתחי , ראה איך חילקו בני הזנונים את הארץ . את האדמה השמנה לקחו להם ו למסכינים האלה הותירו רק טרשים . ״ [2]

" أنظر يا فتحي . أنظر كيف قسم أولاد الزنى هذه الأرض . لقد استحوذوا على الأرض الخصبة ، و أبقوا فقط الأرض الوعرة لهؤلاء المساكين . "

فيقدم لنا " ميخائيل " معاناة الفلسطينيين داخل المجتمع الإسرائيلي و يبرر كرههم لإسرائيل . و كل ذلك بسبب الجور و الظلم الإسرائيلي الذي يغلف حياة الفلسطينيين ، و نلاحظ هنا أنه أورد سببا على لسان الفلسطيني " أولاد الزنى " و أورد تعليله بسبب تقسيم الأرض الجائر ، و كأن " وصفي " سيكون راضيا بالوجود الإسرائيلي ، إذا كانت الأرض مقسمة بالعدل بين الطرفين . فأين الضمير الاجتماعي لحكام إسرائيل ، إذا ما تعاملوا بهذه الطريقة مع أفراد مجتمعهم ، فـ " ميخائيل " يشعر بمعاناة هذا القسم من مجتمعه ، و بمدى حبهم و تعلقهم بأرضهم ، و يغفر لهم ثوراتهم ضد إسرائيل ، لأنه يعلم معنى أن يفقد الإنسان أرضه ، حيث يرفض " ميخائيل " ، على سبيل المثال ، وصف مقاتلي " حماس " بأنهم مخربون و يطرح سؤالا ، إذ يقول : " تخيل شعوري إذا استيقظت غدا لأجد أن هذا الحي الذي نسكن فيه قد احتله السوريون بالقوة و أقاموا فيه مستعمرة و أنه يتعين علي الحصول على تصريح من الجيش السوري حتى أذهب إلى المحطة . كيف سيكون شعوري ؟ ! إذا حاربت ضده سيعتبرونني مخربا و لماذا أعد مخربا ؟ لماذا يصفون " حزب الله " و أعضاء " حماس " بأنهم مخربون ؟ لماذا ألأنهم يحاربون داخل أرضهم ؟ فجأة يهب عليهم جنود أجانب محتلون ، و يقولون لهم : إن بيتكم هو بيتنا . هذه أرضهم ، لقد ولدوا هنا هم و أجدادهم ، و لكن المستوطنين يقولون : لن نتحرك أبدا .. لو كنت مكان الفلسطينيين فكيف سترد على ذلك ؟ " [3]

---

[1] איילה סבאג : אין מחר .http://www.kedma.co.il\id=1949.22-06-2008

[2] חסות , שם ״ עמ׳ 40 .

[3] http://www.amin.org.02-01-2002.

هذه نظرة " سامي ميخائيل " للفلسطينيين داخل إسرائيل ، إنه يقدر موقفهم و يستوعب مصيبتهم و يراهم من خلال منظور يختلف تماما عن المنظور الذي تتعامل به إسرائيل معهم ، فوضع الفلسطينيين المتدني في المجتمع الإسرائيلي يجعله يعجز عن احترام المجتمع الإسرائيلي ، كذلك يعوق دون تكيفه و اندماجه في هذا المجتمع لأنه لن يستطيع التواصل مع أفراده .

من ناحية أخرى ، يقدم لنا " سامي ميخائيل " شوشنا " اليهودية الشرقية و يصور لنا حالها داخل المجتمع الإسرائيلي ، فنقرأ :

" עמדה בעיתון וגידפה אותו ו את אמה ו את אחיה ו את הערבים ו את העם הנבחר . "[1]

"وقفت ممسكة بالجريدة و لعنتها ، و لعنت أمها و أخاها ، و لعنت العرب و الشعب المختار".

فهي تلعن الصحيفة و ما تحمله من أخبار هي على الدوام سيئة بالنسبة لها ، فهي يهودية شرقية فقيرة لفظها المجتمع الإسرائيلي ، و هي مضطرة لمجالسة " عيدو " ابن " شولا " و هو طفل معاق ، و هي مجبرة على ذلك ، فزوجها يعمل في جريدة حقيرة ، لا يتقاضى منها أجرا يجعله يعيش عيشة عادية ، لذا فهي تلجأ إلى مجالسة " عيدو " طمعا في الأجر الذي تتقاضاه من " شولا " فهي تلعن الظروف الاجتماعية التي حكمت عليها أن تجالسه و أن تعد وجبات الطعام لـ " شولا " حتى تأتي من عملها ، ثم تلعن أمها و أخاها ، و ذلك لأنها قد تزوجت عربيا إسرائيليا فتنكرا لها ، بسبب مخالفة هذا الزواج للشريعة اليهودية و كذلك لأن هذا العربي الإسرائيلي " فؤاد " فقير . ثم تلعن في النهاية كلا من العرب و اليهود و قد استخدمت في تعريف اليهود وصف " الشعب المختار " ، مما يدل على كرهها و رفضها لكل الموروثات الدينية اليهودية ، فقد أقيمت إسرائيل على أرض فلسطين ، بصفة خاصة ، بسبب أهميتها الدينية عند اليهود ، و أعلنت إسرائيل نفسها دولة يهودية بسبب خصوصية الشعب اليهودي ، بوصفه شعبا مختارا . إن هذا هو منبع الصراع ، صراع الشعب المختار مع العرب على الأرض المقدسة ، و قد مرّ هذا الصراع بعدة مراحل يحددها الدكتور " دانيال برطل " أستاذ علم النفس الاجتماعي السياسي بجامعة " تل أبيب " بقوله " بدأ هذا النزاع في بداية القرن العشرين بوصفه نزاعا إثنيا حول قطعة أرض كانت تدعى آنذاك " فلسطين " بين اليهود الذين بدأوا في الاستقرار بها بدافع عوامل قومية و بين السكان العرب الذين استقروا بها و راحوا يبلورون قوميتهم . و بالرغم من أن بداية هذا الصراع كانت بداية محلية ، إلا أن النزاع تحول خلال بعض عشرات السنين إلى نزاع إقليمي ذي وشائج دولية واسعة . و بعد أن وصل إلى ذروته ، قبل فترة قصيرة من إقامة دولة إسرائيل ، تجسد هذا النزاع في صراعات عنيفة و حروب بين إسرائيل و الدول العربية ، و لكن ، بمرور الوقت ، عاد النزاع و تركز في المواجهة بين اليهود في إسرائيل و الفلسطينيين بالاشتراك مع الدول العربية . "[2]

فالمجتمع الإسرائيلي غارق في صراعات و حروب مع العرب ، فهو صراع تاريخي مستمر ، و ينعكس هذا الصراع التاريخي عليها و على أسرتها و هي ليس لها شأن بهذا الصراع . إنها تريد الحياة ، بدون صراع ، بدون ذلك التلوث الفكري الذي يبثه الطرفان داخل أسرتها و يعمل على تدميرها ، و هذا الصراع العربي الإسرائيلي لن يحل ، طالما استمر الطرفان متمسكين بروايتهما التاريخية ، وهي الرواية الراسخة في وجدانهما ، و التي اعتمدا عليها لسنوات طويلة ، و استمدا منها هويتهما و مغزى حياتهما .

---

[1] חסות , שם " עמ' 18 .

[2] דניאל ברטל : לחיות עם הסכסוס –ניתוח פסיכולוגי –חברתי של החברה היהודית בישראל, הוצאת כרמל,2007, עמ'4 .

و يقول الدكتور " مولي بيلج " و هو محاضر الإعلام السياسي " بمعهد نتانيا العالي " " تحول الصراع بين الطرفين ، منذ زمن إلى صراع غير واقعي أي : ليس هناك صلة بين الأهداف التي خرج تحت رايتها كلا الطرفين للمواجهة و بين الوسائل المتخذة للمحافظة على استمرار الصدام المرتوي بهذه الدماء . فقد عتمت المسيرة على الأهداف و ابتلعتها ، حيث أدرك الفلسطينيون جيدا أن نضالهم المسلح لن يحقق لهم الاستقلال ، بل سيبعد سيادتهم و حريتهم ، بينما أسرّ الإسرائيليون ، منذ زمن أنه لن يتحسن أمنهم بالطرق العسكرية و لا بالبطش بمخيمات اللاجئين ، إنما سيهتز . " [1]

فبالرغم من إدراك الطرفين عدم جدوى الحرب بينهما ، إلا أنهما يكملان تلك الحرب و تكون نتيجة هذه الحرب التأثير النفسي السيئ على أفراد المجتمع الخاضع لها . و إذا بحثنا في أسباب هذه الحرب ، و عدم القدرة على التوصل إلى حل لإقرار السلام ، و وقف نزيف الحرب نجد جدارا إسرائيليا ، غير قابل للاختراق يقف أمام عمليات السلام ، كما نجد تشبعا إسرائيليا بفكرة خاصة هي كون الإسرائيليين شعبا مختارا من الله ، لذا فإن كل أفعال هذا الشعب مبررة و مسموح بها ، تلقائيا ، باسم أهوال الماضي و مخاوف اليوم . و يحكم تلك الأفعال ، في المقام الأول ، هاجس العنصرية و التعصب . فقد تربى اليهود و تشكلوا على فكرة أن أي معاناة سببها أبناؤهم أو يسببونها للآخرين ، و تحديدا للفلسطينيين فإنها ستكون - دائما - أقل كثيرا مما عانوه هم أنفسهم في أحداث النازي ، من هنا يتم رفض الاحتكام إلى أدنى مستوى من المنطق و العقل إزاء أفعالهم ، بل يجب ، من وجهة نظرهم ، أن يتحول الجميع إلى تابع مطيع يخضع تماما لإرادتهم و يقبل جرائمهم بوصفها أمرا طبيعيا ، بعد ما لاقوه من معاناة .

من ناحية أخرى ، يشكل السلام خطرا كبيرا على إسرائيل ! إذ يعني السلام أن يتفرغ كل طرف من أطراف هذا المجتمع المتناقض ، ليبحث عن حقه و مكانه في هذا المجتمع ، و تحاول كل طائفة فيه أن تستأثر بالسلطة ، أما الحرب فهي تعني التغلب على الخلافات الداخلية ، حتى يتم درأ الخطر الخارجي ، و قد يفسر لنا ذلك " غموض السياسات الإسرائيلية تجاه قضية السلام في المنطقة ، بل و محاولتها عرقلة تحقيق سلام حقيقي عادل ، لأنه يعني في نظر الجميع الحاجة إلى تغيير كل الأسس و الأفكار و المبادئ التي استندت عليها الفكرة الصهيونية على امتداد مسيرة جهودها من أجل إنشاء الدولة ، ثم خلال سنوات الدولة ذاتها و القائمة على فكرة الصراع المتواصل مع العرب ، لضمان تجميع صفوف اليهود . ... فكلمة السلام متداولة في إسرائيل على ألسنة الجميع ، و لكن لم يحدث على الإطلاق أن وضع أحدهم هذا الاستعداد لتحقيق السلام و الثمن الضروري لتحقيقه ، أمام الاختيار . " [2]

و بهذا تغلق أمام الفلسطينيين كل الطرق عدا طريق السلاح و المقاومة ، و من هنا و بسبب السياسات الإسرائيلية الأشكينازية يغرق المجتمع الإسرائيلي بكامل طبقاته في دوامة من المشكلات و عدم الاستقرار و عدم الشعور بالأمن و الأمان ، على الرغم من وجود تقارب و تآلف بين بعض فئات هذا المجتمع ، مثل التقارب الذي أوضحه لنا " ميخائيل " بين اليهود الشرقيين و الفلسطينيين داخل إسرائيل ، المتمثل في زواج " شوشنا " اليهودية الشرقية بـ " فؤاد " النصراني العربي ، و الذي يصل إلى درجة إخفاء " شولا " اليهودية الشرقية لـ " فتحي " الشاعر الفلسطيني الذي يقاوم بشعره الاحتلال الإسرائيلي ، و لكن في النهاية و بسبب السياسات الإسرائيلية الأشكينازية التي تتخذ من الحرب دعامة أساسية لها تتحول تلك العلاقات الطيبة بين اليهود الشرقيين و العرب

---

[1] מולי פלג : מלכודת של נרטיבים .2006-10-27 http:\\www.ynet.co.il

[2] موشيه تسوكرمان : مرجع سابق ، صـ ٣٠ ، ٣٣ .

إلى علاقات عدائية بين المحتل الإسرائيلي عموما و بين الفلسطينيين الإرهابيين ، فنقرأ في نهاية الرواية :

"הוא קם ושפתיו היבשות חיפשו בחושך את שפתיה. פניה נרתעו לאחורה , והוא הרגיש בצינה , כאילו קמה ביניהם מחיצה קרה כמוות. באותה שעה חדלו להיות גבר ואשה. הוא היה סתם ערבי ו היא סתם יהודיה". [1]

" قام (فتحي) و بحثت شفتاه الجافة في الظلام عن شفتيها . فتراجع وجهها إلى الخلف ، و شعر هو بقشعريرة ، كما لو انتصب بينهما حاجز بارد كالموت . و في هذه اللحظة لم يعودا رجلا و أنثى ، فهو مجرد عربي ، وهي مجرد يهودية . "

و يتضح تدهور العلاقات بين اليهود الشرقيين والفلسطينيين ، بسبب الحروب المتوالية بين إسرائيل و العرب ، و نظرا لأنه لم يتبق في ظل سياسات إسرائيل إلا الحروب و الدماء " فيمكن أن نستعرض هذه الازدواجية الراسخة بين الأسطورتين الاحتلال مقابل الإرهاب . فالأول يحرك الفلسطينيين و الثاني يحفز الإسرائيليين . " [٢]

فإسرائيل تريد مجتمعا يهوديا نقيا ، لذا فهي تقوم بقتل الفلسطينيين ، وحجتها في ذلك أنهم إرهابيون و هي ، أي إسرائيل ، بعد أن يتم لها هذا المجتمع اليهودي النقي الذي تصبو إليه ستقوم بتكرار ما فعلته مع الفلسطينيين ، و لكن في هذه المرة سيكون مع اليهود الشرقيين . و عن ذلك يقول عالم الاجتماع الإسرائيلي " أفيشاي إيرلنج " ، بعد أن وصف إسرائيل بأنها مجتمع الحرب الدائمة :

" تكمن في النواة الداخلية للصراع العربي – الإسرائيلي جهود المستوطنين الصهاينة لخلق مجتمع يهودي حصري في فلسطين ، و مقاومة العرب الفلسطينيين في البداية ، و لاحقا مقاومة دول عربية و غيرها لهذا المشروع الاستعماري . إن العمليات الاجتماعية و القومية و بناء الدولة ترى من جانب العرب كعمليات تدمير ، و تشتيت للمجتمع العربي الفلسطيني . " [٣]

من هنا ، لن يكون هناك مجتمع إسرائيلي يبعث على تحقيق الهوية الاجتماعية لأفراده بصورة سليمة ، طالما ظل الجور و الظلم الاجتماعي للفلسطينيين الإسرائيليين ، الناتج عن سياسة الحروب التي تنتهجها إسرائيل بزعامتها الأشكينازية ، هو المعيار السائد داخل المجتمع الإسرائيلي . فالعدالة الاجتماعية مفقودة في المجتمع الإسرائيلي ، و هو – سامي ميخائيل - بوصفه إسرائيليا من جذور عربية عراقية يلحقه ما يلحقه من أضرار و مشكلات بسبب نظرة إسرائيل إليه بوصفه عربيا ، فمجتمعه الإسرائيلي لا زال ، حتى الآن ، يتعامل معه بوصفه عربيا عراقيا يعيش داخل إسرائيل ، لا بوصفه إسرائيليا يهوديا ، فكيف يمكن التكيف و الاندماج داخل مجتمع كهذا ؟ . لذا راح يتقرب و يمد جسور الصداقة مع القسم الفلسطيني من المجتمع الإسرائيلي ، فرفاقه إما فلسطينيون و إما يهود شرقيون ، حيث يخبرنا " ميخائيل " على لسان " فتحي " الشاعر بالأخوة بين العرب و اليهود (الشرقيين) فنقرأ وصفا يقدمه " فتحي " عن " مردوخ " إذ يقول :

"באחוָתו של מרדוך האמין . מרדוך , שלא מצא פסול ביהדותו ובישראליותו" [4]

"لقد آمن بأخوة مردوخ ، مردوخ الذي لم يجد شيئا مرفوضا لا في يهوديته و لا في إسرائيليته."

---

[1] סמי מיכאל : חסות , שם עמ' 372 .

[2] מולי פלג : שם עמ' 1 .

[٣] أورى رام : مرجع سابق ، صـ ٢٤٥ .

[4] חסות , שם עמ'215 .

فـ " مـردوخ " و" فتحـي " وجهـان لعملـة واحـدة و الميـزة التـي وجـدها " فتحـي " فـي " مـردوخ " هـي أن الأخيـر لـم يجـد أي تعـارض فـي كونـه يهوديـا يـدين بديانـة موسـي و كونـه إسـرائيليا يعـيش داخـل مجتمعـه و يتـرابط مـع سـائر طبقاتـه و ذلـك علـى العكـس مـن كثيـر مـن اليهـود الأشـكيناز الـذين اسـتعملوا منظـور الاسـتعلاء مـع اليهـود الشـرقيين و العـرب ، فشخصـية " فتحـي " الشـاعر الفلسـطيني المـتعلم و العصـامي ، الـذي توقـف حـائرا أمـام أسـئلة الثقافـة و الهويـة ، و خـاب أملـه هنـا و رضـي هنـاك ، لكنـه احـتفظ ، مـع ذلـك ، بعلاقـات قريبـة جـدا مـن المجتمـع الإسـرائيلي و اليهـود ، إلـى جانـب تميـزه بهويتـه الفلسـطينية . و هـو لا يفعـل ذلـك بـالتخلي عـن هويتـه هـذه ، رغـم أنـه خارجهـا و خـارج المجتمـع الإسـرائيلي أيضـا . و يقـف علـى الهـامش المـزدوج كـل الوقـت ، أليسـت ملامـح شخصـية " فتحـي " هـذه منطبقـة تمـام الانطبـاق علـى شخصـية " مـردوخ " ؟ تلـك الشخصـية التـي عاشـت مراحـل حيـاة شـبيهة بحيـاة الكاتـب نفسـه " سـامي ميخائيـل " الـذي أدرك أن قـوانين الهويـة الاجتماعيـة التـي يضـعها المجتمـع الإسـرائيلي هـي قـوانين عنصـرية ، تلـك القـوانين التـي أصـبحت تمثـل إشـكالية أزليـة و معضـلة مـن أكبـر المعضـلات التـي تواجـه اليهـودي الشـرقي فـي هـذا المجتمـع ، لدرجـة أنهـا أصـبحت تشـكل بالنسـبة لـه مفتـرق طـرق خطيـر و مـدمر فـي ظـل انعـدام الأمـل فـي إحـداث أي تغييـر قـي تلـك القـوانين و المعـايير الاجتماعية ، التي تشكل معيار قبول الفرد داخل هذا المجتمع .

لقـد طُلـب مـن اليهـود الشـرقيين الـتخلص مـن ماضـيهم و ثقـافتهم ، لأنهـا فـي نظـر المجتمـع الإسـرائيلي العصـري عـار يجـب علـى مـن يحملـه أن يخجـل منـه ، حيـث " اكتشـف الشـرقيون أن الثقافـة الإسـرائيلية تعاملـت مـع نظيرتهـا الشـرقية بوصـفها متدنيـة و منحطـة ، و حاولـت الانفصـال عنهـا . و قـد شـجع النـزاع السياسـي بـين إسـرائيل و الـدول العربية علـى النظـر بـازدراء لكل مـا هـو مرتبط بالثقافة العربيـة و ثقافـة الإسـلام ، و قـد حـول هذا الوضع (الشرقية) إلى حقيقة اجتماعية ذات تداعيات واقعية . " [1]

هـذا و قـد وعـد هـذا المجتمـع اليهـود الشـرقيين بجـائزة كبـرى ، إذا مـا تنصـلوا مـن ماضـيهم (المخـزي) ، و هـي الهويـة الإسـرائيلية التـي سـيمنحها لهـم ، فترتفـع بهـا رتبـتهم الاجتماعية من عرب (أذلاء) إلى إسرائيليين أبطال . يقول سامي ميخائيل :

" طـوال سـنين طلبـوا إقنـاعي بأنـه يتوجـب علـيّ أن أخجـل مـن ماضـيّ ، لأنـه مـن المجدي أن أتنصل من أصلي و أنه من الأفضل أن أنسى لغة أمي . و الجائزة التي ستجنى مـن ذلـك هـي الهويـة الإسـرائيلية ذات المجـد الـوافر . تقريبـا خضـع الجميـع لضـغط المجتمـع المستوعب . و تحـت ضـغط الخـزي بـذل جهـاز النسـيان أقصـى مـا لديـه مـن جهـد . و الآن بعد مرور سنوات عديدة اكتشفت أن إسرائيل بالذات لم تنس . إنها تُذكرني أن جذوري لا زالت مغروسة في بغداد . " [2]

فمهمـا قـدم اليهـودي الشـرقي مـن تنـازلات و مهمـا أبـدى الاسـتعداد للانـدماج و التكيـف الاجتمـاعي ، تـرفض إسـرائيل اسـتيعابه و لا تنسـى أنـه ، مهمـا قـدم و تنـازل ، عربـي مـن الممكـن أن يضـر بمصـالح اليهـود الأمـر الـذي أصـابه باليـأس ، حيـث يشـير " سـامي ميخائيل " إلـى " أن اليأس قد تسلل إلـى قلبـه لأنـه رغـب فـي أن يكـون أديبـا ، و لهـذا خـامره نوع من التصميم على التركيز في تعلم الديانة اليهودية و الأدب العبري . من أجل أن ينسى مـا كـان فيـه . و أن يكتسـب هويـة جديـدة ، و لكنـه يعتـرف أنـه لـم يسـتطع ذلـك بسـبب عمـره و كـذلك بسـبب الحالـة الماديـة التـي يعيشـها و التـي لـم تسـاعده علـى تعلـم اللغـة العبريـة بالشـكل التقليدي و مع قبولـه للهويـة الإسـرائيلية و رغبتـه فـي الانـدماج و الكتابـة للمجتمـع أصـبح يعـاني من حالة اضطراب لغوي و تعبيري . " [3]

---

[1] ד"ר / אנדרה לוי : שם עמ'3 .

[2] סמי מיכאל : הזהות הישראלית , שם עמ'1 .

[3] شهاب الكردي : مرجع سابق ، صـ ٧٧ .

من هنا نشعر بأن هناك مجتمعا آخر داخل المجتمع الإسرائيلي ، هذا المجتمع الذي يتألف من اليهود الشرقيين و فلسطيني ٤٨ و يعيش في بعد تام عن إمكانية استيعاب المجتمع الإسرائيلي الأشكينازي له ، حيث يقع في أسفل السلم الاجتماعي و حتى إن تم استيعاب بعض من هذا المجتمع فإن هذا الاستيعاب قد يأخذ شكل الاستيعاب الاقتصادي أو غيره ، لكنه دائما ليس من الناحية الاجتماعية . و تجدر الإشارة هنا إلى أن اليهود الشرقيين لا زالوا يحتفظون بسماتهم الطائفية المميزة ، و لا زالوا يسعون بكل السبل من أجل تأكيد وجودهم المستقل بوصفهم قطاعا يهوديا شرقيا ، من خلا السعي إلى حصول على مكاسب و مواقع متقدمة في الحياة السياسية و الثقافية و الاجتماعية و الاقتصادية في إسرائيل .

ثانيا : الجانب الفلسطيني

أ – فلسطينيو ١٩٤٨

" على الرغم من حدة التناقضات و التمايزات الاجتماعية التي تفصل مابين شطري المعادلة اليهودية (الأشكيناز ، السفارديم) ، إلا أن الوضع بالنسبة لعرب ١٩٤٨ أكثر سوءا بما لا يُقاس ، حيث عانت الأقلية العربية ، منذ نشأة إسرائيل ، من سياسة فصل عنصري نتيجة لطبيعة الدولة ذاتها . فتعريف إسرائيل لنفسها رسميا بأنها دولة يهودية كان يستبعد كافة الطوائف و الأعراق غير اليهودية من سكانها ، فبالإضافة إلى سياسات الطرد و مصادرة الأراضي التي اتبعتها الدولة على مدار تاريخها عانى عرب ٤٨ من اضطهاد مركب أحالهم إلى مواطنين من الدرجة الثالثة داخل ديمقراطية عرقية تجعل الطائفة معيار المواطنة . و على الرغم من وجود التباينات ما بين الطوائف المشكلة لعرب ٤٨ (مسلمين ، مسيحيين ، دروز ، بدو) تبعا لتباين تطورها الاجتماعي و نشاطها الإنتاجي ، إلا أن الملمح العنصري الذي يجمع فيما بينهم جميعا تحت السيطرة الإسرائيلية يكاد ينحصر في التهميش والإفقار . "[١]

و بالفعل يعيش فلسطينيو ٤٨ على هامش المجتمع الإسرائيلي ، فهم بالنسبة لهذا المجتمع فلسطينيين عرب ، لا يمكن منحهم الثقة ، فنقرأ على لسان " سعيد المتشائل " و هو يعرف نفسه ، إذ يقول :

" قلت أنك لم تحس بي أبدا . ذلك أنك بليد الحس يا محترم . فكم مرة التقيت اسمي في أمهات الصحف ؟ ... و ذكرت الصحف أسماء الوجهاء الذين حبسوا سهوا ، و آخرين . آخرون – هؤلاء أنا ، الصحف لا تسهو عني . فكيف تزعم أنك لم تسمع بي ؟ "[٢]

" آخرون " هذا هو الوصف الأمثل لحالة التهميش التي يعاني منها فلسطينيو ٤٨ ، إنهم يمثلون بالنسبة للإسرائيليين (اليهود) الآخر غير المرغوب فيه نهائيا و المشكوك في أمره دوما ، وتتجلى سخرية " حبيبي " في هذا الشاهد ، فبالرغم من حالة التهميش التي يعاني منها فلسطينيو ٤٨ ، إلا أنهم مشهورون بصفتهم حالة شاذة ، كذلك ففلسطينيو ٤٨ يعانون من الكراهية الطبيعية و الأزلية من اليهود ، حيث يحتل الفلسطينيون النصيب الأكبر من كراهية اليهود للأغيار ، فنقرأ :

" و الشاب العربي ، الذي صدم بسيارته سيارة أخرى في شارع ليلينبوم في تل أبيب ، ما كان ينقذه سوى خياله الشرقي ؟ نزل من سيارته و هو يصرخ : عربي ، عربي ! فتلهى الناس بضرب الضحية حتى ولى أخونا الأدبار . "[٣]

فبمجرد معرفة أن هذا الشخص عربي ، فإن عليه لعنة اليهود جميعهم ، و لا يهم سواء إذا كان مذنبا أم ضحية ، فهو يستحق العقاب لأنه عربي ، حيث لم يستطع المجتمع الإسرائيلي التعامل مع الشريحة الإسرائيلية الفلسطينية منه ، و لم يعمل على دمجها

---

[١] د / عماد جاد : مرجع سابق ، صـ ١٨٤ .
[٢] المتشائل ، مصدر سابق ، صـ ١٨ ، ١٩ .
[٣] المتشائل ، مرجع سابق ، صـ ١٠١ .

فيه ، و إنما تعامل أفراده مع تلك الشريحة ، من خلال ما عانوه في بلدان الشتات قبل احتلال فلسطين و إقامة إسرائيل عليها ، حيث " عاش اليهود لعدة قرون على هامش المجتمع ، و كانت حكومات الدول التي يعيشون فيها تحرمهم من عدة حقوق و امتيازات ، و تفرض عليهم وظائف بعينها ، و تنكر عليهم حق المواطنة و تعتبرهم دائما من الغرباء ، و اليوم و قد أصبح لليهود السيادة في إسرائيل يعاملون السكان العرب المعاملة نفسها و يحرمونهم من حقوقهم . " [1]

بهذا صار الفرد من فلسطينيي ٤٨ دخيلا على المجتمع الإسرائيلي ، و هو بهذا يعاني من التهميش و ما يتبع ذلك من مظاهر القمع و الاضطهاد ، و الواقع أنه قد " تملص علم الاجتماع الإسرائيلي لفترة طويلة من الوقت من السياق الجيو – سياسي المحدد الذي يغلف المجتمع الإسرائيلي . يصدق هذا الأمر على العلاقات العربية – الإسرائيلية عموما ، لكنه يصدق بصورة أدق على العلاقات الفلسطينية – الإسرائيلية بشكل خاص . فهذا الموقف ، و ليس ثمة ما يدعو للدهشة ، يعكس أصداء الرفض الإسرائيلي طويل الأمد للاعتراف بالوجود القومي للفلسطينيين ، الذين صنفوا حسب المصطلح الإسرائيلي " اللاجئين العرب " ، فالتيار العام في علم الاجتماع يرسم ببساطة حدود المجتمع الإسرائيلي حول الوجود الإقليمي و الإثني اليهودي ، أو ما أسماه عالم الاجتماع " باروخ كيمرلنج " " الفقاعة اليهودية " فالتيار العام يفترض ثنائية يعيش فيها مجتمعان إسرائيلي و عربي جنبا إلى جنب و لكن في حالة انفصال . و بينما يركز اهتمامه على ما يجري في المجتمع الإسرائيلي ، يتجاهل علم اجتماع التيار العام بالكامل الحدود الجيو – سياسية لهذا المجتمع ، و يتجاهل بشكل بالغ العمق كيفية تأثير منظومة العلاقات الدولية عليه . " [2]

ففي الوقت الذي توجد فيه أقلية عربية فلسطينية كبيرة تشكل جزءا كبيرا من المجتمع الإسرائيلي فإن إسرائيل " تعد نفسها " دولة اليهود " و ترى ذلك " نظرية للدولة كلها " و هذه الحقيقة تحمل في طياتها و بصورة بنيوية ، مظاهر الظلم (و ما ينبع عن ذلك من أعمال قمع) الذي يقع على إسرائيليين كثيرين (أي على العرب) . كما أن حقيقة ، أن إسرائيل تتباهى بأنها دولة القانون و الديمقراطية ، و لكنها تحتفظ في الوقت نفسه بغالبية مراكز القوة الهامة في المجالات السياسية ، الاقتصادية ، الاجتماعية و الثقافية لليهود ، تكشف و بصورة موضوعية عن الطابع الأيدلوجي للتصور الذاتي اليهودي ، و تكشف من جانب آخر عن عدم توافر " المخرج " الخاص بالواقع الإسرائيلي . " [3]

" فبعد نكبة ١٩٤٨ ، بقى في الجزء الذي أقيمت عليه إسرائيل من فلسطين ، نحو سدس سكانه العرب فقط ، و بالتحديد ٠٠٠ , ١٦٠ عربي في نهاية ١٩٤٨ . " [4] .

و لما كانت " كل النخب الاجتماعية - السياسية و الاقتصادية و التعليمية و الدينية - التي كانت متمركزة في المدن (القدس – حيفا – نابلس) قد نزحت خلال الحرب ، فقد بقى العرب في إسرائيل دون قيادة قطرية ، باستثناء قيادة الحزب الشيوعي الإسرائيلي . و هكذا وجد العرب في إسرائيل أنفسهم بين عشية و ضحاها ، أقلية ضعيفة غريبة في وطنها و معزولة عن بقية شعبها و أمتها . " [5]

ففلسطينيو٤٨ يعيشون في قاع المجتمع الإسرائيلي المتنكر لهم ، و لأبنائهم رغم كونهم يحملون بطاقات هوية و جوازات سفر إسرائيلية ، فهم لا

---

[1] ضياء الحاجري : مرجع سابق ، صـ ٩٢ .
[2] أورى رام : مرجع سابق ، صـ ٢٤٥ .
[3] د / موشيه تسوكرمان : مرجع سابق ، صـ ٣٦ ، ٣٧ .
[4] محمود مبعاري : تطور الهوية السياسية للفلسطينيين في إسرائيل ، مجلة العلوم الاجتماعية ، جامعة الكويت ، المجلد الرابع عشر ، العدد (١) ، ربيع ١٩٨٦ ، صـ ٢١٥ .
[5] محمود ميعاري : هوية الفلسطينيين في إسرائيل . هل هي فلسطينية أم إسرائيلية ؟ ، مرجع سابق ، صـ ٤٢ .

يستطيعون الحصول على عمل جيد يتيح لهم حياة كريمة ، و لا يمكنهم الحصول على قدر وافر من التعليم ، و ما هذه إلا سياسات الحكومات الإسرائيلية الواحدة تلو الأخرى ، تلك السياسات التي تهدف إلى خنق فلسطينيي ٤٨ و العمل على طردهم من الدولة ، غير أن هذا لم يتحقق فلم يزل فلسطينيو ٤٨ يعيشون داخل المجتمع الإسرائيلي و يناضلون للحصول على حقوقهم فيه و هذه هي " الحقيقة التي صدمت روبين بركات حين كان سكرتيرا عاما للهستدروت * و في ١٠ / ٣ / ١٩٥٥ صاح ، متألما ، بقوله المشهور : لم نكتسب خبرة في علاقاتنا مع الأقليات (يقصد العرب) ، فقد حسبنا أن تكون إسرائيل دولة يهودية نقية بدون أقليات . و أمنون لين ، النائب العنصري (عن الليكود) و الذي يتباهى بكرهه للعرب ، صاح مندهشا : " حتى حادث كفر قاسم المؤلم لم يؤد إلى هرب العرب إلى ما وراء الحدود . " [١]

فالسياسات الإسرائيلية تجاه فلسطيني ٤٨ تقوم على التجاهل التام لهم و غض الطرف عن مشكلاتهم " فأي زائر لإسرائيل شريطة ألا يرافقه مرشد من وزارة الإعلام ، سوف يلاحظ أن عرب البلاد أقلية معدمة . فالتفرقة ضدهم صارخة و مرسومة . و كما قالت شولا ميت ألوني عضو الكنيست في أكتوبر ١٩٧٥ : " إنه في السنوات الثمانية و العشرين منذ قيام إسرائيل لم نتعلم حتى الآن أن على المرء أن يعامل العرب بوصفهم مواطنين لهم الحقوق و الواجبات نفسها و أن يعالج مشكلاتهم ، كما يعالج مشكلات كل المواطنين بصورة مباشرة و بدون تفرقة . " [٢]

و الواقع أن خير وصف لوضع الفلسطينيين في إسرائيل هو أنه وضع " سيطرة استعمارية . و بما أن العرب في إسرائيل تخصص لهم أدوار اجتماعية على أساس معايير حالية فإنهم يشكلون بالقياس إلى السكان اليهود فئة شبه مغلقة . و من زاوية الوضع و القوة و الثقافة السياسية ، فإن العرب يحيون في نظام " ديمقراطية الشعب السيد " الذي لا تنطبق فيه المعايير الديمقراطية إلا على الجماعة السائدة و ليس على الجماعة التابعة . " [٣]

و على أية حال ، " فقد عانى السكان العرب تحت الاحتلال الإسرائيلي بعد حرب ١٩٤٨ ، اضطهادا اجتماعيا و تربويا ، إذ عمدت السلطات الإسرائيلية إلى محاربة البلديات العربية ، و قطع المخصصات عنها ، و ملاحقة أعضاء مجالسها و اعتقالهم . و أدت هذه السياسة إلى تدني مستوى الخدمات الاجتماعية و الصحية في المناطق العربية ، على الرغم من المبادرات الذاتية التي كان يقوم بها أهالي هذه المناطق من أجل تحسين الأوضاع البلدية فيها . و عانى قطاع التعليم العربي ، بصورة خاصة ، من هذه السياسة ، فشهدت المدارس العربية إهمالا مريعا في الخدمات المدرسية و تدني رواتب المعلمين و قلة عددهم و تبعثر المدارس العربية و عدم ملاءمتها حاجة السكان العرب و أعدادهم المتزايدة . و لم تكتف السلطات الإسرائيلية بذلك ، بل عمدت أيضا إلى التدخل في مناهج التعليم العربي لإزالة كل ما من شأنه أن يرسخ الانتماء العربي للطلاب أو يغذي وعيهم القومي و ارتباطهم بالتاريخ و الأرض و الوطن . " [٤]

" فالكتب المدرسية في الوسط العربي في اللغتين العربية و العبرية لا تلبي حاجات التلميذ العربي . و من خلال التعليم العربي تطمح إسرائيل إلى تحقيق سياسة التفريغ القومي (Denationalization) بين الأقلية العربية . أي : إضعاف و تقليل

---

[١] إميل حبيبي : المعجزة ، مرجع سابق ، صـ ٨٣ .

[٢] ديفيد جيلمور : مرجع سابق ، ١١٣ .

* هو ההסתדרות הכללית של העובדים בארץ ישראל ، الاتحاد العام لنقابات العمال الإسرائيلية ، تأسس في حيفا في عام ١٩٢٠ ، بوصفه نقابة عمال يهودية في عهد الاحتلال البريطاني لفلسطين .

[٣] إيليا زريق : الفلسطينيون في إسرائيل ، جمهورية مصر العربية ، الهيئة العامة للاستعلامات ، كتب مترجمة ، (٧٤٦) ، بدون تاريخ ، بدون طبعة ، صـ ٩٣ .

[٤] مؤسسة الدراسات الفلسطينية : فلسطين تاريخها و قضاياها المرحلة الثانوية ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣ ، صـ ١٤١ .

قيمة الهوية الفلسطينية كما هي معكوسة في النتاجات الأدبية ، و تعريض التلاميذ العرب إلى نصوص من الفترة الكلاسيكية العربية التي لا تمت بصلة إلى حياتهم اليومية . " [١]

و تجدر الإشارة هنا إلى أن " إعاقة تطوير البلدات العربية كان جزءا لا يتجزأ من التنمية الاجتماعية المحدودة التي أوجدت بشكل لا مفر منه ما يصفه الكثيرون في المجتمع بأنه تشويه للهوية الاجتماعية بشكل عام ، إن هذه الهوية تتسم بالتكيف مع المظاهر الخارجية للحداثة و التمثل بالثقافة الإسرائيلية الغربية ، و تتعايش في الكثير من الحالات مع قيم قديمة مترسخة تتحكم فيها الهويات الدينية و العائلية و مع غيرها من القيم الاجتماعية التي تحكم السلوكين الاجتماعي و السياسي . " [٢]

و الحق فإن الدراسة المتأنية لأوضاع فلسطيني ٤٨ تثبت الأوضاع المتردية التي يعيشونها مقارنة باليهود ، " فمثلا تتجاوز المخصصات المالية الحكومية للمجالس المحلية اليهودية (البلديات) ، خمسة أضعاف إسهام الحكومة في الميزانية المحلية للمجالس المحلية العربية ، و دعم الحكومة لتكلفة المياه التي يستهلكها المزارعون اليهود تناهز ما تمنحه للعرب بمائة مرة ، و يوجد عشرة عرب من أساتذة الجامعات من بين خمسة آلاف أستاذ جامعي يهودي ، و هناك عربي واحد من مجموع ألفين و أربعمائة يحتلون مراكز إدارة في الشركات التي تمتلكها الحكومة ، و ليس هناك أي مدير عربي من بين ستمائة مدير من مدراء الصناعات التي يمتلكها الهستدروت . " [٣]

هذا و قد " سجلت نسبة البطالة بين العرب الإسرائيليين ، على الدوام ، نسبة أعلى من اليهود الإسرائيليين ، حتى وصلت عام ١٩٩٢ إلى الضعف تقريبا . و لا يوجد في إسرائيل جامعة عربية واحدة ، برغم وجود ست جامعات يهودية و قرابة عشر كليات للتعليم العالي أو أكثر . و يلقي الخريجون العرب من المؤسسات الإسرائيلية التعليمية ظروفا أقسى للحصول على فرصة عمل من ذاك الذي يلقاه زميلهم اليهودي . و لا يحق لهم الوصول إلى مؤسسات التعليم العالي أو المؤسسات العلمية و البحثية لأغراض التعيين و هذا الأمر محرم تماما ضمن مجال عمل المؤسسات الصناعية العسكرية لقد بقى حوالي ٤٦ % من الخريجين العرب في العقد الماضي بلا عمل مقارنة بـ ١٥ % من الخريجين اليهود . " [٤]

هذا " و تبلغ نسبة مشاركة فلسطينيي ٤٨ في القوى العاملة في إسرائيل حوالي ٤٢ % مقارنة بـ ٥٩ % لدى اليهود و في عام ٢٠٠٧ كان متوسط الدخل الشهري لفلسطينيي ٤٨ (٥٤١٩) شيكل في مقابل (٨٠٥٦) شيكل لليهود ، أيضا فإن أجر ساعة العمل للفلسطيني ينخفض عن أجر نظيره اليهودي بنسبة ٣٠ % هذا و تعيش ٥٠ % من الأسر الفلسطينية داخل إسرائيل تحت خط الفقر في مقابل ١٥ % من الأسر اليهودية ، كذلك يوجد اليوم حوالي ١٣٥٠٠ أكاديمي عربي بدون عمل ، كما يشير المسح الاجتماعي الذي أجري عام ٢٠٠٨ إلى أن حوالي ٩٠٠٠ من بين ١٠٠٠٠ امرأة أكاديمية فلسطينية دون عمل و تشير الإحصائيات إلى أنه إذا استمرت ظاهرة ندرة فرص العمل بالنسبة للأكاديميين من فلسطيني ٤٨ لخمس سنوات أخرى سوف ترتفع أعداد الأكاديميين الفلسطينيين العاطلين إلى حوالي ٣٠٠٠٠ أكاديمي . " [٥]

و الواقع أن ظاهرة تشغيل الفلسطينيين في إسرائيل معقدة للغاية و تشكل تحديا كبيرا لإسرائيل و اقتصادها ، حيث يعد وضع فلسطيني ٤٨ الاجتماعي و الاقتصادي إشكاليا بوصفهم جماعة قومية فهم يعانون من سياسات التمييز العنصري القاسية ، حيث

---

[١] د / محمد أمارة : اللغة والهوية في إسرائيل ، مرجع سابق ، صـ ١١٣ .

[2] http://www.mada-research.org\arabic\about\palsinisrael-shtml.

[٣] د / محسن محمد صالح ، مرجع سابق ، صـ ١٠٩ .

[٤] يوسي ميلمان : مرجع سابق ، صـ ١٩٣ .

[٥] פורום קיסריה ٢٠١٠:תעסוקת ערבים בישראל : האתגר של הכלכלה הישראלית .
http://www.idi.org.il.06-06-2010.

يحرمون من حقوقهم الاجتماعية و السياسية و المدنية ، و يعيشون تحت خط الفقر ، كما أن نسبة البطالة لديهم مرتفعة إلى حد كبير ، خاصة إذا ما قورنت بنظرائهم اليهود ، حيث تبلغ ضعفها ، الأمر الذي يعمل على إيجاد إشكالية كبيرة في تكوين و بلورة هويتهم الاجتماعية داخل المجتمع الذي يعيشون فيه و الذي يضغط عليهم و يخنقهم و يحبسهم و يقطع عنهم سبل الرزق و المعيشة ، في الوقت نفسه ، مما يضع فلسطيني ٤٨ في موقف لا يحسدون عليه و يدفعهم إلى التنازل عن الكثير من قيمهم الاجتماعية حتى يتسنى لهم العيش داخل المجتمع الإسرائيلي و من هنا تظهر تلك الإشكالية في هويتهم الاجتماعية .

و يحكي لنا " المتشائل " ، حين كان موجودا في باحة مسجد الجزار في عكا و معه حشد من الفلسطينيين الفارين من قراهم التي دمرها الاحتلال الإسرائيلي ، حيث دار حوار بين هؤلاء الفارين و بعضهم و بينهم و بين " المتشائل " ، فنقرأ :

" فعالجت ضحكتي قبل أن تنطلق ، لولا صوت امرأة جاء من وراء المزولة غربا :

البنت ليست نائمة يا شكرية ، البنت ميتة يا شكرية . ثم تناهت إلينا صرخة مخنوقة ، فاختنقت أنفاس الجمع حتى انحبست الصرخة . " [١]

يظهر لنا هذا المشهد صورة وفاة ابنة بجوار أمها ، وهي ، و لاشك ، مصيبة كبيرة و يكون لها آثار واضحة ، خاصة في مجتمعنا الشرقي ، حيث يصاحب هذا الحدث ، في الغالب ، الصراخ و العويل و النحيب بأعلى و أحد الأصوات ، و لكن ما حدث هنا هو " صرخة مخنوقة " من الأم و هو رد فعل غير عادي ، فلا يمكن أن نتخيل أن تكون صرخة أم إزاء فقد ابنتها هي صرخة مخنوقة ، ثم يأتي رد الفعل العام من الناس الذين كانوا حولها " فاختنقت أنفاس الجمع " فالجمع من حولها مختنق الأنفاس ، لا يمكن أن يرفع صوته بالصراخ أو العويل ، لا يمكنه ذلك ، ثم يأتي تذييل الشاهد " حتى انحبست الصرخة " و هي صرخة الأم التي كانت في بداية الأمر صرخة مخنوقة ، ثم انتهت إلى صرخة محبوسة .

هذا إذن حال فلسطيني ٤٨ داخل المجتمع الإسرائيلي ، الحبس و الاختناق ، و حتى الموت نفسه لابد أن يكون سرا يكون محبوسا و مخنوقا . و هذا نتيجة طبيعية لوضع فلسطيني ٤٨ داخل المجتمع الإسرائيلي " فالاستمرار الطويل داخل بلد واحد لشعوب مختلفة تحيا مع مستويات ثقافية و تعليم و مهارة حادة التباين ، يفرز الظاهرة الموصوفة بالعنصرية المقننة في الولايات المتحدة . و الواقع أن المكونات المتنوعة للنظام الاجتماعي تعمل على منع الجماعة ، المضغوط عليها من كسب مدخل إلى الأشياء الجديدة ، بينما تمنح الجماعة السائدة حماية أيديولوجية لتفوقها الذي تتمتع به . " [٢]

فبسبب أن فلسطينيي ٤٨ يمثلون في المجتمع الإسرائيلي الجماعة المضغوط عليها ، فهم يعيشون في حالة من الضغط و الاختناق و يواجهون الكثير من العوائق التي تقف في طريق حصولهم على أي مكسب اجتماعي ، كذلك فهم يمثلون بالنسبة لسائر المجتمع الإسرائيلي ، الآخر غير المرغوب في وجوده لأنه غريب على هذا المجتمع و سيبقى غريبا على الدوام ، فنقرأ على لسان المتشائل :

" تصور روحك ، بعد موتك ، حلت في هرة . فبعثت هذه الهرة لتسيب في فناء بيتك . فخرج ابنك ، حبيبك ، يتلهى بما يتلهى به الصبيان من اللعب . فناديته ، فمؤت . فزجرك . فناديته طويلا ، فمؤت طويلا ، فرماك بحجر . فذهبت في حال سبيلك و حالك كحال الفتى العربي في شعب بوان : غريب الوجه و اليد و اللسان . " [٣]

---

[١] المتشائل ، مصدر سابق ، صـ ٣١ ، ٣٢ .
[٢] إيليا زريق : مرجع سابق ، صـ ٩٨ ، ٩٩ .
[٣] المتشائل ، مصدر سابق ، صـ ٨٠ .

إنهم أغراب داخل هذا المجتمع ، رغم كونهم قد ولدوا على هذه الأرض و لم يهاجروا إليها مثل سائر المجتمع الإسرائيلي ، أيضا فهم يحملون الجنسية الإسرائيلية ، فكيف يستقم ذلك مع كونهم أغرابا داخل هذا المجتمع ؟ ! . و قد استشهد " إميل حبيبي " هنا بشطر من قصيدة المتنبي التي مطلعها

مغاني الشعب طيبا في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان

" و المغاني : جمع مغنى ، و المغنى : المنزل الذي غني – أقام – به أهله ثم ظعنوا عنه . و الشعب : المنفرج بين جبلين ، و المراد هنا : شعب بوان ، و هو موضع عند شيراز ، كثير الشجر و المياه ، يعد من جنان الدنيا ... و طيبا : تمييز . يقول : منازل هذا المكان في المنازل كالربيع في الأزمنة ، يعني أنها تفضل سائر الأمكنة طيبا كما يفضل الربيع سائر الأزمنة . " [1]

و لنقرأ البيت الذي ورد فيه الشطر الذي استخدمه " إميل حبيبي " :

و لكن الفتى العربي فيها غريب الوجه و اليد و اللسان

" يعني بالفتى العربي : نفسه . يقول إني بها غريب الوجه في عيون أهلها ، إذ لا يعرفني أحد هناك ، أو لأنه أسمر اللون ، إذ غالب ألوان العرب السمرة ، و أهل الشعب شقر الوجوه ، و غريب اليد : أي لا ملك له في هذه البقعة ، فيده أجنبية فيها ، أو لأن سلاحه الرمح و يده تستعمل الرمح ، أما أسلحة أهل الشعب التي يستعملونها بأيديهم فهي الرايات ، أو لأنه يكتب بالعربية و هؤلاء يكتبون بالفارسية ، و غريب اللسان : لأن لغتي العربية و هؤلاء عجم لا يفصحون . " [2]

و الواقع أن " إميل حبيبي " قد استغل هذا الجزء من قصيدة " المتنبي " خير استغلال و وضع نفسه مكانه ، رغم أن الوضعين كليهما مختلفان ، فـ " المتنبي " يتحدث عن وجوده – و هو العربي – في مكان غريب – بلاد فارس – و نتيجة لهذا فإن ما يشكو منه " المتنبي " أمر طبيعي ، فلأنه غريب عن المكان فمن البديهي ألا يعرفه أحد هناك ، و ألا يكون له ما يملكه ، و أن يعجز عن التواصل مع سكان هذا المكان ، أما " إميل حبيبي " فلم يبرح مكانه ، بل ظل كما هو على بقعة الأرض نفسها و في الحي نفسه و في الشارع نفسه ، لذا فإن ما يشكو منه " إميل حبيبي " هو أمر غريب و صعب الفهم ، لأن ما جرى له أشبه بالمعجزة ، فقد انتقل إليه مجتمع جديد ذو عادات و تقاليد و معايير مختلفة عن مجتمعه الذي طالما عرفه و تربى و ترعرع فيه ، و قد أضحت هذه المعايير و التقاليد الاجتماعية الجديدة هي الأصل و هي السائدة !

من ناحية أخرى فالمجتمع الجديد ذا لغة مختلفة عن لغته التي فهمها و تعامل بها منذ نعومة أظافره ، و هو رغم كونه في مكانه ، إلا أن مكانه قد تحول إلى مكان آخر ، له صبغة مختلفة و له اسم آخر ، و نتيجة لذلك صار غريبا . و من هنا التبس عليه الأمر هل هو الذي أصبح غريبا أم المكان هو الذي صار كذلك ؟ فاستقر على الإجابة الأقرب إلى المنطق : إنه هو الذي أصبح غريبا في هذا المجتمع الجديد الذي طرأ فجأة عليه ، لذلك و بصفته غريبا على هذا المجتمع فإن كل ما يقع عليه من ظلم و جور و اضطهاد هي أمور عادية ، يجب التعود عليها .

و يحكي لنا " المتشائل " هنا قصة حقيقية عن امرأة تدعي " ثريا عبد القادر مقبول" في الخامسة و السبعين من عمرها ، كانت قد طردت من فلسطين و صارت لاجئة في عمان ، ثم عادت مرة أخرى بعد ثلاثة و عشرين عاما بموجب نظام العطلة الصيفية رغبة منها في استخراج كنز كانت قد دفنته في بيتها القديم ، فنقرأ :

---

[1] عبد الرحمن البرقوقي : شرح ديوان المتنبي ، الجزء الرابع ، المكتبة التجارية الكبرى ، الطبعة الثانية ، ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م ، مطبعة الاستقامة – القاهرة ، صـ ٤٨٦ .

[2] عبد الرحمن البرقوقي : مرجع سابق ، صـ ٤٨٧ .

" و لما أرادت أن تدخل بيتها القديم في اللد لتنتشل كنزها ، أغلقت وريثتها الشرعية ، من عهد نوح الباب في وجهها . فلم تفاجأ حيث أن ظلم ذوي القربى أشد مضاضة . فنصحها ذوو القربى ، المقيمون في إسرائيل ، أن تلتجئ إلى قبضة الأمن و عسس النظام ، أي إلى الشرطة الإسرائيلية فعملت بالنصيحة . فأرسلوا معها رجل شرطة و رجلا قيما على أراضي إسرائيل ... و لكن ، حين مدت الأم الثكلى ، الثريا ، يدها لتطول مصوغات عرسها ، ناولها رجل القيم على أراضي إسرائيل " شهادة بالذهب " و أخذ الذهب و ذهب . و أما الثريا فأخذت " شهادة الذهب " و ذهبت عبر الجسور المفتوحة ، راجعة لتسف الثرى في مخيم الوحدات و لتدعو بطول البقاء لذوي القربى و لأولاد عمهم . " [1]

فأي ظلم اجتماعي هذا ؟ و أي تعمية عن هذا الظلم ؟ إن هذه العجوز فقدت كنزها و ظُلمت بالقانون و بالمعايير الاجتماعية الإسرائيلية التي تجعل من الظلم الاجتماعي تجاه فلسطيني ٤٨ أمرا شرعيا يستحق المكافأة هذا ما يريد " إميل حبيبي " أن ينقله لنا ، من خلال أسلوبه الساخر المرير الذي يصيبنا بالحيرة فالسيدة العجوز قد عادت إلي " بيتها القديم " ، فالبيت حقها ثم " أغلقت وريثتها الشرعية من عهد نوح " ، فهذا البيت الذي صار الآن ملكا ليهودية ، قد امتلكته شرعا ، من خلال تشريع الوراثة الذي سُن بين الفلسطينيين و اليهود ، منذ عهد نوح ، و لكن كيف تتم عملية الوراثة مع عدم موت صاحب الحق ؟ ! .

كذلك نرى رد فعل تلك العجوز فهي " لم تفاجأ حيث أن ظلم ذوي القربى أشد مضاضة " ، و بعد أن اتضح ظلم ذوي القربى نجدها تقبل بنصيحتهم ، و تلجأ إلى " عسس النظام " و هي إشارة إلى المحتل الإسرائيلي و تعمل بها ، فكيف يُعقل هذا ؟ ! .

و بعد عملية استخراج الكنز نجد " حين مدت الأم الثكلى يدها لتطول مصوغات عرسها " فماذا طالت هذه السيدة ؟ إنها لم تطل سو ى شهادة ورقية مكتوبة بماء الذهب أما الذهب نفسه ، فذهب إلى جهة أخرى . و نلاحظ وضع كلمتي " شهادة الذهب " بين قوسين و كأن " إميل حبيبي " يؤكد ما نالته ، و ما حصلت عليه من كنزها ، و لا يريدنا أن نغفل ، فكل ما حصلت عليه من الذهب هو " شهادة الذهب " ، ثم نلاحظ في النهاية تذييل الشاهد كعادة " إميل حبيبي " ، فبعد أن جرى ما جرى و رجعت العجوز تعض بنان الندم كانت تدعو بطول البقاء لمن نصحها فأضلها و لمن أعانها فسرقها !!

و هناك مشهد آ خر عن الظلم الاجتماعي الذي يتعرض له فلسطينيو ٤٨ يحكيه لنا " المتشائل " و لكن في هذا المشهد يلعب " المتشائل " دور البطولة ، حيث كان قد نقل محل سكنه و لم يعد معه مال كاف لنقل متاعه ، فاضطر لنقله راجلا ، فنقرأ :

" فإذا بسيارة تقف فجأة أمامي . فينزل منها تأبط شرا* . فيستل من تحت إبطه قلما و ورقة و يقول :
نحن " و هو وحده ! " من الحارس على أملاك العدو .
فاستللت بطاقة اتحاد عمال فلسطين من جيب المؤخرة ، وهتفت نحن معكم !
قال : لا ، لا . أريد شهادة تثبت أن هذا المتاع هو متاعك ، و لم تسرقه .
فأسقط في يدي . فأعدت البطاقة إلى جيب المؤخرة ، فأسقط في المؤخرة : متى حفظ الناس شهادات تثبت أن متاع بيتهم هو متاع بيتهم و لم يسرقوه ؟ فخفت على بنطلوني .
قال : لا ، لا هذا متاع بيت عربي .
و كان هذا القول قولا صحيحا .
فقال : فقد أصبح ملك الدولة .

[1] المتشائل ، مصدر سابق ، صـ ٩٥ .

قلت : كلنا ملكها .
فلم ينج متاعي من ملك الدولة حتى استدعينا يعقوب فأقنعه بأنني ، أنا أيضا ، ملك الدولة . فحملت المتاع إلى بيتي الجديد و أنا غير مقتنع بأن الحارس كف شره عني . فكنت ، كلما عسكر ليل فطرق طارقا بابي ، أقوم مذعورا و أنا أهجس بـ جاء الحارس ليضع اليد على متاعي . " [1]

فالدولة تنظر إلى فلسطيني ٤٨ بوصفهم أشياء تمتلك و تباع و تطرد و تحرق و تزال و لا تتعامل معهم بوصفهم أفرادا داخل المجتمع الإسرائيلي لهم الحقوق الاجتماعية ، مثلهم في ذلك مثل أي فرد آخر " كلنا ملكها " و نلاحظ سخرية " حبيبي " ، فقد أطلق على الحارس لقب " تأبط شرا " وهو لقب أطلق على صاحبه لأنه كان لا يفارقه السيف و كأن هذا الحارس الإسرائيلي يمشي حاملا سيفه ليقضي به على أي فلسطيني يلقي به حظه العاثر في طريق هذا الحارس . و في قوله : " الحارس عل أملاك العدو " يظهر لنا المعيار الذي تتعامل به إسرائيل مع فلسطيني ٤٨ و هو اعتبارهم الأعداء الموجودين داخل مجتمعهم ، فالعدو هنا هو الشعب الفلسطيني .

و قد " تمثلت سياسة إسرائيل الرسمية ضد العرب في مصادرة أملاكهم و محاولة القضاء على هويتهم ، فقد أسست الحكومة الإسرائيلية عقب إعلان الدولة إدارة خاصة أسمتها إدارة الأملاك العربية ، و تم وضع مساحات كبيرة من الملكيات تحت تصرف حارس يخضع لوزارة المالية ، و كان له حق التصرف في (أملاك الغائبين) و هم الفلسطينيون الذين أبعدوا عن أراضيهم إلى الخارج . " [2]

و الواقع أنه يمكن حصر السياسات التي اتبعتها السلطات الإسرائيلية تجاه فلسطيني ٤٨ في " فرض الأحكام العسكرية و مصادرة الأملاك و الأراضي و إهمال الشئون المعيشية عامة أي جعل ظروف الحياة قاسية إلى حد يضطر هذه الأقلية إلى الهجرة و مغادرة الأرض أو الخضوع و الاستسلام لسياسة الأمر الواقع . إن الحكم العسكري الذي فرض على العرب مع الخطوات الأولى للحكم الإسرائيلي ، و الذي طبقت بموجبه مختلف القيود عليهم ، و لا يزال معظمها ساريا حتى اليوم ، سرعان ما أصبح حجر الزاوية في السياسة الإسرائيلية الداخلية تجاه العرب . " [3]

و قد تجلت هذه السياسات العنصرية الإسرائيلية في قوانين الحكم العسكري و السيطرة على الاقتصاد الفلسطيني و " ممارسة نوع من الإذلال النفسي على المواطنين حتى يصبحوا أدوات طيعة لتنفيذ مآربها ، و التخاذل عن التصدي لتلك المآرب ، و خلق جيل مسلوب الإرادة ، ضعيف الإيمان بأمته و شعبه ، و يعيش لهموم يومه ، عازفا عن المشاركة في التفاعل من أجل الحفاظ على كيانه القومي . " [4]

و هكذا يعيش الفلسطيني داخل المجتمع الإسرائيلي في حالة ترقب دائم ، فهو متوجس خيفة و يعلم أن الشر آت ، لا محالة ، في كل أوقاته و يتوقع أن يقبض عليه أو أن تصادر أملاكه البسيطة . يقول " إميل حبيبي " :

" لقد عشنا الأعوام الأولى ، منذ قيام إسرائيل ، و نحن نجد أنفسنا في كل لحظة محمولين في سيارة عسكرية تقذفنا إلى ما وراء الحدود . و كان طرق جار زائر

---

[1] المتشائل ، مصدر سابق ، صـ ٩٥ .
* اسمه : ثابت ابن جابر ابن سفيان بن عدي بن كعب بن حرب بن تيم بن سعد بن فهم بن عمرو بن قيس عيلان بن مضر بن نزاربن معد بن عدنان . ولقب تأبط شرا لأنه كان لا يفارقه السيف ، و قال أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني : لقب بذلك لأن أمه رأته و قد وضع جفير سهامه تحت إبطه و أخذ القوس فقالت : تأبطت شرا ، و قيل غير ذلك . قتلته هذيل .
[2] ضياء الحاجري : مرجع سابق ، صـ ٢٢ .
[3] مؤسسة الدراسات الفلسطينية : مرجع سابق ، صـ ١٣٩ .
[4] حبيب قهوجي : العرب في إسرائيل بعد عدوان ١٩٦٧ ، شئون فلسطينية ، سبتمبر ١٩٧١ ، العدد ٤ ، صـ ١٠٠ – ١٠١ .

على الباب يوقفنا على أقدامنا في انتظار المكتوب . و كم من قرية عربية ألقى أهلها بأجسامهم تحت عجلات تلك السيارة العسكرية ليمنعوها من ترحيل أخوتهم و أخواتهم"[1] .

و عن المجتمع الفلسطيني داخل إسرائيل ، يقول " سامي مهنا " – كاتب من فلسطينيي ٤٨ - : " إن مجتمع الـ ٤٨ موجود في حالة استثنائية ، جزء من شعب ، مبتور عن أمته ، سياسيا ، و حتى إنه منفصل عن باقي شعبه ، كأنهم ليسوا جزءا من الشعب الفلسطيني . هذا الاستبعاد و التهميش يضع مجتمعنا في ظل الأحداث التاريخية ، و نتيجة لهذا ، يضعه خارج التاريخ نفسه . هذه الحالة تشكل مناخا ثقافيا منقوصا . و وجودنا كمواطنين في دولة لا تعترف بنا كأقلية قومية ، و تتعامل معنا كأقليات طائفية و دينية و لا تمكننا من الاستقلال الثقافي و تحارب نزعتنا الانتمائية و تحاول تقويض هويتنا الثقافية و الوطنية و القومية و تعمل على محو ذاكرتنا التاريخية و تؤثر سلبا على بعض معالم الشخصية و الهوية الثقافية لأبناء مجتمعنا . "[2]

و في حوار رائع يدور بين " باقية الطنطورية " زوجة " سعيد المتشائل " و " سعيد " نفسه ، نقرأ :

" و كانت باقية ، مثلي ، تدرك أن الأمر محفوف بالمخاطر . بل إنه محفوف بأشد المخاطر . بل حسبت أن العرب الذين بقوا في إسرائيل هم ، أيضا ، ملك الدولة . ... و كنت في إحدى الليالي ، سألتها : ألم يكن لأخوالك أرض في جسر الزرقاء ؟ فأجابت : بلى . و لكن الحكومة استولت عليها كما استولت على بقية الأراضي في جسر الزرقاء .

فسألتها ألم يرفع أخوالك أمرهم إلى القضاء ؟

فأبدت دهشتها . و قالت : قال لنا المختار إنهم قالوا له : حاربتم فانهزمتم ، فأصبحتم ، و أموالكم ، حلالا لنا . فبأي قانون يطالب المغلوب بحقه ؟ "[3]

فليس للمهزوم أي حق على الإطلاق ، حتى إن كان هذا المهزوم أحد مواطني الدولة ، فالدولة ليست ملزمة بتوفير أي حق من حقوقه الاجتماعية الشرعية ، حيث أصبح المهزومون عبيدا و أصبحت الأملاك و الأموال غنائم للمنتصر .

و قد انتهجت الحكومات الإسرائيلية سياسات معادية لمواطنيها الفلسطينيين ، فمحظور على الفلسطينيين أن يعيشوا على أرض يملكها الصندوق القومي اليهودي ، كذلك " كان عليهم أيضا أن يعانوا من مصادرة أراضيهم الخاصة حتى يتسنى بناء مدن جديدة لا يسكنها غير اليهود و أسوأ مثلين على هذا هما مدينتا (الكرميل) و (الناصرة العليا) . فـ (الكرميل) مدينة كئيبة بمبانيها الرحبة المتماثلة المقامة ، دون ذوق ، على طبيعة الجليل الفاتنة ، لقد بناها العمال العرب فوق أرض مصادرة من ثلاث قرى عربية و مع ذلك لا يسمح لأي عربي أن يسكن أو يبدأ عملا تجاريا هناك . "[4]

فالسكن في المدن اليهودية محرم على فلسطيني ٤٨ ، و كذلك العمل التجاري أو الصناعي فعلى الفلسطيني أن يكون تابعا في عمله ليهودي ، و لا يمكنه أن يقوم بعمل منفرد خاص به و هذه ، أيضا ، إحدى سياسات العداء تجاه فلسطيني ٤٨ ، فقد " كان الصهاينة يرون أنه حتى ينجح الاستيطان فإنه يجب تحديد موقف اليهود من أرضها ، الأمر الذي أفرز بدوره ما يسمى بصهيونية العمل التي ترى أنه لابد لليهود من العمل في الأرض الفلسطينية و فلاحتها حتى إن أدى ذلك إلى تحرك جماعي هابط و ذلك من أجل الاستيلاء على هذه الأرض و السيطرة عليها . و من هنا تعمد اليهود إبعاد العرب عن مجالات العمل تحت شعار العمل العبري الذي كان يهدف إلى تجاهل وجود شعب آخر – غير اليهود – في فلسطين ، و كذلك إزالة جزء من الطبقة العاملة العربية فيها من أجل

---

[1] إميل حبيبي : المعجزة ، مرجع سابق ، صـ ٧٩ – ٨٠ .

[2] http://arabs48.com\id=57223.22-09-2008.

[3] المتشائل ، مصدر سابق ، صـ ٩٢ .

[4] ديفيد جيلمور : مرجع سابق ، صـ ١١٧ .

إنجاز برنامج الدولة الذي تبنته الحركة الصهيونية و هو الاستيلاء على العمل و الاستيلاء على الأرض و تحت تأثير هذا الشعار طرد مبعوثو الصهيونية مئات العمال العرب . " [1]

فمنذ قيام إسرائيل في ١٥ مايو ١٩٤٨ " فقد المجتمع الفلسطيني نخبه الاقتصادية و السياسية و الثقافية . و الأهم من ذلك هو فقدانه المدينة الفلسطينية و بقاؤه مجتمعا قرويا يتعايش عن طريق العمل في المدينة اليهودية التي لا تستوعبه " [2]

و نتيجة لذلك " يقطن العرب في بيوت فقيرة في قرى أو مدن تتدنى فيها الخدمات البلدية كثيرا تحت مستوى الخدمات المقدمة لليهود ، فالحكومة مهتمة أكثر بتقديم المصادر و الدعم المالي لتطوير الصناعة في المناطق اليهودية مفضلة أن تدع القطاع العربي باقيا زراعيا و تلك صورة مشئومة تعيد إلينا حال اليهود في قاذورات مدن أمريكا الداخلية . فالإهمال في قري و مدن العرب متفش : المجاري مغلقة و الطرق غير معبدة و أرصفة المشاة قليلة و الخدمات العامة معدومة و العيادات و المدارس لا تكفي للحاجة المرجوة منها . " [3]

و من هنا يظل الفلسطيني مجرد تابع أبدي للمؤسسات اليهودية ، سواء الخاصة أم الحكومية لكي يحصل على قوت يومه ، حيث تهدف السياسات الإسرائيلية إلى " استمرار تخلف الشريحة العربية من السكان ، و تزايد اعتمادهم الاقتصادي على السكان اليهود ، و غني عن الذكر أن عدم الاستقلال الاقتصادي يجعل النشاط السياسي متعذرا ، و قد حرم معظم العرب من الأراضي التي تعد الوسيلة الأساسية للبقاء على قيد الحياة ، ليس هذا فقط – و لكن حرمت الصناعة العربية ، أيضا ، من فرص الانتعاش ، فالصناعة اليهودية منافس قوي ، و هي تحصل على مساندة و دعم و قروض الحكومة ، و لم يبق أمام العرب إلا الأعمال اليدوية التي لا تحتاج إلى مهارة فنية مثل الحمالين ، و حتى هذه الأعمال غير مضمونة دائما ، فكثيرا ما يفصل العمال لإتاحة الفرصة لعمل اليهود . " [4]

و عن ذلك يقول " إميل حبيبي " على لسان " المتشائل " :

" و رأيتهم في ساحة باريس (ساحة الحناطير ، فالخمرة في الزمان الأول) في حيفا التحتا ، شبانا في عمر نوارة اللوز و المشمش اللوزي و التفاح أبي الخد الأحمر ، من قلقلية و طولكرم و جنين و طوباس و السيلة و اللبن ، ينتظرون سيارة المقاول ، فيتحسس سواعدهم و يروح النظر في قاماتهم الممشوقة ، فيمتطي منهم من اشتد ساعده و قست ساقه ... و رأيتهم ، في المغيب ، يحشرون في سيارات النقل العتيقة ، كما حشروا في يومهم ، صناديق البطاطا ، و كوموا الشمندر في سيارات أحدث من السيارات التي ينقلون فيها ، عائدين إلى مدنهم و قراهم ، إلا اللذين غض السيد المقاول الطرف عنهم ليبيتوا ليلتهم في بناء لم يتموا بناءه ، يتسترون بالطوب من الطارقين : برد ما قبل الفجر ، و دهمة الشرطة ما قبل الفجر ." [5]

يصف لنا " إميل حبيبي " حال فلسطينيي ٤٨ في رحلة البحث المتواصل عن عمل داخل المجتمع الإسرائيلي الذي لا يتعامل معهم ، من خلال كونهم أفرادا مساوين لغيرهم من أفراد المجتمع لهم الحقوق نفسها ، إنما يتعامل معهم بوصفهم بعض الأسرى الذين سقطوا خلال الحرب و نتيجة لذلك تحولوا إلى عبيد .

---

[1] د / محمود صميدة : استراتيجية الأدب الصهيوني لإرهاب العرب ، سلسلة نحن و هم (٢) ، سلسلة ثقافية تصدرها مؤسسة الاتحاد للصحافة و النشر – أبو ظبي ، الطباعة مؤسسة دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، صـ ١٣٨ .

[2] عزمي بشارة : العربي الإسرائيلي . قراءة في الخطاب السياسي المبتور ، مجلة الدراسات الفلسطينية ، العدد (٢٤) ، خريف ١٩٩٥ ، صـ ٢٨ .

[3] يوسي ميلمان : مرجع سابق ، صـ ١٩٣ ، ١٩٤ .

[4] ضياء الحاجري : مرجع سابق ، صـ ٩٠ ، ٩١ .

[5] المتشائل ، مصدر سابق ، صـ ٨٤ .

و هل كان لعبد يوما أن يكون له عمل خاص ؟ أو أن يكون له حرية في اختيار هذا العمل ؟ و الإجابة على السؤالين كليهما بالنفي ، فها هم خيرة شباب فلسطين و زهرتها في كل قراها ، يتجمعون في ساحة باريس ، التي كان اسمها ساحة الحناطير قبل أن يغيره الاحتلال الإسرائيلي ، كما غير الكثير من أسماء القرى و المدن و الشوارع و الميادين ، كأنهم مجموعة من الرقيق في سوق من أسواق العبيد ، ينتظرون الفرج الذي يأتي في صورة مقاول مستغل يقوم أولا بفحص البضاعة التي سيشتريها أو التي سيستأجرها ، و هو يفحص تلك البضاعة باليد و بالنظر " يتحسس سواعدهم " و " يروح النظر في قاماتهم " فربما تكون البضاعة ليست بالكفاءة المطلوبة ، ثم " يمتطي " هذا المقاول من حظي بالقبول منهم ، حيث عبر " إميل حبيبي " عن طبيعة العمل الذي ينتظر أولئك الشباب من خلال الفعل " يمتطي " و كأنهم مجموعة من الجياد القوية التي تعد للامتطاء و تنفيذ أوامر مالكها دون أن يكون لها رأي فيما تفعله ، ثم يوضح لنا " إميل حبيبي " نوع العمل الذي ينتظر أولئك الشباب ، و هو تعبئة صناديق البطاطا و الشمندر و بعد أن يتموا العمل المطلوب " يحشرون في سيارات النقل العتيقة ، كما حشروا في يومهم ، صناديق البطاطا و كوموا الشمندر في سيارات أحدث من السيارات التي ينقلون فيها . "

لقد تدنت رتبتهم الاجتماعية مرة أخرى ، فقبل حصارهم داخل المجتمع الإسرائيلي كانوا أفردا ذوي حقوق داخل مجتمعهم الفلسطيني ، ثم بعد قيام الدولة صاروا عبيدا داخل المجتمع الإسرائيلي ، و في ظل النضال في سبيل لقمة العيش تحولوا أخيرا إلى أشياء ، مثل الخضار و الفاكهة ، بل أقل ، فكما " تحشر " تلك الأشياء في صناديقها " يحشر " فلسطينيو ٤٨ في صناديق سيارات ، و لكن السيارات التي تنقلهم أعتق طرازا من السيارات التي تنقل تلك البضائع ، غير أن الأمر لا يقتصر على ذلك و حسب ، بل إن هناك ما هو أفظع ، فالذين يحشرون في تلك السيارات العتيقة هم من ذوي الحظ الرائع ، حيث يغضب المقاول " السيد " على بعض عماله " عبيده " فيمنع عنه امتياز الحشر و النقل في السيارات العتيقة فيقضوا ليلتهم في بناء لم يتموا بناءه ، و ينامون على الأرض الخراسانية و يتسترون بالطوب من الطارقين " برد ما قبل الفجر و دهمة الشرطة قبل الفجر " هكذا يجري الأمر بالنسبة لهم ، فإذا أرادوا الحصول على عمل ، فليتحملوا تلك المعاناة النفسية و المعاملة غير الآدمية ، و إلا فليضربوا برأسهم عرض الحائط .

و في هذا الشأن يقول الكاتب الإسرائيلي " أهارون كوهين " : " إن العامل العربي الذي تمكن من العثور على عمل في السنوات العشر الأولى لم يجد سوى الأعمال البغيضة التي لا يقبلها العمال اليهود ، كأعمال المجاري أو البناء و لم تتساو أجور العمال العرب قط مع تلك المدفوعة لليهود ، حتى إن أدى العربي العمل نفسه . و الواقع أن أعمالا كثيرة يحظر أن يقوم بها العمال و الموظفون العرب . " [١]

و قد اعتبرت إسرائيل الفلسطينيين في الأراضي المحتلة " أيدي عاملة رخيصة و اتخذت منهم موقف التفوق عليهم و الازدراء منهم . و هكذا ترى في كل إطلالة فجر جديد عشرات الآلاف من الفلسطينيين من الأراضي المحتلة يغادرون منازلهم كأنهم النمل الصناعي على أقدامهم أو في حافلات أو على عربات متجهين صوب العمل في إسرائيل . " [٢]

و يقول البروفيسور الإسرائيلي " إبراهام نافيه " : " إن الشخص الذي غسل الدرج في مدينتنا اليوم كان عربيا ، و الشاب الذي سقى الورد كان عربيا و الذين أفرغوا صناديق القمامة كانوا من العرب ، و الشاب الأنيق الذي حمل إلى بيتك صندوق الخضار يدعى أحمد ، و لأن محمد اعتقل بعد عملية الانفجار في السوق تأخر تصليح سيارتك في الكراج . و يقول لك المتعهد الذي تعاقدت معه لبناء غرفة إضافية في منزلك ، عندما تسأله لماذا

[١] ديفيد جيلمور : مرجع سابق ، صـ ١١٥ .
[٢] يوسي ميلمان : مرجع سابق ، صـ ٢٠٨ .

تـأخر العمـل ، إن العمـال العـرب لـم يـأتوا اليـوم . و أن الشـاب الـذي قـدم لـك طعـام الغـداء فـي المطعم بأدب و احترام هو عربي . و معظم هؤلاء يتقن العبرية بشكل مدهش . " [١]

و هكـذا يلاقـي فلسـطينيو ٤٨ صـعوبات بالغـة و أزمـات كثيـرة فـي البحـث عـن عمـل داخـل المجتمـع الإسـرائيلي ، أيضـا نلاحـظ نـوع الأعمـال التـي يسـمح لفلسـطيني ٤٨ القيـام بهـا و هـي أعمـال حقيـرة فـي غالبيتهـا ، مـع حظـر غيرهـا مـن الأعمـال المرموقـة . و ليـت الأمـر يقتصـر علـى ذلـك و حسـب فحتـى " الـدول العربيـة الغنيـة لا تقـدم المعونـة لعـرب إسرائيل لأن هؤلاء العرب يقيمون داخل إسرائيل ، و إذا حصلوا على معونات مالية فستصب في نهاية المطاف داخل الخزانة الإسرائيلية ، هذا في الوقت الذي يحصل فيه يهود إسرائيل على مليارات الدولارات كمعونة من الخارج خاصة في الولايات المتحدة . " [٢]

و مع ذلك فلم يستسلم فلسطينيو ٤٨ لهذه العراقيل ، بل قاموا بالتكيف معها و تحايلوا على تلك الأوضاع ، فقط من أجل البقاء . و يوضح لنا " إميل حبيبي " كيف تكيف فلسطينيو ٤٨ مع القيود الاجتماعية المفروضة عليهم من قبل المجتمع الإسرائيلي ، فنقرأ :

"والندل شلومو، في أفخم فنادق تل أبيب، أليس هو سليمان ابن منيرة، ابن حارتنا؟ ودودي ، أليس هو محمود ؟ و موشى ، أليس هو موسى بن عبد المسيح ؟ فكيف كان يرتزق هؤلاء ، في فندق أو في مطعم أو في محطة بنزين ، لولا الخيال الشرقي و حكاية السمكة الذهبية *، و جبل المغناطيس **، في وسط البحر الهائج ، فلا تستطيع أن تشق عبابه بقاربك إلا إذا امتنعت عن ذكر الله ، سبحانه و تعالى ، على لسانك مهما يموج الموج و تعصف العاصفة ؟ " [٣]

يضـرب لنـا " إميـل حبيبـي " فـي هـذا الشـاهد الأمثلـة الفلسـطينية التـي توصـلت إلـى حل لمشكلة إيجاد عمل في ظل حصار المجتمع الإسرائيلي ، فتحول " سليمان " إلى " شلومو " و نتيجة لذلك حظي بوظيفة ندل داخل فندق ضخم في " تل أبيب " ، كذلك تحول " محمود " إلى " دودي " و" موسى " إلى " موشي "

و نلاحظ أن أسماء هؤلاء الفلسطينيين أسماء عربية ، قد قاموا بتحويلها ، ظاهريا فقط ، كي يتنكروا في شكل يهودي و يتماشوا مع المجتمع الإسرائيلي ، و بذلك نال هؤلاء و من سلك سبيلهم وظيفة متواضعة داخل فندق أو مطعم أو محطة بنزين و كلها ، لاشك ، وظائف حقيرة ، و لكنها أقصى ما يسمح به بالنسبة إلى فلسطيني يعيش داخل المجتمع الإسرائيلي . فقد " وصل وضع فلسطينيي ٤٨ إلى حد بعيد من السوء حتى أن بعض المواطنين يضطرون كثيرا إلى تغيير أسمائهم إلى أسماء " عبرية " حتى يستطيعوا مواصلة حياتهم و الحصول على الخبز . " [٤].

و يوضح لنا " إميل حبيبي " مصدر تلك الأفكار التي واتت فلسطيني ٤٨ و هو الخيال الشـرقي الـذي تربـى عليـه الفلسـطينيون ، مثـل حكايـة " جبـل المغنـاطيس " فـي وسـط البحـر الهـائج الـذي لا يمكـن عبـوره ، إلا إذا امتنعـت عـن ذكـر الله سـبحانه و تعـالى علـى " لسـانك " . ففلسـطينيو ٤٨ أبـدوا للمجتمـع الإسـرائيلي قناعـا يهوديـا ظاهريـا ، ليتسـنى لهـم الاسـتمرار فيـه ، أمـا إيمـانهم الحقيقـي بهـويتهم و انتمـائهم الفلسـطيني ، فقـد أسـروه فـي أنفسهم ، و هذا الأمر ، بالفعل ، خطير و صعب و يدل على مدى سوء أحوال فلسطينيي ٤٨ .

و الواقع أن مسألة تغيير الاسم للحصول على فرصة عمل هي مسألة جد خطيرة ، حيـث " يـرتبط ترسـيخ الهويـة بشـكل وطيـد لـدى الكـائن الإنسـاني بالاسـم الشخصـي الـذي يحمله . فبفضله يحمل الفرد هويته المعلنة ، و يصبح ، مثل هويته ، معلوما . إنه ، أي الاسم

---

[١] د / مصطفى سلامة : اليد العاملة الفلسطينية في المشاريع و المؤسسات الإسرائيلية ، مجلة قضايا عربية في الوحدة العربية و قضايا المجتمع العربي ، السنة السابعة ، العدد الحادي عشر ، نوفمبر ١٩٨٠ ، صـ ١١١ .

[٢] ضياء الحاجري : مرجع سابق ، صـ ٩١ .

(* ، **) من حكايات ألف ليلة و ليلة .

[٣] المتشائل ، مصدر سابق ، صـ ١٠١ .

[٤] رجاء النقاش : محمود درويش شاعر الأرض المحتلة ، كتاب الهلال ، سلسلة ثقافية شهرية ، دار الهلال ، العدد (٢٢٠) ، ربيع الثاني ١٣٨٩ هـ - يوليه ١٩٦٩م ، صـ ١٩ .

الشخصي ، يسمح للجماعة بطبع الفرد و تسجيل علاماتها الغابرة و الحاضرة على جسده و ذاكرته ، كما تمرر بفضله موروثها الثقافي و هويتها الجماعية . إنه علامة خالدة بالنسبة للفرد سيحملها طوال حياته الجماعية . إنه علاقة خالدة بالنسبة للفرد سيحملها طوال حياته ، و كلما طال زمن هذه الحياة كبرت دلالة هذا الاسم و ارتفعت درجة التشبث به . " [1]

و تجدر الإشارة هنا إلى أن الأمر الذي يدفع فلسطيني ٤٨ إلى تحمل هذه الظروف الطاحنة هو " حاجتهم اليومية للإنفاق ، فهم يأخذون أجورهم أسبوعيا و أحيانا يوميا و هذا ما يجبرهم على تحمل مشقة العمل الممارس ، حيث يخضعون لشروط عمل سيئة و يتلقون أجورا أدنى ، و يبذلون ساعات عمل أكثر من ساعات العمل المحدودة ، إضافة لظروف النقل و المبيت القاسية ، و الحرمان الكلي من الضمانات رغم أنهم يمارسون أكثر الأعمال صعوبة . " [2]

من هنا ندرك حجم المأساة التي يعيشها فلسطينيو ٤٨ ، بداية من عدم اعتراف المجتمع الإسرائيلي بهم ، و حتى تغيير أسمائهم و اكتساب أسماء عبرية من أجل الحصول على ما يسد الرمق ، حيث تسحقهم الظروف الاجتماعية و الاقتصادية سحقا و تجبرهم على مثل هذا الانتحار ، فهم مجبرون على أفعالهم ، غير مخيرين . " فمن الناحية الاجتماعية ، فإن الفلسطينيين في إسرائيل عالقون بين قوى شديدة التناقض ، ما بين الحداثة و المحافظة مع غياب مؤسسات اجتماعية قومية لديها الإمكانيات لتعنى بتطويرهم أو تمكينهم لتعمل بفاعلية باسمهم . كذلك فإن كثرة مصادرة الأراضي و تحويلهم إلى عمال بالأجرة لم يصحبها تنمية اقتصادية موازية . و مع النمو السكاني الفظيع تضخمت المناطق المأهولة في القرى العربية ، في حين بقيت البنية التحتية مخنوقة ، إذ تفتقر هذه القرى إلى خدمات أساسية . " [3]

غير أن هناك فريقا آخر من فلسطينيي ٤٨ اتخذ سبيلا مخالفا لما سبق ذكره ، لنيل فرصة عمل داخل المجتمع الإسرائيلي ، فنقرأ على لسان " المتشائل " وهو يصف باقي زملائه المتعاونين مع الحكومة الإسرائيلية :

" أما بقية زملائي في الهمة ، فكانوا يترقون في المناصب المخصصة لنا . فالشلفاوي صار عضو كنيست . و نظمى الشاويش أصبح شاويشا . و عبد الفتاح داهن زقمه صار مدير مدرسة و زوجه مديرة مدرسة ، و ابنته معلمة . " [4]

يتضح من هذا الشاهد أنه يوجد فريق من فلسطينيي ٤٨ ، ارتضى لنفسه أن يتعاون مع الحكومة الإسرائيلية ، ضد إخوته الفلسطينيين ، و هم خليط " ففي القاعدة يوجد المخبرون أو المتعاونون المأجورون و هم عادة من أرقى مستويات المجتمع و عملهم هو عمل جواسيس الشرطة نفسه في كل مكان . و كان واجبهم خلال الحكم العسكري ، هو تقديم تقرير يوحي عن كافة أنشطة القرية و خاصة الأنشطة الثقافية أو السياسية . و عند مستوى آخر يوجد قادة و مخاتير القرى و لم يكن هؤلاء يتقاضون رواتب كالمخبرين و لم يكونوا متواطئين نشطين . و مع ذلك ، كانوا عادة بين السكان العرب و في مقابل بعض الامتيازات التي منحتهم إياها الحكومة ، كان يتم الاعتماد عليهم في إخماد أية بوادر للروح القومية أو المعارضة . " [5]

" فالحصول على فرصة عمل كان يقتضي من المتقدم أن يثبت إخلاصه للدولة ، و عدم ممارسة أنشطة ضدها ، بل و تقديم بعض الخدمات إليها بطريقة أو بأخرى ، بما يؤكد الوضع الاقتصادي المنهار للعرب في إسرائيل بعد نكبة ١٩٤٨ . و قد كان ذلك

---

[1] نور الدين الزاهي : مرجع سابق ، صـ ٢٥ ، ٢٦ .
[2] د / مصطفى سلامة : مرجع سابق ، صـ ١١٢ .
[3] http://www.mada-research.org.I.B.I.D
[4] المتشائل ، مصدر سابق ، صـ ٦٩ .
[5] ديفيد جيلمور : مرجع سابق ، صـ ١٣١ .

عـاملا رئيسـيا لتسـليمهم بوجـود بعـض الأطـر النفعيـة مـع بعـض المؤسسـات داخـل الكيـان الصهيوني . " [1]

و بـالرجوع إلـى الشـاهد السـابق يتبـين لنـا رأي " إميـل حبيبـي " فـي هـذا الفريـق مـن فلسـطينيي ٤٨ ، و فـي تلـك الهبـات و المناصـب الممنوحـة فهـي المناصـب " المخصصـة لنا " ، فمهما عمل الفلسطيني و مهما خدم الدولة ، فالدولة لن تنسى ، مطلقا ، أنه فلسطيني و لا يجـب أن يصـير مسـاويا لليهـودي . فمسـموح للفلسـطيني الطيـب المتعـاون أن يصـير عضـو كنيسـت ، أو شاويشـا ، أو مـدير مدرسـة ، أو مدرسـا ، و لكـن يجـب أن يكفيـه هـذا و عليـه ألا يطمـح فـي أن يحتـل درجـة اجتماعيـة مرموقـة فـي المجتمـع الإسـرائيلي ، فـلا يمكـن أن يكون فلسطينيو ٤٨ حزبا خاصا بهم ، يعمل في ظل حرية سياسية و ديمقراطية حقيقية ، كذلك لا يسـتطيع فلسـطينيو ٤٨ أن يترشـحوا للـوزارة ، بـل يشـغلوا المناصـب التـي خصصـت لهـم فقـط ، حيـث " يصـنف الساسـة الإسـرائيليون العـرب الإسـرائيليون بــ (المعتـدلون) و (المتطرفـون) و هـو تقسـيم يهـدف إلـى مكافـأة (العـرب الطيبـين) و تمييـزهم عـن (العرب السيئين) و كلا المجموعتين لا تجنى فائدة في الواقع العملي . " [2]

و المتعـاونون مـع الحكومـة الإسـرائيلية " يشـعرون أنـه لـيس هنـاك بـديل معقـول . و مـوقفهم انهزامـي ، و يقولـون : لقـد وجـدت إسـرائيل لتبقـى ، و لـذا مـن الأفضـل لنـا أن نسـتغلها إلـي أقصـى حـد ممكـن . إننـا مواطنـون إسـرائيليون و إذا كنـا نريـد تحسـين الأمـور فإن علينا أن نكون مخلصين للدولة و في وضعنا لابد من أن نكون واقعيين . " [3]

فهـم تحـت وطـأة الضـغط و الحصـار و القيـود التـي يفرضـها المجتمـع الإسـرائيلي علـيهم ، لا يجـدون أمـامهم سـوى التعـاون مـع إسـرائيل ، لكـي يسـتطيعوا العـيش داخـل هـذا المجتمـع ، غيـر أن هـذا ، أيضـا ، لا يتحقـق رغـم تعـاونهم . لقـد فـات هـذا الفريـق أن يـدرك أن قدرتـه علـى التـآلف مـع المجتمـع الإسـرائيلي اليهـودي جـد محـدودة ، فسياسـة العـزل العرقي و الخوف و التحايل التي تنتهجها إسرائيل ضد الفلسطينيين ، قد حالت بين الفلسطينيين و اليهـود أن يعيشـا سـويا فـي مجتمـع واحـد ، حتـى إن أوفـى الفلسـطيني بدينـه للمجتمـع الـذي يعـيش فيـه بالعملـة التـي يراهـا الإسـرائيليون عملـة صـعبة ، ألا و هـي التجسـس علـى إخوته الفلسطينيين .

مـن هنـا ربمـا يمكننـا أن نعـرف بعـض الملامـح الاجتماعيـة لفلسـطينيي ٤٨ و وضـعهم داخـل المجتمـع الإسـرائيلي ، فالفلسـطيني " لـيس عضـوا فـي المجتمـع ، لكنـه لـيس خادمـا أو تابعا . هو أكثر من مقيم ، لكنه أقل من مواطن متساو . هو أكثر من مجرد محكوم ، لكنه أقـل مـن شـريك متكـافىء فـي الحكـم . هـو أكثـر مـن محتـل أو مسـتعمر ، لكنـه أقـل مـن مستقل أو متحـرر . هـو أكثـر مـن لاجـيء أو مسـتأجر ، لكنـه أقـل مـن صـاحب بيـت . و هـو غير منفصـل عـن حيـاة الدولـة ، لكنـه غيـر منـدمج فيهـا . هـو لـيس عـدوا للدولـة ، لكنـه لـيس من حماتها . العربي في إسرائيل شبه مواطن . معظم الأبواب نصف مفتوحة نصف مغلقة أمامـه . لكـن هنـاك أبوابـا معينـة موصـدة بالكامـل فـي وجهـه . المؤسسـات الفاعلـة فـي الدولـة ليست له ، و الدولة كلها ليست له . " [4]

إذن يخـوض فلسـطينيو ٤٨ ، منـذ قيـام إسـرائيل نضـالا اجتماعيـا عنيفـا ، للحفـاظ علـى هـويتهم الاجتماعيـة داخـل المجتمـع الإسـرائيلي ، مـواجهين فـي نضـالهم هـذا بريـق الثقافة الإسرائيلية ذات الأسس الأوربية التي سعت بوسائل مختلفة إلى فرض نمط اجتماعي مستورد على الحياة داخل إسرائيل يؤدي إلى إبادة هوية فلسطينيي ٤٨ الاجتماعية ، و كانت

---

[1] د / محمد أمارة : العنف السياسي بين العرب في إسرائيل ، مرجع سابق ، صـ ٨ .
[2] يوسي ميلمان : مرجع سابق ، صـ ١٩٨ .
[3] ديفيد جيلمور : مرجع سابق ، صـ ١٣٠ .
[4] د / محمد خالد الأزعر : مرجع سابق ، صـ ٤٩ .

أبـرز هـذه الوسـائل كبـت الحريـة و قطـع سـبل عـيش فلسـطيني ٤٨ داخـل المجتمـع الإسرائيلي ، و قد تم تبرير تلك الوسائل من خلال مجموعة القوانين التي سنتها إسرائيل للتعامل مع فلسطينيي ٤٨ .

و جدير بالذكر أن فلسطينيي ٤٨ حتى اليوم يطالبون بحقهم في العيش الكريم داخل المجتمع الإسرائيلي أسوة باليهود داخله ، " فحرية الإنسان و أمنه و حقه في الحياة الكريمة أسوة بجميع البشر هي حقوق لا يقوم مجتمع بشرى بدونها . إنها حقوق مقدسة ليس لأحد أن يمسها حتى و لو كان ذلك باسم القانون لأن هذا الأخير يكون ملتويا و خارجا عن قانون العقل و القانون الطبيعي لحياة البشر الاجتماعية ، فإذا حصلت حالة كهذه يقمع فيها القانون حرية الإنسان و يهضم فيها حقوقه الطبيعية ، يصبح على الإنسان أن يقاوم القانون بشرعية الإجراءات التي يمليها ناموس الحياة المتفوق على جميع النواميس الوضعية . " [١]

و تستمر جهود فلسطينيي ٤٨ في حث الإدارة الإسرائيلية على تعديل سياساتها القمعية تجاههم ، و رفع القيود الاجتماعية عنهم ، لإتاحة الفرصة أمامهم للمشاركة في الدولة مشاركة فعلية ، و هذا ، من وجهة نظر الفلسطيني ، هو الطريق الوحيد لرفع المعاناة عنه و لتحقيق هويته الاجتماعية داخل المجتمع الإسرائيلي ، فالفلسطيني داخل المجتمع الإسرائيلي يعيش في إشكالية أبدية ، فلم يعد لديه شيء واضح المعالم ، بعد ضياع فلسطين و ضياع ماضيه معها ، أما بالنسبة إلى مستقبله داخل هذا المجتمع ، فهو غامض و إشكالي ، لا يدعو للتفاؤل ، و لا يدعو ، في الوقت نفسه ، إلى التشاؤم . إن الفلسطيني داخل المجتمع الإسرائيلي " متشائل " .

ب : اللاجئون الفلسطينيون (فلسطينيو الشتات)

لاشك أن قضية اللاجئين الفلسطينيين كانت و ما زالت أكبر و أقدم قضية لاجئين في العالم ، بعد ما قامت به إسرائيل من عمليات طرد الشعب الفلسطيني و تهجيره و تشتيته ، و ذلك بدعم و مساندة الغرب ، فقد " هجرت الغالبية العظمى من اللاجئين الفلسطينيين ، خلال النكبة الفلسطينية ، حيث تم تهجير أكثر من ٧٥٠ ألف فلسطيني ما بين الأعوام (١٩٤٧ – ١٩٤٩) ، و بقى نحوه ٥٠ ألف فلسطيني فقط في المناطق التي أصبحت بتاريخ ١٥ مايو ١٩٤٨ م تعرف بدولة إسرائيل . " [٢]

و هذه هي الحلقة الأولى من شتات الشعب الفلسطيني ، " أما الحلقة الرئيسية الثانية من حلقات التشرد و النفي التي عاشها الفلسطينيون ، فقد حدثت عندما احتلت إسرائيل البقية الباقية من فلسطين في حرب ١٩٦٧ ، مما أدى إلى نزوح نحو ٢٠٠ ألف من سكان الضفة الغربية بصورة خاصة ، و بعضهم للمرة الثانية في حياته إلى الضفة الشرقية من الأردن . " [٣]

و قد أدى الشتات الفلسطيني إلى مسألتين " الأولى هي تفكك الإطار الاجتماعي لجزء هام من سكان فلسطين ، و تحولهم إلى لاجئين ، و الثانية اختفاء المراكز المدنية لحياة الفلسطينيين الباقين في فلسطين و تحولهم من سكان مدن إلى جماعات تعيش على هامش المدن . هذان الحدثان شكلا محطة انتقال نوعية في طبيعة و استمرارية الخطاب الفلسطيني . فبينما شكل الحدث الأول محفزا لبروز الفلسطينيين بوصفهم جماعة متميزة عبر تجربة عامة خاصة بهم هي النكبة و الاقتلاع ، فإن الثاني شكل نهاية لتطور المخيلة الفلسطينية الجماعية التي كانت صياغتها تتم في المدن . المسألتان مرتبطتان جوهريا ، لكن الأولى هي ما ساعد على بروز النمط الجديد من الانتماء الفلسطيني ، و هي

---

[١] د / برهان غليون : مرجع سابق ، صـ ٩٢ .

1 http://badil.org\Arabic-web\Refugees\refugess.htm.

[٣] مؤسسة الدراسات الفلسطينية : مرجع سابق ، صـ ١٣٣ .

بـذلك بالغـة الأهميـة . فاختفـاء الانتمـاءات المحليـة عبـر تجربـة الاقـتلاع سـارع فـي تثبيـت خصوصية فلسطينية يمكن القول إنها قومية . " [1]

و فخـلال خـروجهم مـن فلسـطين " خلـف الفلسـطينيون مـن و رائهـم أملاكهـم المنقولـة و غيرهـا و التـي لـم يستردوها علـى الإطـلاق ، و هكـذا أصـبحوا فاقـدين لكـل شـيء. و قـد ارتـبط كثيـر مـنهم بالمسـاعدات الضـئيلة و التبرعـات السـخية لجهـات دوليـة - منظمـة غـوث اللاجئيـن (UNRWA) – حتـى يسـتطيع البقـاء . و الحقيقـة التـي لا مـراء فيهـا هـي أن الفلسـطينيين أصـبحوا شـعبا لا يملـك شـيئا ، لأن إسـرائيل اسـتولت فـي النهايـة علـى بقيـة أرضـه . و قـد أدى انتصـار إسـرائيل فـي حـرب ١٩٦٧ إلـى تمكنهـا مـن الاسـتمرار فـي تطبيـق سياسـات السـلب و الطـرد ، أيضـا ، فقـد اسـتطاعت أن تمـارس بشـكل كبيـر سياسـات القهر المباشر على الفلسطينيين في فلسطين التاريخية . " [2]

من هنا فإن " اقتلاع الفلسطينيين بهذا المعنى قد ثبت لديهم حالـة من الخصوصية ، و خلـق حالـة مـن المحليـة الجديـدة . و لهـذا فـإن النكبـة تشـكل ، ضـمن إطـار الخطـاب الجمـاعي الفلسـطيني ، قفـزة بلاغيـة أكثـر منهـا بدايـة أو نهايـة بحـد ذاتهـا . فـاقتلاع مـا يزيـد علـى الأربعمائـة تجمـع سـكاني فلسـطيني أدى إلـى فقـدان الصـيغة المحليـة القديمـة و اسـتبدال نوع جديد من الانتماء بها ، هو الانتماء إلى اللجوء باعتباره تجربة فلسطينية خاصة و متميزة ، و هي قد أبقت على الفلسطيني باعتباره آخر ، لكن بالنسبة إلى جماعات جديدة هذه المرة ، و هـي الشـعوب العربيـة المجـاورة . و هـذا الشـعور عمـق عبـر اسـتثناء اللاجـئ مـن كـل الهويات الأخرى التي كانت تتشكل من حوله . " [3]

و فـي الشـتات عـانى الفلسـطينيون الأمـرين ، فمـن جهـة وجـدوا كثيـرا مـن الـرفض المجتمعـي المتمثـل فـي عـدم قبـول الآخـر لهـم ، رغـم اشـتراك هـذا الآخـر معهـم فـي الهويـة القومية العربية ، و من جهة أخرى صار حصول اللاجئ الفلسطيني على عمل دائم يتناسب مـع إمكانياتـه الثقافيـة أو المهنيـة ضـربا مـن المسـتحيل ، لـذا وافقـت الـدول العربيـة علـى إنشـاء وكالـة غـوث اللاجئـين و تشـغيلهم ، علـى أن تكـون هـذه الوكالـة مسـتقلة إداريـا ، و تمـارس أعمالها بالتعاون مع الدول المضيفة ، و لكن إذا تأملنا في نشاط هذه الوكالة و أهدافها سنجد أنهـا قـد خـدمت إسـرائيل نفسـها أكثـر مـن الفلسـطينيين " فقـد خصصـت معظـم ميزانيتهـا لإدمـاج اللاجئـين فـي الـبلاد المضـيفة . ففـي العـام الأول كرسـت لهـذا الغـرض مائـة مليـون دولار مقابـل ، ١٨ مليـون دولار لأعمـال الإغاثـة العاجلـة . ثـم اعتمـدت ٢٠٠ مليـون دولار لأعمـال التـوطين ، لا الإعـادة لمـدة ثـلاث سـنوات . و شـجعت الولايـات المتحـدة هـذا الاتجـاه بأن عرضت مزيدا من المساعدات للدول العربية التي تقبل الإدماج . " [4]

ففـي دول الشـتات تـدمر الهيكـل الاقتصـادي و الاجتمـاعي للشـعب الفلسـطيني ، حيـث " وجـد الفلسـطينيون أنفسـهم بـلا دولـة و بـلا هويـة و لا جـوازات سـفر ، و خاضـعين لشـتى التقلبات السياسية و الاقتصادية في الدول المضيفة . " [5]

و كان أكثر مـا يخشـاه الفلسـطيني اللاجـئ هـو مسـألة إعـادة التـوطين ، فبعـد الطـرد مـن فلسـطين و التشـتيت فـي منـاطق و أمـاكن مختلفـة ، منهـا مـا هـو فـي الـبلاد العربيـة و منهـا مـا تعـدى الـبلاد العربيـة إلـى بـلاد أجنبيـة ، ظـل الفلسـطيني اللاجـئ متمسـكا بهويتـه الوطنيـة الفلسطينية رافضـا قبـول الهويـة الوطنيـة للبلـد المضـيف ، و قـد تبـع تمسـكه بهويتـه الوطنيـة أن نظر إلى مجتمعات الدول المضيفة بوصفها مجتمعات عليه العيش فيها بصفة مؤقتة ، فمهما

---

[1] عصام نصار : إشكاليات كتابة تاريخ الهوية الفلسطينية ، مجلة الكرمل ، العدد ٦٣ ، ربيع ٢٠٠٠ م ، صـ ٢٥٢ .

[2] איברהים אבו - לוהוד : הנאקבה (האסון) זה מה שקרה ، תירגם מאנגלית : דוד זנגר ، אלפיים שם עמ׳ ١٥٥ .

[3] عصام نصار : مرجع سابق ، صـ ٢٥٣ .

[4] سامي حكيم : أمريكا و الصهيونية ، القاهرة ، بدون طبعة ، ١٩٦٧ ، صـ ١٧٣ .

[5] http://www.ahewar.org\aid=7905.

طالت فترة إقامتة في تلك المجتمعات فهي إقامة مؤقتة . و لنقرأ الآن تصريحا يدلي به " د / جواد حسني " صديق " وليد مسعود " و تلميذه متحدثا عن الأخير ، إذ يقول :

" فبحكم كونه فلسطينيا ، يستطيع الزعم دائما أنه يتصل بمجتمع كهذا و ينفصل عنه دونما عسر أو ألم ، لأن جذوره الحقيقية في جبال و وديان أخرى تغذيه سرا و باستمرار . " [1]

فالفلسطيني الذي يعيش داخل مجتمع الشتات ، لا يجد أية مشكلة تخص تعلقه بهذا المجتمع ، فكل المجتمعات المضيفة ، بالنسبة له ، مجتمعات شتات ، و كلها تنطق بالإشكاليات عينها ، و لن يجد ذلك الفلسطيني صعوبة في الانفصال عن أي مجتمع مضيف ، مهما طالت أيامه في هذا المجتمع . لقد كان من المستحيل بالنسبة له أن يتشبث بمكان ، لأن إرادته فيه تصطدم مع إرادة صاحب المكان . و بلا شك فإن إرادته هي المعرضة ، دائما و أبدا ، للانكسار ، فالفلسطيني اللاجيء لا يعيش في المكان ، و إنما يعيش في الوقت و لا يقيم حياته داخل المجتمع ، بل يقيمها داخل نفسه فقط ، و قد اعتاد على ذلك من طول السفر و الترحال و من كثرة الأزمات و صار يعتمد في حياته على الصدفة ، فالصدفة وحدها هي التي تحدد له أشياء كثيرة في حياته مثل البلد الذي سيستقبله و المكان الذي سيسكنه و حتى العمل الذي سيقوم به . و في الشاهد السابق ، نلاحظ عبارة " فبحكم كونه فلسطينيا " الفاء سببية و الجملة تعليل لما بعدها ، حيث يترتب على كون المرء فلسطينيا يعيش داخل مجتمع اللجوء أنه يستطيع الاتصال بهذا المجتمع أو ينفصل عنه بسهولة و يسر ، و المعنى حتى الآن به شيء من الغموض ، فكيف يتفق أنه لمجرد كون المرء فلسطينيا يمكنه ذلك ؟ فيأتي إيضاح المعنى من خلال جملة سببية أخرى " لأن جذوره الحقيقية ... تغذيه سرا و باستمرار " هنا يكتمل المعنى و يتضح ، فنفهم لماذا يستطيع الفلسطيني الاتصال بمجتمع ما و الانفصال عنه بسهولة . كذلك نلاحظ قوله " سرا و باستمرار" حيث يتضح منه أن الجذور الفلسطينية تغذي فروعها المشتتة في مجتمعات اللجوء سرا و ذلك لأنها تتم في الذاكرة ، فقط دون الواقع ، كذلك نفهم كيف أن عملية التغذية الروحية هذه تتسم بطابع الاستمرارية ، حيث تنتقل من جيل إلى جيل و كأنها نوع من الجينات الوراثية التي تتوارثها الأجيال .

و قد أدت هذه النظرة لدى الفلسطيني اللاجئ إلى عدم تكيفه تكيفا تاما في المجتمع المضيف ، فراح يعيش فيه و هو مرتبط بالمجتمع الفلسطيني المتخيل ، محاولا غرس بنيانه الاجتماعي فيه و حمايته ، و لم تكن محاولته هذه لتنجح و تكتمل دون وجود الأرض " فلا يوجد بناء اجتماعي بعيدا عن أرض مرتبطة به ، تتفاعل معه و تمده بأسباب البقاء و الاستمرار و بينما الأرض سليبة ، أصبحت قوة الذاكرة و العاطفة ، أي قوة البعث الروحية وسيلة لحضور الأرض بين أوساط مجتمع النكبة . " [2]

و الواقع أن الأرض قد أخذت ، بعد نكبة فلسطين الكثير من المعاني المستمدة من واقع علاقة السكان التاريخية بها ، فهي " أرض الأجداد و أرض الوطن ، أرض القرية المهدومة و أرض المدينة الأصل ، إنها أيضا أرض الأنبياء و أرض الإسراء و المعراج . هي البيت و الذكريات فيها قبور الآباء و الأجداد التي فقدت زوارها ، إنها الجذور التي لا تحيا نبتة بدونها . و هكذا نقل الفلسطينيون حنينهم للأرض و ارتباطهم بها إلى أطفالهم المولودين في الشتات ، فنشروا بين الأجيال الصاعدة قصص الحصاد و النبع ، و قصص التين و الزيتون ، و علموهم أخبار القرية الأسيرة و البيت المهدوم . هكذا رسمت الذاكرة الأرض الفلسطينية ، فبعثتها حية بناسها و علاقاتها ، بأفراحها و أحزانها . " [3]

---

[1] البحث عن وليد مسعود ، مصدر سابق ، صـ ٤٣ .

[2] د / شفيق الغبرا : من الاقتلاع إلى الصراع من أجل البقاء ، كتاب العربي ، الفلسطينيون من الاقتلاع إلى المقاومة ، الكتاب التاسع عشر ، سلسلة فصلية تصدرها مجلة العربي ، ١٥ إبريل ١٩٨٨ ، صـ ١٢٣ .

[3] د / شفيق الغبرا : مرجع سابق ، صـ ١٢٤ .

و مثلما عاشت أرض فلسطين في خيال الفلسطينيين اللاجئين ، عاش أيضا المجتمع الفلسطيني في خيالهم ، و لم يقتصر الأمر على الخيال ، فقد حاول الفلسطينيون في دول اللجوء تجميع بعضهم البعض مكونين بذلك مجتمعا فلسطينيا خالصا داخل هذه الدولة أو تلك .

" فبينما استطاعت إسرائيل أن تحيل وطنا كاملا إلى حطام ، دمرت مؤسساته ، و اقتصاده و بنيانه ، إلا أنها لم تستطع أن تلغي روابط الدم و القرابة . فقام الفلسطينيون في الشتات ، و في كل مراكز وجودهم بإحياء روابط الدم و روابط القرية و المدنية الأصلية ، و روابط الصداقة و المعرفة القديمة . و نتيجة لذلك بدأت تبرز أشكال هامة من المساعدة و التكافل الاجتماعي التي سهلت السفر ، و العمل ، و التعليم و التنقل لهذا الشعب المنكوب . ففي السنوات الأولى من النكبة كان هم الفلسطينيين توكيد قدرتهم على تحويل أسرهم و قراهم الأصلية إلى حاضر اجتماعي كبير يعمل في ظل غياب المؤسسات و الأرض و الوطن . " [1]

و بهذا حافظ الفلسطينيون اللاجئون على هويتهم الاجتماعية الفلسطينية في دول الشتات ، معتمدين في ذلك على تشبثهم بهويتهم الوطنية ، و اشتراكهم في محاولة تحقيق هذه الهوية من خلال تحرير الوطن المحتل ، فرغم أن تشتت الشعب الفلسطيني قد " أدى إلى نشوء مجتمعات فلسطينية تتفاوت في خصوصيتها : الاجتماعية ، و الاقتصادية ، و السياسية و في علاقاتها المجتمعية أيضا ، إلا أن هذه المجتمعات واصلت نضالها من أجل تحقيق الأهداف الوطنية الثابتة التي شكلت قاسما مشتركا لهذه التجمعات الفلسطينية ." [2]

و الواقع أنه إذا نظرنا إلى فلسطينيي الشتات بوصفهم جماعة واحدة تعيش في أماكن مختلفة ، فيمكن القول إن الهوية الوطنية لهذه الجماعة هي عامل رئيسي في الحفاظ على هويتها الاجتماعية ، فقد كان تمسك فلسطينيي الشتات بهويتهم الوطنية الفلسطينية أمرا يتبعه تمسك بمعايير اجتماعية تعمل على ربط فلسطينيي الشتات مكونة مجتمعا فلسطينيا شتاتيا ، رغم بعد و اختلاف أماكن وجود هذا المجتمع .

من جهة أخرى ، فقد أبدت المجتمعات المضيفة تحفظا تجاه الفلسطينيين ، و رفضت قبولهم بوصفهم فئات اجتماعية تشترك معهم في بنائهم الاجتماعي ، حيث تعاملت معهم بوصفهم جسما اجتماعيا غريبا . و نقرأ الآن مناجاة لـ " وصال " رفيقة " وليد مسعود " و حبيبته ، إذ تقول :

" جئت غريبا تحارب ، و بقيت غريبا تحارب ، و على جبهات كثيرة ، في عالم مجبول بالنقائض ... جئت غريبا ، و ذهبت غريبا . " [3]

هذا حال الفلسطيني في مجتمعات اللجوء ، إنه الغريب ، ومهما فعل فسيظل الغريب الذي يجد أصله في عمليات الطرد ، و ما أن طرد حتى بات يعيش حياة شاذة و بائسة ، موصوما بوصمة الكائن الخارجي . من هنا يعيش اللاجيء الفلسطيني ، داخل مجتمعات اللجوء ، معظم حياته ليعوض خسارته الفادحة ، و ليخلق عالما جديدا يستطيع أن يبسط سلطانه عليه ، و لكن يبقى اللاجيء الفلسطيني شاذا من حيث شعوره بالاختلاف عن سائر فئات المجتمع المضيف ، حيث تسير حياته وفق نظام مختلف ، نظام أقل استقرارا و ثباتا مقارنة بحياة المواطن الأصلي ، فحياة اللاجيء الفلسطيني حياة تعاش خارج النظام المعتاد ، حياة مرتحلة ، بلا مركز ، و ما أن يألفها الإنسان و يعتاد عليها حتى تتلاشى و تظهر بدلا منها حياة أخرى مختلفة اختلافا كليا عن الأولى .

---

[1] د / شفيق الغبرا : مرجع سابق ، صـ ١٢٢ ، ١٢٣ .
[2] أوضاع اللاجئين الفلسطينيين .www.plord.org
[3] البحث عن وليد مسعود ، مصدر سابق ، صـ ٢٧٨ .

و نلاحظ هنا تكرار كلمة " غريبا " و هي حال ، فالفلسطيني حل على المجتمع المضيف بوصفه " غريبا " عليه ، ثم بعد ذلك عاش داخل هذا المجتمع ، و لكنه لم يفقد صفة الغريب و في نهاية الأمر ، حين يرحل هذا الفلسطيني عن المجتمع المضيف ، يخلف وراءه صفة الغريب لتحيط و تغلف ذكراه لدى أفراد المجتمع المضيف و هو في رحيله هذا يتجه إلى مجتمع آخر ليكون فيه مرة أخرى " غريبا " . أيضا نلاحظ قوله " تحارب " و قد تكررت مرتين بعد " غريبا " لتوضح أن الفلسطيني داخل المجتمع المضيف لا يعد غريبا فقط ، بل و محاربا ، إنه يحارب القيود الاجتماعية التي يفرضها عليه المجتمع المضيف ، يحارب الجور الذي يقع عليه داخل هذا المجتمع لا لذنب اقترفه و إنما لكونه لاجيء ، يحارب من أجل البقاء ، من أجل البحث عن عمل يسد حاجاته ، حتى يعيل نفسه و أسرته ، و في بعض الأحيان يكون ملتزما بالإنفاق على عائلته البعيدة الموجودة في قطر آخر أو في الضفة الغربية أو في قطاع غزة . و كأن لسان حال " جبرا " يقول للعرب مستنكرا لقد أصبح العربي الفلسطيني غريبا في مجتمعاتكم العربية يحارب من أجل حياته ، لقد حولتم عالمه إلى عالم يقوم على النقائض ، فكيف يشعر العربي بالغربة داخل مجتمع عربي ؟ ! ، حيث" تعددت الإشكاليات التي يواجهها فلسطينيو الشتات ، فتضاف إلى الإشكاليات الاقتصادية ، و الأوضاع القانونية الهشة لهم ، كونهم يعدون جسما غريبا يعامل بتمايز عن المواطنين الأصليين . " [١]

و بذلك لم يجد الفلسطينيون في الشتات ، مجتمعات مستعدة لاستقبالهم استقبالا تاما ، و ربما يرجع ذلك إلى تباين الهجرة الفلسطينية و اختلافها عن باقي الهجرات في الوطن العربي . فالهجرة الفلسطينية تمثلت في " هجرة شعب كامل اقتلع من جذوره ، و أجبر على الرحيل من أرضه بتهديد السلاح و القتل ... حيث اضطرت أعداد كبيرة من الفلسطينيين إلى الهجرة من ديارهم و وطنهم ، و من المدن و القرى و البادية إلى الدول العربية المجاورة ، التي لم تكن مستعدة لاستقبال هذه الأعداد الضخمة من المهاجرين الذين أجبروا على ترك وطنهم ، مجردين من أموالهم و أمتعتهم . " [٢]

فالفلسطينيون المهجرون من فلسطين لا يملكون شيئا ، أيضا فالأوضاع الاقتصادية للدول العربية لم تكن مزدهرة بدرجة كافية ، لاستيعاب هذه الأعداد الضخمة من الفقراء ، و جدير بالذكر أنه حتى وقتنا هذا ، لا تزال أعداد كبيرة من الفلسطينيين في الضفة الغربية و القدس و قطاع غزة تتخذ خيارات الهجرة إلى خارج الوطن الفلسطيني و يبدو أن مسألة الهجرة خارج الوطن الفلسطيني قد بدأت مبكرا ، منذ أن أحكمت إسرائيل قبضتها حول فلسطين ، حيث يحدثنا " وليد مسعود " عن هذه الهجرة و أسبابها ، فيقول :

" كان ذلك ، فيما أذكر ، سنة ١٩٥٠ أو بعدها بسنة ، و بيت لحم قد تضخمت بآلاف الناس الذين لجأوا إليها . غير أن الشباب هجروها ، ... و لم يبق فيها إلا الشيوخ و العجائز ، و عدد من الفتيات . و الكثيرات منهن أيضا كن يحلمن بالذهاب إلى أماكن بعيدة يستطيعون الدراسة أو العمل فيها . أما اللاجئون فيحتشدون في منازل البلدة القديمة أو في الأكواخ المقامة على التلال المحيطة بنا ، في الدهشية ، بين الصخور ، عند حواش الكروم ، على التراب المجدب ، تحت الخيام الممزقة ، ... و الحياة تجري كيفما اتفق من خلال الضوضاء و الحركة : ضوضاء و حركة من أجل حفنات طحين الوكالة و عدسها . المهانات تتكرر ، و الشتائم . " [٣]

يصور لنا " جبرا " في هذا الشاهد على لسان " وليد مسعود " حال بيت لحم في ذلك الوقت و مدى البؤس و القهر و الفقر الذي عاشه الفلسطينيون آنذاك ، لذلك فقد هاجر من

---

[١] ميس دسوقي : http://www.ltef.net\algorbal\news.php.id=1920 مجلة الغربال ، نابلس

[٢] د / إ سحق القطب و وجيه السيد : بعض خصائص هجرة الفلسطينيين إلى الكويت . دراسة ميدانية ، مجلة العلوم الاجتماعية ، تصدر عن جامعة الكويت ، عدد خاص عن فلسطين ، فصلية أكاديمية مختصة بالشؤون النظرية في مختلف حقول العلوم الاجتماعية ، شتاء ١٩٨١ ، صـ ١٣٣ .

[٣] البحث عن وليد مسعود ، مرجع سابق ، صـ ٩١ ، ٩٢ .

لديه القوة و القدرة على الهجرة مدفوعا بالدفاع الاقتصادي الذي لا يستطيع أن يتصدى له إنسان . إن البقاء في فلسطين في ذلك الوقت ، معناه الموت و التعفن في تربتها ، فلا مال ، و لا تعليم ، بالإضافة إلى الذل و امتهان كرامة الفرد ، لذا هاجر الشباب و بقي الشيوخ و العجائز رغما عنهم ، و يبدو أن الأحوال خارج فلسطين – في مجتمعات اللجوء- لم تكن أفضل بالنسبة لفريق كبير من اللاجئين ، " فقد كان نتيجة نكبة ١٩٤٨ ، أن تشرد الشعب الفلسطيني من وطنه ليعيش لاجئا في أغلب أقطار الوطن العربي . و لم يكن الظرف الفلسطيني الذي أعقب النكبة ملائما للحد الأدنى من شروط الحياة الإنسانية ، اجتماعيا و سياسيا . ففي الميدان الاجتماعي ، نتج عن التشرد حياة لجوء إلى ساحات عربية ، عاش اللاجيء فيها على ما تقدمه وكالة الغوث دون أن يتمكن من تحقيق كيانه الذاتي وسط هجوم الفقر و الجوع و المرض ، و لا مبالاة العالم كله ، عربيا و دوليا . " [١]

فمع استفحال الأزمات الاقتصادية في فلسطين جراء إجراءات الاحتلال تتسع ، في كل يوم الضائقة الاقتصادية في فلسطين ، و معها تتسع ظاهرة البطالة و الفقر " إذ تشير الأرقام عن الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية ، المستقاة من تقارير و وثائق لمنظمات دولية ، و كذلك مكتب الإحصاء الفلسطيني أن ٤٣ % من سكان الأراضي الفلسطينية المحتلة يعانون غياب الأمن الغذائي . " [٢]

من هنا و بسبب هذا التحفظ الذي شاب وجود فلسطينيي الشتات في المجتمعات المضيفة ، أصبح البحث عن عمل يصون الكرامة أحد أهم الصعوبات التي يلاقيها فلسطينيو الشتات ، فقد امتنعت الدول العربية عن فتح باب المواطنة أمامهم مما قلل من فرصة الحصول على عمل ، و بصفة عامة فقد تعددت القيود الاجتماعية التي كبلت حركة اللاجئين الفلسطينيين داخل المجتمعات المضيفة . فنقرأ على لسان " إبراهيم الحاج نوفل " و هو يتحدث عن " وليد " ، إذ يقول :

" كان أشبه بطير كبير الجناحين ، يحلق في قاعة كبيرة – فيضرب أخيرا سقفها ، و لا يستطيع الانفكاك إلى الأجواء التي وراءها . " [٣]

فرغم إمكانيات و مهارات فريق كبير من اللاجئين الفلسطينيين ، إلا أن المجتمعات المضيفة حالت دون إتاحة الفرصة أمامهم في مجالات العمل المختلفة ، و لعل أهم العقبات التي وضعتها تلك المجتمعات أمامهم ، و التي أثرت تأثيرا كبيرا على نشاطهم الاجتماعي داخل المجتمعات المضيفة هي عدم فتح باب المواطنة أمام اللاجئين الفلسطينيين ، " فلبنان يخشى أن يؤدي ذلك إلى الإخلال بالتوازن الطائفي ، إذ أن غالبية اللاجئين من المسلمين السنيين . أما مصر فترفض إدماج اللاجئين لأسباب اقتصادية و سياسية أبرزها المحافظة على الكيان الفلسطيني . و من حيث الوضع القانوني أيد قانون الجنسية الصادر في الأردن سنة ١٩٥٤ حق كل شخص كان فلسطينيا حتى ١٥ مايو ١٩٤٧ و يقيم بصفة دائمة في الأردن ، في أن يصبح مواطنا أردنيا . و هذا الإدماج السياسي لم يصحبه إدماج اقتصادي لضعف الإمكانيات . " [٤]

و تجدر الإشارة هنا إلى مسألة سعي فلسطينيي الشتات إلى الحصول على جنسية البلد المضيف لهم . و الواقع أن سعيهم هذا لا يعني بالضرورة تخليهم عن هويتهم الوطنية الفلسطينية و اكتساب هوية وطنية جديدة ، و إنما كان سعيهم إلى الحصول على

---

[١] د / أحمد أبو مطر : البطل في الرواية الفلسطينية ، مجلة قضايا عربية في الوحدة العربية و قضايا المجتمع العربي ، شهرية فكرية مفتوحة لمختلف الاتجاهات الغربية التقدمية تعالج الجوانب الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية و التربوية و العلمية في الوطن العربي ، السنة السابعة ، العدد الحادي عشر ، نوفمبر ١٩٨٠ ، صـ ١٩٨

[٢] علي بدوان : الهجرة السلبية الفلسطينية ، جريدة البيان الإماراتية ، ٣٠ شعبان ١٤٣٠ هـ - ٢١ أغسطس ٢٠٠٩ م ، مقال متاح على الموقع الإلكتروني http://www.alarabiya.net\82495.html

[٣] البحث عن وليد مسعود ، مصدر سابق ، صـ ٣١٥ .

[٤] د / صلاح العقاد : قضية فلسطين المرحلة الحرجة (١٩٤٥ – ١٩٥٦) ، جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العبرية العالية ، بدون طبعة ، ١٩٦٨ ، صـ ١٦٦ – ١٦٧ .

جنسية البلد المضيف لهم نابعا من دافع اقتصادي ، فالحصول على الجنسية معناه أن يصير اللاجيء مواطنا طبقا لقانون الجنسية ، لذا يصبح لديه الكثير من الحقوق و المميزات التي من شأنها أن تيسر له حياته . و نلاحظ أن معظم الدول التي لجأ إليها فلسطينيو الشتات لم تمنحهم الجنسية الخاصة بها ، سواء أكان هذا لأسباب سياسية أم اقتصادية ، أما الأردن و إن منحتهم هذه الميزة ، إلا إنه لم يتم تطبيق هذه الميزة على أرض الواقع ، فالإدماج السياسي لم يصحبه إدماج اقتصادي ، و ظل الفلسطينيون في المجتمع الأردني غير متقبلين و ظلوا في معاناتهم الاجتماعية يتنقلون من بلد لآخر سعيا وراء لقمة العيش . و يبدو أن هذا السعي الجاد الذي قام به اللاجئون الفلسطينيون في المجتمعات المضيفة قد آتى ثماره ، إذ نقرأ على لسان " إبراهيم الحاج نوفل " :

" أينما كان هناك بروز في علم ، أو مال ، أو فكر ، أو أدب ، أو تجديد ، وجدت ذلك الفلسطيني المنفي . " [1]

فقد حقق فريق ، غير قليل ، من اللاجئين الفلسطينيين في مجتمعات الشتات نجاحا كبيرا و استطاعوا أن يصلوا إلى درجات رفيعة المستوى في مجالاتهم المختلفة ، سواء في مجال المال و الأعمال أم في مجال العلم و الفكر ، حيث " شكلت مرحلة البحث عن لقمة العيش و العمل و الإنتاج مدخلا هاما لاستعادة التوازن في الذات الفلسطينية المحطمة . و بينما كان جيل الآباء في الأسرة الفلسطينية يعاني حسرة الغربة و تبعة فقدان الأرض و فقدان ما بناه كدحهم و جهدهم خلال عقود من العمل ، كان جيل شاب يتحرك ليأخذ زمام الأمور بيده ، فهاجر من الخيام إلى المدينة و من بلد عربي إلى آخر من أجل إعالة أسرة ممتدة ، و إرسال الإخوة و الأخوات الصغار للمدرسة أو الجامعة . " [2]

فلم يكن من بد أمام فلسطينيي الشتات سوى العمل لإعالة ذويهم ، فإذا كان مقدر لهم أن يتيهوا بعيدا عن وطنهم ، فقد جعلوا هدفهم في هذا التيه تحقيق النجاح و التقدم لكي يعودوا إلى وطنهم المفقود ، لذا فلم يكن شتات الشعب الفلسطيني إلا " حلقة أولى من سلسلة هجرات متعاقبة تلتها ، دفعتهم إليها الظروف المعيشية القاسية التي واجهوها في أماكن لجوئهم ، فتوجهت أعداد كبيرة منهم بحثا عن العمل في الدول العربية الغنية بالنفط ... و قد أصبحت تلك الدول من المناطق الرئيسية لوجود الفلسطينيين . " [3]

و تجدر الإشارة هنا إلى أن فلسطينيي الشتات لم يعيشوا في عزلة كاملة داخل المجتمعات المضيفة لهم " فبالرغم من حالة التنظيم السياسي و الاجتماعي التي قامت في صفوف الفلسطينيين في الشتات ، و على الرغم من وجود أغلبية منهم في تجمعات بشرية ، و رغم التفاوت النسبي في درجة اندماجهم و انخراطهم و تكيفهم في المجتمعات المضيفة ، و حفاظهم في أماكن وجودهم المختلفة على هوياتهم الوطنية و انخراطهم في منظمات و نشاطات خاصة بهم ، فقد شكلوا جزءا لا يتجزأ من المجتمعات التي عاشوا فيها ، فهم لم يشكلوا تكوينات اجتماعية اقتصادية خاصة بهم ، و رغم هذه الازدواجية ، ظل الفلسطينيون مسئولين أمام السلطة السياسية القائمة في الدول التي مكثوا فيها . " [4]

فلم يكن فلسطينيو الشتات بمنأى عن المشاركة الفعلية في المجتمعات المضيفة لهم ، و لكنهم مع ذلك لم ينصهروا أو يندمجوا ، بشكل كامل في تلك المجتمعات ، إنما كانت هذه المشاركة الفعلية مدفوعة ، دائما ، بدافع العوامل الاقتصادية ، لذلك فقد يكوّن الفلسطيني في الشتات علاقات صداقة مع أفراد المجتمع المضيف ، و قد يتزوج هذا الفلسطيني من إحدى نساء هذا المجتمع ، و لكن يبقى الأمر القاضي بعدم اندماجه الكامل و تشبثه بهويته الاجتماعية الفلسطينية ، مطبقا معاييرها و تقاليدها في مجتمعه المضيف .

---

[1] البحث عن وليد مسعود ، مصدر سابق ، صـ ٣٢٢ .
[2] د / شفيق الغبرا : مرجع سابق صـ ١٢٣ .
[3] مؤسسة الدراسات الفلسطينية : مرجع سابق ، صـ ١٣٣ .
[4] أوضاع اللاجئين الفلسطينيين . www.plord.org

و تجدر الإشارة هنا إلى فريق من فلسطينيي الشتات يستأثر بوضع خاص عن سائر اللاجئين الفلسطينيين ، ألا و هو الفلسطينيين اللاجئين في العراق ، حيث لا يعرف أحد عددهم ، فهم غير مدرجين في سجلات وكالة غوث اللاجئين أو في ذاكرة الجامعة العربية ، " فعددهم لا يرد ضمن تعداد اللاجئين الفلسطينيين في أقطار اللجوء فهذه الأقطار هي لبنان و سورية و الأردن . إنهم موجودون فقط في سجلات رثة متآكلة الأوراق لدائرة اسمها (دائرة شئون اللاجئين) التي تشرف على شئون العجزة ، و هي دائرة تابعة لوزارة الشئون العراقية و لم تستبدل الحكومة العراقية لافتة (شئون الفلسطينيين) بلافتة (شئون اللاجئين) إلا في السنوات الأخيرة . أما قبل ذلك في الخمسينيات ، و الستينيات ، و منذ أن حشروا في شاحنات الجيش العراقي المنسحب من منطقة (جنين) ١٩٤٩ و أرسلوا إلى العراق ، فقد ألصقت بهم صفة (اللاجئين) المجردة . " [١]

و الواقع أ ن وجود اللاجئين الفلسطينيين في العراق قد " ارتبط بعلاقتهم مع الجيش العراقي الذي كان متمركزا و مدافعا عن الساحل الفلسطيني و خصوصا قرى جبع و أجزم و عين غزال التي دفعت بهم المجازر الإسرائيلية ، بعد ثلاثة أشهر من سقوط حيفا إلى العراق ، حيث تم ترحيلهم في سيارات الجيش العراقي الذي كان متمركزا في جنين . " [٢]

و من المعروف أن وكالة غوث اللاجئين (الأونروا) هي المسئولة عن تقديم المساعدات للفلسطينيين الذين أخرجوا من ديارهم ، لكن " في الحالة العراقية الأمر يختلف إذ تعهدت الحكومة العراقية للوكالة بوضع كافة إمكانياتها للإشراف الكامل على شئون الفلسطينيين في العراق مقابل عدم دفع العراق لأي تبرعات نقدية إلى وكالة الغوث . و بناء على هذا فإن (الأونروا) قد أسقطت من حساباتها جميع اللاجئين الذين هاجروا إلى العراق ، و لم تدخلهم إطلاقا في تقاريرها السنوية ، فملف اللاجئين في العراق يقع ضمن مسئولية مديرية شئون اللاجئين الفلسطينيين في العراق التابعة لوزارة الشئون الاجتماعية و العمل و التي بدورها استلمت هذه المسئولية من وزارة الدفاع العراقية منذ عام ١٩٥٠ ." [٣]

و قد استمر هذا الحال حتى وقتنا هذا ، فظلت وكالة غوث اللاجئين تسقط اللاجئين الفلسطينيين في العراق من حساباتها ، حيث " تشير سجلات وكالة الغوث إلى أن عدد اللاجئين الفلسطينيين قد بلغ في نهاية عام ٢٠٠٨ نحو ٤,٧ مليون لاجئ و هذه الأرقام تمثل الحد الأدنى لعدد اللاجئين الفلسطينيين ، و قد شكل اللاجئون الفلسطينيون المقيمون في الضفة الغربية و المسجلون لدى وكالة الغوث مع نهاية عام ٢٠٠٨ ما نسبته ٣ , ١٦ % من إجمالي اللاجئين الفلسطينيين المسجلين لدى وكالة الغوث . أما على مستوى الدول العربية ، فقد بلغت نسبة اللاجئين المسجلين لدى وكالة الغوث في الأردن حوالي ٨ , ٤١ % من إجمالي اللاجئين الفلسطينيين في حين بلغت النسبة في لبنان ٩ % مقابل ٩, ٩ % من اللاجئين الفلسطينيين المسجلين لدى وكالة الغوث يعيشون في سوريا . " [٤]

و نلاحظ عدم وجود أي ذكر للاجئين الفلسطينيين في العراق ، لأنهم غير مسجلين من الأصل لدى الوكالة ، و يتضح من ذلك أن فلسطينيي العراق ما هم إلا جماعة ضائعة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ، فقد سقطت من السجلات الرسمية و من الذاكرة في آن واحد ، و مع أن مجموع الشعب الفلسطيني في أماكن الشتات الأخرى قد ذاق معاناة شديدة ، إلا

---

[١] محمد الأسعد : نص اللاجيء . ذكريات القبيلة الضائعة ، سلسلة العصور الجديدة ، العدد الرابع ، تصدر عن العصور الجديدة للنشر و التوزيع ، ديسمبر ١٩٩٩م ، صـ ٦٨ .

[2] http://www.alzaitona.net\newsid=18242.

[٣] علاء نايف الجبارين : فلسطينيو العراق بين الموت و الشتات ، الحوار المتمدن العدد ١٨٢٢ . ١٠- ٢- ٢٠٠٧
http://www.ahewar.org\aid=88245.

[4] الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني : إحصائيات حول أوضاع اللاجئين الفلسطينيين ، ٢٨ – ١٠ – ٢٠٠٩
.http:\\www.alzaitona.net\newsid=33714

أن هذه الجماعة كان نصيبها أشد قسوة ، حيث تفرقت و تباعدت هذه الجماعة داخل المجتمع المضيف " العراق " ، فتباعد الأهل و تقطعت بهم السبل ، حيث " أرسل جزء منهم إلى " الموصل " في أقصى الشمال ، و إلى " البصرة " في أقصى الجنوب ، و ظل جزء في " بغداد " ، و ترافق هذا التشتيت مع أوامر مشددة للسلطات الأمنية بعدم السماح للاجئين بالتنقل أو تغيير أماكن سكنهم . " [١]

و لم تمثل " البصرة " بالنسبة للجماعة الفلسطينية التي عاشت بداخلها " عالما ضاغطا على اللسان و خصوصية التجربة فقط ، بل كانت مكانا لتجارب عزل أشد مرارة أقلها الإرهاب الذي تعرض له الفلسطيني . " [٢]

و بالفعل ، فلم يواجه الفلسطيني في مجتمع البصرة تجربة الرفض و عدم التسامح من قبل المجتمع البصري تجاه ملامحه و لهجته و معاييره الاجتماعية الخاصة فحسب ، بل لقد تطور الأمر حتى وصل إلى درجة العنف و الاضطهاد ، الأمر الذي أطاح بحياته رأسا على عقب ، فانقلبت أموره و معها فقد الفلسطيني داخل المجتمع العراقي توازن حياته ، وسط هذا العالم القاسي الذي واجهه في المجتمع العراقي ، فراح يبحث عن ذلك التوازن ، حتى تستقيم حياته . و فيما يتصل بهذا الشأن يقول " د / جواد حسني " عن " وليد "

" كان وليد يبحث دائما عن ذلك التوازن الذي تحدث عنه طوال حياته ، و لم يجده قط ... في عالم من الرعب ، و القتل و الجوع ، و الكراهية ، كيف تجد توازنك الذهني ، أو النفسي أو الجسدي ، أو الاجتماعي . " [٣]

و يقول ، أيضا ، " د / جواد حسني " في موضع آخر

" ماذا بقى له ؟ التوازن . كيف ؟ على أية نقطة من نقاط الخط المتعرج الرجراج يقيمه ، و عالمه زلق ، مقلقل ، في صعود و هبوط مستمرين يتخطيان العقل و المنطق ؟ " [٤]

يقدم لنا " جبرا " من خلال الشاهدين السابقين صورة بليغة عن عالم الفلسطيني اللاجيء في العراق ، إنه فاقد التوازن يحاول عبثا إيجاده ، و لكنه لا يستطيع لأنه يعيش في عالم مضطرب يموج بالصراعات الداخلية و الخارجية ، و هو في هذا العالم القاسي يعاني من الرعب و القتل و الجوع و التشرد و الطرد ، و مما زاد الطين بله و جعل عالمه أكثر اضطرابا ، و دفع به إلى العيش على حافة المجتمع هو " الشك " ، فلكونه غريبا وفد على هذا المجتمع الذي يموج بصراعات مختلفة ، فهو مشكوك في أمره ، لعله جاسوس أو مخرب أو شيء من هذا القبيل ، لذلك فقد انتشرت شائعات كثيرة عن الفلسطينيين في العراق ، فقيل " إن دولا أجنبية أرسلتهم لتدمير العراق . و لم يكن غريبا أن يلقى القبض على أي فلسطيني خارج البصرة و يسأل ماذا جاء يفعل هنا ؟ و من الذي أرسله ؟ كان التنقل ممنوعا بالطبع ، والانتقال إلى مدينة أخرى غير مسموح به ، إلا في حالات نادرة و منها لم شمل العائلات التي مزق شملها التشتيت بين بغداد و الموصل و البصرة " [٥]

و في المجتمع العراقي غلب على الفلسطينيين المشتتين " العمل بالحرف الصغيرة و الأعمال الإنتاجية ، ثم يأتي بعد ذلك الأعمال الإدارية و المحاسبة بالشركات و الإدارات الحكومية و يلاحظ عليهم عدم العمل بالزراعة رغم جذورهم الفلاحية ، و ذلك بسبب سياسة الحكومة التي تمنع عليهم التملك الزراعي و العقاري . " [٦]

---

[١] محمد الأسعد : مرجع سابق ، صـ ٧٣ .
[٢] محمد الأسعد : مرجع سابق ، صـ ٧٧ .
[٣] البحث عن وليد مسعود ، مصدر سابق ، صـ ١٣ .
[٤] البحث عن وليد مسعود ، المصدر السابق نفسه ، صـ ١٤ .
[٥] محمد الأسعد : مرجع سابق ، صـ ٧٩ .
[6] http://www.aljalia.org.\id=273.7-11-2009.

أما بالنسبة للتعليم " فقد أظهرت الجالية الفلسطينية اهتماما ملحوظا بالتعليم و تكاد تكون الأمية معدومة لديهم و تقدم العراق وفق مصادر فلسطينية منذ أوائل الثمانينيات ٥٠٠ منحة دراسية لمنظمة التحرير الفلسطينية بكافة فصائلها و٣٠٠ ألف منحة للقادمين من الكويت بعد أحداث ١٩٩٠ -١٩٩١ ، و تقدم لجبهة التحرير العربية ٢٠٠ منحة ٨٥ منها مخصصة للأراضي الفلسطينية المحتلة . " [١]

فرغم اهتمام الحكومة العراقية بتقديم خدمات تعليمية للفلسطينيين ، إلا أنها لم تدعهم يمتلكون أرضا زراعية أو عقار و هذا و لاشك أحد العوائق الاجتماعية التي واجهها الفلسطينيون المشتتون في العراق ، و لكن ، في الوقت نفسه ، كان ذلك أحد عوامل عدم الانصهار داخل المجتمع العراقي و الحفاظ على الهوية الاجتماعية الفلسطينية ، فقد " ساعدت القوانين و الأنظمة و القرارات العراقية على عدم الاندماج الفلسطيني في المجتمع العراقي ، أيضا التنوع الذي يتميز به المجتمع العراقي من حيث مكوناته القومية و الديانات المختلفة و أن كل قومية تحتفظ بعاداتها و لغاتها ، مما دفع الفلسطينيين إلى التصرف بوصفهم أقلية في المجتمع العراقي ، فاحتفظت بشخصيتها الفلسطينية مثل باقي الأقليات في العراق . " [٢]

و نتيجة لذلك ، حافظت الجماعة الفلسطينية ، طوال فترة وجودها بالمجتمع العراقي ، على ميراثها الثقافي و الاجتماعي . و ظلت مرتبطة و بشدة بهويتها الاجتماعية ، من خلال تأكيدها هويتها الوطنية المتمثلة في العودة و التحرير . و نتيجة لتعزز الهوية الوطنية و الهوية الاجتماعية للفلسطينيين في العراق تعززت أيضا هويتهم السياسية ، حيث أصبحت الحياة السياسية لدى الفلسطيني في العراق واضحة و فعالة " فأعطى ولاءه و جهده و طاقته للثورة و هكذا لم تجد التنظيمات الفلسطينية على مختلف مبادئها صعوبة في الوصول للفلسطينيين في العراق ، حيث استطاعت أن تضم في داخلها معظم الشباب الفلسطيني في العراق ، فالتحقت أعداد كبيرة منهم بالكفاح المسلح . " [٣]

و لهذا ، فلم يظهر روائي فلسطيني أو كاتب ذو قيمة ليتناول التجربة الفلسطينية في العراق منفردة عن التجربة الفلسطينية العامة في الشتات ، و ذلك " ليس بسبب عدم توافر الصحفي أو الكاتب الفلسطيني ، بل بسبب أن هؤلاء أعطيت لهم موضوعات أخرى لتداولها و سقطت تجربتهم و تجربة قبيلتهم في النسيان . حيث ولدت ، فيما بعد ظاهرة تداول الموضوع الفلسطيني ، الذي لم يكن يظهر إلا حيث تدور دائرة ضوء السياسي ، فكل فلسطيني في أي مكان اتجهت بوصلته إلى الساحة النضالية بعيدا عن يومياته بصفته فلسطيني في هذا المكان أو ذاك . " [٤]

إذن ، فرغم فرادة التجربة الفلسطينية في العراق ، إلا أنها لم تخرج في توجهها السياسي عن التوجه السياسي العام لفلسطينيي الشتات ، و ذلك بسبب حفاظها على هويتها الوطنية و الاجتماعية ، فرأت نفسها ، من خلال مرآة الكفاح الوطني المسلح .

---

[1] http://www.aljalia.org.\id=273.7-11-2009.

[٢] علاء نايف الجبارين : http://www.ahewar.org\aid=88245.

[٣] علاء نايف الجبارين : http://www.ahewar.org\aid=88245

[٤] محمد الأسعد : مرجع سابق ، صـ ٧٣ .

الـــخـــاتـمـــــة

من خلال مسيرة العمل في هذا البحث ، و من خلال ما تم عرضه و دراسته في فصوله يمكن أن نقول إن البحث قد توصل إلى بعض النتائج منها :

● منذ قيام إسرائيل تم تنحية الدين عن الحياة السياسية ، حيث اقتصر دوره على المعبد و إقامة الطقوس و الشعائر ، من ناحية أخرى فقد كانت معظم مقاليد الحكم في أيدي اليساريين ، مثل حزب " العمل " و " ميرتس " ، من هنا فقد سادت الهوية الوطنية الإسرائيلية بين صفوف الأشكيناز ، الذين أسسوا لأنفسهم وطنا في إسرائيل على النموذج الأوربي ، أما نظراؤهم من اليهود الشرقيين ، فلم تتحقق لهم الهوية الوطنية الإسرائيلية ، رغم محاولتهم تحقيقها ، حيث لفظوا من المجتمع الإسرائيلي ؛ بسبب ثقافتهم الشرقية و تراثهم العربي ، مما أحدث لديهم صراعا في الهوية بين الهوية الوطنية التي تنتمي إلى وطنهم الأول و التي أجبروا على التخلي عنها و بين الهوية الوطنية الإسرائيلية التي وعدوا بها و لكنهم لم يحصلوا عليها .

و بعد حرب ٦٧ و ازدياد نمو التيار الديني في إسرائيل ، بدأت إسرائيل الواقعة تحت القيادة اليسارية في التراجع لتظهر بدلا منها إسرائيل دينية يمينية متشددة ، حيث بدأت مقاليد السلطة في إسرائيل تتجه نحو الأحزاب الدينية اليمينية ، الأمر الذي أدى إلى ظهور صراع بين الهوية الوطنية – الآخذة في التراجع – و الهوية الدينية – الآخذة في التنامي – فالعلمانيون و أنصار اليسار السياسي ، الذين يقبلون مبدأ الانسحاب من المناطق في مقابل التوصل إلى السلام يميلون إلى اختيار الهوية الوطنية الإسرائيلية ، تلك الهوية التي تؤكد المواطنة و مركزية الدولة ، أما المتدينون و أنصار اليمين السياسي – من يدعم أحزاب اليمين ، مثل حزب " الليكود " و " مولدت " و " الاتحاد القومي " – فهم يفضلون الهوية الدينية اليهودية التي تؤيد الطابع اليهودي الديني للدولة . أما بالنسبة لليهود الشرقيين ، فقد حدث تطور كبير في هويتهم ، حيث اتجه فريق كبير منهم إلى الأحزاب الدينية رغبة منه في تحقيق مكاسب سياسية و هذا الفريق قدم هويته الدينية على هويته الوطنية في التعامل مع الآخر ، في حين بقى فريق آخر منهم على اتجاهه اليساري محاولا تحقيق هوية وطنية إسرائيلية تقوم على المساواة و تبتعد عن الدين .

هذا و قد استمر نفوذ الهوية الدينية في التزايد داخل إسرائيل إلى أن وصل إلى تعريف الدولة نفسها ، حيث تسعى هذه الهوية إلى فرض نفسها على إسرائيل كي تصبح إسرائيل دولة اليهود فقط دون غيرهم .

● بروز الهوية الوطنية الإسرائيلية لدى فلسطينيي ٤٨ ، بعد إقامة إسرائيل ؛ نتيجة لعملية الانقطاع و العزلة التي فرضتها إسرائيل عليهم و انتصارها في حرب ٤٨ ، حيث أدى ذلك إلى شعور فلسطينيي ٤٨ بأن إسرائيل حقيقة واقعية يجب الاعتراف بها و التعامل معها ، و من ناحية أخرى فقد حاولت إسرائيل إذابتهم داخل المجتمع الإسرائيلي .

و بعد رفع الحكم العسكري عن فلسطينيي ٤٨ عام ١٩٦٦ و الانتصار الذي حققته إسرائيل في حرب ٦٧ و الذي ضمت من خلاله مناطق كثيرة إلى سلطتها ، تبلورت الهوية الوطنية الفلسطينية من خلال الاختلاط الذي تم بين فلسطينيي ٤٨ و فلسطينيي الضفة و القطاع .

و بعد تولي حكومة حزب العمل بزعامة " رابين " السلطة في إسرائيل عام ١٩٩٢ ، أبدت تلك الحكومة سياسة معتدلة نسبيا في التعامل مع فلسطينيي ٤٨ و قامت باستثمارهم بوصفهم عربا في المقام الأول في التفاوض مع الدول العربية ، الأمر

الذي أدى إلى تقوية الهوية الوطنية الإسرائيلية لديهم و معها الهوية القومية العربية طوال تلك الفترة إلى درجة منافسة هويتهم الوطنية الفلسطينية ، غير أنه منذ تولي حكومة الليكود اليمينية السلطة في إسرائيل ، و منذ أن أصبحت الهوية الدينية هي الهوية التي تعرف إسرائيل نفسها من خلالها عادت أمور فلسطينيي ٤٨ إلى ما كانت عليه سابقا ، حيث سادت الهوية الوطنية الفلسطينية لدى فلسطينيي ٤٨ مرة أخرى ، لكن أضيف إليها بعد آخر هو المطالبة بحق المواطنة الإسرائيلية ، و ذلك دون تقديم الانتماء الوطني لإسرائيل .

● تغلبت الهوية القومية على سائر هويات فلسطينيي الضفة و القطاع ، حيث كان الاتجاه السائد قبل قيام إسرائيل أن فلسطين تعد جزءا من الوطن العربي و تبع ذلك أن أصبح الفلسطينيون جزءا من القومية العربية و قد استمر هذا الاتجاه حتى بعد قيام إسرائيل ، لذا فقد تعامل هذا القسم من الفلسطينيين من خلال هويته القومية العربية دون غيرها .

و بعد حرب ٦٧ أصيبت الهوية القومية لفلسطينيي الضفة و القطاع بانكسار شديد حيث بدأ الوطن العربي المتحد في التفكك و ظهرت الفردية الوطنية ، حيث حاول كل قطر عربي مهزوم أن يحصل على استقلاله بنفسه . من هنا بدأ فلسطينيو الضفة و القطاع بالشعور بأنهم يمثلون كيانا منفصلا له سماته و خصائصه و مشكلاته التي يجب عليهم أن يحلوها بأنفسهم . و منذ ذلك الوقت برزت لديهم الهوية الوطنية الفلسطينية دون غيرها في التعامل مع الآخر .

● يمكن أن نجمل القول في أسباب إشكالية الهوية لدى اليهود الغربيين في انشغال إسرائيل بالتزود بالقوة و السعي وراءها حتى بلغت في ذلك حد الهوس و هي ، في الوقت نفسه ، تنشغل بهذه القوة عن التفاهم مع الفلسطينيين أولا و العرب ثانيا ، كذلك و بسبب نزعة القوة الغاشمة تتعامل إسرائيل مع الفلسطينيين بالوسائل القمعية ، فتعتقل و تطرد و تقتل و تحتل ، الأمر الذي يترتب عليه قيام الفلسطينيين بعمليات استشهادية ، ينتج عنها سقوط ضحايا يهود هم آباء و أبناء و إخوة و أصدقاء ، و بذلك تصبح إسرائيل أبعد ما تكون عن صفة الوطن الآمن الذي يخطط فيه الفرد لمستقبله و مستقبل أبنائه ، بالإضافة إلى فرض الحكومات الإسرائيلية الواحدة تلو الأخرى نمط حياة معينا تلزم به رعاياها اليهود و تحد به من قدرتهم على تحقيق ذاتهم و ذلك بحجة الدواعي الأمنية و بحجة ضمان بقاء و استمرار الدولة ، فمع تفشي المادية و العولمة تراجعت الأيديولوجيات و تغلبت النزعة المادية لدى قطاع كبير من الأشكيناز ، فصاروا يقارنون بين وضعهم في إسرائيل و وضعهم خارجها و أصبح ذلك هو المعيار الوحيد الذي يقررون من خلاله الاستمرار في العيش داخل إسرائيل أو هجرتها و غالبا ما يكون وضعهم في الخارج أفضل ، لذا فهم يغادرون .

● ترجع أسباب إشكالية الهوية لدى اليهود الشرقيين إلى كراهية إسرائيل في ظل قيادتها الأشكينازية للعرب بصفة عامة ، مما يترتب عليه كرههم لليهود الشرقيين ذوي الأصل العربي ، كذلك بسبب النظرة الاستعلائية التي يعامل بها اليهود الشرقيون في إسرائيل و إجبارهم على التخلي عن ميراثهم الشرقي ، و اعتبارهم ، رغم كونهم يهودا ، مواطنين من الدرجة الثانية داخل دولة يهودية .

● تتلخص أسباب إشكالية الهوية لدى فلسطينيي ٤٨ في المعاملة غير الآدمية التي تعاملهم بها إسرائيل ، حيث ترفض قبولهم بصفتهم مواطنين إسرائيليين ، رغم حملهم الجنسية الإسرائيلية ، مع رفضها الاعتراف بهم بوصفهم أقلية قومية تعيش داخلها ، بالإضافة إلى مطالبتهم بالتخلي عن هويتهم الوطنية الفلسطينية و هويتهم القومية العربية حتى يتم قبولهم داخل الدولة و المجتمع الإسرائيلي ، هذا بالإضافة إلى سعي

فلسطيني ٤٨ إلى تمكينهم من حقوقهم السياسية و الوطنية باعتبارهم مواطنين إسرائيليين ، دون تنازل عن هويتهم الوطنية الفلسطينية ، حتى يتسنى لهم العيش داخل إسرائيل .

● من أسباب إشكالية الهوية لدى فلسطينيي الشتات تمسكهم في الدول المضيفة بهويتهم الوطنية الفلسطينية و رفضهم التخلي عنها ، و بذلك فقد وقعوا تحت سطوة الآخر سواء ذلك الآخر الذي أراد إذابتهم ، فحارب هويتهم كي يندمجوا في هويته ، أم الآخر الذي رفض منحهم هويته و ظل يتعامل معهم بوصفهم مجموعة من الدخلاء المشكوك في أمرهم و الذين يجب العمل على التخلص منهم . و هم بين هذا و ذاك إنما أرادوا الاحتفاظ بهويتهم الفلسطينية ، و في الوقت نفسه الحصول على هوية البلد المضيف حتى يمكنهم العيش داخله .

● هناك ارتباط بين كل من " عاموس عوز " و " سامي ميخائيل " و " إميل حبيبي " في دعوتهم لأن تكون إسرائيل دولة لجميع مواطنيها ، و إن اختلفت أسباب تلك الدعوة لدى كل طرف منهم . فـ " عاموس عوز " يريد تهدئة الأجواء ، فإذا صار الفلسطيني داخل إسرائيل مساويا لأي إسرائيلي آخر فقد ينتج عن هذا كسب فلسطينيي ٤٨ في صف إسرائيل و إحلال السلام عليها ، أما " سامي ميخائيل " فيرى في ذلك مكسبا هاما سيحققه اليهود الشرقيون ، إذ سيصبحون على قدم المساواة مع اليهود الأشكيناز ، الأمر الذي سيترتب عليه رفع شأنهم و تعويضهم عن السنين المظلمة التي عاشوها منذ إقامة إسرائيل ، و هذا يتفق مع " إميل حبيبي " ففلسطينيو ٤٨ ، بدورهم ، يسعون إلى مساواتهم باليهود الإسرائيليين داخل الدولة ، لأن ذلك سيحسن أوضاعهم السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية تحسنا كبيرا .

● اشتراك كل من " سامي ميخائيل " و " إميل حبيبي " في الدعوة إلى الحصول على الهوية الوطنية الإسرائيلية الفعلية ، دون أن يرتبط هذا بإجبارهم على التخلي عن هويتهم الخاصة بالوطن الأول ، أو إجبارهم على التخلي عن موروثهم الحضاري .
- اتفاق كل من " إميل حبيبي " و " جبرا إبراهيم جبرا " في موقفهم ضد الدول العربية و توجيه أصابع الاتهام إليها ، و الاعتماد على الذات الفلسطينية وحدها في تحقيق الأهداف الفلسطينية ، مع إمكانية الاعتماد على الدول العربية بالطريقة التي تخدم من وجهة نظرهم الفلسطينيين .
- انفراد " جبرا إبراهيم جبرا " بالدعوة إلى تحرير فلسطين من اليهود الغاصبين باستخدام السلاح و عدم جدوى المناقشة و الدخول في حوارات معهم ، لأن إسرائيل لن تفهم سوى لغة القوة .
● إن المجتمع الإسرائيلي يعاني نتيجة الصراعات الداخلية و الخارجية من حالة إرهاق نفسي عام و يعيش تحت ضغط مستمر و يفتقد الإحساس بالأمن و الأمان ، و لكن لم تؤد هذه الحالة إلى إعادة النظر في السياسات الإسرائيلية العامة ، لذا لا ينبغي للدارس العربي أن يتعامل مع اتجاهات العزلة التي تكتنف قسما كبيرا من المجتمع الإسرائيلي و الاستعداد للانحياز إلى الموقف العربي من واقع التأييد للقضية الفلسطينية أو رفض الوجود الإسرائيلي ، بل ينبغي أن تؤخذ هذه الاتجاهات الأدبية على أنها نوع من التمرد الداخلي الناتج عن مشكلات الحياة في المجتمع الإسرائيلي .
و لا يعني هذا معاداة الأصوات الإسرائيلية المعارضة للسياسات القمعية التي تنتهجها إسرائيل ضد العرب بصفة عامة و الفلسطينيين بصفة خاصة ، بل يجب أن نكون وسطا في تعاملنا مع التيارات المعارضة داخل إسرائيل ، فنؤيدها و نشجعها و نحاول

تنميتها ، لما تتصف به هذه التيارات من مرونة في حل مشكلة الفلسطينيين ، و لكن دون أن يغير ذلك من ثوابتنا الدينية و الأخلاقية .

و بهذا تتحقق الغاية من دراسة الأدب العبري الحديث ، التي تقوم على معرفة طريقة تفكير الشخصية الإسرائيلية في الماضي و في الوقت الحاضر لتحديد أفضل الطرق للتعامل معها في المستقبل .